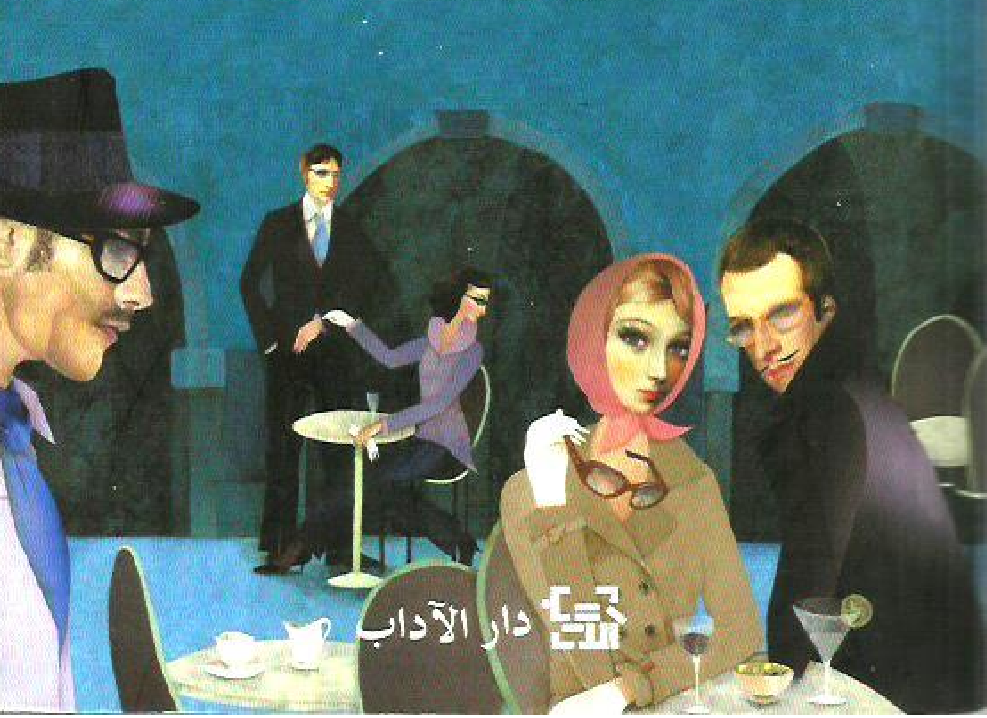
الياس خوري

سينالكول

رواية



الياس خوري

سينالكول

رواية

دار الآداب - بيروت

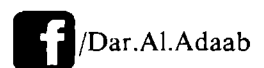
سينالكول

الياس خوري/ روائي لبنانيّ
الطبعة الأولى عام 2012
الطبعة الثانية عام 2014
ISBN 978-9953-89-213-9
حقوق الطبع محفوظة

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير ـ بناية بيهم
ص.ب. 4123 ـ 11
بيروت ـ لبنان
هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)
فاكس: 009611861633
e-mail: rana@daraladab.com
info@daraladab.com




/Dar.Al.Adaab @DarAlAdab daraladab.com

«وإنّ رحـــيــلاً واحــدًا حــالَ بــيــنَــنَــا

وفي الـموتِ من بعدِ الرحيلِ رحيلُ»

المتنبّي

الأحداث والشخصيّات في هذه الرواية هي من نسج الخيال، وإذا وُجد أيّ تشابه بين أحداثها وشخصيّاتها وبين أحداث وشخصيّات حقيقيّة، فهذا محض صدفة، ومن صنع الخيال

ـ ١ ـ

انحنى كريم شمّاس كي يلتقط حقيبته من صندوق سيّارة المرسيدس العموميّة السوداء التي أقلّته إلى مطار بيروت في طريق عودته إلى مونبلييه.

كانت الساعة تشير إلى الخامسة والنصف صباحًا، وفجر بيروت يتلوّن بالعتمة والغبار

أمطرت أمس، جاء فصل الشتاء البيروتي محمولاً على صوت الرعد. اختلط الرعد بالقصف المتقطّع الذي كان يتجوّل في المدينة على غير هدى

لم يستطع الرجل أن يغفو في ليلته البيروتيّة الأخيرة، شرب كثيرًا من الويسكي، جلس على الكنباية في الصالون، تثاءب وانتظر الفجر على إيقاع الرعد والمطر

احتفل بعيد ميلاده الأربعين وحيدًا، غزالة اختفت في حكايتها، ومنى ذهبت تبحث عن مستقبلها في كندا، وكريم وحيد في منزله في بيروت. اتّصلت برناديت من يومين، وطلبت منه أن يأتي في الرابع من كانون الثاني كي يحتفل مع عائلته بدخوله العقد الخامس من العمر أخبرها أنّه لم يجد مكانًا على الطائرة إلّا في صباح اليوم التالي تنحنحت زوجته الفرنسيّة وادّعت أنّها صدّقته، وأقفلت الخطّ.

جلس وحيدًا، وقرّر أن يُعيد تأليف حكايته. صبّ كأسًا من الويسكي، ووضع أمامه صحنًا من اللوز المحمّص المملّح، ولفّته العتمة. الكهرباء مقطوعة، وضوء الشمعة يرتجف ويحوّل الأشياء أشباحًا تتراقص على الحيطان، وكريم يشرب الويسكي من دون ثلج، ويشعر أنّ معدته تحترق.

أحسّ أنّ حياته تحوّلت مرآة متشظّية، كذب كثيرًا وكذبوا عليه كثيرًا، لكنّ عودته إلى بيروت، والموافقة على مشروع شقيقه ببناء المستشفى، كانتا الخطأ الذي فضح حكايته كلّها، وفكّكها، بحيث صار من الصعب لملمة شظاياها وإعادة شيء من اللحمة إلى العمر الذي تمزّق.

شرب الويسكي، وجلس ينتظر كان متيقّنًا من أنّها سوف تتلفن له لكنّ التلفون بقي صامتًا، وهي لم تتّصل. حين فكّر بها لم يكن متأكّدًا إلى من يعود الضمير أما يزال في انتظار غزالة بعد كلّ ما جرى؟ أم ينتظر منى بعينيها المغمضتين وهي تغفو إلى جانبه، ثم تروي له حكاية حبّها للرجل الإيطالي يرى هند التي تخبّئ خفرها خلف عينيها الرماديّتين، بوجهها الأسمر الذي يستطيل بالحزن، ويتذكّر حبًّا قتله الخوف، قبل أن يصير سرًّا عائليًّا لا يمكن الكلام عنه.

لفّته أصوات المدينة التي بدت على حافّة السقوط في وادي العتمة. هكذا ارتسمت كلمات شقيقه أمامه، رأى المدينة على حافّة الوادي وأحسَّ أنّ كلّ شيء ينزلق إلى هاوية لا قرار لها قال نسيم إنّ الباخرة احترقت في عرض البحر، وإنّه فقد كلّ ثروته دفعة واحدة، وإنّ مشروع المستشفى انتهى، لأنّه مضطرّ إلى بيعه وإلى بيع البيت كي يسدّد بعض ديونه. لم يكن كريم ينتظر خبر سفينة البنزين الغارقة كي يعرف أنّ المشروع تهاوى، وأنّ عليه أن يعود إلى فرنسا، حاملاً معه الخيبة والفشل. عرف من غزالة أنّ كلّ شيء في بيروت هشّ وغير قابل للاستمرار، وفهم من حكاية موت والده نصري أنّ مشروع شقيقه لم يكن سوى وهم.

انتظر، لكنّه لم يكن يعرف من ينتظر حين يصير الحبّ انتظارًا للحبّ، يفتقد الإنسان القدرة على معرفة مشاعره. ما معنى هذه الحكاية التي وجد نفسه متورّطًا فيها؟ لا، المسألة ليست ما يسمّونه الخيانة الزوجيّة، فكريم لم يشعر مرّة أنّه يخون زوجته. أقام علاقات عابرة مع ممرّضات ومريضات فرنسيّات ومغربيّات، لكنّه لم يشعر مرّة بما يسمّونه الخيانة. ربّما لأنّه لم يحبّ زوجته البيضاء يومًا، أو لأنّه أحبّها، لا يدري، لكنّه هنا في بيروت لم يشعر إلّا بسكاكين الخيانة. غزالة خانته مع عشيقها الفتى الميليشيوي الذي كان يحمل اسمًا غريبًا، ومنى خانته مع زوجها المهندس المعماري الذي قرّر الهجرة إلى كندا، وهند خانته مع ذكرياته.

جلس في العتمة واسترسل في تأليف حكايته، حين فاجأه رنين جرس التلفون. أمسك سمّاعة الهاتف وسمع صوت زوجته آتيًا من مكان بعيد وعميق. جاء صوتها ليوقظه من انتظاراته الوهميّة. صرخ آلو آلو وانقطع الخطّ فجأة.

شعر بالجوع، أشعل قدّاحته ومشى إلى البرّاد، فتحه ثم أغلقه، شمّ رائحة عفونة التفّاح، كلّ شيء يتعفن في هذه المدينة التي لا تصلها التغذية الكهربائيّة سوى ثلاث ساعات في اليوم.

كان خلال إقامته الطويلة في فرنسا يحلم بالتفّاح اللبناني، يمزج عطر التفّاح برائحة البن، وينتشي بطفولته.

لم يفهم كريم معنى رائحة الطفولة إلّا في الغُربة، كان يرى صورة والده الصيدليّ، وهو يفتح كفّه، يسكب ملعقة من البن، يُضيف إليها نصف ملعقة من السكّر، يمزجهما، ثم يبدأ في لحس هذا المزيج الغريب بلسانه. يغمض عينيه مترنّحًا أمام قهوة الكفّ كما كان يسمّيها، ثم يفتح البرّاد، يأخذ تفّاحتين حمراوين ويعطيهما لابنيه، وهو يردّد بيتًا من الشعر العربي القديم لأبي نواس، يمتدح فيه الشاعر العبّاسي رائحة تفّاح لبنان التي لا يفوح الخمر الجيّد إلّا حين يشبّهها

«سلافُ دنٍّ إذا ما الماء خالطها   فاحتْ كما فاحَ تُفّاحٌ بلبنانِ»

يمتزج فوح التفّاح برائحة البنّ في يد الصيدلي، وهو يأمر ابنيه بأكل تفّاحة الساعة الخامسة بعد الظهر، لأنّ تفّاح لبنان أفضل من كلّ الأدوية. يأكل الولدان التفّاح الممزوج برائحة البنّ، وهما يريان كيف يلحس والدهما شفتيه، قبل أن يقول إنّه حان موعد الذهاب إلى المقهى.

هناك، في المدينة الفرنسيّة البعيدة، شعر كريم بعذاب الرائحة التي اختفت. قال لبرناديت عن رائحة التفّاح والبنّ، لكنّه عجز عن وصفها، كيف نصف الرائحة لمن لم يشمّها أو يتذوّقها اكتشف كريم عجزه عن الكلام لأنّه لا يستطيع أن يترجم ذاكرته، وتوتّر الحنين الذي يفترسه في كلمات، لينتهي بعد ذلك إلى اكتشاف أنّ ممارسة الحبّ ليست إلّا ترجمة للكلام، وأنّه حين ينتهي الكلام ينتهي الحبّ.

العاشق كالمترجم، ينتقل من كلام اللسان إلى كلام الجسد، كأنّه يترجم الحكي ويُعيد تأليفه، هذه هي حكايته مع غزالة. حين شعر بحراب الغواية تنغرس في ظهره، انطلق لسانه، وبدأ يحكي، روى لها حكايات مرحلة الدراسة في فرنسا، وكيف كان يكرع النبيذ كأنّه يشرب الماء. روى عن أنواع الأجبان التي لا تنتهي، وحين قالت له إنّها تحبّ اللحم الأبيض، هكذا يسمّون الجبن في قريتها، جاوبها أنّه يفضّل اللحم الأسمر وأمسك بها من زندها لكنّها تملّصت منه، فلحق بها، قبّلته على شفتيه، وهربت إلى المطبخ

أخرج من البرّاد تفّاحة تفوح برائحة العفونة، شعر بالغثيان، رماها في سلّة المهملات. وقف في المطبخ لا يدري ماذا يفعل كانت العتمة ترتجف على ضوء القدّاحة الهزيل الذي أحرق أصابعه، وكان كريم جائعًا

عاد إلى الصالون، شرب من كأس الويسكي وقرّر أن يتوقّف عن الانتظار

لم يكن ينتظر مكالمة من غزالة، افتتانه بها تلاشى حين شعر بالخوف من زوجها، لكنّه كان ينتظر منى وهو يعلم أنّها لن تتّصل.

لم يقل لغزالة مرّة واحدة إنّه يحبّها، كان يعتقد وهو يتلوّى بين يديها في فراش اللذّة أنّه يمارس الجنس، ولم يتنبّه إلى الحبّ الذي جعل لسانه لا ينطق إلّا في النهاية، حين هدأ خوفه ليكتشف أنّه كان مخدوعًا

وفجأة دخلت منى إلى حياته من دون مقدّمات.

التقى بها وبزوجها المهندس المعماري أحمد الدَكيز في منزل شقيقه نسيم، وهناك رأى خرائط المستشفى للمرّة الأولى، واستمع إلى مشاريع إعادة إعمار بيروت، وسمع حكاية غرائبيّة عن أصل العائلة الطرابلسيّة الإفرنجي. قال لمنى إنّها سحرته، فسمع رنين ضحكتها وهي تقول إنّها لا تريد سماع كلمات الحبّ، لأنّ كلمات الحبّ متشابهة وتُثير سأمها

لم يتوقّف كريم عن كلام الحبّ مع منى، رغم أنّه كان يعرف أنّه سقط في عشق غزالة، كأنّه كان يتدواى من غزالة بمنى، ويتداوى من صمت هند بصخب غزالة.

لا يعرف كريم أن يروي كيف انتظمت تلك العلاقة الثلاثيّة وسط غبار بيروت، ولا كيف استطاع قلبه أن يحتمل ذلك العصف العاطفي وسط عواصف الحرب الأهليّة المتجدّدة، لكنّه يجلس الآن وحيدًا، لا رفيق له سوى كأس الويسكي، في انتظار مكالمة هاتفيّة لن تأتي.

لماذا عاد إلى بيروت؟

الآن يستطيع أن يقول إنّ حمّى العودة ضربته، لحظة تلفن له شقيقه وحدّثه عن مشروع المستشفى. لكن كيف استطاع أن يصل ما انقطع في روحه منذ عشر سنين في لحظة واحدة؟ برناديت أُصيبت بالدهشة وهي تستمع إليه، «هل تعتقد أنّني والبنتين سوف نذهب لنعيش في الجحيم

اللبناني؟ هل فقدت عقلك، أم أنّك تريد أن تتركنا وتتزوّج امرأة لبنانيّة تعاملها كخادمة وتنجب لك صبيًّا؟ أنا c'est fini، لا أولاد بعد الآن، جسدي تهدّل، انظر إلى الشقوق في بطني، وأنت ككلّ الرجال الشرقيّين تشعر بالغيرة من أخيك لأنّه أنجب ثلاثة صبيان، وتريد وليّ العهد»

لم تكن برناديت على حقّ، فكريم لم يأتِ إلى لبنان من أجل هدف محدّد، ذهب لأنّ مرض الحنين إلى بيروت جعله عاجزًا عن التفكير، وعن اتّخاذ القرار العقلاني الذي كانت تنتظره زوجته.

«ما معنى القرار العقلاني»، قال لها، «لا يوجد شيء اسمه قرارات عقلانيّة حين يتعلّق الأمر بروح الإنسان» قال لها إنّ روحه تؤلمه، وإنّ وجع الروح هو أشد أنواع الوجع، لكنّها قالت إنّها لم تعد تفهم عليه، وبكت.

قال لبرناديت مرّة إنّه لا يستطيع تحمّل الدموع، قال لها إنّ دموعها تذكّره بأمّه التي ماتت حين كان في الخامسة، قال إنّه لا يذكر من أمّه سوى الدموع التي كانت تتساقط من عينيها وتنتشر على وجهها الصغير الأبيض، وعندما أخذوه مع شقيقه من البيت ليناما عند الجيران، وقالوا له إنّ أمّه ماتت، حلم في تلك الليلة بالدموع، رأى أمّه تبكي وتغرق في دموعها صارت دموعها ماء يعلو ويعلو حتى ابتلع السرير والغرفة وكلّ شيء

لم يعد هذا الكابوس إلى مناماته إلّا في فرنسا، حين ذهب مع زوجته لزيارة أهلها في ليون، هناك شعر بالغربة والوحدة. قال لبرناديت إنّ أهلها يعاملونه كأنّه أجرب، وإنّهم عنصريّون، فضحكت المرأة وقالت إنّهم هكذا، وإنّ ما بدا له عنصريّة ليس سوى مسافة يضعها أهلها حتى مع أولادهم، وإنّ عليه أن يتخلّى عن خياله الشرقي الخصب، كي يتأقلم مع وطنه الجديد وحياته الجديدة.

في تلك الليلة، عاد كابوس الدموع، وشعر بالوحدة القاتلة، اقترب

من زوجته النائمة إلى جانبه كي يحتضنها، فابتعدت بحركة لا إراديّة، حاول أن ينهض من الفراش ويذهب إلى المطبخ بحثًا عن شربة ماء فلم يجد طريقه وسط العتمة، أغمض عينيه كي ينام فرأى عيني أمّه المذهولتين بالدموع. في صباح اليوم التالي قال لبرناديت إنّه يريد العودة إلى بيته في مونبلييه.

عاد حاملاً معه منام الدموع، لا يدري لماذا استيقظت أمّه فيه فجأة، ما معنى أن يستيقظ الأموات في الأحياء؟ وما معنى أن نحمل الأموات في قلوبنا، فيصيرون جزءًا من حياة لم نعشها؟

لم يرو الحكاية لزوجته، لا يدري ماذا جرى له بعد الزواج في البداية، أي في المرحلة التي يُطلق عليها الشعراء اسم «أوّل الحبّ»، كان لسانه ينطلق في كلّ شيء، يترجم عبارة «على رأسي» إلى الفرنسيّة، ويقول لها مطيعًا sur ma tête كي يستمتع برنين الضحك الذي كان يخرج من بين شفتي برناديت، وفجأة حلّ الصمت. لا لم يكن الصمت مفاجئًا، زحف الصمت زحفًا، وبدأ يحتلّ مساحة علاقته بالمرأة البيضاء التي عشقها منذ النظرة الأولى حين التقيا في بار Tex Mex بدأ يشعر أنّ الكلمات تخونه، وأنّه عاجز عن الاستراحة في اللغة الفرنسيّة. فالكلام، كما كان يقول والده، هو مساحة يستريح فيها الإنسان. كان الرجل، حين يجلس مع ابنيه إلى مائدة العشاء، يطلب منهما الكلام، «سلّوني»، كان يقول، وكان على الشقيقين رواية حكايات المدرسة، بينما يجلس الأب مسترخيًا على مائدة الحكي.

لم يكن في استطاعته أن يقول لبرناديت «سلّيني»، ولم يكن قادرًا على صوغ عباراته ضمن جمل مضبوطة تُراعي أذني المرأة التي لم تكن تطيق سماع الشتائم بالفرنسيّة أو بالعربيّة، فبدأ ينزلق إلى الصمت، وبدأت تهويمات الخيانة تلوح في حياته.

لم يخطر في باله أنّ برناديت تستطيع أن تخونه، لا يدري من أين جاءه هذا اليقين الذي سرعان ما تلاشى، لكنّه لم يهتمّ. عندما لا تغار فهذا يعني أنّ الحبّ مات، وهو لم يشعر بالغيرة حين روت برناديت أنّها خرجت مع طبيب سويسري كان في زيارة إلى مونبلييه، اكتفى بالابتسام، فجنّ جنونها، قالت إنّها تكذب عليه لأنّها تعرف أنّه يخونها، وتريد أن تستثير غيرته، وأنّه لم يعد يحبّها، وبكت.

كان كريم متأكّدًا من أنّها تكذب، لكنّه لم يحتمل الدموع، جلس أرضًا إلى جانبها وقال إنّه يحبّها وكاد أن يخبرها حكايته مع منام الدموع، لكنّه لم يفعل. شعر بالعجز يزحف من حوله، وسمع صوت الصمت.

لكن مع غزالة كان يحكي، ومع منى وحكايتها الغريبة مع صديقها الإيطالي، كان يتغرغر بالكلام. لا يدري كيف تدفّق الكلام منه في بيروت، كأنّ بئر الصمت انفتحت، وانقشعت الأشياء.

منذ وصوله إلى بيروت وهو يرى. قال لمنى إنّه يرى الأشياء، لأنّ الدنيا هناك كانت مغلّفة بالضباب. لكنّ سحر بيروت كان في نعومة جلد غزالة. من يصدّق أنّ خادمة آتية من قرية نائية وتعيش في كامب مار الياس، وسط الفقر والتسوّل والجنون، تتجلّى عن نعومة مدهشة لم ير ما يشبهها على أجساد النساء اللواتي عالجهن من الأمراض الجلديّة؟ ثم اكتشف السرّ، إنّه الحبّ. قال لها عن الحبّ الذي يرقّق الجسد ويصفّي الجلد ويأخذ الروح إلى موج السماء، فضحكت. وعندما اكتشف الخدعة لم يشعر بالشوك في حلقه، مثلما يشعر الرجال المخدوعون، بل أحسّ كيف انزاح حجر الخوف عن صدره. الخوف ذلّ، وبعدما تراجع الخوف، وانتهت الحكاية إلى ما انتهت إليه، صار كمن يُقيم على حافّة البكاء.

لا يدري كريم لماذا فكّر بكلمة «كانت»، وهو يجلس في مقعده في طائرة البوينغ ٧٠٧، المتّجهة من مطار أورلي في باريس إلى مطار بيروت.

تخيّل مشهد المدينة، رآها كأنّها كانت كأنّها شيء من ماضٍ لا يمكن استعادته، لكنّه عائد إليها لم يستخدم كلمة عائد حين أخبر زوجته بقرار بيروت، قال إنّه ذاهب إلى المدينة كي يبني مستشفى لكنّه كان يعلم أنّه سيرجع إلى مكان لم يعد موجودًا أغمض عينيه فرأى الجملة مكتوبة أمامه: «كانت بيروت»

فتح عينيه داخل الطائرة، ليكتشف أنّ زوجته تقف أمامه وتهزّه من كتفيه، كأنّها توقظه من النوم. كانت المرأة تشبه برناديت، بياضها ساحق، وعيناها صغيرتان. قالت المضيفة إنّ الطائرة تستعدّ للهبوط، وطلبت منه تجليس مقعده، وربط حزام الأمان.

حين عانقه شقيقه في المطار شمّ رائحة الزعتر، وضربته ارتعاشة الحنين. استعاد في شقيقه نسيم صورة المرآة التي لاحقته طويلاً، كان يرى في شقيقه التوأم صورته التي لا يُريد أن يراها، لكنّه لم يشمّ فيه يومًا رائحة الزعتر برناديت قالت له في صباح اليوم التالي، بعد لقائهما، إنّها تشمّ رائحة الزعتر أجابها أنّه لم يأكل زعترًا منذ زمن طويل، فقالت ضاحكة «أنت من لبنان، أنت لبناني قلت لي، هذه رائحة اللبنانيّين» قال لها إنّ رائحة لبنان هي التفّاح، «أيّ تفّاح»؟ جاوبت «إنّه زعتر thym، هل تعرف معنى الكلمة؟ وأنا أحبّ الزعتر»

رجلان على مشارف الأربعين، يشمّان رائحة الزعتر ولا يبكيان. كان الرجلان يبحثان عن الكلام، فلم يجدا سوى كلمات جاهزة، كالتي تُقال كي تعبّئ فراغات الصمت. صعدا في سيّارة الڤولڤو السوداء، أدار نسيم محرّك السيّارة فصدح صوت فيروز وهي تغني «حبّيتك بالصيف، حبّيتك بالشتي»، التفت نسيم إلى شقيقه العائد، وقال له إنّه اشترى كاسيت فيروز من أجله. «بعدك بتحبّها»؟ سأل، وقبل أن يأتيه الجواب، قال نسيم إنّه لم يعد يحبّها، «صارت متل لبنان، كلّهم بيقولوا إنّهم بيحبّوه، ولمّا كلّ الناس بتحبّك يعني ما حدًا بيحبّك، هيك لبنان، كلّنا منحبّه بس ما حدا بيحبّه،

متل الحرب كلّنا ما منحبّها وكلّنا منحارب. ومتل بيّك الله يرحمه». قال نسيم.

«ما تحكي عن بيّي هيك»، قال كريم

«ليش إنت شو بيعرفك»

«شو هو يلّي ما بعرفه، ما فهمت».

«على مهلك بتفهم»

ما هذا الاستقبال الغريب، هل استدعاه شقيقه إلى لبنان كي يهينه ويصفي الحساب القديم معه. اعتقد كريم أنّ المسألة سوِّيت نهائيًّا عندما تزوّج نسيم هند. أراد أن يقول لشقيقه على التلفون إنّه انتصر في النهاية، لكنّه اختنق بكلماته.

كريم لا يريد فتح الدفاتر القديمة، لكن لماذا عاد إلى بيروت إذًا؟

كيف ستفهم هند عودته، «أخيرًا نجح الكلب واشترانا معًا»، قال لهند.

«هو لم يشتر إلّا لأنّك بعت»، جاوبته.

كانت شمس تمّوز تحترق على إسفلت المدينة، أحسّ كريم بالاختناق، لكنّه لم يسأل شقيقه إلى أين سيأخذه، كان متيقّنًا من أنّه ذاهب إلى بيت والده، لكنّ السيّارة مرّت أمام الصيدليّة التي تقع في أسفل المبنى وتابعت سيرها

«هند ناطرتنا وحضّرت لنا كاس عرق وشويّة مازة»

«أنا تعبان، خلّيني روح على البيت وبكرا منتعشّى سوا»

«حماتك عملت كبّة نيّة كرمالك، وناطرتك عنّا».

«حماتي»!

«كانت حماتك وصارت حماتي، وين المشكلة؟».

بدأ الكلام في المكان الخطأ، كريم لم يأتِ كي يفتح الدفاتر العتيقة، ولا كي يرى متعة الانتقام على وجه شقيقه الأصغر، جاء لا يدري، لكنّه أراد صفحة جديدة في حياته، أو هكذا أوحى لنفسه. قال لزوجته، وهو يصوّر ابنتيه كي يتمرّن على الكاميرا التي اشتراها، إنّه يريد أن يأكل بيروت بعينيه، يريد أن يصوّرها ويعتذر لها، ويحبّها من جديد. قرأ في عينيْ زوجته الكلام الذي قالته له منذ الأيّام الأولى للقائهما، «أنت رومنطيقي وعاطفي» معنى الكلام تغيّر الآن. في ذلك الماضي البعيد الذي يبدو لكريم وكأنّه ينتمي إلى زمن آخر، كانت تقول «رومنطيقي» وتضحك الشهوة التي ترفرف على عينيها، أمّا الآن، فالكلمة تأتي ناشفة ومُرّة.

شربوا العرق وأكلوا الكبّة وسط صمت، لم ينقذهم منه سوى صخب الأولاد وشيطنتهم.

هند لم تتكلّم، والدتها سلمى المتّشحة بالسواد بدت امرأة أخرى. عندما دخل كريم إلى البيت، واحتضنته المرأة، لاحظ السواد الذي يغطّي قدميها ويصعد إلى كلّ أنحائها، كانت تلبس جوارب من النايلون السميك، فيتوشّح الأسود على ركبتيها، وفخذيها، وتبدو كالأرملة.

لم تخلع سلمى السواد منذ وفاة زوجها شابًّا بالسكتة الدماغيّة، تاركًا لها ابنة وحيدة، وثروة صغيرة جمعها من عمله في مشروع تشجير أبو ظبي لكنّ المرأة الجميلة البيضاء نجحت في جعل فساتينها علامة على بياضها الناصع الذي يشعّ من فخذيها، وزنديها بعد عام على وفاة زوجها خلعت الجواربَ السوداء، لكنّها لم تخلع اللون الأسود. عندما التقى بها كريم، للمرّة الأولى، في صيدليّة والده، أدهشه جمالها، ورأى ابتسامة الظفر التي كانت طريقة نصري شمّاس في إعلان فتوحاته النسائيّة الجديدة. وحين

التقاها بعد ذلك في منزلها، في زيارته الأولى إلى هند، شعر دبيبًا خفيًا يختلج في جسده، وقارن بين وضوح نظراتها التي تخفي الشهوة، وبين انكسار عيني هند الصغيرتين، وجسدها المنمنم، وسمارها الذي يلتمع كأنّه شرب الشمس

السكّر المطحون الذي يبدو وكأنّه يترقرق على فخذي سلمى اللتين تنبثقان من سواد فستانها القصير المشقوق فوق الركبة، سرعان ما تلاشى، لأنّ المرأة بدّدت شكوك الفتى بأن تكلّمت بنوع من الاستهزاء عن أعشاب والده السحريّة التي تجعل النبات يشتعل بالحياة. كان كريم متأكّدًا من أنّ والده يخترع حكاياته الغراميّة كي يؤنس وحدته ويقاوم الكهولة، إلى أن فتح شقيقه نسيم الجارور، فرأى الصور وضربه شعور من القرف والحزن.

لماذا نضحك من حكايات العشّاق، بينما نقوم نحن بما يشبهها الحبّ يجب أن لا ينكشف للآخرين، لأنّ الآخرين لا يستطيعون تقبّله، إلّا إذا كانوا هم أبطاله. شعر بالتقزّز من والده، لكنّه شعر بالأسى على نفسه، كيف يقول ولمن يقول حكايته مع غزالة التي انتهت إلى ما هو أسوأ من الفضيحة؟ كيف يقول عن مشاعره المتناقضة وقلبه الذي كان يتقلّب به ويأخذه إلى حيث لا يدري؟

تذكّر ذلك البيت من الشعر القديم وابتسم.

فجأة اشتعل البيت بضوء الكهرباء، سمع خرير البرّاد ورأى نفسه جالسًا على الكنباية، حاملاً كأس الويسكي الفارغة بيده، واكتشف أنّ حالته مضحكة ملأ كأسه من جديد وقال بصوت مرتفع

«ومـا سُـمّـي الإنـسـان إلّا لـنـسـيـهِ

ولا الـقـلـبُ إلّا أنّـه يـتـقـلّـبُ»

إنّها الكهرباء، يكفي أن تعود الكهرباء حتى ينزاح كابوس الأفكار

السوداء قرّر كريم أن ينظر إلى حياته في وصفها مزاحًا، لا شيء يستحقّ العذاب، لأنّ حقيقة الأشياء ملتبسة. أحسّ بحنوّ مفاجئ نحو والده، وهو يراه يموت مرميًّا وسط الصالون، وضحك من لا معنى المعاني.

قال لمنى إنّه لا معنى لأحزان الفراق، قبّلها على شفتيها المبلولتين ماء وضحك وهو ينام معها للمرّة الأخيرة. قال إنّنا يجب أن نجعل المرّة الأخيرة أجمل من المرّة الأولى. ذكّرها كيف كانت خجولة وخائفة، وكيف كانت لغة الجسد خرساء، قال لها يجب أن لا تنتهي العلاقة بالخرس كما بدأت، ونام معها قبل أن تجد وقتًا لتنشّف جسمها أزاح المنشفة وأخذها وهو يضحك.

جاءت منى فجأة، كانت السابعة صباحًا، فتح كريم الباب فرأى منى تقف متردّدة بثياب الرياضة الصباحيّة المبقّعة بالعرق.

«جيت ودّعك لأنّنا مهاجرين على كندا بعد أسبوع»

دخلت إلى الصالون، تركها كريم وذهب إلى المطبخ، وضع ركوة القهوة على النار، وسمع صوت الدوش في الحمّام.

وقفت بالمنشفة البيضاء التي تغطّي جسدها ولا تظهر سوى ساقيها الرفيعتين البيضاوين، وقالت إنّها حزينة.

لم يسألها عن سبب حزنها، ضحك واقترب منها، وقال لها إنّ الجسم المبلّل بالماء هو أفضل طريقة للوداع

أضاء جميع لمبات البيت، وذهب إلى المطبخ، أخذ كمشة زعتر ورشّها على رغيف خبز ناشف والتهمها

كلّ المسألة أنّني شربت كثيرًا من دون أن آكل. خلص، هالقصّة خلصت، وبكرا بفرنسا ما في قصّة، ما لازم يكون في قصّة.

استرخى على الكنباية، وبدأ يشعر بدبيب التنمّل الذي يسبق النوم،

انتفض مذعورًا، ربط المنبّه على الساعة الرابعة والنصف صباحًا، وغرق في نوم عميق.

انحنى كريم شمّاس كي يلتقط حقيبته من صندوق سيّارة المرسيدس العموميّة السوداء التي أقلّته إلى مطار بيروت في طريق عودته إلى مونبلييه. فجأة التمعت السماء وبدأ الدويّ. أحنى السائق رأسه كي يتّقي قذائف مدافع الهاون التي بدأت تتساقط على طريق المطار. استدارت السيّارة فجأة، سمع كريم أزيز الدواليب وشعر بأنّ كلّ شيء يرتجّ. أغمض عينيه واستعدّ للموت. سمع السائق يصيح إنّه عائد إلى بيروت. فتح عينيه وطلب منه أن يكمل ويوصله إلى المطار توقّفت السيّارة فجأة، وخرج صوت السائق من بين أزيز العجلات يقول إنّه لا يستطيع، «إذا بتحبّ تكفّي يا أستاذ دبّر سيّارة تانية، أنا عندي أولاد وبدّي إرجع على بيتي»

رأى كريم نفسه كأنّه شخص آخر نزل من السيّارة، انحنى على الصندوق، أخرج حقيبته ومشى وسط شارع عريض مليء بالغبار والبقايا، وفكّر أنّه وصل إلى نهاية العالم.

هكذا انتهت المغامرة البيروتيّة، طنين في الأذنين، وشعور بأنّه يتّكئ على ظلّه. وعندما تراءى له مبنى مطار بيروت، بواجهته المهشّمة، التفت إلى الوراء وبكى

ـ ٢ ـ

عندما وافق كريم شمّاس على العودة إلى بيروت من أجل مشروع بناء المستشفى الذي اقترحه شقيقه نسيم، لم يكن يدري أنّ الحرب الأهليّة التي انتهت في لبنان سوف تبدأ من جديد في داخله.

الحرب لن تنتهي، قالت له السيّدة سلمى، عندما رأته في الشارع المحاذي للصيدليّة التي يملكها والده في شارع زهرة الإحسان في بيروت. رأى المرأة التي تغطّي رأسها بمنديل حريري أسود خارجة من الصيدليّة، فقرّر أن يهرب، لكنّه جمد في مكانه.

اقتربت المرأة الخمسينيّة منه، ونظرت إليه من أعلى عينيها، وسألته لماذا يسافر إلى فرنسا ويترك خطيبته

قال إنّه لم يخطب هند رسميًّا، وإنّه تعب من الحرب ولم يعد يستطيع، «أعود عندما تنتهي الحرب»، قال.

«الحرب مش رَح تخلص لأنّها جوّاتنا»، قالت المرأة، ووضعت كفّيها المضمومتين على صدرها، أحنت رأسها ومشت.

وكانت سلمى على حقّ.

قالت الأرملة الحلوة، كما كان يسمّيها والده، إنّ الحرب لن تنتهي

ودعته إلى البقاء في بيروت، لا يذكر ماذا قالت بالضبط، هل قالت لماذا تترك خطيبتك، أم لماذا لا تأخذ هند معك؟

هند قالت له إنّها لا تريده، لم تقل الكلمة بشكل واضح، لكنّها قالت إنّها لن تسافر وتترك والدتها وحيدة في بيروت.

المشكلة بدأت من زمان، فالحبّ الذي دام أربعة أعوام بدأ يتلاشى

«والله ما بعرف إنت مين، كيف بدّي عيش مع واحد ما بعرف شي عنه؟».

«بس إنت بتعرفي كلّ شي»

«كلّ شي يعني ما شي»، قالت.

وصار كلّ شي ما شي، وكانت هند على حقّ، وصل إلى مونبلييه، والتحق بالجامعة والمستشفى التابع لها، وبدأت صورة هند التي وضعها على الطاولة إلى جانب سريره تشكّل عبئًا فقرّر أن يضعها في الجارور، وبقيت هناك. وبعدما أنهى دراسته وترك الغرفة الجامعيّة كي ينتقل إلى شقّته الجديدة نسي الصورة في الدُرج، وعندما تذكّرها بعد أسبوع، أحسّ بحنين غامض ابتلعته قهقهته العالية.

قالت له برناديت إنّه يخبّئ خجله وضعفه خلف الضحك بصوت مرتفع، فلم يفهم، كان يعتقد أنّ ضحكته المجلجلة تعبّر عن شخصيّته القويّة. هكذا شعر في المعركة الوحيدة التي خاضها في مخيّم نهر البارد، قرب طرابلس، حين كان في التاسعة عشرة. كان في خندق مواجه للتلّة التي يحتلّها الجيش اللبناني، يحمل رشّاش كلاشينكوف، بينما انبطح نبيل أبو حلقة إلى جانبه في الخندق، حاملاً رشّاشًا كبيرًا بشرشور، يسمّونه دكتيريوف، من أجل تغطية رفيقه. وفجأة اندلع الرصاص، لم تكن دورة التدريب العسكريّة التي خضع لها كريم، والتي لم تتعدَّ مدّتها الأيّام

العشرة، تؤهّله لتحديد مصدر النار، أو لرسم خطّة لمواجهة احتمال تعرّض الموقع لهجوم، لكنّه وجد نفسه يطلق النار بكثافة، ويضحك بصوت مرتفع، من دون أن يشعر بأنّ رشّاش زميله بقي صامتًا وحين توقّف إطلاق النار فجأة كما بدأ، التفت إلى رفيقه في الخندق فوجده يجلس منحنيًا وهو يئنّ من الألم. وحين باح له نبيل بأنّه لم يعد يستطيع، وأنّ عليه أن يتغوّط، انفجر كريم ضاحكًا من جديد، «يعني خريت تحتك يا جبان، قوم قوم، طلعت الريحة» لكن نبيل كان يرتجف بالخوف، وقال إنّه لا يجرؤ على مغادرة الخندق، لأنّه يخاف من القنص، وإنّه قرّر أن يشخّ في الخندق.

«فاحت الرائحة»، صرخ كريم، «على القليلة طمّها يا ابن الكلب، البسين أحسن منك»، وانفجر ضاحكًا

بعد ذلك بسنوات، سوف يموت نبيل في معارك الأسواق التجاريّة، وسوف يروي رفاقه أنّه مات لأنّه كان متهوّرًا في شجاعته، بينما لم يجرؤ كريم، بعد تجربة نهر البارد، على المشاركة في القتال إلّا رمزيًّا، وتلك حكاية أخرى.

بدل أن يجاوب زوجته الفرنسيّة أنّه يضحك لأنّه لا يبالي، ومن لا يبالِ لا يخفْ أو يخجل من شيء، انفجر ضاحكًا، ولم يقل.

وصار كلّ شي ما شي، ودخلت هند في مكان خفيّ اسمه النسيان، ولم تستيقظ إلّا يوم تلفن شقيقه نسيم، ليقول إنّه تزوّج هند، ولم يَدْعُه إلى العرس، لأنّ هند رفضت أن يكون هناك أيّ احتفال، «حتى إنّها ما قبلت تعزم أمّها وبيّك» يومها لم يقهقه بل اختنق، وضربه شعور غامض لا يدري من أين أتى، أحسّ أنّ نسيم سرق منه عمره، كأنّه في بقائه هناك في بيروت، أخذ منه المدينة، ثم جاءت خيارات الشقيقين السياسيّة لتجعل من الشقيق الأصغر الوريث الوحيد للبيت والصيدليّة، بينما لم يكن أمام كريم من خيار سوى عدم العودة إلى المنطقة الشرقيّة من بيروت، التي يسيطر

عليها الكتائبيّون. ثم وجد نفسه، بعد اغتيال خالد النابلسي بتلك الطريقة الوحشيّة، عاجزًا عن التنفس، انقطع الهواء في بيروت، وشعر أنّه لا يتنفّس الهواء بل يتنفس شوكًا، فقرّر هجرة لا عودة منها كلّ شيء مات في داخله، ولم يعد يبالي. تلفن لهند التي جلست أمامه صامتة في مقهى «الأنكل سام»، قرب الجامعة الأميركيّة في بيروت، تستمع إلى قراره المفاجئ، وتقول إنّها لن تأتي معه، لأنّها لا تستطيع أن تترك أمّها

لكنّ سلمى والدة هند كان لها موقف آخر، نظرت إليه المرأة باحتقار، وقالت عن الحرب التي لن تنتهي لأنّها آتية من داخلنا

من أين هبطت الفصاحة على سلمى؟ ومن هي هذه المرأة التي كان من المحتمل أن تكون حماته؟

قالت هند إنّ أمّها تريد لابنتها وزوجها أن يُقيما معها في بيتها، لأنّها لا تطيق أن تعيش وحيدة.

«بس يعني بعد بكّير»، قال كريم.

«بعرف بعرف، أمّي عقلها صغير، تركتني أنا وصغيرة، وهلّق بدها تلزّق فيّي كلّ العمر، أنا أكيد ما بدّي، بس ما إلي قلب»

«نحن ما اتّفقنا على الزواج»، قال كريم.

«ما اتّفقنا! صحيح ما حكينا بالموضوع، بس يعني أنا بحبّك وأنت بتحبّني»

قالت له إنّها تحبّه وتريده عندما بدأ زيت الرغبة، كما كان يسمّيه، يخلص. بيروت تتلاشى تحت القصف، وهذه الفتاة تمسك خيط العفّة بيدها كأنّ شيئًا ما استيقظ فيها، وجعلها تشبه الزوجات. أين هند من هند؟ عندما ضمّها إلى صدره للمرّة الأولى كانت ترتجف كالعصفور، كانا في بيتها، ولم تكن الأمّ. وكانت ليلة الجمعة العظيمة، وكان صوت فيروز يرتّل

في المذياع «فليكن موت ابنك حياة لطالبيها»، وكانت هند تستمع وهي على وشك البكاء. جلس إلى جانبها صامتًا يستمع إلى جنّاز المسيح، أشعل سيجارة وشعر أنّ صوت المغنّية يغطّيه بالمخمل الأزرق، ورأى نفسه ينحني على هند ويأخذها، انسابت كالماء، كان مخمل فيروز يمتزج بوجه هند المغطّى بالندى، ضمّها إليه، وكان كلّ شيء في داخله يرتعش.

كانا يجلسان في المقهى نفسه، يشربان عصير البرتقال، وهي تكلّمه عن أمّها، وهو لا يفهم كيف تقول «ما إلي قلب»، بعد كلّ تلك الحكايات التي روتها عن طفولتها في المدرسة نصف الداخليّة، وشعورها الدائم بأنّ أمّها تعيش في مكان آخر

أمسك بيدها، فنظرت حولها وهي تسحب يده، «عيب هلّق بيشوفونا» أين كان العيب عندما كانت لا تبالي، تقتنص الفرص كي تختلي به، تكتشف شوارع جانبيّة مظلمة فيجد نفسه وهو يمشي معها، مطوّقًا بجسمها المنمنم يحتضنه ويشدّ، ولا يتركه إلّا بالرعشة الأخيرة؟

قال لها إنّه مسافر، وأمسك بيدها، سحبت يدها من دون أن تقول شيئًا، ففهم أنّها فهمت أنّ الحبّ خلص. لكنّه كان مخطئًا اكتشف خطأه هنا في بيروت، وهو يستمع إليها تقول إنّ زوجها لم يغفر لها، «مع أنّي كنت عذراء متل ما بتعرف، بحسّ كلّ ما ينام معي أنّه في بعيونه حكي وما بيحكي»

«بس هو بيعرف»، قال كريم.

«كنت تخبّره»؟ سألت.

«يعني، بس هيدا مش مهمّ»

يومها أمسك يدها، فلم تسحبها وتقول «عيب»، تركت يدها تنساب، وسمع صوت فيروز، وأحسّ أنّ الذكريات تشبه الدموع

لماذا قالت عن أمّها؟ من هي هذه المرأة التي كان عليه أن يلتقي بها في منزل شقيقه لحظة وصوله إلى بيروت؟

أخبرته هند قصّة أمّها مرّات عديدة، لكنّه كان يُصاب بالدهشة في كلّ مرّة. كان من الصعب عليه تصديق حكاية المرأة في قرية خربة الراهب في بلاد عكّار، التي تركت زوجها وأولادها الثلاثة كي تهرب إلى بيروت وتتزوّج المهندس الزراعي سامي نقّاش. حكاية سلمى مليئة بالغموض، التقت المهندس الذي أتى للعمل في استصلاح الأراضي في عكار، وطار عقلها هكذا روت لابنتها «حكاني وطار عقلي، كنت ولد يا حسرتي، كان عمري ٢١ سنة، وهو كان عمره ٤٠، طويل، شعره بيلمع بالشيب، أسمر، وابتسامته بتسحر، وعيونه بيضحكوا شافني ماشية بالطريق، كنت حاملة مختار، ابني الصغير، الله يسهّل عليه، وقف وتطلّع فيّي وابتسم، حسّيت حالي انشلّيت، وبعدين فهمت أنّه هيدا هو الحبّ. لا ما نمت معه، ولا خلّيته يبوسني بس كان يمسك لي إيدي، حسّ قلبه عم ينبض على أصابيعي، وحسّ قلبي كأنّه رح يطير من مطرحه حبّيته وصرت متل المجنونة، ولحقته على بيروت، وتزوّجنا»

لم ترو سلمى لابنتها الوحيدة تفاصيل تلك المغامرة التي أشعلت خيال أهل خربة الراهب، وتحوّلت إلى أسطورة قرويّة اسمها سلمى وسامي، وكيف انتهت بزوجها، الذي أقسم على قتلها، جالسًا مع المهندس الزراعي في مقهى الجمّيزة في بيروت، وهو يعقد معه صفقة التسوية، التي انتهت بطلاق سلمى من قاسم عبد الكريم، وزواجها من عشيقها

تقول الحكاية إنّ سلمى كانت أجمل فتاة في القرية. إنّها الابنة الرابعة والأخيرة لسليم مختار، الذي كان يعمل مرابعًا في زراعة القمح في أراضي الشيخ دياب عبد الكريم، وتجلّى جمالها في بياض بشرتها الحليبي، الذي جعل شبّان القرية يحومون كالدبابير حول منزل والدها.

ولدت سلمى بعد تسع سنوات من انقطاع أمّها عن الحمل. عندما حبلت الأمّ تيقّن سليم المختار أنّ الله رحمه بولد سوف يخلّد اسمه، وأسماه صلاح، وجلس أمام بطن زوجته في انتظاره.

لم تجرؤ القابلة على الخروج من الغرفة التي ابتلعها البخار المتصاعد من لكن الماء الساخن. حتى الطفل غلّفه الصمت المحيط به. سمع الرجل تفتّق الحياة ببكاء خفيف لم يلبث أن انقطع. وصرخ لا، إنّه بنت، طلع صلاح بنت، وخرج من البيت ولم يعد إلّا بعد ثلاثة أشهر نام في الحقول، وأكل العشب والتراب. لكنّه رجع إلى البيت في النهاية وسقط أسير الطفلة الجميلة التي كانت تتلألأ ببياض لم ير أحد مثيلاً له، وصار يسمّيها وحيدته بعد زواج شقيقاتها الثلاث من أولاد عمومتهن. صار أبو صلاح لا يشاهَد إلّا مع ابنته سلمى التي كان ينده لها بصيغة المذكّر ويناديها صلاح، ولا يملّ من اللعب معها أو متابعة دراستها، حتى اعتقد الناس أنّ الرجل أُصيب بمسّ من الجنون.

قرّرت سلمى بعد إنهاء دراستها في مدرسة القرية الذهاب إلى المدرسة الرسميّة في بلدة حلبا، وكان ذلك بمثابة كسر لكلّ التقاليد القرويّة، التي تحرّم على الفتاة الدراسة، وإذا سمحت بها، فإنّها يجب أن لا تتعدّى مدرسة تحت السنديانة في القرية.

سليم مختار قفز فوق كلّ الأعراف الاجتماعيّة، وصار يمشي كلّ يوم صباحًا مسافة خمسة كيلومترات كي يوصل ابنته إلى المدرسة، ثم يعيد الكرّة بعد الظهر كي يأتي بها إلى البيت.

قال الناس إنّ الرجل كان مغرومًا بابنته، وإنّه سقط صريع عينيها الرماديّتين، ونقاء بياضها، وسحر ابتسامتها زوجته قالت إن هذا جنون، البنت لازم تقعد بالبيت وتساعد أمّها وتنطر العريس، «إنت مجنون يا أبو صلاح، حدا بيخلّي بنته تروح على المدارس متل الصبيان، شو رح يقولوا الناس عنّك وعنّي»

لكنّ الرجل لم يأبه، وقال لكلّ من سأله إنّ الدنيا تغيّرت، والمرأة ليست جزءًا من أثاث البيت، وإنّه اتّخذ قراره ولا يحقّ لأحد أن يعترض.

ذهبت سلمى إلى المدرسة سنتين، ثم جاء العريس، وكان العريس هو ابن صاحب الأرض التي يعمل عليها جميع سكّان القرية مرابعين، ولم يستطع والدها أن يرفض.

عندما أخبرها بكت، وبكى لبكائها، وقال لها كما تريدين يا ابنتي، أنا مستعدّ أن أترك القرية وأذهب للعمل عتّالاً في ميناء طرابلس، كرمال عيونك، بس ما تبكي. لكنّ سلمى لم تتوقّف عن البكاء، قال والدها إنّه سيذهب للشيخ دياب ويعتذر، فصرخت به لا، وقالت إنّها موافقة على الزواج.

لم تر هند قرية والدتها المرميّة وسط وادٍ إلى جانب النهر الكبير الجنوبي، الذي يمتدّ بمحاذاة خربة الراهب، ناثرًا عطر الماء، كي تضع علامات مكانيّة لحكايتها قالت لكريم إنّها نسيت التفاصيل، لأنّ الذاكرة تحتاج إلى مكان، الزمن يمحو الذكريات، والإنسان لا يعثر على ذكرياته إلّا في شقوق الأمكنة.

لكنّ الحكاية اتّخذت مسارًا غير متوقّع وانتهت بسلسلة من المآسي التي انحفرت عميقًا في ذاكرة أبناء القرية.

فجأة شرقت سلمى بدموعها، وقالت لوالدها إنّها ستتزوّج الرجل، وذهبت إلى عرسها كالذاهب إلى المأتم. لم تفهم الأمّ لماذا تردّدت سلمى أمام عرض الزواج الذي هبط عليها من السماء. كان العريس شابًّا في الخامسة والعشرين، وكانت في الخامسة عشرة. العريس هو الابن الوحيد لرجل يملك أراضي سبع قرى ابنة المرابع الفقير سوف تتحوّل شيخة يتسابق على خدمتها جميع نساء القرية، وسوف تسكن في بيت حجري كبير، وتغادر بيت الطين.

تقول الحكاية إنّ الرجل صبر على سلمى حتى انتهى الصبر في الليلة الأولى جرح زنده كي يسمح للمنتظرين بأن يهلّلوا لرؤية شرشف الشرف مبقّعًا بدم العذريّة. وفي الليلة الثانية اقترب منها فوضعت وجهها بين كفّيها كي لا تسقط دموعها على الأرض، فنام إلى جانبها ولم يمسّها وفي الليلة الثالثة أمسك بيدها فأحسّ ببرودة قاتلة فتراجع إلى الوراء. وفي الليلة الرابعة قال إنّه لا يجوز، فقالت خلّيها لبكرا وفي الليلة الخامسة، قالت إنّها مريضة. وفي الليلة السادسة سألها ماذا تريد، قالت إنّها تريد الذهاب إلى المدرسة، فقال إنّها تطلب المستحيل، ووعدها بأن يجلب لها الشيخ حافظ كي يدرّسها في البيت، فقالت إنّها تريد أن تدرس الرياضيّات والعلوم، فضحك وقال منشوف. وفي الليلة السابعة أخذها بالقوّة، بكت ورجته، لكنّه مزّق ثيابها وألقاها أرضًا وفتحها في تلك الليلة سال دم كثير، لأنّ قاسم عبد الكريم لم يستطع أن يتوقّف، قال لها بعد يومين وهو يجلس إلى جانبها في الفراش إنّه ذاق أطيب عسل في العالم، وقال إنّ الرجل لا يعتذر من زوجته في العادة، لكنّه سيعتذر منها قال وقال، فأحنت رأسها وتغطّت بدموعها قال إنّه يريد أن يبكي لأنّه يحبّها، لكنّ هذا عيب، وخرج من الغرفة.

عندما اختفت سلمى لم يستطع قاسم أن يصدّق أنّها ذهبت مع رجل آخر، عاشت معه ستّة أعوام، وأنجبت له ثلاثة صبيان، وفجأة ذابت كأنّها لم تكن. اختفت واختفت كلّ أغراضها، أخذت كلّ شيء، الثياب والمرآة الصغيرة ومنشفة الوجه التي كانت تعطّرها بماء الورد. وعندما جاء الخبر أنّها تسكن مع المهندس الزراعي حصلت الجريمة الفاشلة.

أبو صلاح بكى واستبكى أمام السيّد الإقطاعي، قال إنّه سيقتل المرأة لأنّها لوّثت شرفه، فنظر إليه سيّده باحتقار وقال لا، أنت لا علاقة لك. إنّها لنا، كانت لنا حيّة وستكون لنا ميتة.

قال كريم لهند إنّه لا يصدّق حكاية الخطأ، جاء الزوج حاملاً

مسدّسًا، قرع على الباب ففتح المهندس، أطلق عليه النار، ثم دخل إلى غرفة النوم حيث كانت سلمى ترتجف، أطلق عليها النار ومضى.

«لكنّه لم يقتل أحدًا»، قالت هند، «أبي أُصيب في رجله، وأمّي لم تصب، لكنّ الضحيّة كانت جدّتي والدة أبي، التي كانت تزور ابنها، كي ترجوه أن يردّ المرأة إلى زوجها لأنّها تشمّ رائحة الدم»

«يبدو أنّ جدّتي شمّت رائحة دمها»، قالت هند، وانتهت الحكاية بمصالحة وإسقاط الدعوى وزواج سلمى من حبيبها

المهندس مات بعد أربعة أعوام بسكتة دماغيّة، والزوج الأوّل مات أيضًا مقتولاً خلال ثورة الفلّاحين في عكّار، وكان على سلمى أن تتجرّع كلّ المرارات دفعة واحدة.

«ما بعرف كيف بدّي خبّرك، بس أنا ما سامحتها»، قالت هند. «عشت كلّ حياتي لوحدي، حطّتني بمدرسة زهرة الإحسان نصف داخلي، عشت مع الأيتام يلّي كانوا يحملوا بساط الرحمة، وكنت ما أرجع على البيت إلّا بالليل، إرجع وعيوني نصف مغمضة، ولمّا فتّح عيوني، لاقي أمّي آخدتني على المدرسة»

ذكريات الطفولة ليست الحكاية، قال كريم، فالطفولة ليست سوى مزق ذكريات ونحن نرتقها بعد ذلك لنصنع منها حكايتنا عندما نكبر

عندما روت له هند الحكاية في المرّة الأولى، وقالت إنّ أمّها وضعتها في المدرسة الداخليّة كي تعيش على حلّ شعرها وتشتغل في مكتب المحامي سمير يونس، فهم أنّ الأرملة الصبيّة تركت ابنتها كي تتفرّغ لحياتها العاطفيّة مع «عمّو سمير»، مثلما كانت هند تنده المحامي. لكنّها حين روت الحكاية مرّة ثانية حكت بطريقة مختلفة، قالت إنّ أمّها ذهبت إلى المحامي من أجل أن تستعيد حقّها في أولادها الثلاثة، وإنّها كانت تغار من إخوتها الذين لم تر صورهم، وإنّ الأمّ قضت أوقاتها في التوسّط لدى الشيخ دياب

عبد الكريم من أجل أن يسمح لها برؤية الأولاد، وإنّها حاولت الاتّصال بوالدها من أجل أن يساعدها قال الرجل للمحامي الطرابلسي الشابّ الذي أرسله الأستاذ سمير إنّ ابنته ماتت، وإنّه يعيش في العار، وإنّه لم ير أحفاده منذ هربها مع المهندس لأنّه لم يعد يجرؤ على الخروج من البيت.

قالت هند إنّ أمّها تعذبت كثيرًا، ذهبت إلى كلّ الناس، وكانت تتصرّف كالمرأة الثكلى، ورفضت أن تخلع ثياب الحداد السوداء طوال حياتها وعندما سألها عمّو سمير مرّة، وكان يتغدّى عندها في البيت، لماذا لا تخلع ثياب الحداد، فالرجل مات منذ خمسة أعوام، وكفى، قالت إنّها تلبس ثياب الحداد على نفسها لأنّها لا تستطيع أن ترى أولادها

قالت هند إنّ أمّها صرفت حياتها بحثًا عن سراب، وإنّها قضت طفولتها في الغيرة من أشقّائها الثلاثة.

«كانت أمّي ما توقّف حكي عن إخوتي، ينزلوا دموعها على خدودها من دون ما تبكي، تحكي عن الثلاث أقمار البيض، يلّي جمالهم بخلّي الناس تنبهر من الضوّ، وكانت تطّلع فيّي بنظرات غريبة، كأنّي أنا يلّي حرمتها منهم. وأنا كنت حسّ حالي مدري كيف، حسّ أنّه الليل ملزّق على جلدي، وكنت أكره حالي لأنّي مش بيضا متل أمّي ومتل التلات أقمار»

وفي مرّة ثالثة، روت عن عذاب الأمّ واضطرارها للعمل في مكتب المحامي من الفجر للنجر حتى نأكل بالحلال، «خلصوا المصريات يلّي ورّتها ياهم بيّي، وما كان في خيار آخر، تعلّمت أمّي دقّ الدكتيلو وراحت عند المحامي، يلّي عطف عليها من الأوّل وحاول أن يساعدها تسترجع أولادها اشتغلت عنده كلّ العمر، وصارت أكتر من سكرتيرة، ولولاه الله يرحمه، كنّا متنا من الجوع»

«هو مات كمان، أمّك فخدها مالح، متل ما بيقولوا».

«ما تقول هيك، أمّي كانت مرا شريفة».

«بس إنت قلتِ لي إنّه اشترالكم البيت، هيك لوجه الله؟».

«ما بعرف، بس بعرف إنّو عمّو سمير ورّتنا مصاري كمان، وأمّي كانت تقول إنّ مرته مجنونة بيضلّ معها انهيارات عصبيّة، وإنّ الرجّال كان كتير معذب بحياته، مع أنّه كان يمسك التراب يصير ذهب»

وفي مرّة رابعة، روت عن حبّ أمّها لها، «أنا بعرف إنّي كلّ حياتها لأمّي، ومنشان هيك ما إلي قلب أتركها، ومنشان هيك لمّا قالت لي إنّه بدّها إيّاني عيش أنا وزوجي معها وافقت»

وفي مرّة خامسة، أبدت هند انزعاجها، «ما بعرف شو بتروح تعمل عند الفرمشاني الختيار، وما بفهم عليها، معربطة فيّي كأنّها بتحبّني، وأنا بعرف أنّها كلّ حياتها ما حبّتني»

«بس الفرمشاني هو بيّي»، قال كريم.

«بعرف أنّه بيّك، إنت ولا مرّة خبّرتني عنه، أنا خبّرتك كلّ شي عن أمّي».

«ما في شي يتخبّر»، جاوبها

كانت سلمى حاضرة في كلّ مكان، التقى بها كريم للمرّة الأولى حين كانت في الخامسة والأربعين. رآها تخرج من الصيدليّة، بفستانها الأسود القصير الذي يكشف بياض فخذيها، ويشير إلى احتمالات نهديها المنتصبين. دخل إلى الصيدليّة باسمًا، فقال له نصري، «شفت الخوخ الأحمر، المرا بالأربعين بتصير مثل الخوخ المستوي، وأنا بحبّ الخوخ»

دخلت هذه المرأة في حياة كريم شمّاس من جميع الأبواب. وعندما اكتشف أنّها والدة هند أحسّ بالخوف، لكنّ أوان التراجع كان قد فات، وصار يشعر أنّ هناك مساحة صمت لا يمكن تجاوزها، احتفظ بالسرّ لنفسه، وكان يتحاشى زيارة هند في منزلها، كي لا يستعيد ذلك البريق

لم يتكلّم في الموضوع حتى مع شقيقه التوأم، فكيف يحكي مع هند؟ الأمّهات مسألة محرّمة، «الحمد لله يلّي ماتت أمّي أنا وصغير»، قال لهند مرّة.

«حدًا ما بحبّ أمّه»؟ سألت هند مستنكرة.

«لا مش هيك، كان قصدي شي تاني»، جاوبها

«شو كان قصدك»؟ سألت.

«لا، يعني، كيف بدّي قول، يمكن هيك أحسن، لأنّها ارتاحت من بيّي»

«ليش عمّو نصري كان يعذبها؟».

«لا، بس كانت عينه بيضا كتير»

«شو يعني عينه بيضا؟»

انتهى النقاش بالصمت، أخذ يدها وقبّلها ولم يقل شيئًا كيف يروي لابنة عن أمّها، والأمّهات ملفوفات بقطن القداسة؟ كيف يخبرها عن ذلك الدواء العجيب الذي استنبطه والده من الأعشاب محوّلاً النساء إلى ضحاياه؟

عندما دخل كريم إلى كلّيّة الطبّ في الجامعة الأميركيّة في بيروت، بدأت أسرار صيدليّة «الشفاء» تتكشّف له. نما فيه شعور بالاحتقار لوالده، والكراهيّة لشبقه الجنسي الذي لا يتوقّف. قال له والده إنّه سيفهم الأشياء عندما يكبر، ومنعه من دخول المختبر، «هيدا سرّ المهنة يا ابني، وأنت رفضت تعمل فرمشاني، خيّك يلّي ما كان فالح بالمدرسة بيفهم بشغل الفرمشيّة أكتر منك، وبعدين بكرا بس تكبر بتفهم»

كان نصري الشمّاس في الخمسين من العمر عندما أصابه ذلك الهوس الذي لم يفهم له سببًا كانت حياته الجنسيّة شبه مستقرّة بعد وفاة زوجته. رفض أن يتزوّج مرّة ثانية من أجل الولدين كما قال، وكان يعتقد أنّ زواجًا واحدًا يكفيه، ولا ضرورة للسأم الجنسي من جديد. حلّها مع المومسات. كان يتردّد مرّة في الأسبوع على بيت علني في شارع المومسات الذي أطلقوا عليه اسم شاعر العرب الأكبر المتنبّي. قال مرّة لابنه نسيم إنّ التجربة الأصعب في الحياة هي أن يعشق الإنسان شرموطة، «ساعتها بصير كلّ شي متل السراب، عطشان وعم تشرب عطش، بتشرب حتى تطفّي العطش، وبتبقى عطشان» لم يسأله نسيم عن الحكاية التي كان يعرفها كلّ الناس، لأنّ الحمق وصل بالرجل إلى حدّ دعوة سوسن إلى منزله، فانتشرت رائحة الفضيحة في الحيّ، وشعر الشقيقان التوأمان بالعار

قال كريم، وهو يستمع إلى شقيقه يستعيد بكلمات متقطّعة رواية هند حول موت والده، إنّه يرى أمامه الآن مشهد المرأة في بيتهم، وكيف شعر بالغثيان.

عاد الشقيقان من المدرسة إلى البيت، ليجدا والدهما جالسًا بين يَدَي المرأة. تراجعا إلى الوراء هربًا من تلك الرائحة الغريبة، لكنّ نصري أمرهما بالتقدّم ومصافحة الطانط سوسن، كما أسماها

لم يأتِ الشقيقان على ذكر هذه الحكاية بعد ذلك، كأنّها امّحت، وامّحى معها بكاء نسيم، وصمت كريم وعجزه عن الكلام. لكن حين استمع كريم إلى حكاية موت والده، عادت تلك الرائحة، ورأى أمامه مشهد الفخذين البارزتين والشفتين الملوّنتين بالأحمر، والأظافر الطويلة المطليّة باللون البنفسجي، وصدّق الحكاية.

«يعني بيّي ما زحط متل ما خبّرتني على التلفون»؟ سأل كريم.

وعندما عرف أنّ الوالد لم يمت بسرعة، بل تمّ نقله إلى المستشفى،

حيث شخص الأطبّاء أنّ سقطته على الأرض أحدثت كسرًا صغيرًا في عظام الجمجمة ونزيفًا داخليًا، شعر بالخوف. بقي نصري ستّة أيّام في النزع، ولم يفتح عينيه سوى مرّة واحدة وللحظات، ثم أغمضهما

«كنت واقف حدّه، وماسك إيده، فتح عيونه، شافني، وارتخت إيده من إيدي، ورجع غمّض من جديد، وبعد يومين مات»

«عرفك»؟ سأل كريم.

«ما بعرف»، جاوب شقيقه.

«يمكن افتكرك أنا»، قال كريم.

كانت إحدى عادات نصري أن يخطئ عمدًا في اسمي ابنيه، فينده الواحد منهما باسم شقيقه، وحين يغضب الابن، ينفجر الأب ضاحكًا، ويعتذر، ويقول إن المسألة ستصير صعبة على النساء في المستقبل.

عندما اتّصل به شقيقه كي يخبره عن وفاة والده أُصيب كريم بالصمت. أقفل سمّاعة الهاتف، وضع رأسه بين يديه استعدادًا للبكاء، لكنّ الدموع لم تجرِ خنقته غصّة أمسكت بحنجرته، وشعر بالاختناق. عاد إلى البيت ظهرًا على غير عادته. سألته برناديت ما به، فلم يجاوب. نهض وفتح قنّينة نبيذ وبدأ يشرب، وقال لزوجته إنّه جائع أكل كمِّيّة هائلة من السباغتي بالحبق، وشرب قنّينتي نبيذ أحمر كان يأكل السباغتي ويفكّر بخدّ الثور في أحد البارات روى له طلال، وهو شابّ لبناني جاء إلى فرنسا كي يدرس السينما، عن هذا الطعام المذهل. قال إنّ صديق والده الدمشقي المقيم في باريس، الذي يُطلق على نفسه اسم زرياب، ويطبخ أشهى الأطعمة الفرنسيّة، دعاه إلى تذوّق خدّ الثور، حيث يذوب اللحم في الفم، وينتشي اللسان بعطر البهار كان يأكل السباغتي ويفكّر بخدّ الثور، بل يستطيع أن يقول الآن إنّه رأى الثور أمامه، وكان مستعدًّا لمهاجمته وافتراسه يومها فهم أنّ الموت يفتح الشهيّة إلى الطعام. قال لزوجته إنّ الإنسان كائن

متوحّش وتافه لأنّه يعتقد أنّه يستطيع التغلّب على الموت بالأكل. ثم انفجر باكيًا قال لبرناديت إنّه لا يصدّق أنّ نصري مات، فالرجل لا يموت. كيف يخبرها أنّه كان مقتنعًا بأنّ والده لا يموت، لأنّه لا يملك روحًا صعقته الفكرة التي تآلف معها طوال حياته، ليكتشف هشاشتها لحظة موت الرجل العجوز

كان الشقيقان على ثقة بأنّ والدهما لن يموت. هو من قال ذلك. لا يدري كريم متى قال الأب هذه العبارة، لكنّه يعرف أنّ العبارة كانت جزءًا من حياته، كأنّها وُلدت معه أغلب الظنّ أنّ نصري نطق هذه العبارة لابنيه الصغيرين من أجل طمأنتهما أُصيب الولدان بالرعب بعد موت والد زميل لهما لم يتكلّما في الموضوع لكنّهما صارا عاجزين عن النوم، وصارت مناماتهما أشبه بأحلام اليقظة، ولم يعودا قادرين على رواية مناماتهما

كانا يرويان لوالدهما مناماتهما كي يسلّياه. كان نصري يؤمن بأنّ النوم هو نافذة الإنسان على روحه، لذا كان يدرّب ولديه على تذكّر مناماتهما، وكان على الولدين تأليف منامات مشتركة. المسألة اختلطت في ذهن كريم، إذ لم يعد يدري كيف كانت المنامات تُروى. في العادة يبدأ شقيقه، فيقاطع نسيم كي يروي حكاياته، لكنّه يجد نفسه يتابع منام شقيقه. هل كان الولدان التوأمان يريان المنامات نفسها؟

لكنّهما ليسا توأمين، والدهما توأمهما، وفرض عليهما وهم تشابههما في كلّ شيء، ممّا سيترك بصماته على مجمل حياتهما في المستقبل

أُصيب الطفلان بالرعب عندما مات والد أحد تلامذة مدرسة «الفرير»، بالسكتة القلبيّة فجأة. عادا إلى البيت من المدرسة، وعلامات الهلع مرتسمة على عيونهم، لكنّ نصري لم يلاحظ شيئًا، كان يجلس في الصالون يحتسي القهوة ويدخّن، وإلى جانبه جلست الطانط سوسن كانت أظافر المرأة مطليّة بلون بنفسجي فاقع، آثار الحمرة عالقة على عقب السيكارة التي كانت

تدخّنها صوتها كان مرتفعًا وحادًّا، وعيناها متهدّلتين بسبب الكحل الذي ساح منهما نصري ينظر إليها وتتمايل ابتسامته مع تمايل وجهها، ويغرق في الدخان الكثيف المنبعث من سيجارتها رأى ابنيه في البيت من دون أن يلاحظ قدومهما، فطلب منهما التقدّم نحو المرأة، التي قبّلتهما، تاركة رائحة عرقها الممتزجة بروائح عطر زنخ. عندما وصل الولدان إلى البيت في الرابعة بعد الظهر، فوجئا بحركة في الصالون. في العادة يكون البيت فارغًا، الأب في الصيدليّة، والنوافذ مقفلة، ورائحة مطهّرات، كان الصيدلي ينظّف بها البيت خوفًا من الميكروبات. لكنّهما في ذلك اليوم الربيعي المشمس من أيّام شهر نيسان، وجدا النوافذ مفتوحة، وشمّا رائحة غريبة. غادر والدهما مع المرأة وتركهما وحيدين، وحين عاد في التاسعة مساء، كان البيت مطفأً، والولدان نائمين. سمع صوتًا غريبًا في الغرفة، دخل على رؤوس أصابعه من دون أن يشعل الضوء، وسمع الولدان يبكيان. اقترب منهما، فتناوما، هزّهما وحاول إيقاظهما، فانقطع البكاء، لكنّهما لم يستفيقا من النوم. وفي صباح اليوم التالي، وبينما كانوا يفطرون بيضًا مقليًّا، سألهما بماذا كانا يحلمان، فلم يجيبا وعندما ألحّ في السؤال ونظر إلى نسيم، الذي كان يشكّل في طفولته الفجوة التي يستطيع الأب من خلالها اقتحام حياة ولديه، انفجر الولد باكيًا وطلب من والده أن لا يموت.

في ذلك الصباح وعد نصري ولديه بأن لا يموت. قال لهما إنّه سيبقى معهما ولن يتركهما

«ما بدنا هيدي المرا يلّي كانت معك مبارح»، قال نسيم باكيًا

«خلص»، قال نصري، «سامحوني، كانت لحظة تخلّي، الله تخلّى عنّي ووقّعني بهالشرموطة».

«شو يعني شرموطة»، سأل نسيم.

«أنت بعدك صغير، اسكت وما تسأل»، صرخ به كريم.

قرّر الولدان تصديق نصري، لكنّ شبح سوسن بقي في البيت، بل وتسلّل إلى مناماتهما، ورافقهما اسم المرأة ذات الأظافر البنفسجيّة، فترة طويلة.

عندما روى نسيم لشقيقه عن أوّل مرّة مارس فيها الجنس مع مومس في السوق العمومي، قال إنّه تسوسن وهو يستمع إلى غناء محمّد عبد الوهّاب الذي كان يخرج من مذياع خشبي كبير وُضع على الكومودينة إلى جانب سرير المومس التي فتحت فخذيها واستسلمت للنعاس والتثاؤب.

«مزبوط كان اسمها سوسن»؟ سأل كريم.

«سوسن قصّة تانية، عم خبّرك كيف كنت إتصرّف، سوسنتها ومشي الحال. ولمّن قلت لها شو حلو التسوسن صارت تضحك، وأنت بتعرف لمن الواحدة بتضحك وإنت جوّا شو بصير».

«ما بعرف ولا بدّي أعرف»، قال كريم.

«أنت أهبل ورح تضلّ أهبل بأمور النسوان، الواحد يا حمار ما بيتعلّم إلّا مع الشراميط، إذا ما تمرّنت من هلّق بيضحكوا عليك النسوان، وبتقضّي كلّ عمرك بوجع الراس بسبب القرون»

قال نسيم لشقيقه إنّه أهبل، مشيرًا إلى علاقته بهند. نسيم تراجع عندما علم أنّ شقيقه يُقيم علاقة بالفتاة السمراء. في الحقيقة لم يتراجع عن شيء، لأنّ الأمور بينه وبين هند لم تتجاوز الابتسامات، حين أتت إلى الصيدليّة برفقة والدتها يومها قال لشقيقه ممازحًا إنّها ربّما تحبّهما معًا في الوقت نفسه. فرأى الغضب على وجه شقيقه، «لا أنا كنت عم بمزح، صحّتين على قلبك، بس لازم آخدك معي على السوق حتى تتمرّن على النسوان»

لم تغادر سوسن مخيّلة كريم، رأى فيها صورة والده وقد امتزجت

بمنامات جنسيّة غريبة. لم يعترف كريم لشقيقه أنّه قذف للمرّة الأولى في حياته، بسبب أحد هذه المنامات، لكنّه كان يعرف بحدس التوأم أنّ ليل شقيقه أيضًا كان يبلّله ليل سوسن برائحة الرجولة.

نصري قال لابنيه أن لا يخافا لأنّه لن يموت. كريم صدّق والده، وارتبط الأمر بتصوّر غريب لا يعلم كيف تبلور في ذهنه. اقتنع كريم أنّ والده لن يموت لأنّ الرجل لا يمتلك روحًا كان الوالد الأشيب كتلة من الأعصاب المشدودة، والعضلات. فالصيدلي الذي لم ينقطع عن ممارسة رياضتي الركض والسباحة حتى موته في السادسة والسبعين، كان رفيعًا ومشدود العضلات، بعكس ابنيه اللذين كانا يميلان إلى البدانة قليلاً، ويعانيان من مشاكل صحّيّة، كريم يعاني من أوجاع المعدة، ونسيم حمل معه الربو منذ طفولته، وهذا بحسبه ناتج عن تأثيرات جينيّة آتية من أمّهما فالمرأة التي ماتت حين كان ابناها في الخامسة، أورثت ابنيها بياض البشرة، وقامة معتدلة، وصحّة عليلة. الأب الأسمر، المزيّن بالشيب الذي يكلّل رأسه، كان ينظر إلى ولديه بأسى، ويتساءل بينه وبين نفسه عن صلته بهما، «كأنّكم مش أولادي، والله ما بعرف أمّكم منان جابتكم» نسيم تغلّب على الربو عندما صار في الثانية عشرة، وبدأ يمارس رياضة السباحة، بينما بقي اعتلال الصحّة ملازمًا لشقيقه الأكبر

قال كريم لشقيقه إنّ الوالد لا يملك روحًا، لذا لن يموت. إذ كي يموت الإنسان يجب أن تغادر الروح البدن، أمّا نصري فجسد بلا روح. جسد مشدود إلى نفسه، ومتماسك كأنّه مصبوب من طين أسمر شوته الشمس.

حين رفع كريم سمّاعة الهاتف في مونبلييه، وسمع صوت شقيقه بالنبأ، رأى أمامه مشهدًا غريبًا، رأى والده يسقط أرضًا ويتكسّر، كأنّه لعبة أطفال تفكّكت كلّ أعضائها وانفصلت أجزاؤها بعضها عن البعض الآخر ركع أرضًا من أجل أن يجمع القطع ويُعيد تركيبها، وصار كلّما لمس قطعة

تتحوّل ترابًا موحلاً هل كان هذا منامًا آتيًا من شعوره بالغربة والوحدة، بعدما أخبره شقيقه عن موت الوالد، وأنْ لا ضرورة لمجيئه إلى بيروت، لأنّهم دفنوا الرجل؟ أم كان صورة خياليّة ارتسمت في ذهنه، بسبب سوء الاتّصال الهاتفي، والخشخشة التي كانت تغطّي على صوت شقيقه؟

«ليش ما خبّرتني قبل حتى إجي على الدفن»؟ سأل كريم غاضبًا

«ما في خطوط تلفون، شو ناسي نحن وين، الحقّ على الحرب، بعدين طوّل بالك، كلّنا لها، المهمّ أنّ الزلمة ما تعذّب»

الآن فهم كريم لماذا كان صوت شقيقه محايدًا، بل لا مباليًا، الآن في بيروت التي عاد إليها طبيب الجلد، تاركًا فرنسا من أجل أن يشمّ من جديد رائحة البن الممتزجة بالتفّاح، الآن فهم أنّ الأب الذي زحط في صالون ابنه نسيم، ارتكب جريمته الأخيرة لحظة موته، وأنّ الرجل عاش كلّ حياته من أجل سوسن

سوسن هو الاسم الذي أطلقه الشقيقان على العلاقات الجنسيّة، فاحتلّت المرأة ذات الأظافر البنفسجيّة المتّسخة، مساحة كبرى في اللغة السرّيّة التي لم يتوقّف الشقيقان عن استخدامها عندما قرّر كريم الهجرة، سأله شقيقه «شو منقول لهند عن سوسن»؟ فنظر إليه شقيقه بغضب، وطلب منه أن لا يمزج هند بهذه الأشياء.

«ليش ما في سوسن بيناتكم»؟

«أكيد لا، شو أنت مجنون»

«يعني بتحبّها بلا ما

«ما بخصّك»

«أكيد إنّك عم بتكذب، شو مفكّر إنّي أهبل حتى صدّقك».

لم يصل مع هند إلى سوسن، لعبا طوال أربعة أعوام على أطراف الجنس، لذا لم يشعر بالذنب عندما قرّر المغادرة إلى فرنسا. قال لبرناديت عن الخوف، قال لها إنّ الحرب علّمته أنّ الخوف يُحدث في قلب الإنسان فراغًا. قال لها إنّ الخوف الذي يضرب الركبتين هو مجرّد بداية ولا يقارن بالخوف العميق الذي يمسك بالقفص الصدري، فيحدث فجوات في القلب.

لم يستطع أن يشرح لهند الخوف الذي جعله يفقد كلّ مشاعره نحوها ونحو كلّ شيء في بيروت، ولا يفكّر إلّا في الهرب. كان يريد أن يمضي كي يعثر على قلبه من جديد، وكي يستعيد قدرته على التنفس.

قال لزوجته الفرنسيّة إنّ ذهابه إلى بيروت مجرّد استطلاع، واعدًا إيّاها بأنّه سيترك القرار الأخير لها. برناديت لم تصدّقه، قالت إنّه يكذب كجميع اللبنانيّين، وقالت إنّها فوجئت حين اكتشفت أنّ اللبنانيّين يكذبون من دون أن يشعروا، يكذبون ويصدّقون أنفسهم، ثم يتصرّفون على أساس أكاذيبهم. قالت إنّها لا تستطيع تمييز الحقيقة من الخيال في حكايات زوجها، وفوجئت أكثر بردّة فعله على كلامها، ضحك وقال معك حقّ، mais ce n'est pas grave. كيف يشرح لها أن لا شيء grave سوى الـ grave أي الموت وأنّ ما تبقّى كلّه صابون. كانت حين تستمع إلى أمثاله اللبنانيّة المترجمة تكشّر وتغضب وتطلب منه أن لا يحدّثها عن الصابون، ولا يقول عن التزحيط.

معها حقّ، ظلّ يحكي عن الصابون حتى زحط والده ومات، واليوم، لم يعد أمامه سوى العودة إلى فرنسا. فكّر أنّه سيقول لها عندما يصل إلى بيته هناك إنّ الصابون قرّر، وابتسم، فرأى تكشيرتها التي تفترس وجهها من دون أن يبقى منه أيّ شيء ظاهر سوى أنفها الطويل الذي يميل إلى الاحمرار.

نصري شمّاس، الذي التصق به لقب الدكتور، بسبب الأدوية التي كان يركّبها في صيدليّته، مدّعيًا أنّه اخترعها، لم يزحط، بل تمّ تزحيطه. هند روت له، لكنّ نسيم نسب الأمر إلى نفسه. أُصيب نسيم بالذهول حين علم أنّ هند أخبرت شقيقه. شتم زوجته، «ما تصدّقها، هيدي واحدة شرموطة»، وصرخ في وجه زوجته وشتمها، «كلّ النسوان شراميط، هيك كان يقول نصري، وهيدي مرا متل كلّ النسوان»

عندما سمعت هند الكلمة تخرج من بين شفتي زوجها غادرت وهي تقول إنّها لن تعود إلى البيت. كان ليل وكانت تمطر حاول كريم أن يلحق بالمرأة كي يثنيها عن مغادرة البيت، لكنّه جمد في مكانه حين سمع صوت شقيقه متوعّدًا، «إنت كمان بدّك تدقّلي بمرتي، خلّيك محلّك وما تتحرّك»

بدا صوت نسيم كأصوات رجال الميليشيا، ورأى في إصبعه المرتفع بالتهديد، شبح مسدّس يستعدّ لإطلاق النار

قرّر كريم بعد كلّ ما جرى أن يذهب إلى زيارة المرأة الكهلة من أجل هند. لكن ماذا يقول؟ وأين يجد الكلمات؟ هل يعتذر من سلمى لأنّه هرب من بيروت خائفًا من نفسه ومن قَدَر الحرب، أم يتعلّل بالنصيب الذي قرّر أن تبقى هند في العائلة زوجة لشقيقه التوأم نسيم؟ أم يبرّر رعونة شقيقه في تصرّفه مع زوجته، أم يحاول معرفة الحقيقة التي ستبقى مجهولة إلى الأبد؟

عندما زارها في اليوم الأخير من رحلته البيروتيّة شعر أنّه أخرس. جلس كالأهبل ولم يدر ماذا يقول؟

عادت هند من دون حاجة إلى كلماته، لكنّها صارت امرأة أخرى، وستعيش بقيّة حياتها مع زوج لم يعد يشبه نسيم الذي واساها بعد سفر خطيبها، ثم قدّم لقلبها المكسور عرضًا لا يُرفض.

ـ ٣ ـ

لم يشعر كريم بالأسى لأنّه غاب عن مأتم والده، فهو، منذ وصوله إلى مونبلييه، قرّر أن ينسى بيروت والحرب، وأن ينصرف إلى بناء حياته من جديد. لكنّه أحسّ أنّ الهاوية انفتحت في داخله، وشعر بذلك الوادي الذي يتشكّل في أحشاء الإنسان، كي يعلّمه أنّه عبد الزمن، كما كان نصري يقول في لحظات تألّقه مع النبيذ. كان الصيدلي يشرب النبيذ الأحمر بلا حساب، وتكرج دموعه على خدّيه، وهو يستمع إلى أمّ كلثوم تغني لانتظارات الحبّ. يُجيب على نظرات ابنيه المتسائلة عن سبب الدموع، بأنّ صوت أمّ كلثوم يفتح هاوية الإنسان، التي لا قرار لها لم ير كريم والده يبكي إلّا في لحظات الطرب حين يصير صوت المغنّية المصريّة رحمًا كبيرة تتّسع لجميع الرغبات والأحزان. خمر ودموع، هذا هو ماء الحياة، يقول نصري وهو يلتهم لحم الخروف النيء يصنع لُقمًا صغيرة من كبد الخروف النيء لابنيه، بعد أن يزيّنها بالنعناع والبصل، ويشرب، وهو يمسح دموعه طربًا

كان نصري يعتقد في قرارة نفسه أنّه فيلسوف، لأنّه امتلك سرّ الرغبة. وحكاية السرّ جاءت بعد حادثة سوسن وشعوره بالذنب أمام منامات ابنيه المبلّلة بالدموع فقرّر أن يغيّر حياته. توقّف عن زيارته الأسبوعيّة إلى شارع المومسات في بيروت، وقطع علاقته بالمرأة ذات الأظافر البنفسجيّة، وانصرف إلى تطوير مواهبه في تركيب الأدوية، ومزج الأعشاب.

الفصل الجديد من حياة نصري العاطفيّة تمحور حول الصيدليّة، واتّخذ شكلاً غرائبيًا، دفع بابنه البكر الذي كان يدرس الطبّ في الجامعة الأميركيّة في بيروت، إلى الشعور بالغربة عن كلّ شيء. حكاية لم تُقل، لكنّها مكتملة العناصر في ذهْنَي الشقيقين، كأنّهما يعرفان كلّ تفاصيلها، وكأنّها رُوِيت لهما كاملة. حكاية ليست حقيقيّة إلّا لأنّها ابنة الصمت، والهمسات والتململات.

كان نصري الشمّاس مشهورًا بقدراته ككيميائي بارع. طارت شهرة صيدليّة «الشفاء» بعد اكتشافه دواء لمعالجة حروق الجلد. كان الدواء عبارة عن مرهم أسود ثقيل ولزج، لكنّه قفز باسم نصري الشمّاس إلى السماء، بعدما اعتمدته فصيلة إطفاء بيروت كعلاج وحيد للحروق التي تُصاب بها عناصرها لم يبح نصري بسر هذا المرهم الأسود لأحد، وتابع اكتشافاته الكيميائيّة، وصنع ثروة من خلطة كان يبيعها كعلاج للنباتات المنزليّة. قال للجميع إنّه لا وجود لأيّ موادّ كيماويّة في «الدواء الأخضر»، الذي اخترعه من مزيج الأعشاب، وإن هذا الدواء يملك قدرة عجائبيّة لا مثيل لها، لأنّه قادر على إحياء الزرّيعة الميتة، وجعل النباتات تنمو في شكل غريب. «الدواء الأخضر» كان وسيلة نصري للوصول إلى قلوب النساء. كان يرفض الذهاب إلى المنازل، على من تريد علاجه أن تأتي إلى الصيدليّة مع نباتاتها، وكان يمزج المقادير الضروريّة، وكان الدواء الذي يصنعه سحريًا

جاءت سلمى إلى الصيدليّة للمرّة الأولى من أجل شتلة حبق رفضت أن تنمو، وجاءت للمرّة الثانية من أجل ياسمينة ذابلة وجدت الأرملة البيضاء في عالم النبات سلواها الوحيدة. النباتات ملأت شرفتها المطلّة على جامع بيضون، في أسفل الأشرفيّة في بيروت. كانت تزرع أقمار الورد الجوري وتقول إنّ رائحة وردة دمشق تذكّرها برائحة أولادها الثلاثة الذين تركتهم في قريتهم البعيدة، حين أجبرها قلبها على المجيء إلى بيروت. لكنّ منطق القلب لا منطق له، جاءت من أجل الحبّ الذي ملأ قلبها

لتكتشف أنّ هذا القلب نفسه صار مطحونًا بالشوق إلى حبّ آخر قالت لابنتها مرّة إنّها حمارة. «أنا حمارة، تركت ثلاث رجال كرمال رجّال واحد، وشوفي شو صار فيّي، الرجّال مات وترك لي بنت، وأنا عايشة كأنّي ميتة»

لماذا كانت سلمى تكذب على نفسها طوال الوقت؟ لم تفهم هند سرّ كذب سلمى، إلّا بعدما تزوّجت، وصارت هي أيضًا تعيش في كذبة الحنين إلى حبّ تلاشى وصار مُحرّمًا قالت لزوجها، وهي تحذّره من أمّها، إنّ المرأة تكذب. لم تكن سلمى تؤلّف حكايات تتّخذها ستارًا تغطّي بها حياتها، مثلما يفعل الكثيرون، لكنّها كانت تخترع وضعًا مأساويًا تعيش في ظلاله، كي تعطي لحياتها معنى. بكت على أولادها ولبست الحداد على زوجها، ولكنّها عاشت قصّة طويلة مع المحامي الذي عملت في مكتبه. ولم تنته قصّتها معه إلّا عندما اقترح عليها أن يصيرا صديقين، قال إنّه لم يعد يستطيع، وإنّ العمر له حقّ عليه، وإنّه خلص. وكان ذلك بداية الصحراء، كان المحامي في الواحدة والسبعين، وكانت سلمى قد دخلت في الخامسة والأربعين أصابها الرعب من فكرة النهاية، وما يطلقون عليه في اللغة العربيّة اسم سن اليأس. يومها فتح لها الصيدلي الأبواب، وذاقت من مستحضرات الأعشاب التي كان يصنعها طعم رغبة لا ترتوي.

العلاقة بقيت سرًّا، لأنّ الصيدلي كان صارمًا مع نسائه، لا عواطف ولا ميلودراما، عشب ومتعة، وخلص. لا اتّصالات هاتفيّة ولا غراميّات. عندما وصلت شتلة الورد الجوري إلى علوّ تجاوز المتر، قرّر أنّ أوان دخول سلمى إلى المصيدة قد حان. قال لها إنّ عينيها حزينتان، ووجهها الأبيض المشعّ مهدّد بالذبول. قال إنّ سن اليأس لا تبدأ في الأربعين، «بعد بكّير كتير، هيدا مجرّد وهم، يأسك يا مدام نفسي، وأنا عندي الحلّ»، قال إنّه يملك دواءً مصنوعًا من الأعشاب، يُعيد إليها النضارة، ويمنع الذبول عن عينيها «يمكن لأنّي مش عم بقدر نام منيح بالليل»،

قالت. اختفى للحظات قبل أن يعود حاملاً قارورة صغيرة. «متل الدوا الأخضر تبع الورد الجوري»؟ سألت. «خذيه وحطّي ملعقة صغيرة بفنجان شاي سخن قبل ما تنامي، وشوفي كيف رح تنامي قريرة العين» قال إنّها إذا وضعت ملعقة صغيرة من هذا السائل العشبي في كوب الشاي في المساء، وشربته ونامت، سوف تستفيق من النوم امرأة أخرى. «اشربيه وارجعي لعندي بكرا الساعة خمسة المسا، وخبّريني» تردّدت سلمى قبل أن توافق، أخذت القنّينة الصغيرة وذهبت، لتجد نفسها في الصباح كما قال لها الصيدلاني العجوز. كلّ شيء فيها يتفجّر، والرغبة تهبط من شفتيها إلى صدرها أخذت دوشًا باردًا وسط لذعات آذار الباردة، فازدادت اشتعالاً شعرت بأنّ كلّ شيء فيها يتوهّج، وأنّها امرأة أخرى. ووجدت نفسها، من دون أن تدري كيف أو لماذا، في طريقها إلى الصيدليّة. تذكّرت أنّ الرجل قال لها أن تأتي في الخامسة مساء، لكنّها كانت أمام باب الصيدليّة في العاشرة صباحًا رآها، فأشار لها بإصبعه أن تمضي، ورفع يده بأصابعه الخمس كي يذكّرها بالموعد. طفح وجه سلمى باحمرار الخجل والمهانة، فذهبت وقرّرت أن لا تعود. رأت نفسها ذليلة أمام هذا الكهل الذي يبتلع ريقه كلّ الوقت ويتمضمض بالماء ويبصقه لأنّ غدّة الريق عنده أُصيبت بالنشاف. لكنّها وجدت نفسها تعدّ الدقائق، جمد الزمن على عينيها ورفض أن يتحرّك. أخذت حمّامًا ساخنًا ووقفت تتأمّل جسدها العاري أمام المرآة واجتاحتها رغبة لا تقاوم. أحسّت بجسدها كما لم تشعر به يومًا دنت من المرآة كي تسمح للجسد باحتضان صورته، ورأت كيف تدلّت الرغبة كعناقيد من الضوء والظلال. قالت للصيدلي العجوز الذي كان يلتهم ثدييها بلسانه إنّ مياه قارورته أرتها الصورة وظلّ الصورة وهما يلتحمان وينفصلان، وإنّها اكتشفت المرأة الثانية التي تعيش قي داخلها، «اشرح لي يا حكيم شو اسمه هيدا؟».

في الخامسة إلّا ربعًا وجدت سلمى نفسها تمشي من جديد في اتّجاه

الصيدليّة، وكان الرجل في انتظارها، أمسكها من يدها وأدخلها إلى الغرفة الخلفيّة، شمّت روائح عطور وأعشاب وأدوية، شعرت بالدوار، مدّت يدها كي تتهدّى بالحائط، فأمسك بها الصيدلي من ذراعها وأجلسها على الكنباية وبدأ في التهامها قالت له خذني، فجاوبها أنّه سيأكلها، وبدأ يلتهم نهديها، حاولت أن تسأله عن المرآة وكيف رأت الصورة ملتحمة بظلّها، فأمرها أن تسكت، «بلا حكي»، صرخ بها، فسكتت وذهبت إلى داخلها الذي كان يتفجّر بالماء. زحفت العتمة على الرجل والمرأة المستلقيين على سرير الشهوة، وصارا أشبه بظلّين.

وعندما انتهى طقس الحبّ الذي كان يرفض الصيدلي أن يسمّيه حبًّا، لبست سلمى ثيابها استعدادًا للمغادرة، لكنّها رفضت أن تأخذ القارورة الصغيرة. «خلص يا نصري صار عيب، هند ونسيم على زواج، وأنت بعد بدك تكمّل لعبة الحنبلاسة أنا خلص يا حبيبي، ختيرت ورح صير تاتا، بعدين إنت ما بتشبع، خبّرني، أنا بتعطيني هالدوا وإنت شو بتاخد، وكيف جسمك بيقدر يتحمّل وإنت صرت بهالعمر، بعدين أنا خلص تعبت من جسمي يلّي بصير كأنّه مش جسمي»

قال لها إنّه فكّر بالأمر، وإنّها يمكن معها حقّ، «بس شو يعني حقّ، بهالدنيا ما في حقّ»، وقال إنّ دواءه برهن أن لا حدود للجسد. الرغبة متل الزمن، موجودة لأنّها تتكرّر إلى ما لا نهاية.

سألته عن الأيّام الأخرى، فكشّر وقال إنّه لا وجود لأيّام أخرى، وطلب منها أن لا تعود إلى هذا الموضوع.

بعد شهرين على لقائهما الأسبوعي الذي انتظم في الخامسة من مساء كلّ ثلثاء، قالت له إنّها لن تلتزم بالموعد الذي حدّده، وإنّها ستأتي متى تشاء، لأنّها بدأت تغار. فأجابها بنبرة حادّة أنّ لعبة الحبّ والغيرة لا تليق بمن وصل إلى آخر مشوار العمر، وأنّها إذا كانت تبحث عن الحبّ، فعليها

أن تجده في مكان آخر، «لأنّه قلبي ما بقى يساع»

هل خرقت سلمى الاتّفاق وجاءت في يوم آخر لتجد أبواب الصيدليّة مقفلة؟ هل شعرت بالغيرة أم أنّها اكتفت بلعبة «دواء الحبّ»؟ وهل طالت العلاقة سنوات مثلما يعتقد كريم؟

لا أحد يعرف الحكاية الحقيقيّة سوى سلمى التي لم تروها لأحد. نصحت ابنتها، التي كسر كريم قلبها بسفره النهائي إلى فرنسا، بالقبول بعرض نسيم للزواج. قالت إنّ خبرتها في الحياة علّمتها أنّ «كلّه متل بعضه، المهمّ أن تعرف المرأة كيف تجعل روحها تحلّق فوق جسدها، عندما تمارس الحبّ. الحبّ يا بنتي مش شعور، الحبّ ممارسة»

من أين جاءت المرأة التي هجرت قريتها وأولادها من أجل رجل آخر بهذه القدرة على التفلسف؟ هل صحيح أنّها جاءت إلى نصري مرّة من دون أن تشرب الدواء، وأن الرجل عندما شعر بأنّ المرأة ليست منتشية في رغبتها بل تتفرّج عليه، ارتخى كلّ شيء فيه، ولم يعد قادرًا لبس ثيابه بسرعة، وقال «خلصت القصّة»

لكنّ القصّة لم تخلص، لأنّ سلمى حافظت على علاقتها بنصري من أجل نباتاتها، الغريب أنّها لم تشعر بأنّ الرجل خدعها قالت له مرّة إنّها تشكره من أجل دوائه العجيب، الذي جعلها تتذوّق طعم آخر العنقود، فابتسم ولم يجاوب. لكنّ العلاقة سوف تتّخذ منحى آخر حين سيجد نصري نفسه مجبرًا على مرافقة ابنه نسيم، إلى زيارة الستّ سلمى في بيتها، من أجل طلب يد ابنتها الوحيدة.

عندما علم كريم بنبأ وفاة والده، شرب قنّينتي نبيذ أحمر، ثم جلس في الصالون، وأمامه كأس كونياك وهو يترنّح طربًا بصوت أمّ كلثوم، الذي يلعلع في البيت، تغني على إيقاعات الشيخ زكريا أحمد «أنا في انتظارك» طلبت منه برناديت أن يخفض الصوت، «لأنّنا نعيش في بلد متحضّر هو

فرنسا»، فشتمها بالعربيّة بصوت منخفض. أحسَّ بالهاوية تنفتح في داخله، وسمع صوت نصري المبطّن بالنبيذ وهو يقول إنّ الإنسان كائن أحمق، لأنّه لا يستطيع أن يفهم أنّ موته الفردي ليس مهمًّا إلّا بوصفه إحدى علامات الزمن.

هل كانت علاقة سلمى بوالده سبب نفوره من هند، وإحساسه بضرورة أن يهرب من لبنان، ولا يعود إليه أبدًا؟

حين سافر كريم إلى مونبلييه كان خائفًا، بسبب موت صديقه خالد النابلسي في طرابلس بتلك الطريقة الوحشيّة. هل كان النابلسي صديقه؟ هو بالكاد يعرفه، لكنّه لا يعرف لماذا اختاره النابلسي من بين خلق الله جميعًا كي يروي له كيف رأى موته في عيني الجنرال؟ رأى الموت ومات ما هو شكل الموت؟ هل يرى جميع الناس موتهم قبل أن يموتوا؟

كريم يمضي إلى الماضي، ليكتشف أنّه لا يستطيع زيارته، تأتي الأشياء وكأنّها تسقط دفعة واحدة وتتراكم بعضها فوق بعض. الأب يموت زاحفًا على أرض الصالون في بيت نسيم، وصورة الرجل تهيمن على خيال ابنه في المدينة الفرنسيّة الجنوبيّة. يحمل الأب كأس النبيذ الأحمر وهو يعلن أنّه لا يشرب الماء كانت نظريّة الصيدلي الطبّيّة تقوم على افتراض طريف. فعندما يُسأل في المقهى لماذا لا يشرب كوب الماء المثلّج قبل أن يبدأ في شرب قهوته التركيّة، كان يجاوب بأنّه لا يقترب من الماء، لأنّه مضرّ بالصحّة. «دم الإنسان مليان حديد، وإذا حطّينا ميّ على الحديد شو بيصير؟ الحديد بيصدّي، منشان هيك أنا ما بشرب إلّا عصير العنب، النبيذ ما بيصدّي ولا بيخلّي شي يصدّي»

الرجل الذي اخترع نظريّة الصدأ كان يبدأ نهاره بشرب ليتر من الماء البارد. ففي الصباح الباكر لا تكون شمس الإنسان قد أشرقت بعد، وتكون الروح في برزخ بين الحياة والموت في تلك اللحظات حين يكون الدم

باردًا، علينا أن نشرب الماء كي ننظّف البدن. في الصباح فقط، لا يستطيع الماء أن يؤكسد الدم. الصباح للماء، والنهار والليل للنبيذ. الاستثناء الوحيد هو يوم الأحد. ينهض نصري باكرًا يشتري لحم الخروف ويعدّ الكبّة النيئة والتبّولة والشواء، ويُقيم مائدة العرق، حيث ينكسر سمّ الماء بالخمر، فيصير الماء أبيض كالحليب. لا يلائم النيء سوى خمر قطّرته النار، فصار صفاؤه أقوى من الماء.

الأحد كان يوم العرق، يجلس الأب على رأس المائدة، وينتشي بالكلام عن النساء في وصفهنّ كيمياء العالم. يأكل ويحكي، يتحدّث عن لحم الخروف الذي يجب أن لا يؤكل إلّا نيئًا، فالخروف صار رمزًا لأنّه لا يحتاج إلى النار، إنّه العلامة الأخيرة التي تصل الإنسان بماضيه، وتذكّره بنكهة البداية.

لم يكن الابنان يفهمان الصلة بين الكيمياء واللحم، وكانا يشعران بالتقزّز من رائحة الدم في الكبد النيئة، ولا يأكلان الكبّة إلّا بعد تغطيسها بزيت الزيتون، كي يشرب الزيت طعمها لكنّ نكهة الأشياء سوف تتغيّر في فرنسا

بعد شهرين على زواجه، وكان ذلك يوم الأحد، وبينما كان كريم ينتظر كي تنتهي برناديت من زينتها، كي يذهبا إلى ساحة «الكوميدي» ويتغدّيا في أحد المطاعم، شعر بالرغبة في الكبّة النيئة، وبكأس العرق، وبالتكلّم مع زوجته عن كيمياء النساء. منذ مجيئه إلى هذه المدينة الفرنسيّة، لم يشرب الطبيب اللبناني نقطة عرق واحدة. انصرف إلى النبيذ الفرنسي الذي اكتشف فيه نكهة الحياة، وصار خبيرًا في الأنبذة، وفي ملاءمتها لأصناف المطبخ الفرنسي، الذي تبنّاه بوصفه أعظم مطبخ في العالم. لكنّه حين صار في بيته، ومع امرأة تزوّجها، أحسّ أنّ البيت لا يستقيم من دون عرق يوم الأحد. قال لزوجته وهما يأكلان الديك بالنبيذ، إنّه سوف يدعوها في الأسبوع المقبل إلى غداء لبناني يعدّه في البيت. نظرت إليه الممرّضة

بعينيها الزرقاوين كأنّها لا تفهم. كريم كان يتجنب الكلام عن بلاده، ويرفض دعوتها إلى المطعم اللبناني في المدينة، ويقول إنّ الطعام اللبناني ثقيل على المعدة، ويذكّره بما قرّر أن ينساه. لم يحافظ من نكهة بلاده إلّا على القهوة التركيّة، التي سوف يتوقّف عن شربها بعد الزواج، مستعيضًا عنها بالإكسبرسو

سألته ماذا جرى، فروى لها عن طقوس أبيه يوم الأحد. ابتسمت المرأة وقالت إنّ والدها نبّهها إلى أنّ هذا الحنين سوف يظهر قريبًا

«ماذا قال»؟ سألها

روت أنّ والدها قال إنّ الرجل عندما يتزوّج، يعود إلى أهله ووطنه.

«لكنّه يريد أن ينسى لبنان، إنّه فرنسي أكثر منك»، أجبته، «عدا أنّني لا أمانع، أنا تزوّجت لبنانيًا، وأريده أن يكون لبنانيًا قليلاً، فهذا أفضل»

قالت إنّ والدها حذرها من الرجل الشرقي، الذي يتسلّط على زوجته ويضربها

«وصدّقتيه»؟ سأل كريم.

«أكيد لا»، قالت.

«أخطأت، كان يجب أن تصدّقيه»، قال، ثم انفجر ضاحكًا وهو يرى كيف انقلب وجهها، وسقطت شفتها السفلى، علامة الحرد. مدّ يده ولمس شفتها، وأحسّ بالرغبة. كانت تعرف منذ لقائهما الأوّل أنّ يده حين تمتدّ إلى شفتها السفلى، فهذا يعني أنّه يريدها الآن، وأن بقاءهما في البار أو المطعم بات مستحيلاً

قالت إنّهما لم يأكلا بعد، «انتظر قليلاً، عدا أنّك تعلم أنّني لا أحبّ الحبّ بعد الظهر».

«أنا لست متسلّطًا ولن أضربك، لكنّ الدنيا هيك» قال لها إنّ المشكلة لغويّة، وإنّ العرب يسمّون الأب أو الزوج ربّ البيت، وإنّه اكتشف أنّ اللغة العبريّة تستخدم كلمة بعل للزوج، وأنّ الكلمة نفسها تستخدم في اللغة العربيّة الفصحى البعل في اللغة الفينيقيّة ـ الكنعانيّة القديمة تعني السيّد، لكنّها كانت اسم كبير الآلهة، فالرجل هو البعل أي الإله.

نظرت إليه بعينيها السماويّتين وقالت إنّها لا تحبّ هذا النوع من المزاح. أنهيا طعامهما بصمت، وعندما عادا إلى البيت، لم يحاول أن يواقعها في القيلولة، بل نام إلى جانبها كالملاك.

استيقظت برناديت في صباح الأحد التالي على قرقعة في المطبخ، لتجد زوجها يفرم البقدونس والبندورة، ويمزج لحمًا مفرومًا بالبصل، والأواني مكدّسة في المجلى اقتربت كي تساعده فطلب منها الخروج لأنّ وجودها يفسد المفاجأة. قال إنّه سيعدّ لها القهوة بالحليب ويأخذها إلى الصالون.

في الواحدة بعد الظهر كانت المفاجأة مائدة مليئة بالخضار، تتوسّطها التبّولة والكبّة النيئة. سكب العرق وشربا، قالت إنّ طعم هذا «الريكار» مختلف، «ريكار»! قال غاضبًا «مثل الريكار»، قالت. فشرح لها أنّ العرق هو خلاصة العنب الأبيض، وأنّه يُمزج بالينسون عند تقطيره. إنّه أرقى ما أنتجته الحضارة العثمانيّة في مرحلة صعودها، ولا يمكن مقارنته بخمر اليانسون الذي يُصنع منه الريكار صبّ لها صحن تبّولة، فأكلت وقالت إنّ هذه السلطة طيّبة، لكنّ فيها طعمًا غريبًا شرح لها وهو يعطيها قطعة من رأس البندورة الكبير الذي جوّفه، ووضع فيه الملح والبهار والثلج والعرق، أنّ أهل لبنان كانوا يرشّون العرق على التبّولة التي ليست سلطة، كما قالت، بل هي جنينة الله إنّها كلّ الخضار التي تعطيها الأرض ممزوجة بالبرغل وشرح لها أنّ كلمة جنينة تصغير لكلمة جنّة، لأنّ الجنّة التي وعد

بها الله الإنسان هي حديقة لا نهاية لها، وخضارها وفاكهتها ومياهها لا تنضب.

أكلت برناديت من حديقة الله، وهي تشعر بطعم العرق الحارق، وبدأ لسانها يتعوّد على نكهة العرق التي تتغلغل في البقدونس، حين جاء دور الكبّة النيئة، قدّم لها صحنًا مزيّنًا بالنعناع والبصل الأبيض، وضعت المرأة الشوكة في الصحن، حين سمعته يقول إنّه لا لزوم للشوكة، الكبّة تؤكل بالخبز واليد. وضعت لقمة في فمها، وهي تحاول أن تتآلف مع نكهة هذا الطعام الغريبة. أغمضت عينيها كي تركّز على استقبال الكبّة، ثم سألت ما هذا؟ حاول أن يشرح لها أنّ الكبّة هي مزيج من لحم الخروف والبصل والبرغل والملح والبهارات، وأنّها تشبه «الستيك تارتار»

«الآن فهمت»، قالت.

قفزت إلى المطبخ وعادت ببيضة نيئة، وقبل أن يتسنى لكريم المُصاب بالدهشة أن يقول أو يفعل شيئًا، فقست البيضة النيئة في صحن صغير، وخفقتها بالشوكة استعدادًا لوضعها فوق صحن الكبّة.

خطف كريم الصحن من يد زوجته، فاندلق البيض النيء على المائدة.

«شو عم تعملي»؟ صرخ بالعربيّة

«c'est du steak tartare, non?»

«أكيد نو، شوفي شو عملت»

انفجرت المرأة الفرنسيّة بالضحك، أخذت فوطة كي تُزيل آثار البيض، فعبقت المائدة برائحة الزنخة. أمسك بصحن الكبّة ورماه في المزبلة، وحاول أن يشرح لها أنّ البيض جعل كلّ شيء زنخا بحث عن كلمة زنخة بالفرنسيّة فلم يجدها، «odeur âcre»، لا «pourriture»، لا «relent acide»، أكيد لا. كيف يشرح لها معنى كلمة زنخة. لجأ إلى

القاموس فلم يجد شيئًا، فاكتفى بأن قال «c'est une odeur désagréable».

قالت إنّها لم تفهم شيئًا، وإنّ تصرّفه لا يشبه تصرّفات الرجل المتحضّر الذي تزوّجته. حاول استرضاءها، قال إنّ الحقّ ليس عليها بل على اللغة الفرنسيّة التي لا وجود فيها لكلمة زنخة.

لكنّ الأيّام سوف تغيّر كلّ شيء، صارت برناديت تعدّ التبّولة والكبّة وأصناف اليخاني المختلفة. لم تكن ترشّ العرق على التبّولة، لأنّها عرفت أنّ هذا العادة انقرضت في لبنان، وأنّ نصري الشمّاس كان آخر لبناني يرشّ العرق على حديقة الخضار هكذا سمّت الفتاتان الصغيرتان التبّولة، التي صارت طبقًا شبه يومي لكنّ المسألة اللغويّة سوف تتفاقم، وسوف تصل إلى ذروتها مع إصابة كريم بسعال الكلام مع زوجته، عندما أبلغه شقيقه أنّه تزوّج هند.

التقى الدكتور كريم شمّاس الممرّضة برناديت سيزار في بار Tex Mex كان الطبيب اللبناني سكران، شرب كمّيّة لا تُحصى من البيرة والتيكيلا لا يدري كيف وصلت الفتاة الشقراء ذات العينين الزرقاوين إلى سريره. وفي الصباح ضربته المفاجأة حين قالت له إنّها تعمل ممرّضة في مستشفى سان برنار حيث يعمل.

قال إنّه لم ينتبه إلى وجودها، ربّما لأنّ ثوب الممرّضات الأبيض صار مثل الحجاب، وأنّه يراها الآن كأنّه يراها للمرّة الأولى.

«أنتَ والممرّضات»! قالت.

«أنا»!

كيف لم يلاحظ وجود هذه المرأة التي كان يبحث عنها منذ وصوله إلى فرنسا لم يستطع أن يقترب من أيّ امرأة شقراء، ذات عينين زرقاوين جميع النساء اللواتي التقى بهن كنّ سوداوات الشعر.

سوف يقول لبرناديت إنّه جاء من بيروت هاربًا من الشمس التي تدبغ الأرض والأشجار والنساء باللون الأسمر

«أوراق الأشجار عندكم ليست خضراء»؟ سألت بتعجّب غير المصدّق.

«مش بالضبط، يعني، هيدا معناة الحكي، «c'est le sens de la parole» قال فرأى الحيرة في عينيها، حاول أن يشرح لها أنّنا حين نقول هذا معنى الكلام، فهذا يعني أنّنا لا نقصد المعنى، أو أنّ المعنى لا معنى له. ضحك بصوت مرتفع، وطلب منها أن تنسى الموضوع

اكتشف كريم حانة Tex Mex، في مونبلييه بالصدفة كان مارًّا في الشارع المعتم، حين استهواه الاسم. دخل وشرب البيرة. وفجأة التقت عيناه بعيني صوفي. كانت المرأة الطويلة الممتلئة تقف خلف البار وتضحك والسكارى من حولها رأى ثدييها الكبيرين الصلبين يلعلعان من فتحة قميصها تقدّم نحو البار ليجد نفسه تحت النهدين الضخمين، في ظلّ القهقهات العالية. التفتت إليه صوفي وصرخت: زبون جديد، يجب أن يتذوّق التيكيلا المملّحة ارتفع الصخب والهمهمة حول البار، وشعر كريم أنّه لا يفهم ماذا يُقال. وقف ينتظر كأس التيكيلا فكّت المرأة أزرار قميصها الأصفر، فخرج نهداها كمفاجأة صاعقة، أخذت قنّينة التيكيلا وسكبت ما بين النهدين، رشّت قليلاً من الملح، وهي تمسك برأس كريم. رأى الطبيب اللبناني نفسه ينحدر مع قطرات العبير المسكر ويلتهم ما بين النهدين، وأحسّ أنّ المرأة تضغط رأسه بنهديها الضخمين المضمومين وأنّ الدنيا تدور به.

أبعدت رأسه وسكبت من جديد، واندفعت الوجوه والشفاه، رأى كريم وجهه بين الوجوه، حاول أن يلتقط القطرات بلسانه، وبدأ الدوار، تراجع إلى الوراء لتلتقي عيناه بعيني فتاة فرنسيّة منمنمة الوجه، تبتسم له

وتهز رأسها لا يذكر ماذا قالا، لكنّه في الصباح، عندما رأى الفتاة في سريره، واكتشف أنّها الممرّضة برناديت التي تعمل معه في المستشفى، شعر بما يشبه الخجل أشعل سيجارته الصباحيّة الأولى، وهو يتأمّل جمالها الذي حجبه رداء الممرّضات الأبيض عن عينيه طوال الأشهر الماضية. سألته لماذا قال في الأمس إنّ اسمه سينالكول. «ضحكت عليك»، قالت. «تلحوس التيكيلا وتقول إنّ اسمك سينالكول؟ c'etait sympa»، شرحت له أنّ سينالكول كلمة إسبانيّة تعني بلا كحول، قال إنّه لا يذكر، ثم إنّ هذا اسم أحد أصدقائه، وإنّه لم يفكّر في معنى الاسم.

قال إنّه لا يعرف الرجل، «اتّخذته صديقًا بيني وبين نفسي، لأنّه كان كالشبح، الحرب خلقت شبحًا لم يلتق أحد به، ربّما لم يوجد الرجل، لكنّه صار اسمًا، وأنا اعتبرته صديقي لأنّه سحرني»

«كيف سحرك وأنت لم تلتقِ به»؟ سألت.

«سحرني اسمه»، أجاب. «إنّها قصّة طويلة، سأخبرك عنها في أحد الأيّام».

سمعها تقول «أنتم اللبنانيّون»! وتسأله أين يضع القهوة، لأنّها في حاجة إلى فنجان قهوة بالحليب.

قفز من سريره وهرول إلى المطبخ ووضع الركوة الصغيرة على النار، شارحًا للممرّضة الفرنسيّة أنّه لا يشرب القهوة الفرنسيّة بالحليب في الصباح بل يشرب القهوة التركيّة.

«أنت تركي»! قالت متعجّبة، «كنت أظنّك لبنانيًّا»

قال إنّ القهوة التركيّة هي قهوة لبنانيّة أيضًا، وإنّها spécialité libanaise، ضحكت ولم تفهم.

ومع الأيّام سوف ينسى كريم طعم القهوة التركيّة، لأنّ برناديت

تكرهها، ولن يُعيد اكتشاف طعمها القوي وشهقة القلب التي تصاحب القطرات الصباحيّة الأولى منها، إلّا مع غزالة، الخادمة التي أعادت طعم الأشياء إلى لسانه.

حين غادر كريم بيروت إلى فرنسا، كان وعيه مغطًّى بالضباب. لا يذكر الآن من الأشهر الأولى من إقامته في مونبلييه سوى ذلك الضياع الذي جعله يقبل كلّ شيء. كان كمن يريد أن ينسى من هو، وكيف انزلقت به الأشياء سوف يقول لبرناديت إنّه فقد طعم الأشياء، وإنّه يريد أن يتزوّجها كي يستعيد روحه.

فوجئت الممرّضة الفرنسيّة بعرض زواج يأتيها بعد ستّة أشهر من لقائها بهذا الطبيب اللبناني الغريب الأطوار قالت له إنّها تخاف، وإنّها تفضّل أن يسافرا إلى لبنان كي تتعرّف إلى عائلته قبل أن تقبل عرضه.

أشاح وجهه وقال لا، «لبنان لا، أنا لن أذهب إلى لبنان لا الآن ولا بعد مئة سنة، تستطيعين أن ترفضي إذا شئت، لكن لن تذهبي إلى لبنان».

لم تصدّق برناديت أذنيها حين سمعت كريم يقول إنّه سيذهب إلى لبنان من أجل بناء مستشفى للأمراض الجلديّة في بيروت. قالت له إنّه تغيّر كثيرًا، «أنت لست الرجل نفسه الذي تزوّجته»

«وأنتِ لستِ المرأة نفسها»، أجابها وانفجر ضاحكًا

قال لنسيم وهو يروي له حكايته في فرنسا، إنّه اكتشف هناك وجهه الآخر «كأنّي مش أنا، كأنّي كنت هونيك واحد تاني»

«وهلّق، رجعت أنت»؟ سأله شقيقه.

«لا، هلّق صرت واحد ثالث»، أجاب كريم.

هناك في فرنسا، لبس كريم وجه الطبيب الذي سيصيره. وجد نفسه في حلقة من الأطبّاء حول البروفيسور ديديه ستروفه، وهو طبيب فرنسي من

أصل روسي، كان أستاذًا لطبّ الجلد في جامعة مونبلييه. نجح كريم في امتحان الإنترنا، وكان الأجنبي الوحيد وسط مجموعة من الطلبة الفرنسيّين المتفوّقين. في لقائه الأوّل مع أستاذه الروسي الأبيض قال إنّه كان يريد دراسة الطبّ النفسي، لكنّه خاف. قال لأستاذه، وهو يبلغه قراره بالتخصّص في طبّ الجلد، إنّه خاف من نفسه. أمام مريض تتفكّك روحه، عليك أن تمتلك ذاتًا لا تتزعزع، وأنا لا أستطيع

أدهشه الدكتور ستروفه بحديثه عن الجلد في وصفه الأنا الآخر للإنسان، «أنا الجلد»، كان يقول، وهو يشرح لتلاميذه، إن الجلد هو أهمّ عضو في جسم الإنسان. «وظيفة الجلد الأساسيّة، تكييف الإنسان مع الحرارة الخارجيّة. من دون جلد نصير عراة أمام الموت»، قال الأستاذ في درسه الأوّل، «هل تعلمون أنّ وزن جلد إنسان يزن ٧٠ كيلوغرامًا، هو ١٤ كيلوغرامًا، وأنّ مساحة جلده هي متران مربّعان» تحدّث عن جلد الإنسان، كأنّه يحكي عن عمل فني، ورسم أمام طلّابه صورة عن عضو يلخّص كلّ الأعضاء، وعن شعور يمتدّ على مساحة جسم الإنسان.

جلد المتعة وجلد الألم، جلد يحدّ الجسد وجلد يصله بالآخرين، جلد يعرق وجلد يحمر، جلد يدافع عن الإنسان، وجلد يجعله هشًّا أمام الآخرين. قال الأستاذ إنّ الإنسان يستطيع أن يحيا من دون حواسّه الأربع النظر والسمع والشمّ والتذوّق، لكنّه لا يستطيع أن يعيش من دون حاسّة اللمس، لأنّ من يفقد جلده يموت.

قال كريم شمّاس لأستاذه الروسي: وجدتها، لا دم ولا جنون، نحن في حضرة اللمس، وغوايات الأصابع.

ودخل في عوالم الجلد، وفي العلاقة بين الأبيدرم والديرم والأيبودرم. قال لبرناديت التي بدأ بطنها يتشقّق، بعد ولادة طفلتهما الثانية، «إنّه الديرم يا عزيزتي، الفيبر بدأ يتكسّر، والبياض هو المشكلة،

بياضك بدأ يتشقّق، وأستطيع معالجته بالمراهم أو بالليزر، كما تريدين»

سحر أمراض الجلد أنّ علاجها يشبه التعامل مع الظواهر الفنّيّة، أي أنّه كالموسيقى. على الطبيب أن يكتشف إيقاع جسد مريضه، وعندها تنحلّ المشكلة، ويصير العلاج بالمراهم أشبه باكتشاف عناصر الغواية. بالطبع هناك بعض الأمراض التي كانت مستعصية مثل السفلس، وجاء البنسلين كي يقضي عليها لكنّ هناك بقايا هذه الأمراض، التي كانت تُثير في كريم شمّاس القشعريرة كمرض عرف الديك، الذي يسمّونه بالفرنسيّة h.p.v. ، وهو كناية عن دمّل قرب الخصيتين والقضيب، وصار علاجه ممكنًا بفضل المضادّات الحيويّة.

العالم الذي بناه الأستاذ الروسي الأبيض أنقذ كريم سوف يقول لمنى، وهو يملحس على فخذها البيضاء المبلّلة بالماء، إنّه يستطيع أن يقرأها من خلال علاقة يده بجلدها، يقرأ تضاريس الروح، والتباسات الحبّ.

قالت إنّها جاءت كي تودّعه، ولم تأتِ من أجل أن تستمع إلى محاضرة طبّيّة

قال إنّه لا يحاضر بل يروي مشاعره، ويكتشف أنّ الحبّ لا يمكن أن نقرأه إلّا لحظة نهايته. أخطأ الشعراء حين كتبوا عن الاشتعال في أوّل الحبّ، لأنّه اشتعال الوهم بالوهم، الحقيقة تُقرأ في النهاية، لحظة الخسارة، وحدهم الخاسرون يستطيعون أن يكتشفوا المعاني.

«بلا فلسفة» قالت، وانشغلت بتجفيف الماء عن جسدها المبلّل.

سكت كريم، شعر أنّه لا يحقّ له أن يحكي، فعندما تكتشف أنّ اللعبة قد وصلت إلى نهايتها، فهذه لحظة لا يليق بها سوى الصمت.

الجسم وحده يحكي، هكذا علّمته الدراسة في مونبلييه، الأصابع وراحة الكف تختصر العالم بأسره

روى لأستاذه الروسي حكاية «السيّالات»، التي بنى عليها الدكتور داهش مذهبه فضحك الطلّاب، وضحك الأستاذ. «نحن لسنا في درس عن السحر والشعوذة»، قال الأستاذ.

لم يكن كريم يؤمن بهذه الخزعبلات، كان يريد فقط أن يدعم فكرة «أنا ـ الجلد»، التي يؤمن بها أستاذه. حكاية والده القصيرة مع الإيمان بالعقيدة الداهشيّة، التي انتشرت في أوساط الأطبّاء اللبنانيّين، خلال الخمسينيّات انتهت بتعلّم والده فنّ الشعوذة. لكنّ ما أثار فضوله هو ذكرياته عن أهمّ طبيب جلد في بيروت، كان يُدعى الدكتور مارسيل خنيصر، وكان على المذهب الداهشي، الذي أسّسه رجل سرياني من بيت لحم، احتلّ الحياة الاجتماعيّة والسياسيّة في لبنان الخمسينيّات كانت نظريّة الدكتور داهش تقول إنّ جلد الإنسان يسيل، ويستطيع أن يجعل للفرد حضورًا في أكثر من مكان واحد. وهذا ما دفعه ودفع الكثيرين من أمثاله من الأطبّاء والصيادلة إلى الإيمان بأنّ السحر هو أرقى أشكال الدين.

أراد أن يقول إنّ سحر الجلد الإنساني يذكّره بالسيلان، الإنسان يسيل من أطراف أصابعه، وما على الطبيب الناجح سوى أن يلتقط هذا التدفّق كي يعالج مرضاه، ويصل معهم إلى اكتشاف التوازن الذي يقضي على كلّ الأمراض.

نصري، الذي اكتشف أفضل مرهم لعلاج الحروق، كان يرى أنّ المرض الوحيد الذي لا علاج له هو الموت. «الموت مرض، هذا هو المرض الوحيد الذي لا يمكن علاجه إلّا بالرغبة، حين تكون الرغبة يختفي الموت، وحين تتلاشى لا يبقى أمام الإنسان من خيار سوى الاستسلام»

ما معنى أن أسافر غدًا إلى فرنسا، سأل كريم نفسه، وهو يفتح عينيه على صوت الرعد البيروتي، ويستمع إلى شنين المطر، الذي يلفّ المدينة؟

رأى شبح والده يقترب منه، سمع خشخشة الثياب الواسعة، التي كان

نصري يصرّ على لبسها، كي يخفي كرشه الصغيرة، رأى يد المرأة تدفش والده، رأى والده يسقط أرضًا، وشاهد دمًا أسود لزجًا

فتح عينيه على صوت جرس المنبّه، حلق ذقنه بسرعة، ونزل الدرج الطويل المعتم إلى مدخل البناية، حيث كانت سيّارة الأجرة في انتظاره.

ـ ٤ ـ

جاءت منى إلى مطعم «بينوكيو» لابسة فستانًا أخضر، وكان كلّ شيء فيها يتماوج. تتفجّر الثلاثون في قدّها الممشوق، ووجهها الطويل الرفيع يخفي غلالة من الحزن، وعويناتها تغطّي جزءًا من وجهها وتقيم مسافة بينها وبين الأشياء.

لا يدري كريم كيف وصلت الأمور إلى هنا التقى بها في منزل شقيقه، أتت مع زوجها المهندس المعماري أحمد الدَكيز إلى العشاء. تحدّث المهندس طويلاً عن مشروع بناء المستشفى الذي صمّمه، وبقيت زوجته صامتة طوال الوقت. قبل نهاية السهرة بدقائق، التفتت إلى كريم وسألته عن الحياة في فرنسا، وأبدت تعجّبها من قرار الطبيب العودة إلى لبنان. «حدا بيرجع لهون»؟ سألت. وعندما جاوبها كريم بأنّ الإنسان في حاجة إلى جذوره، انفجرت ضاحكة. «أحمد خبّرهم عن جذورك، وعن أجدادك الصليبيّين»

يومها روى أحمد شذرات من حكايته التي لا تُصدّق، وانفجر الجميع ضاحكين.

«يعني أنت صليبي ومسلم»! قال كريم ضاحكًا

لكنّ منى لم تضحك للحكاية، قالت إنّها تريد الهجرة إلى كندا.

«زوجي ما قدر ياخدني على فرنسا، لأنّه الفرنساويّة كمان عم بيفتّشوا عن جذورهم، بس هلّق رح نروح على كندا، هيدي بلاد قبّعت جذورها، يمكن هيك أحسن»

سألت كريم عن تشقّق الجلد، وقالت إنّها يجب أن تزوره في عيادته، لأنّها تعاني من مشكلة صغيرة.

«وين المشكلة»؟ سألها

«ما في شي بيحرز، شويّة تشقّق بالبطن بعد الولادة، إيمتى بقدر إجي على العيادة؟»

«بس أنا ما عندي عيادة ببيروت»، قال، وأعطاها رقم هاتفه.

لم يكن كريم يريد شيئًا من هذه المرأة التي بدت له باهتة. بياضها باهت، وجمالها باهت. كما أنّ الطريقة التي تدوّر بها شفتيها وهي تتكلّم العربيّة، على طريقة الفرنكوفونيّين اللبنانيّين الذين تربّوا في مدارس الإرساليّات الأجنبيّة في بيروت، أثارت غيظه.

هنا في بيروت، اكتشف أنّه لم يتوقّف عن حبّ هند التي صارت زوجة شقيقه. لكنّه لا يدري ماذا يفعل بهذا الحبّ الذي صار كابوسًا

قال لها إنّه لم يتركها لأنّه توقّف عن حبّها، بل لأنّه كان خائفًا، والخائف لا يستطيع أن يشعر إلّا بالخوف.

قالت إنّها لا تصدّقه، لكنّ هذا لم يعد مهمًّا الآن، فهي تشعر أنّها يجب أن تغادر هذه العائلة، ولا تدري كيف.

قالت إنّها ليست غبيّة كأمّها «أمّي لحقت الحبّ وليك شو صار، كلّهم ماتوا، أربع رجال حبّتهم ماتوا واحد ورا التاني، ما بعرف إذا حبّت بيّك، بس بعرف أنّها قتلت كلّ الرجال يلّي حبّتهم، ولمّا إجا دور بيّك، كان لازم أنا قوم بالمهمّة بدالها».

استدارت هند وسألته إذا كان لا يزال يحبّها؟

الآن، حين يتذكّر السؤال يشعر بأنّ ما جرى لم يكن حقيقيًّا، بل أشبه بمنام. هل يُعقل أن تسأله هذه المرأة عن الحبّ، وسط كلامها عن القتل؟

اتّصلت به منى كي تأخذ موعدًا، فدعاها إلى العشاء في المطعم.

«عشا، لا، مستحيل، شو ناسي إنّي مزوّجة»

«وأنا كمان مزوّج»، أجابها ضاحكًا

اتّفقا على تناول الغداء في مطعم «بينوكيو»، حيث أكلا البيتزا وشربا النبيذ.

لم تسأله عن تشقّق الجلد، مثلما كان يتوقّع، تحدّثا عن كلّ شيء، أي عن لا شيء، ورأى في عينيها ذلك البريق الذي جاء من لا مكان، وجعله يرى في بياضها الباهت التماعات تتسلّل من العينين والشفتين.

كانت منى تمتدّ إليه، تجلس قبالته في المطعم، وتنحني إلى الأمام، وتمدّ يدها اليسرى التي وضعتها مفتوحة على الطاولة.

أمسك راحة يدها

«شو عم تعمل»؟ سألت.

«عم بمسك إيدك»، قال.

«ليش»، قالت.

«اسألي إيدك»، أجاب.

قال لها وهو يرفع راحة يدها ويضعها على أذنه قبل أن يقبّلها، إنّه يستمع إلى صوت الأيدي. «أصابع الإيدين هي مقياس الجمال».

«والعيون»؟ سألت.

رأى العسلي الشفيف يلتمع في عينيها

«عيونك حلوين»، قال. «كنت ناوي أتخصّص بطبّ العيون، بس بفرنسا علّمني أستاذي أنّ الجلد هو الإنسان، واليوم اكتشفت الأصابع»

«بس طبّ العيون شاعري أكتر»، قالت.

«ما في شي شاعري بالطبّ إلّا الحكي عنه، بتعرفي كنت عم بكذب عليكِ»، قال: «أنا بالحقيقة كان طالع على بالي بالأوّل أتخصّص بالطبّ النفسي، بس ما اقدرت كمّل، حسّيت حالي رح جن، المجنون ما في يعالج مجنون»

سحبت يدها من يده، وقالت، وهي تضحك، إنّها تحبّ المجانين

أوصلها إلى بيتها بسيّارته، وقالت وهي تغادر إنّها ستستشيره كطبيب في المرّة المقبلة.

رأى كريم نفسه ينزلق. كان الحرّ البيروتي، وكانت هذه المنى التي تتفجّر باللون الأخضر لا يعرف كريم أيّ لون يحبّ. حين كانت زوجته الفرنسيّة تسأله عن الألوان كان يجيب بأنّه لا يبالي. لكنّه اكتشف اليوم أنّه يحبّ اللون الأخضر بدا الأخضر على شكل فستان قصير يصل إلى ركبتين بيضاوين، محتضنًا خصرًا دقيقًا يسري منه موج يغطّي الساقين

كان كريم يعيش حمّى غزالة حين جاءت منى، لكنّه لم يجرؤ أن يضع علاقته بالخادمة في مصافّ الحبّ هل يُعقل أن يكون عاشقًا لخادمة؟ أقنع نفسه أنّها مجرّد شكل للتسوسن، صحيح أنّها ليست مومسًا، ولا علاقة لها بمشهد تلك المرأة البنفسجيّة الأظافر، لكنّها مجرّد علاقة جنسيّة لا أفق لها

اتّصلت به منى بعد خمسة أيّام طالبة موعدًا، اقترح عليها المطعم نفسه، فأجابت أنّها تريد منه موعدًا من أجل استشارة طبّيّة، وهذا مستحيل في المطعم.

«شو رأيك تمرّ علينا على البيت، كمان أحمد بيحبّ يشوفك»

«مين أحمد»؟ سألها

انفجرت ضاحكة، فاقترح عليها أن يكون الموعد في منزله، في الثانية عشرة والنصف ظهر يوم الجمعة. اقترح يوم الجمعة لأنّ غزالة لا تأتي في هذا اليوم، وقبل أن تقفل الخطّ، طلب منها أن تلبس فستانًا أخضر

عندما دخلت إلى البيت، سألته لماذا يحبّ اللون الأخضر

كانت تلبس تنّورة برتقاليّة، وقميصًا أبيض خفيفًا، قالت إنّ فستانها الأخضر في المصبغة.

قال إنّه غيّر رأيه، وإنّه يحبّ البرتقالي. فتح قنّينة النبيذ الأبيض المثلّجة وصبّ كأسين، وقال إنّ اللون الأخضر يذكّره بالمرأة الخضراء التي كان يراها في مناماته عندما كان صغيرًا

حين روى كريم حكاية المرأة الخضراء لمنى، أصيب بمفاجأة الذاكرة. قال لها إنّ الذاكرة مخيفة، لأنّها تستيقظ حين تشاء، وتسقط كما من لا مكان، ولا ضوابط لها روى لها عن الشاعر العراقي الذي كان يلتقيه في حانة في مونبلييه. «كنت لا ألتقيه إلّا ونحن سكرانان، وكان لا يحدّثني إلّا عن القصائد التي لم يكتبها بعد. مرّة سألته أن يقرأ لي شيئًا كتبه مؤخّرًا أجابني أنّه توقّف عن الكتابة، لأنّه كلّما اقترب من الورقة البيضاء، انهالت عليه ذكريات لا يعرف من أين تأتي عن طفولته في مدينة العمارة في العراق، وأنّ هذه الذكريات، التي كانت مختبئة تخيفه، وتحوّله إلى شاعر يعيش الشعر بدل أن يكتبه»

«الأدب غير شكل، لا مش معقول، الشعرا بيتخيّلوا ما بيتذكّروا»، قالت. وقالت إنّها تحبّ الشعر كثيرًا، وإنّها تحفظ جميع قصائد محمود درويش عن ريتا.

قال إنّه مثلها كان يعتقد ذلك، «بس يبدو أنّ الذاكرة بتشتغل بطريقة عجيبة، وأنّها لمّا بتطلّع أسرارها بيصير الإنسان عبد لماضيه يلّي ما بيعرف أنّه ماضيه»

شربا قنّينة النبيذ، واستمع إليها تُلقي بعض أبيات ريتا ضمّها إليه، وسمعها تهمس كلمات غير مفهمومة. أخذها وكانت كالخجلانة. اندسّت في السرير بثيابها استلقى إلى جانبها عاريًا، رفع الغطاء فرآها عارية. اقترب منها، وشعر بالغرابة العمياء. جسدان غريبان لا يجدان إيقاعًا، يسبحان في عتمة الرغبة. لن تنكسر الغربة إلّا في اليوم الأخير، حين أتته منى مودّعة. فأخذها بالماء الذي كان يتساقط من جسدها، وشعر بالأسى، لأنّه أحسّ أنّ نهاية علاقتهما كانت لحظة بدايتها

مارسا الحبّ، كأنّهما يبحثان عن الحبّ، سوف يقول لها في اليوم الأخير إنّهما كانا كأعميين في البداية، وإنّ حياءها كان مثل غلالة منعت عن عينيه الرؤية. عندما شهقت منى، وسمع الأنين يكسر حاجز الصمت، تفجّر ماؤه غزيرًا، وأخذ شفتيها في قبلة طويلة، تهدّى بخصرها وهو يطفو فوق عتمة عينيه، كي لا يغرق.

دفعته قليلاً إلى الوراء، وقالت إنّها في حاجة إلى الهواء تراجع، وأشعل سيجارته، وجلس في السرير في مواجهتها غطّت منى عريها الأبيض بالشرشف الأبيض، ورفعت يدها اليمنى كي تكشّح دخان سيجارته، فسقط الشرشف عن كتفها، وظهر نهدها رمّانة بيضاء تتدلّى، انحنى وأخذ حلمتها بشفتيه، فغطّت صدرها بالشرشف، لكنّه لم يتراجع إلى الوراء، دخل وجهه في عتمة البياض وسمع شهقتها الصغيرة، قبل أن تمسك وجهه بيديها وتبعده.

قالت إنّها في اللحظة التي رأته فيها في منزل شقيقه، قرّرت أنّه هو، «بتعرف أنت وخيّك بتشبهوا بعضكم كتير، نسيم صاحب زوجي من زمان،

ودايمًا كان خيّك يعمل إشارات إنّه بدّه ياني، وأنا كنت حسّه تقيل الدم، وقول لحالي ولو ما أنا زوجة صاحبه، وبعدين لمن شفتك قلت أنت»

«يعني حبّيتيني»

«وأنت كمان ثقيل متل خيّك، مين جاب سيرة الحبّ، يلّا خبّرني عن اللون الأخضر»

«بس اللون الأخضر كان حبّ»

«يعني كنت مغروم بمرا ما بتلبس إلّا أخضر؟»

«مرا خضرا، كيف بدّي قول، لا ما كان غرام، بس شي غريب»

قال لها إنّ الغريب هو كيف انبثقت المرأة الخضراء من ذاكرته، كأنّها كانت نائمة فيها

رفع غطاء الشرشف الذي تغطّت به، فتراجعت منى كالمذعورة، وشدّت الشرشف إلى عنقها

«شو عم تعمل»؟ سألت.

«بدّي إفحصك، زيحي الشرشف وخلّيني إشتغل».

«صحيح، نسيت إنّك حكيم»

أغمضت عينيها ولم تتحرّك، رأى كريم خيطًا رفيعًا أبيض ينبثق من تحت بياض بطنها الذي ينساب كأنّه مرآة. أراد أن يقول لها إنّه لا يحبّ الجلد الأبيض، لأنّه يتفتّت تحت عينيه، وإنّ الجلد الأسمر الذي يشبه تلاوين القمح يستطيع أن يقاوم التفسّخ لأنّه أكثر سماكة. لكنّ بياض منى بدا له مختلفًا عن أيّ بياض رآه خلال عمله كطبيب في فرنسا مسّد الخيط الرفيع بإصبعه، وقال لمنى إنّ هذا التشقّق ليس مهمًّا، لأنّه لا يؤثّر على جمالها، لكنّه يستطيع أن يصف لها مرهمًا إذا أرادت.

«عم تحكي بوصفك حكيم ولّا بوصفك شي تاني»

«أكيد بوصفي حكيم، لو كان بدّي إحكي بوصفي شي تاني لازم صير شاعر قدّام هالجمال»، قال.

«الله يخلّيك بلا هالحكي، يعني المرهم بشيل الخيط الأبيض»

«مش بشكل كامل، جسم الإنسان معمول حتى يحمل علامات الزمن، بس أكيد بيصير كأنّه ما كان»

قال لها إنّه سيكتب لها اسم المرهم، وعليها أن تستخدمه مرّة واحدة في اليوم، بعد الحمّام، ولمدّة عشرة أيّام، «وبعدين منشوف»

حاولت منى أن تتغطّى، فأمسك الطبيب الشرشف بكلتا يديه، «حدا بغطّي البحر؟».

«شو هالتشبيه السيّئ»، قالت منى، «لو حدًا من تلاميذي بيكتب هيك تشبيه، كان أخد صفر»

ضحك الطبيب، قال إنّه حين رأى جسمها تذكّر حكاية البحر الأبيض المتوسّط، وذلك الأستاذ الفلسطيني في الجامعة الأميركيّة الذي كان يصرّ على ضرورة أن يستخدم طلّابه الأسماء الحقيقيّة. «هذا البحر»، قال الأستاذ وهو يشير بيده إلى النافذة، «كنّا نسمّيه البحر الأبيض، إلى أن فرض علينا الغربيّون استخدام اسم المتوسّط، فنحن نعطي بحارنا أسماء من الألوان، لأنّ عيوننا لا تراها سوى ملوّنة، لذا فأسماء بحارنا هي الأبيض والأحمر والأسود، وحده البحر الميّت بلا لون لأنّه مات» قال كريم إنّهم كانوا يضحكون على الأستاذ وإنّه لم يفهم كلامه إلّا حين رأى جسمها ملتفًّا ببياضه، فلم ير أمامه سوى البحر

«تشبيه مش حلو، نقطة على السطر»، قالت ولبست عويناتها، وتغطّت. في تلك اللحظة اشتعل كريم من جديد، لا يدري ماذا جرى له مع هذه المرأة، فهو يكره النساء اللواتي يلبسن النظّارات، كما لم يعد

يحبّ اللون الأبيض، لكنّه هنا، يجد نفسه مشتعلاً بما كان يحسب أنّه يكرهه، العوينات أخرجته عن طوره، فرأى نفسه يضمّ منى من جديد إليه.

«لا، بيكفي، مرّة واحدة بيكفي، خبّرني القصّة بالأوّل وبعدين منشوف»

اكتشف كريم أنّ الكلام الحقيقي أي الكلام الذي يملأ الفم، ويحمل مذاق الفاكهة، لا يأتي إلّا بعد ممارسة الحبّ. «هذا هو سرّ العرب»، قال لبرناديت في أيّام حبّهما الأولى، قال لها إنّ سرّ «ألف ليلة وليلة» هنا، شهرزاد لم تحك ولا مرّة إلّا بعد ممارسة الحبّ. ملأت ليالي ثلاثة أعوام بالكلام، وعندما انتهى الحبّ انتهت القصص، وقالت للملك المجنون، خلص، وجلبت الصبيان الثلاثة الذين أنجبتهم كي يشفعوا لها، أو كي تهدّده بهم.

لا لم يقل الأمور هكذا، بل قال يومها عكس ما صار يفكّر به الآن. يومها قال إنّ الحبّ يجعل الحكاية بلا نهاية، لأنّ «ألف ليلة وليلة»، لا تدلّ على عدد محدّد من الليالي، بل إنّ هذا الرقم يعني فتح الأبواب اللانهائيّة، الحكايات يمكن أن تمتدّ إلى ما لا نهاية، والحبّ أيضًا

أشعل كريم سيجارة وبدأ يسعل، ركض إلى البرّاد وجلب قنّينة ماء مثلّجة.

«هيك كان إدواردو»، قالت منى.

«مين إدواردو؟»

«مش مهمّ، خلّيني قوم أعملّك شاي»

التفّت بالشرشف الأبيض ومضت إلى المطبخ، فلحق بها

«الله يخلّيك أنا ما بحبّ الرجال يلّي بيفوتوا على المطبخ، انطرني بالغرفة».

عادت بكوبي شاي، استلقت على السرير، جلس كريم إلى جانبها وبدأ يروي.

«كان يا ما كان بقديم الزمان، هلّق منحكي وبعد شوي منّام، كان في مرا».

«مش هيك، ما بدّي قصص «ألف ليلة وليلة»، بدّي قصّتك مع المرا الخضرا»

قال كريم إنّ القصص يجب أن تبدأ من مكان ما، لذا استخدم أجدادنا فعل الماضي الناقص، لأنّ كلّ شيء وُلد ناقصًا وسوف يموت ناقصًا، لكنّه لا يريد أن يُخبر الآن هذه القصّة، فلم يعد اللون الأخضر مهمًّا، وأنّه سوف يخبرها قصّة أخرى

يبدو المشهد مضحكًا وهو يتسرّب من ذاكرة كريم. امرأة مستلقية على السرير، عيناها تلتمعان خلف عويناتها، ورجل عارٍ، في الأربعين، أبيض البشرة، يلتمع بالعرق الذي يلوّن شعر صدره، يجلس على طرف السرير، يحمل كوب الشاي بيده اليسرى، وسيكارة غولواز من دون فيلتر بيده اليمنى، ينفث دخان سيجارته في الهواء، ويروي حكاية المرأة الخضراء

قال إنّ المرأة كانت تُدعى ماجدة، وإنّها كانت تأتي إلى بيتهم مرّة في الأسبوع كي تنظّفه، لكنّها لم تكن خادمة، أو لم تكن تتصرّف مثل الخادمات، تأتي مستعجلة وتذهب مستعجلة، قيل إنّها أنجبت ثلاثة أطفال، وإنّهم ماتوا جميعًا لحظة ولادتهم، ولا أدري. كنّا نعرف أنّها متزوّجة من رجل يُدعى أبو سلطان، وأنّ أبو سلطان هذا لم يكن يشتغل. ثم اكتشفنا الحقيقة عندما اختفت ماجدة.

«إنّها المرأة الوحيدة التي لم يكن ينظر إليها والدي بصفتها موضوعًا جنسيًّا غريب أمر هذا الرجل، كان صيدليًّا ومثقّفًا، يقرأ كثيرًا، بنى لنفسه مكانة خاصّة في مجتمعه الصغير، وهو مجتمع اقتصر على أصدقائه في

مقهى الجمّيزة، حيث كان يذهب كلّ يوم كي يلعب طاولة الزهر لكنّه، يعني كيف بدي خبّرك، كان يصير واحد تاني لما يشوف مرا، مهما كانت وكيفما كانت. كان يقول إنّ كلّ عمر بيملك السحر الخاصّ فيه. بس كان يحكي مع ماجدة باحترام، وما يسترجي يتحلفظ قدّامها وكانت حلوة، مرا غريبة، ما بتحكي ولا كلمة، بتجي الصبح بتغسل وتنضّف، كأنّه ما في حدا بالبيت، وبعدين بتحمل حالها وبتروح»

اختفت ماجدة على دفعتين، المرّة الأولى حين حبلت، والمرّة الثانية بعدما وضعت مولودها وسط النزيف والدم.

تقول الحكاية إنّ ماجدة تعذبت كثيرًا مع زوجها، وإنّ الرجل لم يكن يشتغل، كان يضربها كي يستولي على المال القليل الذي تجلبه من عملها كخادمة في البيوت، ثم اكتشف طريقه في الحياة، صنع لنفسه ما يشبه الحردبّة، وصار شحّاذًا، يذهب في كلّ يوم إلى منطقة رأس بيروت حيث لا يعرفه أحد، ويعمل طوال النهار يعود إلى البيت يخلع حدبته، وينتزع المصاري من زوجته كي يذهب ويسكر بها ويعاشر المومسات.

«عم زهقك»؟ سأل كريم.

«لا أبدًا»، قالت منى وهي تتثاءب، «بس وين القصّة، يعني شو الموضوع، وشو صار حتى صرت تحبّ الصانعة»

«مش هيك القصّة، أنا ما إلي علاقة، يعني ما صرت حبّها بس صرت خاف»

كانت ماجدة تُقيم مع زوجها في كوخ يقع في أوّل نزلة «زاروب الحراميّة». كان الحيّ يُعتبر في حينها خارج المدينة، رغم أنّه قريب من ساحة البرج، وكان سكّان الحيّ من العاطلين عن العمل، وأشباه المشرّدين، واللصوص، والشحّاذين. كانت أكواخه الخشبيّة المسقوفة بالتنك لا تقي من برد الشتاء، ولا من حرّ الصيف ، غير أنّ سكّانه وجدوا

فيه ملجأً من تشرّدهم. كان يكفي أن تدفع ثلاث ليرات في الشهر، لوجيه، وهو أحد العاملين مع الحاجّ مراد، الذي كان أحد قبضايات بيروت، كي يسمح لك بأن تبني لنفسك كوخًا خشبيًّا وكان وجيه، وهو رجل في أوائل الثلاثينيّات من عمره، يلبس طربوشًا أحمر، مثل معلّمه الحاجّ مراد، ويفرض خوّات شهريّة على سكّان الأكواخ، يسمّيها إيجارات، تُحدّد قيمتها تبعًا لمزاجه وتقييمه للوضع.

الحكاية أنّ مزاج وجيه لم يركب ولا مرّة على مزاج أبو سلطان، الذي كان يرفض دفع الخوّات، بحجّة الفقر، ويخرج إلى الشارع باكيًا مولولاً حتى عندما وجد زوج ماجدة لنفسه عملاً دائمًا كشحّاذ، فإنّ هذا لم يغيّر في واقع الأمر شيئًا، إلى أن انتهت الحكاية بتدمير الكوخ.

قال وجيه لماجدة إنّه لولا اعتقاده بأنّها امرأة قدّيسة، وهو رجل يخاف ربّه، لأحرق الكوخ على هذا الرجل وزوجته، «أنت بتعرفي يا ستّ، أنّه نحنا ما منخاف إلّا من أبو الخيمة الزرقا، بس شو بدّك قول، أنتِ يلّي مخلّيتيني حسّ أنّه إيدي مشلولة»

هل كانت ماجدة قدّيسة، مثلما قال وجيه، ومثلما صار الناس يعتقدون بعدما رأوا ظهوراتها الخضراء المتكرّرة إلى جانب ما تبقّى من حطام كوخها؟

والله ما بعرف، يلّي بيعرفوه كلّ الناس، أنّه ماجدة كانت رح تموت. إجاها الطلق الساعة أربعة بعد الضهر، كانت الدنيا شتي، وحسّت حالها متل المشلولة، وشافت الدم، وبلّشت تصرّخ، ركض أهل الحيّ، وما عرفوا شو لازم يعملوا، شوي إجت الداية، وكان اسمها أمّ أسعد، وصرخت أنّه ريحة الزنخة رح تقتلها، وبلّشت تخزّق الشراشف وتحطّها على بطن ماجدة، وصارت الناس تساعدها، وانتلى الكوخ بالدم، الفرشة والمخدّات والأغراض، صرخت الداية أنّه ما فيها تعمل شي، اطلبوا

الصليب الأحمر، المرا رح تروح من بين إيدينا والدم ما كان يوقف، وصارت ماجدة لا من إيدها ولا من إجرها، إجت سيّارة الإسعاف ونقلوها على المستشفى، وخلّفت صبي بعد عمليّة صعبة.

لمّا أخذوا المرا على المستشفى تطوّعت نسوان الحيّ لتنضيف الكوخ، شالوا العفش لبرّا، وشطفوا الأرض. وما حدا بيعرف كيف صارت الإشيا، وانرمى العفش ببورة الزبالة على طرف الزاروب.

عندما وصل أبو سلطان في التاسعة ليلاً إلى بيته سكران كالعادة، فوجئ بالمشهد، وعندما روى له الناس ماذا جرى لزوجته، وكيف نظّفوا البيت، وأنّ المرأة الآن في مستشفى «أوتيل ديو»، لم يسأل إلّا عن العفش

«وين راح العفش»؟ صرخ

«الله بعوّض عليك يا جار، ما في شي بيحرز، فرشة وبساطين، بسيطة، نحنا منجيب غيرهم، بس هلّق روح على المستشفى حتى تتطمّن على المرا»، قالت إحدى النساء المسنّات، التي هرعت إلى الكوخ عندما سمعت صراخ الرجل، معتقدة أنّ مكروهًا حلّ بماجدة.

«وين العفش»؟ سأل أبو سلطان، وهو يئنّ، كحيوان جريح

«بفتكر رموه بالمكبّ بأوّل الشارع»، قالت المرأة.

ركض أبو سلطان، وركض رجال الحيّ ونساؤه وراءه، اعتقد الجميع أنّ الرجل جن لأنّ زوجته ماتت. ركضوا كي يجدوا أنفسهم في مكبّ النفايات، والرجل يخوض في الأغراض الموحلة بالدم، والرائحة العفنة تملأ المكان.

تقول الحكاية إنّ مطر بيروت تساقط حبالاً في ذلك المساء التشريني العاصف، وإنّ أبو سلطان غرق في الدم. كان يبحث كالمجنون، والناس

من حوله يحاولون تهدئة غضبه، ونصحه بالاتّكال على الله، لكنّه لم يلتفت ولم يكلّم أحدًا، وضع رأسه في كومة الزبالة، وغرق فيها

قال الناس إنّ الدنيا أمطرت دمًا في تلك الليلة.

قالوا إنّهم رأوا أبو سلطان يُخرج وجهه الملوّث بالدم من كومة النفايات، يحتضن وسادة ويرقص بها

قالوا إنّ الرجل انفجر بالضحك، وهو يراقص الوسادة، صارخًا أنّه عثر على جنى العمر

قالوا إنّه حمل الوسادة المحشوّة بالمال، وركض صوب كوخه، رشّ الكاز عليه، أشعل النار ورقص أمام أعمدة اللهب التي ارتفعت إلى الأعلى، متحدّية المطر، ثم اختفى. أخذ الوسادة المبلّلة بالدم والماء، تاركًا وراءه حطام كوخه، وامرأة وحيدة، وطفلاً

هل تلف المال في المخدّة؟ أم أنّ الرجل استطاع أن يجفف الأوراق الماليّة، ويبدأ بها حياة جديدة في مكان ما؟ هل وجد لنفسه عملاً بالمال الذي حشا به المخدّة، أم صرف أمواله على السكر، قبل أن يعود إلى مهنته القديمة كشحّاذ، ويتزوّج امرأة أخرى تصرف عليه من عملها كخادمة؟

«ما حدا بيعرف الحقيقة»، قال نصري لولديه، عندما سألاه عن المرأة الخضراء. قال إنّه لم ير المرأة بعد الحادثة، لكنّ الناس تتكلّم كثيرًا، الناس في حاجة إلى قدّيسين وضحايا، تملأ بهم الحياة، وماجدة كانت ضحيّة لا تطلب شيئًا لنفسها لأنّها كانت قدّيسة. أحسن شي يكون القدّيس هو الضحيّة، ساعتها بتزبط الحكاية، أنا بعرف أبو سلطان، وبعرف أنّ القصّة مش هيك. كان زلمي آدمي، وكان يشتغل بمحطّة البنزين عند الحاجّ مراد، يغسّل سيّارات، وكانوا يسمّوه بالحيّ وديع البنزين. هو اسمه وديع وما اسمه أبو سلطان، أبو سلطان إجت ما بعرف من وين، مبلى يمكن من زوجته الأولى، يلّي قالوا إنّها سرقت مصريّاته وهربت مع ناطور بناية

مصري، وراحت على مصر هي كانت أرملة وكان اسمها أمّ سلطان، هيك أنا بعرف، وبعدين ضربه كميون بمحطّة البنزين، وصار أعرج، وطرده الحاجّ مراد من الشغل من دون ما يعطيه أيّ تعويض ما بعرف كيف قبلت فيه ماجدة. الحكي حرام، كان يضربها كتير أنا بعرف لأنّي كنت عالج المرا المسكينة، وبعدين فهمت أنّه كان يضربها لأنّه عنده مشكلة، وأنا حلّيت المشكلة بالدوا يلّي اخترعته، يعني كيف بدّي قول، عقدة نفسيّة من النسوان تحوّلت لمشكلة عمليّة مع مرته، بس أنا بعرف أنّه مشي الحال، ما في لزوم لكلّ هالحكي»

لم يُقنع كلام نصري ابنيه، اللذين كانا يعتقدان أنّ حكاية ماجدة جزء من حكايات الجنّيّات والعفاريت، التي كان يرويها والدهما أطلقا عليها اسم الجنّيّة الخضراء، وشاهداها تطلع من حبال المطر، وتلوّح لهما من بعيد.

أمّا ما كان من أمر ماجدة فيكتنفه الغموض. لم تعد المرأة إلى الحيّ، غادرت المستشفى مع وليدها الصغير، ولم يرها الناس بعد ذلك إلّا في ظهوراتها الخضراء.

امرأة خضراء، لا تظهر إلّا بعد الغروب، تقف وسط الظلال، تنظر إلى البعيد، تنحني على بقايا كوخها، تلوّح للناس بجزدانها الأخضر الصغير، ثم تتلاشى في الظلام.

قال كريم إنّه رأى المرأة الخضراء مرّة واحدة في حياته، «كنت مع خيّي نسيم، هو قال لي تعا نروح نتفرّج على الجنّيّة الخضرا كانت الساعة خمسة بعد الضهر، والدنيا عم تشتّي، تبلّلنا بالميّ، قلت لخيّي بكفّي، رح نمرض من هالوقفة تحت الشتي، بس ما قبل، قال لي إنّي جبان، كان هيدا رأيه فيّي من هيديك الأيّام، ونطرنا، ولمّن بلّشت الدنيا تعتّم، شفناها، كانت متل شي شبح، وصرت أرجف من الخوف ومن البرد، اتطلّعت فيّي،

رفعت إيدها كأنّها عم بتدلّ عليّي، أو كأنّها عم تطلب مني إجي لعندها، كنت بدّي أهرب وإرجع على البيت، بس تمسمرت مطرحي، وما قدرت إتحرّك، صرخت، بس ما طلع صوتي، تهدّيت بنسيم، وسمعته عم بيقول خلّينا نقرّب، شفته كيف انحنى على الأرض، مسك حجر بإيده ورماه صوب المرا، بس كأنّه الحجر طار وما وقع على الأرض، والمرا اختفت».

قال كريم إنّه حين يتذكّر مشهد لقائه بالمرأة الخضراء يرى حجرًا يطير ولا يسقط على الأرض، كأنّ المرأة الخضراء صارت شجرة. وإنّه لا يدري كيف وصل إلى البيت، مبلّلاً بالمطر والعتمة والخوف.

هل روى لمنى هذه الحكاية؟ سألته عن حكاية المرأة الخضراء، فابتسم، وقال إنّه يحبّ فستانها الأخضر، قالت إنّها نعسانة وتريد أن تنام، برمت ظهرها، وبدأت تتنفس بعمق، وفجأة انتفضت في الفراش وقالت إنّها يجب أن تعود إلى البيت «هلّق أحمد بيكون ناطرني». قفزت إلى الحمّام، أغلقت الباب وراءها، وسمع كريم صوت الدوش، اقترب من باب الحمّام وفتحه، صرخت، من وراء الستارة البلاسيكيّة، طالبة منه أن يخرج ويغلق الباب، «ما بحبّ حدا يتفرّج عليّي وأنا عم بتحمّم»، أغلق الباب، عاد إلى السرير، أغمض عينيه ونام.

يبدو أنّ منى غادرت البيت حين غفا كريم. فتح الرجل عينيه، وكان الغروب يلوّن كلّ شيء باللون الأخضر، كانت السماء الخضراء تسقط من النافذة على سريره، فرك عينيه جيّدًا كي يزيح منهما الظلال الخضراء. هل كان منامًا؟ هل رأى في منامه المرأة الخضراء تومئ له بأن يقترب؟ وماذا جاء بوالده إلى هنا؟

دفشت المرأة الخضراء نصري، فسقط الرجل أرضًا، ونزف دمًا أسود من جبينه، ومات قرب بقايا الكوخ المبلّل بالماء وبقايا الحريق.

سوف يلاحق هذا المنام الطبيب خلال الأشهر الستّة التي قضاها في بيروت. قرّر أن لا يصدّق الحكاية التي روتها هند. هل يُعقل؟ هل مات نصري مقتولاً؟ ولم تكن حكاية سقوطه في الغيبوبة، التي رواها له شقيقه سوى نصف كذبة، أُريد لها أن تغطّي الدم الذي سال.

لا يذكر كريم من أمّه سوى خوفها من الدم، حتى في مرضها الطويل، كانت ترتجف عندما ترى الدم على ركب ابنيها، وتصرخ «يا ربّي تنجّينا من الدم». افترس المرض المرأة، ولم يبق منها سوى عينيها البنّيّتين اللامعتين. ضمر جسدها، وصارت بحجم طفلة صغيرة، لكنّ لمعان العينين الذي استمرّ حتى بعد موتها، كان يخبّئ الحياة التي لم تعشها

يذكر كريم صوت والده يصرخ بالكاهن، الذي جلس خلف طاولة الطعام كي يكتب ورقة النعوة، فكتب أنّ الفقيدة لور تبشراني، زوجة نصري الشمّاس، فارقت الحياة متمّمة واجباتها الدينيّة، إلى آخره.

صرخ نصري لا، هي لم تفارق الحياة، فقال الكاهن «معك حقّ يا أستاذ نصري لازم نكتب انتقلت إلى رحمته تعالى»، لا، قال نصري، «هي لم تفارق ولم تنتقل، الحياة فارقتها، يا حرام، ضلّوا عيونها يلمعوا حتى بعد موتها، هي ما فارقت ولا انتقلت، يا حرام يا لور»

لا يذكر كريم ماذا كتبوا في ورقة النعوة، لأنّه كان صغيرًا، ولم يكن يفهم أنّ الكليشيهات التي تُكتب في اللحظات المهمّة من حياة الناس ليست مجرّد كليشيهات، بل هي معانٍ معقّدة تمتلك في النفوس مكانة عاطفيّة تجعل الدمع يسقط من العيون. لكنّه يذكر عينيْ أمّه. تقدّم الوالد مع ولديه صوب سرير الأمّ الميّتة، التي حوّلها السرطان أشبه بطفلة صغيرة، وأمرهما بالنظر في العينين، وكانت عيناها تلتمعان ببريق يشبه الماء. «لازم ما تنسوا عيون أمّكم، كيف بقيت مفتوحة على الحياة، حتى بعد موتها» تقدّم الوالد، وضع يده على عينيْ زوجته وأغلقهما، في تلك اللحظة صار كلّ

شيء أبيض. لا يذكر كريم سوى البياض الذي احتلّ عينيه. لم تكن غيبوبة، لأنّ الطفل لم يسقط على الأرض، بقي جامدًا في مكانه لا يتحرّك، والبياض الحليبي يحاصره من كلّ ناحية. قاد نصري ولديه إلى الصالون المكتظّ بالناس، حيث سمعا العويل وبكيا قال كريم إنّ الدموع التي تساقطت من عينيه فتحتهما، ورأى الناس وأحسّ بحاجة إلى الاختباء.

عندما حاول كريم تذكير شقيقه بالحكاية، فوجئ بأنّ نسيم لا يتذكّر العينين المفتوحتين. قال نسيم إنّه لم ير شيئًا، «شفت شي صغير أبيض فوق شرشف أبيض. إنت متأكّد أنّ بيّي سكّرلها عيونها، ليش هي كمان ماتت وعيونها مفتوحة؟»

يعرف كريم بخبرته الطبّيّة أنّ الكثير من الناس يموتون وعيونهم مفتوحة، وأنّ المسألة لا علاقة لها بالوضع النفسي للميّت، بل هي مسألة بيولوجيّة محضة، مرتبطة بظروف لحظة الوفاة لكنّه يرى والده الآن، مرميًا على الأرض، الدم ينزف منه، وعيناه مفتوحتان على هاوية الموت.

ـ ٥ ـ

كانا توأمين، أو هكذا كانا يظنّان. وُلد كريم في الرابع من كانون الثاني عام ١٩٥٠، بينما وُلد نسيم في الثاني والعشرين من كانون الأوّل من العام نفسه، وكان ذلك مدعاة فخر الصيدلي نصري شمّاس، وتعويضًا له عن عجز زوجته لور عن إنجاب أولاد آخرين. كان الولدان متشابهين في كلّ شيء، ولا يفترقان.

كان نصري شمّاس، الذي يملك صيدليّة «الشفاء» في بيروت، يقضي معظم أوقات فراغه في «مقهى الجمّيزة»، ولا يتوقّف عن رواية بطولاته وقدرته على إنجاب ولدين في عام واحد. يدخّن نارجيلته اليوميّة، ويلعب طاولة الزهر، ويروي. لم يكن الصبيّان يعرفان سبب إصرار والدهما على أخذهما إلى المقهى يوميًّا، حيث يشعران بالسأم، إلّا حين اكتشفا أنّ أمّهما كانت مريضة.

ولدان أبيضان، متشابهان، بحيث كانا كالتوأمين. الكبير كريم، كان منطويًا على نفسه، بينما كان الصغير مرحًا واجتماعيًّا، ولكنّهما لا يفترقان. وبعد وفاة الأمّ، صارا شخصًا واحدًا، أو هكذا خُيّل للناس نسيم، القوي البنية يدافع عن شقيقه في المدرسة، ويمنع الصبيان الكبار من ضربه، وكريم يدرس عنه وعن شقيقه. درّب كريم شقيقه الصغير بحيث صار

خطّاهما متشابهين، ولم يعد في استطاعة المدرّسين والمدرّسات التمييز بينهما لعبة الشخص الواحد برأسين راقت لوالدهما، الذي كان حين يطلب من أحدهما إخباره منامه، يقاطعه ويطلب من ابنه الثاني إكمال المنام بحيث صدّق الولدان أنّهما روح واحد بجسدين.

كانا ينامان في سرير واحد كبير، وعندما صارا في التاسعة، قرّر نصري أنّ الوقت قد حان كي ينام كلّ واحد بمفرده. رفضا الأمر، لكنّ الوالد العنيد استبدل السرير العريض الذي ورثه الولدان عن أمّهما، بسريرين وضعهما في الغرفة نفسها كريم ونسيم، تمرّدا، وصارا ينامان معًا مداورة في السريرين، وكان على الوالد أن يحمل أحدهما في منتصف الليل إلى السرير الثاني، لكنّه حين ينهض في الصباح يجدهما نائمين في سرير واحد.

عاشا وحيدين مع والدهما، بلا أقارب. والحكاية أنّ نصري الذي كان وحيد والديه لم يكن على علاقة بأبناء أعمامه البعيدين. أمّا لور زوجته، فكانت ابنة عائلة كبيرة. غير أنّ الأقدار شاءت أن يبتعد أهل الزوجة عن الولدين. توقّع الجميع أن يتزوّج نصري شقيقة لور الصغرى بعد وفاة زوجته. كانت مرتا تصغر شقيقتها بثلاثة أعوام، لكنّ أبواب النصيب لم تنفتح أمامها، كما يُقال. صحيح أنّها كانت قصيرة القامة ولم تكن جميلة، لكن قرار العائلة رسا بأنّ سبب عدم زواجها هو اهتمامها بأختها المريضة، ورعايتها للولدين. نصري، اعتبر الأمر قضاءً وقدرًا، ولم يناقش حين زاره والد زوجته، وفاتحه بضرورة السترة، وأنّ الشقيقة سوف تكون أفضل أمّ للولدين. لكنّه استمهله قليلاً، قال إنّه لا يجوز أن يتزوّج قبل مرور سنة على الوفاة. اعتبر جميع أفراد العائلة الترتيب منطقيًّا، وكانت الأمور تسير في هذا الاتّجاه، لولا جنون الولدين.

قال نصري لوالد لور إنّ الولدين أُصيبا بالجنون، وإنّه يريد منه أن يكلّمهما في الأمر بوصفه جدّهما

كان عبده التبشراني، في الخامسة والستّين من العمر، وقار الشيب يغطّي رأسه، ويزيّن وجهه الأبيض العريض شاربان كثيفان. رجل عرك الحياة وعركته. يملك حانوتًا في سوق الإفرنج، يبيع فيه أفضل أنواع الفاكهة. زوّج أبناءه الثلاثة الذكور، وكان يعتقد أن لا شيء يعوّض فجيعته بابنته لور سوى زواج شقيقتها والآن يأتي صهره كي يبهدل شيبته.

وضع عبده يده على شاربيه، ونظر إلى نصري بعينيه الجاحظتين، «جايي تضحك على هالشوارب»، همس عبده. «بدّك ياني صدّق هالقصّة، وكمان بدّك ياني اتبهدل، وروح أتفاوض مع أولاد الكلب؟»

حاول نصري أن يخبره ما جرى، لكنّ الرجل رفض أن يسمع «نحنا حدّدنا موعد العرس، وما بقى بدّي إسمع منك هالحكي البلا طعمة»

أغمض عبده عينيه، وحين كان الرجل الكهل يغمض عينيه، فهذا يعني أنّ الكلام انتهى. إذ لم تكن زوجته أو أولاده يجرؤون على الكلام في حضرة إغماضته، لأنّه عندها يصير شخصًا آخر الكلام الهامس، الذي كان وسيلته في مخاطبة أبنائه، يتحوّل صراخًا، والهدوء الذي يغطّي وجهه يتحوّل احتقانًا، عندها لا يتورّع عن ضرب أولاده أو زوجته رأى نصري العينين المغمضتين، لكنّه بدلاً من أن يغادر المكان، استرخى على الكنباية، وأغمض عينيه هو أيضًا

رجلان مغمضا العيون، كأنّهما في مبارزة مع الظلام، لا يجرؤان على فتح عيونهما كي لا يجدا نفسيهما في مواجهة محتومة.

فتح الرجل الأوّل عينيه، نظر إلى نصري وهمس، «قوم يا صهري يا حبيبي، روح عند أولادك، وخلّص هالقصّة بسلام»

«والله يا عمّي أنا بدّي»، قال وهو لا يزال مغمضًا، ثم فتح عينيه ونظر في عينَي الرجل الكهل، وقال إنّ المشكلة مع الأولاد. حاول أن يروي الحكاية، فأغمض الكهل عينيه من جديد، وأشار له بيده أن يسكت. لكنّ

نصري لم يسكت هذه المرّة، فانتفض عبده، وثب عن الكرسي وبدأ يشتم. فغادر نصري البيت.

القطيعة لم تحصل بسبب الشتائم التي وقعت على رأس الصيدلي الأرمل، بل لأنّ نصري ارتكب الخطأ الكبير في عُرف عائلة تبشراني. إذ حاول أن يوسّط عبد النور اليازجي في الأمر وعبد النور، كان لحّام الحيّ. رجله اليسرى مقطوعة بسبب حادث تعرّض له عندما كان يافعًا، إذ قفز من الترامواي هربًا من دفع خمسة قروش ثمن البطاقة، فوجد نفسه مدمّى تحت العجلات. عاش برجل واحدة، يتنقّل حاملاً العصا، ويحظى بسمعة طيّبة نتيجة حدبه على الفقراء، بحيث صار مع مرور الزمن أشبه بشيخ الحارة، يصلح بين الناس، ويلعب دور الحَكَم في النزاعات، وكان الجميع على ثقة بأنّ الرجل الذي كان في الأربعين، لا يريد من هذه الدنيا الفانية سوى السترة.

لم يتزوّج عبد النور، كان يقول لمن يسأله إنّه نذر العفّة بعد الحادث الأليم الذي تعرّض له، وإنّه كان ينوي أن يترهّب، لكنّ خوفه على والدته العجوز وحنانه منعاه من ذلك. وهذه ليست كلّ الحقيقة بالطبع، لكنّها أختها كما كان يقول نصري. إذ يُقال، والله أعلم، أنّه ذهب إلى دير مار الياس شويّا، في ضهور الشوير، كي يلتحق بالسلك الرهباني، لكنّ رئيس الدير رفضه، لأنّه كان مقطوع الساق. فالترهّب، كما قال رئيس الدير اليوناني، لا يصحّ أن يكون بسبب إصابة الإنسان بعاهة أو عجز جسدي. قال له رئيس الدير اذهب يا عبد النور وكن راهبًا في المجتمع.

لكنّ راهب المجتمع لم ينس الدنيا، كما ادّعى وهذا ما أدّى إلى قطيعة كاملة بين اللحّام والصيدلي، فالإنسان «بير غميق، ما حدا بيعرف شو في جوّاته إلّا لمن بيطلّع يلّي جوّاته، واللحّام كان مخبّا بتيابه»، قال نصري لولديه، وهو يروي لهما حكاية العائلة التي قطعت علاقتها به وبأحفادها.

يذكر نسيم الحكاية في شكل غامض، يذكر أنّه هو من بدأ التمرّد، لكنّه لا يذكر التفاصيل. كريم الذي كان في السادسة، انفجر باكيًا حين أبلغه والده أنّ مرتا ستصير أمّه. يذكر أنّه بكى، ثم بدأ يتجاوب مع جنون أخيه. تسلّق نسيم سريره، وبدأ يقفز وهو يبكي، ولحقه كريم في القفز، ثم حمل الصغير الوسادة وصار ينطّ بها، وبدأ رمي الوسادات المصحوب بالصراخ.

حاول نصري أن يفهم ماذا يجري، لكنّ صراخ الولدين وقفزهم أصمَّ أذنيه.

«خلص، مش رح إتزوّج مرتا، وما رح يصير عندكم أمّ تانية»

هدأ الجوّ فجأة، سكنت العاصفة، جلس الطفلان متلاصقين على طرف السرير، حيث اختلطت دموعهما بضحك متواصل

«ما رح إتزوّج، بس فهّموني ليش»؟ سأل نصري.

لم يسمع سوى صوت الطفلين وهما يشرقان بدموعهما ويمسحان أنفيهما بأكمامهما نظر إلى كريم وسأله، لكنّ كريم بدل أن يجاوب نظر صوب شقيقه الصغير

«شو يا نسيم يا حبيبي، شو القصّة؟»

وعندما سمع الأب القصّة، انفجر ضاحكًا «بدكم ياني ما إتزوّج مرتا لأنّه دينيها كبار، هيدي هي القصّة، إذا هيك رح إتزوّج»

هنا انفجر الولدان غضبًا، وبدآ برمي المخدّات على نصري، وسمع صوت نسيم يقول: «إذا إجت على البيت نحن منفلّ»، وردّد كريم وراءه: «يا نحن يا أمّ الدينين»

لم ينتبه نصري إلى ضخامة شحمتي الأذنين المعلّقتين في رأس مرتا قبل ذلك، بل لم ينظر إلى عروسه المفترضة في وصفها أنثى. عندما تزوّج

لور، لم تلفت إشبينتها نظره في شيء، ومع الأيّام، وخصوصًا بعد مرض زوجته الطويل، صار يراها مضحكة. تأتي إلى المنزل كالعاصفة، تدخل إلى غرفة شقيقتها، وأوّل شيء تفعله هو الإمساك بمعصم المرأة المريضة، كي ترى إذا كان نبضها يعمل، تتأكّد من أنّها أخذت الأدوية، ثم تنصرف إلى تدبير شؤون المنزل. تغسل وتنظّف البيت وتطبخ. رفضت فكرة أن يجلب نصري خادمة، قالت إنّ الخادمة ستكركب الدنيا، وستسيء إلى تربية الطفلين. صارت مرتا الآمرة الناهية. حيّز الحرِّيّة الوحيد كان يمتلكه نصري في الصباح الباكر، حين يجتمع مع ابنيه حول مائدة الفطور، بينما تقفل مرتا غرفة المريضة وتقوم بتحميمها

رأى فيها نصري خادمة مجّانيّة، بينما رأى فيها الطفلان شبح الموت. ما لم يعرفه نصري هو أنّ مرتا كانت تخيف الولدين بأذنيها فالفتاة التي تجاوزت الثلاثين، من دون أن تجد عريسًا، كانت تعتقد أنّ إظهار ثروتها من خلال الحلى التي تلبسها، قد يجلب لها العريس المنتظر، لذا ملأت معصميها بالأساور، وكانت تعلّق في أذنيها نوعًا غريبًا من الحلق الذهبي الثقيل. ما لم تنتبه له مرتا هو أنّ هذا الحلق سوف يجعل شحمتي أذنيها تستطيلان، في شكل مضحك. هل انتبهت الفتاة إلى التشوّه الذي أصاب أذنيها فصارت تلفّ عنقها بشال حريري أسود ترفعه إلى الأعلى بحيث يغطّي الأذنين؟ أم أنّها كانت تلبس الشال بسبب الألم المزمن في عنقها؟ لا أحد يدري، لكنّ كريم ونسيم كانا يصابان بالرعب حين تمسك الخالة مفتاحًا برونزيًّا كبيرًا وتهدّد بأنّها ستفتح أذنها وتضعهما فيها إذا سمعت حسّهما

أذنان كبيرتان ككهفين، وشحمتان تتدلّيان، ومفتاح، وامرأة وعتمة. لا يدري كريم هل كانت حكاية شحمة الأذنين حقيقيّة، أم أنّه ألّف القصّة عندما شاهد معرضًا نياليًّا في مونبلييه أخذهم إليه الأستاذ الفرنسي من أجل أن يُريهم أنّ جلد الإنسان استخدم كأداة للتجميل في جميع العصور

والحضارات. وعندما حاول الاستعانة بذاكرة شقيقه خلال زيارته إلى بيروت، بدا الشقيق وكأنّه لا يذكر سوى القفز على السرير ورمي الوسائد والبكاء. حتى إنّه لا يذكر شكل الخالة.

«أنا إمّي نسيتها، ما بتذكّر إلّا صورتها يلّي معلّقها بيّي بالبيت، كأنّها صارت صورة، لمن بتنسى صوت يلّي ماتوا يعني خلص، وأنا صوت إمّي ما بتذكّره، بدّك ياني إتذكّر دينين هيدي يلّي لولاك ما كنت حتى اتذكّرت اسمها؟»

المسألة ليست ذاكرة الشقيقين، ولا أذني المرأة، إنّها اللحّام ـ الراهب، الذي ضرب عينه على مرتا، وبدلاً من أن يتدخّل وسيط خير، نشر الحكاية على الملأ كلّ نساء الحيّ عرفن بأنّ أولاد نصري لا يريدون له أن يتزوّج، وأنّ الرجل لن يكسر قلبي طفلين من أجل خاطر حلّ مشكلة عنوسة ابنة التبشراني ذات الأذنين الطويلتين.

هنا تنتهي علاقة نصري بالموضوع، لأنّ عبده التبشراني طرده من بيته، عندما زاره بناء على اقتراح اللحّام، الذي ادّعى أنّه توسّط في الأمر

انتهى الأمر بزواج اللحّام من ابنة التبشراني، بعدما نجح الرجل المقطوع الساق في كفكفة دموع الفتاة، وفي غزو قلبها بالكلام الجميل، ممّا أجبر السيّد عبده على الموافقة على زواج ابنته، لأنّ مرتا هدّدت بالانتحار إذا لم تتزوّج اللحّام.

عندما علم نصري بخبر الزواج فهم أنّ الخبر الذي شاع كان مصدره اللحّام، فذهب إليه مهنّئًا وضاحكًا، لكنّ عبد النور اعتبر الزيارة سخرية منه، فهدّد الصيدلي بساطوره، وأفهمه أن لا يأتي على سيرة مرتا بعد اليوم.

«الدنيا سرّ كبير»، قال نصري لولديه، وهو يروي لهما كيف خرج آل التبشراني من حياة الأسرة الصغيرة إلى الأبد.

«الشي الوحيد يلّي استفاده من الرهبنة هو سطر واحد من الإنجيل: «مرتا مرتا، تبحثين عن أمور كثيرة والمطلوب واحد» أكل رأس البنت بهالواحد حتى عمل لها واحد»، قال نصري لولديه ضاحكًا

عاش الطفلان وحيدين، في الأسرة الثلاثيّة التي كانت شبه منقطعة عن العالم، فازدادا اقترابًا أحدهما من الآخر، وعزلة عن الآخرين.

العلاقة التوأميّة التي ربطت الولدين بدأ يعتريها التفكّك في المدرسة، كريم كان مختلفًا عن شقيقه الصغير في كلّ شيء. نسيم كان «تلبيسًا» مثلما أسماه الراهب أوجين مدير مدرسة «الفرير» والتلبيس كان شقيًّا وكسولاً وقبضايًا، أمّا الولد الشاطر فكان خجولاً وحزينًا ووحيدًا

الولد الشاطر كان يكتب جميع فروض أخيه، ويدرّسه، ويفعل المستحيل كي ينجح ولا يرسب في صفّه. فنسيم كان لا يطيق فكرة أن يكون هو وشقيقه في صفين مختلفين. وعندما رسب نسيم في التكميلي الأوّل وقرّر الأخ أوجين أنّه يجب أن يُعيد صفّه، حدثت أوّل أزمة حقيقيّة بين الشقيقين.

«شو قصّتك مع فرير أوجين»، سأل نسيم شقيقه مستهزئًا

قال نسيم إنّه سيترك المدرسة، «زهقت من الرهبان ومن ريحة البخور، وما بقى فيّي إتحمّل الجزويت والوشوشة»

نصري وافق مع ابنه، زار الأخ أوجين وقال له إنّه لن يقبل انفصال التوأمين في صفين مختلفين.

الأخ أوجين، مدير مدرسة الفرير، حاول إقناع الرجل بأنّه يدمّر مستقبل ابنه.

«كريم est un génie، يعني ابنك عبقري، وهيك رح تدمّر له مستقبله، إذا نسيم ما بده يدوبل صفه، هو حرّ، وإنت حرّ، فيك تنقله على أيّ

مدرسة تانية، بس كريم حرام، نحن بدنا إيّاه».

قال نصري إنّه عندما سمع كلمة «بدنا إيّاه»، أُصيب بالخوف وقرّر نقل الولدين إلى مدرسة أخرى، مهما كان الثمن. «هيدول الرهبان لمن بيحطّوا عينهم على ولد، بياخدوه»

«شو يعني بياخدوه» سأل نسيم.

«يعني بيتسلبطوا عليه حتى يعملوه راهب».

«بس أنا ما بدّي أعمل راهب»، قال كريم، «أنا بدّي أدرس حكيم»

«لا إنت رح تدرس صيدلة، لمين بدّي ورّث الصيدليّة».

«وأنا»؟ سأل نسيم.

«وإنت كمان بتدرس صيدلة»

«بس أنا مش مقتنع أنّه لازم نغيّر المدرسة»، قال كريم.

«قلت لك أنا خايف من الرهبان».

«بس أنا جاوبتك إنّي مش رح أعمل راهب، شو ما صار»

«أنا خايف من شي تاني»، قال الأب.

«ما فهمت»، جاوب كريم.

«أنا فهمت» قال نسيم، وانفجر ضاحكًا

«اسكت يا ولد»، صرخ نصري، وغادر البيت.

بعد يومين جاء الأخ أوجين إلى البيت، وأبلغ نصري أنّ إدارة المدرسة وافقت على انتقال نسيم إلى الصفّ التكميلي الثاني، شرط أن يقدّم تعهّدًا بالمثابرة على الدراسة.

وهكذا كان، قدّم نسيم تعهّده، لكنّ الفضيحة التي كادت أن تدمّر حياته كانت في انتظاره.

وعندما تجاوز نسيم الفضيحة عبر هربه من البيت بعد ذلك بسنتين، كان هو من أعدّ، بالتواطؤ مع والده، حكاية السوق العمومي من أجل إنقاذ شقيقه الكبير من براثن خطر السقوط في حبائل الراهب الجزويتي.

هل كان نصري مهندس ذلك الحدث؟

سوف يروي نسيم لشقيقه بعد ذلك بأعوام طويلة أنّ والده طلب منه أن يأخذ شقيقه الكبير إلى السوق، كي يرتاح من الشكّ. قال إنّ الوالد كان يعرف أنّ نسيم يذهب إلى هناك، وأنّه كان يغضّ النظر «بتذكّر أنّي كنت راجع من هونيك، كان نهار سبت، وكان المسا، والدنيا صيفيّة وشوب، قرّب بيّي مني وقال لي كيف كانت الرياضة يا عرص، وضحك. مسكني من كتفي وقال صحتين، هيك بتكون الزلم»

«جاوبت أنّي كنت بالنادي عم ألعب رياضة».

انفجر أبي ضاحكًا، «شو مفكّرني مجدوب، ما أنا شفتك هونيك، كنت ضاهر من عند أوزون التركيّة والله مذوق متل بيّك، بس تبقى خبّرني يا ابني لأنّه ما بيسوى الأب وابنه يفوتوا على المطارح نفسها، هيدا حرام»

«معك حقّ، هيدا حرام وانفجرت ضاحكًا»

«قال لي خود خيّك، هيدا مطمّش وما بيعرف شي، خدوا قبل ما الرهبان يدقّوا فيه ونخسره إلى الأبد»

«يعني بيّي كان شاكك بشي؟»

«ليش كان في شي»؟ سأل نسيم.

«لا يعني، متل كلّ التلاميذ»، قال كريم.

«يعني ناكك؟».

«أكيد لا، يعني شي من قريبه».

لم يروِ كريم لأحد ماذا تعني عبارة «من قريبه». محا الحكاية من ذاكرته كأن لم تكن، وحين أصرّ أخوه على معرفة التفاصيل كان جوابه مجرّد ابتسامة صغيرة كي يقول لا شيء، «والله ما في شي شويّة حكي وبس، وخبريّة عن فلاسفة اليونان يلّي كانوا يتفاعلوا مع تلاميذهم بواسطة العلاقات الحميمة»

«يعني عملك فيلسوف يوناني أو لا؟»

«أكيد لا، شو هالحكي».

«أنا رح أعملك فيلسوف عن حقّ وحقيق، ومع أستاذة يونانيّة كمان!»

قال نسيم إنّه لولا صبر مدام أثينا وخبرتها، لتبهدلنا، قال إنّه طلب نصيحة أوزون التركيّة، وإنّها هي من اقترحت عليه اليونانيّة، لأنّ «حالة شقيقك تقتضي وجود امرأة ذات خبرة حقيقيّة، وإلّا سوف يضيع الصبي»

«ولمّن أخدتك عند مدام أتينا، وشفتك كيف صرت أحمر متل البندورة وما عاد صوتك يطلع متّ من الخوف، بس المدام كانت غير شكل، طوّلت بالها عليك ليوم البال، ومشي الحال»

بدأ الافتراق الكبير بين الشقيقين حين كانا في السادسة عشرة. في البداية كانا مثل بديلين. هكذا وصف كريم علاقته بشقيقه لبرناديت زوجته. نسيم يعيش الشقاوة ويرويها لشقيقه، وكريم يعيش حياته في الكتب ويُدخل شقيقه إلى عوالم أبطال الروايات. «كنّا مثل شخص واحد انقسم إلى نصفين»، قال، «إلى أن اكتشفت أنّني لم أكن أعيش حياتي، حصل ذلك عندما جاء نسيم وأخبرني أنّه ذهب إلى السوق العمومي ونام مع مومس. نصحني بالتوقّف عن الاستحلاب، وروى وهو يضحك أنّ الحياة تبدأ من فرج المرأة، وأنّ الأنثى تمتلك شيئًا لا قعر له ولا يستطيع أن يرويه سوى

الرجل الحقيقي، ودعاني إلى الذهاب معه. لكنّي خفت، ادّعيت في البداية أنّه لا يجوز، وقلت إنّه حرام وعيب أن يشتري الرجل شيئًا لا يقدّر بالمال، قلت إنّ الحبّ لا يُشترى أو يُباع. ضحك شقيقي وأفهمني أنّه لا يتحدّث عن الحبّ بل عن الجنس، هيدا شي وهيدا شي يا حبيبي، لم أستطع أن أفعل شيئًا أمام امرأة في الأربعين، رأيتها أمامي عارية، بثدييها الكبيرين، واستداراتها تقدّمت منّي، أمسكت يدي ووضعتها على ثدييها، وشعرت بشلل مصحوب بعرق بارد. انتشر العرق كالبقع على ثيابي، وأردت أن أغادر المكان. كان العرق يغطّي عينيّ كأنّه الدموع. العرق مالح مثل الدموع، لكنّ ملحه قاس. في تلك اللحظة أمسكتني المرأة اليونانيّة من يدي وقادتني إلى الحمّام. ملأت الحوض بالماء الساخن الذي علته رغوة صابون له رائحة ماء الزهر، أمرتني بخلع ثيابي وأدخلتني إلى الماء. أغمضت عينيّ وشعرت أنّ الجبل الذي كان يسحق صدري انزاح، وبدأت خفّة الماء، يد من حرير تدلّك جسمي، وارتفعت إلى الأعلى كي أعانق الرغبة. لا أدري ماذا جرى، لكنّني وجدت نفسي بعد ذلك في السرير وأنا أشرب لهاث تلك المرأة التي أذاقتني نكهة الحياة»

قال لبرناديت، عندما نام معها في المرّة الأولى بعد الزواج، إنّه يريد أن يشرب الهواء الذي تتنفّسه. فلم تفهم. «تشرب الهواء! ما هذه الاستعارة؟»

حاول أن يشرح لها أنّ الكلام يجب أن يغطّي المعنى، كي يحافظ المعنى على معناه، وأنّهم لا يقولون في العربيّة المحكيّة أريد أن أدخّن سيكارة بل أريد أن أشرب سيكارة، كي يذوب التبغ في الفم ويعطيه نكهة العشب.

«الدخان لا يعطي الفم سوى رائحة كريهة، بينما يقوم بتدمير الرئتين»، قالت، «ثم أنا لا أحبّ أن ألعب بالماء كلّما أردنا ممارسة الحبّ، الحبّ شيء والدوش شيء آخر».

أخبرها قصّة اليونانيّة، وهنا وقع الخطأ الأكبر لا يتنبّه العشّاق إلى أخطائهم إلّا بعد فوات الأوان، لكنّهم في البداية، حين يشعرون بخفّة ماء الرغبة، يندفعون إلى الكلام الطائش ويروون ما لا يجب أن يُروى. فالحكايات لا يجب أن تُرمى هكذا خارج دلالاتها، وإلّا تحوّلت عبئًا روى لبرناديت حكاية القرار العائلي بأخذه إلى حيّ المومسات، خوفًا من إعجاب الراهب به، وحكى عن تلك المرأة التي ثابر على زيارتها حتى النهاية، أي إلى أن قالت له «خلص يا ابني أنا متل إمّك، وما بقى يسوى هيك، أنا مريضة كتير» وبعد يومين نُقلت المرأة إلى المستشفى نتيجة إصابتها بجلطة رئويّة، حيث ماتت بعد أسبوع

«tu es un homosexuel latent»، قالت.

«هيك كان رأي بيّي وخيّي، بس مش مزبوط»

قال كريم لبرناديت إنّه كان يزورها في ذلك الأسبوع الأخير مرّتين كلّ يوم.

«يعني كنت تحبّها»

«بهيداك الأسبوع كانت تسمّيني يا ابني، وكنت قلّها يا أمّي»

«غير الشراميط، الهيئة ما حبّيت ولا بنت قبل ما لمّك من سكرتك بالبار ووصّلك على بيتك»

لم يخبرها عن هند، خوفًا من أن يتورّط في حكاية سلمى، وكان على حقّ. إذ لو أخبرها لاعتقدت برناديت أنّه ذاهب إلى بيروت من أجل حبيبته السابقة، ولما صدّقت أنّه ذاهب من أجل البحث عن سينالكول.

على أيّ حال لم تصدّق الزوجة الفرنسيّة حكاية سينالكول. فكريم لم يروِ لها أنّه حين أطلق على نفسه اسم سينالكول في البار، وهو سكران، كان يقول الحقيقة. فهو تبنّى اسم السخرية السرّيّ الذي أطلقه عليه شباب

طرابلس، لأنّه رأى في شخصيّة ذلك الرجل الغامض الذي لم يلتقِ به مرّة واحدة، قرينه ومرآته.

عندما خرج كريم من الحمّام اليوناني، وكان شقيقه في انتظاره، صعقته المفاجأة، لأنّه اكتشف أنّ شقيقه لا يشبهه إلّا بوصفه صورته المكبّرة والفجّة. الملامح نفسها، بياض دائري يصنع الوجه، وأنف كبير، وشفتان غليظتان، وعينان عسليّتان. نسيم كان أكثر طولاً، عضلات صدره ترتجف تحت القميص، بسبب ممارسة السباحة، أنفه معقوف قليلاً، وأكثر ضخامة من أنف شقيقه، وكرشه الصغيرة التي ستكبر مع الزمن كانت تعطي لشخصيّته مسحة رجولة يفتقدها كريم. الفرق الأساسي بين الشقيقين هو الحاجبان. حاجبا كريم طويلان ورفيعان، وحاجبا شقيقه قصيران وسميكان.

«متل حواجب النسوان»، قال شقيقه.

«شو هالحواجب الحلوين»، قال الأخ أوجين، وهو يضع يده على رأس تلميذه الشاطر، وينزل بأصابعه إلى الشفتين المكتنزتين.

«بتنتف حواجبك»؟ سألته الماما اليونانيّة، بعدما نجحت في حلّ عقدة لسانه.

صار كريم يكره حاجبيه، ويريد لهما أن يتغيّرا، كي لا يُقال له إنّ وجهه جميل مثل الفتيات. قال له شقيقه إنّ وضع زبل الدجاج عليهما هو أفضل طريقة كي ينمو الشعر صدّق الطفل الذي كان في العاشرة نصيحة شقيقه، وصار يتسلّل إلى حديقة الشقيقتين ماري وأنجيل الشرتوني، مساء كلّ يوم، يدخل القنّ ويبحث عن خراء الدجاج، الذي يضعه على حاجبيه قبل أن ينام.

وعندما جاءت الشقيقتان إلى الصيدليّة تشتكيان من أنّ كريم يسرق بيض الدجاج من القنّ، انفجر الصيدلي ضاحكًا، وقال «مش معقول، ابني

بيكره البيض، أنا بجبره ياكل بيض عبكرا غصب عنه، وهلّق جايين تقولوا لي إنّه عم يسرق بيضات دجاجاتكم، نحن يا مدامات منوزّع بيض»

في البداية لم يفهم نصري سبب تلك الرائحة الكريهة التي تنبعث من ابنه البكر دخل إلى غرفة ابنيه النائمين ففاحت الرائحة في وجهه انحنى على كريم وشمّ رائحة الخراء، هزّه بعنف، لكنّ الفتى رفض أن يفتح عينيه، أضاء الكهرباء وصرخ. استيقظ نسيم على الضوضاء، لكنّ كريم برم متناومًا

«شو هالريحة»؟ صرخ الأب.

انفجر نسيم ضاحكًا، وروى لوالده الحكاية.

«قوم يا أهبل، كنت مفتكرك أذكى من هيك، خيّك الصغير ضحك عليك، وخلّاك تحط خرا على حواجبك، اركب الديك وشوف لوين بودّيك».

في الصباح أفهم نصري ابنه البكر أنّ حاجبيه الطويلين الرفيعين هما علامة الجمال، «أوعا تصدّق هالحكي يا ابني، النسوان بينتفوا وبيهلكوا حتى تصير حواجبهم حلوين، هيك بتكون حواجب الأمرا، وأنت أمير وإبن أمير».

«بس شو يعني اركب الديك»؟ سأل كريم.

«بكرا لمن بتكبر بتعرف لحالك»

لن يقتنع كريم بكلام والده إلّا في مونبلييه، حين قالت له برناديت، في صباح يوم لقائهما الأوّل، إنّ حاجبيه جميلان، وإنّها حين رأته تحت نهدي امرأة التيكيلا، سحرها حاجباه الطويلان المبلّلان بالخمر والملح.

أمّا الشقيقتان العانستان، فلن تشربا دواء الصيدلي إلّا بعد سنوات وستصير قصّة هسترتهما على كلّ شفة ولسان، وكانتا الديك الذي ركبه

نصري، ممّا اضطره إلى إعطائهما دواء مخدّرًا، كي يوقف فضيحة دمّرت سمعته.

حكاية سلمى، لم تكن بسيطة مثلما كان نصري سيروي، لو روى. لكنّ الرجل الذي شعر، بعد انسحاب سلمى من حياته، أنّه دخل في الكهولة، وأنّ جسمه بدأ يخونه، أُصيب بالانهيار لم تكن فضيحة المرأتين الكهلتين سبب هذا الانهيار، إذ كان في وسعه تحويل مأساتهما نكتة. فالرجل تعامل مع الحرب الأهليّة اللبنانيّة بوصفها حدثًا كوميديًّا كان يردّد عند احتدام المناقشات التي تجري في مقهى الجمّيزة، بين لاعبي النرد، كلمة كوميديا كي يصف بلاده. «لبنان هو كوميديا الموت. ما في شعب بالعالم حوّل كلّ مقدّساته لمسخرة متلنا، حتى الموت، صار بيضحّك. اضحكوا يا إخوان، لأنّه ما في شي بيخلص بهالبلد، ويلّي بيروح بيرجع، وإذا ما رجع بيرجع شبحه، ما حدا يزعل، كلّه كوميديا، اضحكوا لنضحك»

حكاية الأختين العانستين كانت مؤهّلة كي تتحوّل إلى كوميديا، لكنّها أفقدت نصري سخريّته، وكانت بداية دخوله في عالم الاكتئاب، الذي لن يتوقّف إلّا بموته.

كانت مشكلة التوأمين مع والدهما أنّ الرجل لم يتوقّف عن إعلان الإعجاب بنفسه طوال حياته. وكان على الشقيقين واجب الاستماع إلى نظريّات نصري، والاندهاش أمامها، كي لا يزعل ويقلب وجهه.

بعد الحمّام اليوناني الذي أثبت للأب أنّ ابنه البكر زمط من أخطار الرهبان، صار يتباسط في الحديث على مائدة الفطور حول المسائل الجنسيّة، وعلوم الباه، متباهيًا بأنّه أحد أهمّ الخبراء في كيمياء العلاقة بين الجسد والروح

كان يلتهم بيضتين مقليّتين في الصباح، لأنّه وجد في الأعشاب التي

يقطّرها في إنبيقه حلًّا نهائيًّا لأخطار الكوليسترول. جعل نصري من الترويقة، حيث يفرش اللبنة والجبنة والزيتون وأنواعًا لا تُحصى من المربّيات، مكان تسلّطه الأساسي على ابنيه، منطلقًا من نظريّة أنّ الترويقة، على المستوى الطبّي، يجب أن تكون الوجبة الرئيسيّة للإنسان الذي يريد المحافظة على صحّته.

وسط كراهية الابنين لرائحة البيض المقلي، وعدم رغبتهما في الأكل، كان الوالد يجعل من هذا اللقاء الصباحي ملعبًا لأفكاره وخلاصات تجربته في الحياة، التي يريد لابنيه أخذ العبر منها

قرّر كريم أن ينسى دروس والده التي كان يعتبرها تافهة. نجح في تدريب نفسه على إغلاق أذنيه وسماع الصمت. التفكير في أمور أخرى، خلال محاضرات الأب، لم يكن يجدي. فنصري كان بارعًا في القفز من موضوع إلى آخر، من أجل إثارة فضول الابنين. فاكتشف كريم ما أسماه القطن السرّي. ما إن يبدأ الأب في الكلام، حتى ينبت في داخل الأذنين قطن غير منظور، يقوم بحجب الصوت. على إيقاع صوت الصمت، يأكل اللبنة المغمّسة بالزيت، ويرى في حماسة والده التي لا يسمعها مشهدًا مسلّيًا

لكنّ ما علق في أذنيه كان كافيًا، كي يجعله يكره نفسه في فرنسا، خصوصًا عندما بدأ يستمع في صوته إلى صدى صوت والده، ويرى كيف يتبنّى، من دون إرادته، الكثير من طقوس والده ونظريّاته.

عندما روت له هند كيف مات والده، ثم صحّح شقيقه الرواية غاضبًا، فهم أنّ الروايتين كاذبتان، عدا أنّ الموضوع لا يهمّه. فلقد شعر أنّه مهدّد بأن يصير مخدوعًا مثل أمّه، وبأنّ هذا الرجل قادر على افتراس جميع المحيطين به، حتى بعد وفاته.

ليس صحيحًا أنّه ترك هند بعدما رأى محتويات ذلك الدُرج، الذي

فتحه شقيقه الصغير على الجحيم. هكذا كان يعتقد عشيّة سفره إلى فرنسا لكنّه اليوم في بيروت، وبعدما استمع إلى حكاية موت والده، لم يعد مقتنعًا بشيء. لحظة وصوله إلى بيروت، عندما وجد نفسه في منزل شقيقه يأكل الكبّة النيئة، ورأى سلمى متّشحة بالسواد، عادت إليه صور الجارور، وكيف رأى سيرة الأب الجنسيّة من خلال الصور التي كانت صيدليّة «الشفاء» مسرحًا لها يرى نفسه الآن واقفًا إلى جانب شقيقه، الذي نجح في سرقة مفتاح الجارور السرّي، والجارور ينفتح أمامه بتلك الصور الرهيبة، حيث بدت سلمى، في أوضاع لا يمكن تصديقها كانت صور سلمى جزءًا من ألبوم يضمّ صور العديد من النساء، اللواتي كنّ ضحيّة الدواء الأخضر العجيب.

«ليك ليك سلمى شو هالشلخة، أنا مطرحك باخود البنت وأمّها»، قال نسيم ضاحكًا

كان حلق كريم ناشفًا، فلم يستطع أن يجيب، بلع ريقه لكنّه لم يجد ريقًا في فمه، أحسّ الشوك ينبت في زلعومه، وهجم على الصور محاولاً تمزيقها

أبعده شقيقه عن الجارور، وقال له إنّه حمار «أنت حمار، ذكا ودراسة طبّ واضرب واطرح، بس أنت هبيلة وعامل حالك مش عارف، ما كلّ الناس كانت تشوف الستّ سلمى جايي على الفرمشيّة مولّعة، كانت توصل عم تبرق وتضهر عم تلمع، شو القصّة. كان بدّي ياك تضحك، ليك هالعرص شو بيعمل بالنسوان، بس بدّي إسأله كيف كان يقنعهم يتصوّروا، فيك تتخيّل هالمشاهد، يا لطيف، ليك سلمى.

«إخرس، أنت وبيّك أعرص من بعض، أنا بدّي فلّ من هالبيت».

«بتعتقد هند عارفة بقصّة أمّها مع الفرمشاني؟».

«ما تجيب سيرة هند على لسانك»

منذ وصوله إلى بيروت وجارور الصور يلاحقه، صحيح أنّه فتح الجارور ووجده فارغًا، لكنّه لم يجرؤ على سؤال شقيقه عن مصير الألبوم.

لكنّه الآن يجد نفسه غير متأكّد من شيء، هل وصلت الأمور بالرجل العجوز إلى شرب السائل الأخضر الذي كان وسيلته إلى أجساد النساء؟

عندما تركها في السرير في ذلك الصباح الوداعي الأخير، وذهب إلى المطبخ ليُعدّ طعام الفطور، لحقت به منى ملتفّة بالمنشفة لتقول إنّها مستعجلة، لأنّ أحمد ينتظرها في البيت، فأجابها لا، «ما بتقدري تروحي بلا ما تدوقي أطيب ترويقة بالعالم» يومها أعدّ عجّة البيض المقلي مع اللبنة والصنوبر «هذه كانت ترويقة أبي المفضّلة»، قال، «بس أنا كنت حمار، وقال يعني كنت أقرف من البيض مع اللبنة، وبعدين علّمتني الأيّام، وفهمت أنّ البيض باللبنة هي أطيب أكلة بالعالم، بفرنسا كنت كلّ ما نام مع مرا حسّ بطعمة اللبنة والصنوبر تحت لساني، بس هونيك ما في لبنة، قال الفرنساويّة عندهم ثلاثميّة نوع جبنة، ومع ذلك ما بيعرفوا أطيب شي بالعالم، وكيف لما منغطّس اللبنة بالزيت منشمّ ريحة الحياة، الحياة ريحتها خضرا متل زيت الزيتون»

«ما كنت عارفة إنّك بتحبّ بطنك هالقدّ، كان لازم أطبخ لك فتّة مكدوس»، قالت: «ستّي حلبيّة، وبالنسبة إلها حلب هي فتّة المكدوس والكفتة بالكرز»

«كرز مع اللحمة! أهمّ شي الصنوبر مع العجّة، ما تغلطي»

قالت وهي تنهض مستعجلة كي تلبس وتمضي إنّها أحبّت هذه الترويقة.

«بتحبّي علّمك كيف تحضّريها، كتير سهلة العمليّة».

«لا بفضّل خلّي العجّة ذكريات»

وعندما عادت إلى المطبخ، وكان كريم يجلي المقلاة، التفت إليها فرآها تقف أمام الباب في انتظاره.

اقترب منها كي يقبّلها، فتراجعت إلى الوراء، وقالت إنّها تأخّرت، ومضت.

أعدّ ركوة قهوة وجلس وحيدًا، أشعل سيكارة، وسمع صوت نصري يتسلّل إلى أذنيه، مخترقًا حواجز القطن، وهو يروي عن النساء.

«أمّي كانت هيك»؟ سأل نسيم.

«ما تجيب سيرة أمّك على لسانك، الأمّ كائن مقدّس يا ابني، أنا ما عم بحكي عن الأمّهات، عم بحكي عن النسوان».

«بس النسوان أمّهات كمان»، قال نسيم.

هز الأب رأسه ولم يجاوب، وفجأة أزاح صحنه، نهض عن الكرسي، وقال إنّ الكلام مع ابنه عبث.

غادر الأب الترويقة، ولم يعد إلى حديث الأمّهات. صوت الأب عاد من جديد إلى أذنيْ كريم، الذي ادّعى بأنّه لم يسمع شيئًا

«المرا هي أصل الرغبة، الرجّال مجرّد تفصيل صغير بعالم الحبّ يلّي بلا حدود. منشان هيك بتعجّب لمّن بيجوا الرجال لعندي حتى يطلبوا مقوّيات، لأنّه مش مفيد، الرجّال الحقيقي هو يلّي بتخلّيه المرا يحسّ أنّه رجّال، نقطة على السطر»

«كيف يعني سأل نسيم؟»

«يعني يا ابني يا حبيبي، لمّن منحكي عن الحبّ، منكون عم نحكي عن شي متل السحر، والسحر موجود بإيد المرا، إذا هي بدها إيّاك إنت بتصير، وإذا هي ما بدها ما في شي بيصير، لأنّه الرجّال تافه».

حاول نصري أن يشرح لابنه أنّه لا يتكلّم عن نزوات مطلع الشباب، حيث تكون الرغبة عمياء وبلا هدف، بل يحكي عن الحبّ حين يصير دفء القلب، وغذاء الروح، عندها لا يكون إلّا بالمرأة ولأجلها

حاول نسيم أن يسأله عن المومسات، «بس هنّي ما فرقاني معهم، ومش متل ما عم بتقول، ومع ذلك بيمشي الحال». فأجاب الأب إنّ هذا موقّت ومرتبط بالشباب، الشباب هو خدعة الحياة، لأنّه يكذب علينا، يوحي لنا بأنّ اندفاعته هي الحياة، بينما هو مجرّد حياة فائضة يجب أن نتخلّص منها كي نتمتّع بالحياة».

«خُلقت ألوفًا لو رجعت إلى الصبا

لفارقت شيبي موجع القلب باكيا»

قال «إنّ المومسات هن حاجة للحياة الفائضة أي للرجال الفارغين من الحياة»

«بس أنت قلت لي إنّك رحت لهونيك، وما كنت شابّ»

«هيدي نزوة، بس هلّق خلص، الحبّ بيجي لعندي، وإذا ما إجا بخلّيه يجي»

«يعني أنت بهالعمر وما بتاخد مقوّيات؟»

«أبدًا، على الإطلاق»

ادّعى نصري أمام ابنيه أنّ مجيء سوسن إلى البيت كان خطأ، لكنّه كان يكذب. عرف عندما نام معها في المرّة الأولى أنّها هي، هذه هي المرأة التي يريد. ضاجع الكثير من المومسات قبلها، وكان يشعر في نهاية اللقاء أنّه يصير فارغًا كإناء اندلق ماؤه على الأرض، كأنّ المرأة التي ينام معها تريده أن ينتهي بسرعة، ويمضي. أمّا هذه السوسن فجعلته يشعر بالرغبة التي لا تتبهدل في لحظة اكتمالها وصار يزورها مرّتين في

الأسبوع، ويقضي وقتًا طويلاً في التحدّث إليها أخبرته حكايتها، وأخبرها حكايته، وصار لا يستطيع فراقها وفي ليلة سبت عاصفة، والمطر ينهمر، دخل إلى غرفتها في السوق العمومي، وبدأ الكلام. طلب قنّينة نبيذ، وقال إنّه يريدها هذه الليلة «سكارسا»، وأن تكون له كلّ الليل، وأنّه مستعدّ للدفع. وكانت ليلة القرار الجنوني، نام ملتحفًا جسدها الأبيض الهشّ، وهمس لها أنّه يريد أن يتزوّجها ضحكت وربّتت على ظهره، وطلبت منه أن ينام. جلس في السرير، أشعل سيجارة وقال إنّه لا يمزح، وكرّر اقتراحه. قالت إنّها لا تصدّقه، وإنّ هذا مستحيل. أخبرها أنّه قرّر، وأنّه يدعوها يوم الإثنين إلى بيته كي تلتقي ابنيه. لكنّ الحكاية لم تنته على خير، أخطأت سوسن، وجاءت كما هي، بأظافرها المطليّة باللون البنفسجي، وفستانها القصير الذي يكشف عن فخذيها وكان الكحل يسيل على عينيها

قال لها نصري إنّه لا يستطيع من أجل الأولاد. قالت إنّها كانت تتوقّع ذلك، قال إنّه يحبّها ولن يتوقّف عن حبّها

لكنّ كلّ شيء تهاوى، تغيّرت سوسن، وصارت مومسًا كالأخريات، وانطفأت النار. ومع انطفاء عينيْ سوسن وجسدها، فهم نصري أنّ حبّه لا يستطيع إنقاذه من هاوية الشعور باللاجدوى والعجز عندما أفلتت سوسن حبل الرغبة، سقط الحبّ، ولم يعد الرجل قادرًا على إنقاذ الموقف. ما أثار حيرته أنّ طيف سوسن لم يتوقّف عن جعله يشتعل رغبة واشتياقًا، لكن حين يذهب إليها، ويقترب من جسدها المحايد المرمي على السرير، ينطفئ، ويشعر بالعجز في البداية كانت سوسن تحاول، لكنّ محاولاتها الميكانيكيّة لم تكن تجدي. ثم صارت تنفجر ضاحكة، «لازم تغيّر يا حبّوب، الهيئة خلص، الشعطة راحت، منيح يلّي ما تزوّجنا، لأنّه كانت بهدلة».

حاول أن يقول لها إنّه لا يعرف ماذا يجري، لكنّه يريدها وعندما بدأ يفقد ثقته بنفسه، قرّر أن يغيّر، ومشي الحال، لكن عطشه إلى جسد المرأة

كان يزداد عطشًا، وهذا ما سوف يقوده إلى الدواء الأخضر

لم يرو نصري لأولاده ماذا جرى مع سوسن، زيارة المومس صارت محرَّمًا لا يجوز الكلام عنه، وصارت كأن لم تكن، رغم أنّ نسيم يملك رأيًا آخر، ويبرّر هربه من البيت، بسوسن، التي لم تغادر خياله، ورأى فيها وسيلة للتهرّب من عدم قدرته على التأقلم مع المدرسة.

«نمت مع سوسن»؟ سأله كريم.

«قلت لك هي يلّي دبّرتلي شغل بمطعم الشاورما والفول عند المعلّم نخلة الكفوري»

«يعني نمت معها؟»

«بس ما كان شي مهمّ، قالت لي إنّي بذكّرها بنصري، وصدّقت قصّتي، ودبّرت لي شغل، ومشي الحال»

هرب نسيم الذي دام أسبوعًا غيّر حياة كريم، الذي شعر بعقدة ذنب أجبرته بعد ذلك بثلاثة أعوام على انتحال شخصيّة شقيقه في الامتحانات الرسميّة، وإلّا لما استطاع نسيم دخول كلّيّة الصيدلة في الجامعة اليسوعيّة في بيروت.

قلبت سوسن حياة العائلة رأسًا على عقب، وحوّلت نصري إلى ذئب، هكذا سيصف كريم والده، وهو يروي لبرناديت عن وحدة والده وتذوّبه، ووحشته

التجربة اليونانيّة غيّرت كريم كثيرًا، بعدها قرّر أن يبتعد عن طريقة حياة شقيقه، لأنّه اكتشف أنّ نسيم ليس مرآته، وبنى حياته العاطفيّة المستقلّة. توقّف عن الذهاب إلى السوق العمومي بعد مرض أستاذته اليونانيّة، وبدأ يُقيم علاقات سرّيّة مع الفتيات، بلغت ذروتها في حبّه لهند حتى هذه الحكاية التي أراد لها أن تبقى سرّيّة، كادت تتحوّل إلى فضيحة.

جاءه نسيم وقال إنّه معجب بابنة سلمى الوحيدة. كان الشقيقان يتغامزان دائمًا حول علاقة والدهما بهذه الأرملة التي تأتي إلى الصيدليّة في شكل دائم من أجل أن تشتري أدوية لنباتاتها

عندما تحدّث نسيم عن هند مع شقيقه، امتقع وجه كريم، ولم يقل شيئًا «الهيئة في قصّة ما معي خبرها»، قال نسيم، ثم التفت إلى شقيقه وربّت على كتفه وقال له أن لا يهتم، «صحتين على قلبك، البنات على قفا مين يشيل، منيح يلّي ما تورّطنا معها أكتر من هيك»

لم يسأل كريم شقيقه عن كمّيّة تورّطه، كما لم يسأل هند، ونسي القصّة تمامًا

لكنّ القدر كان له رأي آخر

لم يعرف كريم حكاية موت والده الصيدلي نصري الشمّاس إلّا في بيروت، وكانت هند هي من أخبرته

جاء نسيم وهند لزيارته في صباح رأس السنة، جلبا فطورًا مؤلّفًا من المناقيش والكنافة بالجبن، بدأوا يأكلون حين رنّ جرس التلفون. التقط نسيم السمّاعة، امتقعت ملامحه، وقال إن عليه أن يغادر

وقفت هند كي ترافق زوجها، طلب منها نسيم البقاء، ومضى. أكمل كريم وهند إفطارهما في صمت هو ينظر إلى الفراغ، وهي منكسرة العينين. كان صوت المضغ يطنّ في أذنيه، وأحسّ أنّه فقد القدرة على الكلام.

خاف أن تعود هند إلى قصّة الحبّ القديم، مثلما فعلت حين زارته في بدايات إقامته في بيروت. كانت غزالة تشطف الصالون، وكان كريم لابسًا بيجامته، جالسًا أمام مكتبه يرتشف القهوة، ويشعر برغبة لا تقاوم إلى هذه المرأة. لبس ثيابه على عجل، واستقبل زوجة أخيه في الصالون الذي

أزيحت السجّادة الكبيرة التي تغطّي بلاطه المعرّق، وكان كلّ شيء يلتمع بالماء.

ذهبا إلى مقهى «بول» المجاور، وبدأت هند تحكي، لكنّه كان يريد الانتهاء من هذا اللقاء بسرعة قبل أن تغادر غزالة. كان يستمع إلى هند كمن يرى حياته من خلال ستائر الدموع التي غطّت وجه المرأة التي لم تشرب قطرة واحدة من فنجان القهوة الإكسبرسو الموضوع أمامها، لكنّ رغبته في غزالة استبدّت به، بحيث لم يكن قادرًا على التركيز، ممّا أوحى لها أشياء لم يكن يريدها

عندما همّ بدفع الفاتورة كي يمضي، مدّت هند يدها وأمسكت يده، ترك يده في اليد الطريّة الممدودة، ولم يعد يدري إلى أين تتّجه به الرغبة.

يومها لم تتكلّم هند عن الحبّ الذي اندثر، بل تكلّمت عن خيبتها، سألته إذا كان يعرف شقيقه جيّدًا، لأنّها اكتشفت بعد الزواج أنّها لا تعرفه. قالت إنّها فوجئت، بعد شهر واحد من الزواج، أنّ الرجل انقلب رأسًا على عقب، وأنّها سقطت في مصيدة.

«بالأوّل كان متلك، والله متلك مخلق منطق، كان ينعّم صوته، ويوطّي رقبته لمّن يحكي عن الحبّ، كأنّه أنت. حسّيت إنّي بعرفه من زمان، ما بعرف كيف قبلت عزيمته على فنجان قهوة، قال في شي مهمّ بدّو يحكيه معي، وفات فيّي متل النعس من أوّل لحظة حسّيت إنّه قصّة الحبّ يلّي عشتها معك فيها تكمّل، وحسّيت أنّه يمكن الله عم ينتشلني من كعب البير يلّي زتّيتني أنت فيه، وما قدرت أرفض. قدّم لي عرضًا لا يُمكن رفضه، وافقت»

قال كريم إنّ هذه المسألة لا تعنيه، «أنت هلّق من العيلة، وفيكي تعتبريني متل خيّك»

«متل خيّي»! قالت وابتسمت بمرارة.

وحكت، وشعر كريم أنّه ليس هنا، غطّت غيمة بيضاء عينيه، وشعر بالكاتاراكت. رأى نصري أمامه وهو يصف البياض الحليبي الذي اجتاح عينيه قال إنّها المياه الزرقاء، وإنّه يكره هذا الاسم، لا يدري لماذا يخترع الإنسان اسمًا لا مسمّى له، هذا الأزرق ليس إلّا وهمًا، فنحن لا نرى سوى البياض. وقال إنّه إذا لم تنجح العمليّة فسينتحر طلب من نسيم أن يضع حبّة السمّ في جاروره. «بكرا ما تقول كاني ماني، العمى يعني الانتحار، نصري مش رح يعيش لحظة واحدة أعمى، مفهوم يا أولاد الكلب»

كان نصري في الستّين، حين بدأ اللون الحليبي يحتلّ عينه اليسرى، فهم منذ اللحظة الأولى أنّه وقع، وأن لا مفرّ من الجراحة. الرجل الذي قضى كلّ حياته يعالج الناس ويصف الأدوية، ويتصرّف أمام المرضى كإله، كان يُصاب بالرعب من فكرة إجراء عمليّة جراحيّة. كان يعالج نفسه بالأعشاب والحمية، وبخلطات الأدوية التي كان مقتنعًا أنّها تناسب جسمه. لكنّه كان لا يقترب من أمرين العيون وأمراض البروستات. هنا كان يقف أمام المرضى كالأبله ويرفع حاجبيه السميكين اللذين وشّحهما البياض إلى الأعلى، وينصح بزيارة الطبيب. الصيدلي الذي يحتقر الأطبّاء، ويقول إنّهم مجرّد فطريّات تنمو على أطراف شجرة الكيمياء التي يصنعها الصيادلة، كان أمام أسرار العينين، وأمام الرعب من أمراض البروستات التي تُصيب الرجل بالعقم، يفقد حيلته، يبتلع كلّ كلامه، وينصح مرضاه بزيارة الطبيب.

لكنّه لم يستطع ابتلاع قرار ابنه الكبير بدراسة الطبّ، ولم يغفر له. «أنت يلّي أنا متّكل عليك تكمّلني وتكمّل رسالتي، أنت الشاطر يلّي كان يعبدك الراهب أوجين لأنّك فلتة ذكا بالرياضيّات والكيميا، أنت بدّك تتخلّى عنّي، لمين بدّي ورّث الفرمشيّة؟ خيّك الهبيلة يلّي مطشطش بكلّ شي، ما بحياتي رح سامحك، أنت مش ابني»

«بسّ يا بيّي الفرمشانيّة ما فيهم يشتغلوا بلا الأطبّاء».

«هيدا حكي زعبرة، وأنت بتعرف أنّه أكل هوا وبلا طعمة»

حين نطق نصري بهذا الكلام لم يكن يقول الحقيقة، فهو كان يعتقد أنّ ابنه الشاطر في المدرسة، كان أهبل في الحياة العمليّة، بينما كان شقيقه الصغير حربوقًا، ويستطيع أن يتابع رسالة الأعشاب كما يجب. كان يتمنى لو يستطيع دمج الابنين في شخص واحد. «كأنّني انشقّيت إلى نصفين»، قال لابنيه الشابّين وهم يناقشون كيف سيتقدّم كريم إلى امتحانات الدخول إلى كلّيّة الصيدليّة في الجامعة اليسوعيّة باسم شقيقه الصغير

كانت منامات نصري عن ابنيه غامضة ومشوّشة، لكنّ الصورة التي أراد تذكّرها، على الرّغم من أنّه ليس متأكّدًا من أنّه رآها فعلاً في منامه، هي صورة شابّ له جسد واحد برأسين. ملامح الوجهين متشابهة حدّ التطابق، لكنّ المشكلة كانت في العيون، كانت العيون مغمضة وحولها دوائر من العتمة. يجد نصري نفسه في مواجهة هذا المنام عاجزًا حتى عن الاستيقاظ من النوم. كان يعلم أنّ هذا الوجه المزدوج لا يزوره إلّا مع بدايات الفجر، وأنّه يكفي أن يفتح عينيه كي تتبدّد هذه الصورة التي تؤلمهما، وتجعله يشعر بالعجز عن التحرّك في سريره

قال نصري لسلمى إن خيبة أمله الكبرى هي ولداه كانا يشربان القهوة على شرفة منزل ابنه نسيم الذي تزوّج هند، وكانت النباتات التي أهداها لابنه مشرقة وكبيرة وخضراء قال لها عن الحبق، لأنّه يعلم أنّها تحبّ الحبق كثيرًا، وتستخدمه في صناعة أطباق من الطعام لا عدد لها

«شايفة هالحبقة يا سلمى، هذا من فضل ربّي»، قال ضاحكًا

«ابنك بيقتلك إذا لعبت هاللعبة الوسخة مع هند، أوعا»

«ولو يا سلمى، حدا بياكل من لحمه، أنا شخصيًّا بمرّ مرّة بالأسبوع وبحطّ الدوا، خلص هالحركات، بس بتعرفي كانت لعبة حلوة، وبعدها طعمتها تحت لساني»

أقفلت المرأة وجهها، ورأى نصري الحزن، وفهم أنّ المرأة أغلقت الباب، ولم يعد في استطاعته أن يقول شيئًا كان يريد أن يقول لها إنّه طلّق تلك الأيّام، وإنّ ما بقي من زمن السائل الأخضر هو ذكرياته معها، وإنّه يريدها اليوم رفيقة أيّامه الأخيرة وحبيبته لا يدري نصري من أين هبط عليه الإخلاص والحنان دفعة واحدة، لكنّه كان صادقًا في شكل مُخجل. لن يذكر من هذا اللقاء سوى هذه الكلمة. شعر بخجل الإخلاص، واكتشف أنّ حبّه لزوجته المريضة، وحدبه عليها، لا يزالان نائمين في مكان خفي من روحه، وأنّ سلمى تستطيع اليوم أن تحتلّ هذا المكان. سلمى لن تصدّقه، لا لأنّه يكذب، بل لأنّه كان عاجزًا عن تصديق نفسه. ولأنّ هناك عشرات الأسباب التي سوف تدفعها إلى الشكّ في كلامه، خصوصًا بعد فضيحة الأختين العجوزين.

قالت سلمى لنسيم إنّه لا يجوز لا تعرف المرأة من أين امتلكت جرأة الكلام. تكلّمت في البداية مع ابنتها وطلبت منها أن تطلب من زوجها أن يضبّ والده. فكان جواب هند أنّها لا تتدخّل بين زوجها ووالده.

«بكفّيني همّي يا أمّي»

«ليش زوجك كمان؟»

«الله يخلّيكِ، خلّيني ساكتة، هيك أفضل إلك وإلي»

وجدت سلمى نفسها تحكي مع صهرها نسيم، كانت تعرف أنّه يعرف حكايتها مع والده، لكنّها لبست الجرأة وحكت. امتقع وجه الرجل وخرج غاضبًا من بيته، ولم يعد تلك الليلة. هل كان نسيم يجهل حكاية الشقيقتين التي كان يعرفها كلّ الناس؟ أم أنّه ادّعى ذلك أمام حماته؟ أم أنّه غضب من وقاحة هذه المرأة التي تعرف أنّه يعرف حكايتها مع والده، لكنّها امتلكت جرأة الكلام عن الفضيلة؟

في الصباح تلفن لزوجته كي لا ينشغل بالها أكثر، وطلب منها أن لا

تسأله ماذا جرى، بل عليها أن تسأل أمّها

نصري يجلس على الشرفة، يتأمّل الأوراق الخضراء ويرى أحفاده الثلاثة الصغار، نديم ونصري وبشير، يلعبون تحت رعاية جدّتهم. كان يكره أحفاده، لا، هذه الكلمة ليست ملائمة، لكنّه كان يشعر بالمهانة لأنّ نسيم لم يطلق على ابنه البكر اسم جدّه. لكنّه لم يقل شيئًا فهو أيضًا لم يطلق على ابنه البكر اسم والده. لكنّه كان محقًّا يعني كيف يسمّي ابنه البكر جورج، على اسم رجل بدّد ثروة العائلة، وأمضى حياته خلف طاولة القمار، ما أجبر ابنه الوحيد على العمل وهو في الثانية عشرة كي يؤمّن أقساط مدرسته. «بس أنا مش جورج، أنا عكسه، أنا ما متّ من السكر متل ما مات بيّي، كرّست نفسي لأولاد الكلب وما تزوّجت بعد ما ماتت أمّهم» وفجأة رأى إصبع نسيم يقترب من وجهه. سلمى انسحبت مع الأطفال إلى الداخل، ووجد نصري نفسه أمام وجه ابنه المحتقن بالغضب، وتلويحة سبّابته

يومها أُصيب نصري بالخرس، ورأى شبح النهاية. لم يجد ما يقوله، لأنّه شعر أنّ الحائط الذي سيّج به حياته قد انهار كان يعتقد أنّ الإنسان يبني حول نفسه سورًا، وأنّ هذا السور يتداعى لحظة الموت، حين يعجز الإنسان عن ضبط نفسه فيتبهدل، وتفوح الرائحة. شمّ في إصبع ابنه المليء بالتهديد رائحة نهايته، وأحسّ أنّه يريد أن يدخل إلى الحمّام، وأنّه صار عاجزًا عن ضبط نفسه.

مشى نصري مهرولاً إلى الحمّام، ولم يستطع أن يجد طريقه. رأى كلّ شيء يتوشّح بالأبيض الحليبي، كأنّ المياه الزرقاء عادت إلى احتلال عينيه، أراد أن يقول لابنه كلّ شيء، لكنّه لم يستطع أن يحكي، انهمرت الكلمات دموعًا، ومشى مترنّحًا صوب الحمّام، أقفل الباب وبدل أن يتبوّل، بكى، وشمّ رائحة دموعه.

منذ تلك اللحظة قرّر نصري أن لا يتّصل بابنه، أقفل على نفسه بيته، وتوقّف عن الذهاب إلى الصيدليّة، وبقي وحيدًا في انتظار ملاك الموت.

خيبته لم تكن بسبب إصبع نسيم، نصري اعتاد على إهانات ابنه، وحين ضربه الابن الضالّ، مثلما كان يسمّيه، قرّر طرده من الصيدليّة. خيبة نصري اسمها سلمى. رفض دائمًا أن يعترف لهذه المرأة بأنّه يحبّها، كان يكتفي من الحبّ بحبّها له. الحكاية لم تكن مجرّد لعبة غواية ودواء أخضر، ما لم تقله سلمى للرجل أنّ ما كان يحسبه هذا الصيدلي الأحمق مجرّد رغبة جنسيّة ناجمة عن مفعول دوائه السحري كان حبًّا، أو ما يشبه الحبّ.

لكنّ سلمى فقدت إيمانها بالحبّ، بسبب حماقة نصري، ولم تعد إلى استخدام تلك الكلمة. بل إنّها نهرت ابنتها التي جاءتها مرّة باكية من سوء تصرّفات زوجها، وقالت إنّها تشعر بتعاسة الحبّ، بأن طلبت منها أن لا تستخدم هذه الكلمة أبدًا، لأنّها كلمة بلا معنى.

«بس إنت يا أمّي تركت الدنيا كلّها، واحترق قلبك على أولادك منشان الحبّ»

«أنا كنت حمارة، ويمكن بعدني حمارة، وما في لزوم تكوني إنت حمارة متل إمّك»

جفّ حبّ سلمى لهذا الصيدلي الأحمق، الذي لا يرى الحياة إلّا من منظور الجوع. كان لا يستخدم في غزله المحموم معها سوى كلمات مرتبطة بالطعام. وكان يصدر أصواتًا شبيهة بتلمّظ من يأكل، وليس بمتعة من يحبّ. وعندما يئست من حبّه، رمت في وجهه قارورة الدواء السحري، وجمدت على الكنباية التي كانا يستخدمانها كسرير في الغرفة الخلفيّة في الصيدليّة، ورأته كيف يتهاوى.

جاءها بكلمات الحبّ بعد فضيحة الأختين شرتوني سلمى أخذت المرأتين إلى المستشفى، وروت للطبيب سبب النوبة العصبيّة التي

ضربتهما، وجعلتهما تخرجان عاريتين إلى الطريق. قال الطبيب إنّه يجب رفع دعوى قضائيّة على الصيدلي وسحب رخصته ودكّه في الحبس. لكن سلمى رفضت أن تعطي اسمه.

قال نصري لهند إنّه خسر، وفقد رغبته في الحياة. قال إنّ نسيم قتله، «وهذه ليست المرّة الأولى، بس هالمرّة ما بقى فيّي إتحمّل، تحمّلت كتير يا بنتي، إنت بتعرفي»

وبدأ يروي الحكاية نفسها، عن كيف طرد ابنه من الصيدليّة لأنّه حوّلها إلى محششة. «هو مش فرمشاني، بتعرفي كيف فات على كلّيّة الصيدلة بالجامعة اليسوعيّة، أكيد خبّرك، وما فلح، ما عاد خيّه يقدر يقدّم الامتحان عنّه، هون الأساتذة بيعرفوا التلاميذ، وما في لعب»

قالت إنّها تعرف القصّة لأنّه هو من رواها لها عدّة مرّات، وأنّها جاءت وسيط خير، وأنّها تريد أن تدعوه إلى حفل ميلاد نصري، «يا لطيف شو طالع هالصبي بيشبهك، كأنّه نصري الصغير»

«وهو»؟ سأل نصري.

«هو موافق، كأنّ شيئًا لم يكن»

وهكذا كان، وصار الذي كان كأنْ لم يكن. إلى أن مات نصري.

قال كريم إنّه لم يفهم شيئًا من الحكاية، كانا يجلسان وحيدين، يمضغان طعامهما بصمت في انتظار عودة نسيم، عندما روت هند أنّ نصري لم يزحط أو يقع.

«ما بعرف شو صار، بس كان كأنّه مش على بعضه، يقعد ويوقف، يشرب شفّة من فنجان القهوة، ويقوم يفتح الشبابيك، قلت له يا عمّي الدنيا برد. قال إنّه مشوّب، خفت يكون طلع ضغطه، سألته إذا أخد الدوا، قال إنّه أخده، بس كأنّه كان مهتاج، حركاته كانت مش طبيعيّة، وقف وقال إنّه

بده يروح، طلّع من جيبته كاسيت قال بدّه يسمّعني ياها، ما بعرف شو صار، تفركش بالكرسي، وكان رح يوقع، ركضت ومسكته، وقف وتعربط فيّي، حاولت إتملّص منه، ما قدرت، صرخت فيه أنّه يتركني، كانوا إيديه متل الحديد، وكان عم بيشدّ فيّي، يبدو إنّي دفشته، وقع، وبلّش الدم ينزف من رأسه وغاب عن الوعي، تلفنت لنسيم، إجا وأخده على المستشفى، وقال ما تفتحي تمّك، ما بدّي حدا يعرف شو صار، وبعدين مات»

«يعني إنتِ؟»

أحنت رأسها موافقة.

أراد كريم أن يحكي لكنّ السعال افترس حنجرته. أراد أن يقول لهند إنّها كانت يد العدالة. أراد أن يقول إنّ العدالة هي الفعل الشيطاني الأكبر في حياة البشر الشيطان هو مخترع العدالة، لأنّ الشيطان وحده، من بين جميع الكائنات، يستطيع أن يكون عادلاً، لأنّه مظلوم وظالم. فالعدالة هي الاسم الآخر للانتقام. كان سعاله يخفي كلامًا كثيرًا، لكنّه بدل أن يحكي تشردق بكلامه، أراد أن يقول لها   يحاول أن يحكي فيزداد سعاله، وهند تجلس أمامه، شفتاها تلتمعان بالقطر الذي أكلته مع الكنافة، تنظر إلى الأرض صامتة ومع ازدياد السعال ركضت إلى المطبخ وعادت بكوب ماء.

هكذا روت هند لأمّها، عندما جاءت كي تُقيم معها، بعدما قرّرت أنّها لم تعد تحتمل الذلّ في بيتها الزوجي. وعندما انزاحت نوبة السعال، أشعل سيجارة، وقال إنّ ما قامت به يُسمّى عدلاً، لكنّه يكره العدالة فالعادلون في لبنان هم المجرمون، إذ لا ميزان للحياة ولا للعدل.

سألها لماذا أخبرته؟

«ما بعرف»، قالت. «حسّيت إنّه لازم حدا يعرف».

«بس خيّي عارف، إنت قلتِ لي إنّه طلب منك ما تخبّري حدا».

«حسّيت إنّه أنت بالذات لازم تعرف، لأنّك إنت القاتل الحقيقي»

«أنا!».

«طبعًا أنت، لكن مين، أنت يلّي حطّيتني بهالوضع، فركتها من دون ما تخبّرني شي، ولقيت حالي علقانة بهالعيلة»

«الله يخلّيكِ بلا هالحكي، حاسس حالي عم عيش ميلودراما»

«بس الميلودراما بتعبّر عن الحقيقة»

«حتى ولو، بس ما لازم تنحكى. يعني أنتِ؟»

«أنا ما قلت هيك، بس يمكن، ما بعرف شو كان صايرله، وما كان فيّي أعمل شي، أنا ما دفشته عن قصد، ويمكن ما دفشته، ما بعرف شو صار، سألت نسيم، قال لي سكّري الموضوع هيأته كان محشّش، وما في لزوم للفضيحة. ليش بيّك كان ياخد مخدّرات؟»

«ما بعرف، يمكن أمّك أدرى»

«أمّي! شو خصّ أمّي؟»

في تلك اللحظة جاء نسيم، كان وجهه أسود من الغضب والحزن. نظر إلى شقيقه، وقال له إنّ الأمور صارت صعبة، وإنّه سيمرّ به غدًا كي يخبره الأنباء السيّئة. نهضت هند وغادرت مع زوجها

هند أخبرت زوجها أنّها روت لشقيقه عن موت الأب، وهنا يقع الخطأ خطأها لم يكن في الكلام، بل في التوقيت. وهذا ما حاول أن يشرحه لها، حين تلفن لها مودّعًا

«لا يا حكيم»، قالت هند، «لا مش قصّة توقيت أبدًا، في رجّال بيحترم نفسه بقول لمرته إنّها شرموطة وبنت شرموطة قدّام الأولاد؟».

حاول كريم أن يشرح لها أنّ الشتائم يجب أن لا تؤخذ بحرفيّتها، وأخبرها عن صديقه الشاعر العراقي الذي التقاه في مونبلييه، والذي كان حين يسكر يتغنى بالشتائم اللبنانيّة في وصفها أرقى أشكال الكناية.

«شو يعني كناية؟».

«يعني تشابيه، كيف بدّي قول، يعني بتقول شي تتقصد شي تاني، بتغلّف الكلام بالصور، وبتصير الصورة هي الموضوع وبتفقد الكلمات معانيها»

لم يرو كريم لهند وقائع لقائه مع شقيقه، والطريقة المباشرة التي تخلو من آداب الكناية، التي وصف فيها نسيم والده. اكتفى بأن قدّم النصح، لأن لا مكان للمرأة إلّا إلى جانب زوجها وأولادها

ـ ٦ ـ

لم يعد كريم إلى بيروت بحثًا عن قتلة والده، أو من أجل الانتقام منهم. هذه القصّة لا تصلح له، ولا تشبهه. سبق لكريم أن قرأ قصّة مشابهة عن رجل يعود من فرنسا بحثًا عن قتلة والده، كتبها مارون بغدادي ونُشرت في «ملحق النهار»، بعد موت المخرج اللبناني الشابّ. كان مارون رجلاً جميلاً، وكان قادرًا على غواية جميع النساء. هكذا رآه كريم حين التقى به في مونبلييه. يذكر أنّه شاهد فيلمه «حروب صغيرة»، في عرض خاصّ في الجامعة، ثم دعاه الطالب اللبناني، الذي حدّثه عن وليمة خدّ الثور التي أكلها في باريس، إلى أحد مطاعم ساحة «الكوميدي» حيث تحلّق الطلبة من حول المخرج، الذي روى لهم عن مشروع فيلم جديد يعدّه عن التسامح، وقال إنّه يبحث عن كاتب من أجل مساعدته في السيناريو يومها خطرت في بال كريم فكرة أن يكون هو كاتب السيناريو، لكنّه خاف من أن يبدو مضحكًا، فصرف النظر عن الموضوع

شبح المخرج اللبناني احتلّ خياله من جديد عندما قرأ نتفًا من حكاية موته المفجعة، على أثر سقوطه في منور الدرج في المبنى الذي كان يُقيم فيه في بيروت قرب مستديرة التباريس، وهو يستعدّ لتصوير فيلمه الجديد.

قال كريم لزوجته إنّ موت صديقه مارون حوّله إلى بطل، لأنّ مارون

كان في الأساس حائرًا بين أن يكون بطلاً أو مخرجًا اختارته البطولة كي تقتله، وافترسته الحكاية التي كتبها

فوجئ ببرناديت تسأله عن المرأة الشقراء.

«أيّة امرأة»؟ سأل كريم.

«قيل لي إنّ هناك امرأة غامضة كانت معه ليلة موته، وأنا لا أستبعد الجريمة»

«من أين لك كلّ هذه المعلومات؟»

قالت إنّها صارت لبنانيّة أكثر منه، وتعرف أخبار لبنان بالتفصيل، بينما هو لا يبالي إلّا بأكل التبّولة.

قال لها إنّ هذه الأفكار وليدة قراءتها للروايات البوليسيّة، وإنّ لبنان لا يصلح للروايات البوليسيّة.

قالت إنّ هذه مشكلة لبنان، فحين تصير الرواية البوليسيّة ممكنة، فهذا يعني أنّ بلدكم نجح في فصل الجريمة عن بنيته الاجتماعيّة. أمّا أنتم فتعيشون في الجريمة من دون أن تعرفوا

سألته لماذا استخدم كلمة «صديقي»، حين تحدث عن مارون بغدادي. «هل هو صديقك فعلاً؟».

قال إنّه التقى به مرّتين في بيروت، في منزل رجل يُدعى داني، حيث كانوا يناقشون الماركسيّة، وإنّ مارون لم يكن معنيًّا بالنقاشات، كان لا يتوقّف عن المزاح، وغواية الفتيات. ثم التقى به هنا في مونبلييه، وكان متأكّدًا من أنّ مارون لن يتذكّره، وهذا ما حصل فعلاً، لأنّ المخرج كان مهتمًّا بفتاة سوداء جميلة، جاءت برفقة طلال، الطالب اللبناني، الذي دعاه إلى المطعم.

«يعني ليس صديقك»، قالت برناديت.

«كأنّه صديقي»، قال.

«كلّ شيء معك كأنّه، لم أعد أفهم عليك، تقول إنّك تحبّ لبنان، ولا تسمح لنا بزيارته، ترتعش عندما تتكلّم مع شقيقك، ولا تريد لنا أن نتعرّف على عائلتك، مات أبوك ولم تذهب إلى بيروت، أنا لا أعرفك»

قال لها إنّه لا أحد يعرف أحدًا، «ليش أنا بعرف حالي بالأوّل، حتى أفتح لك أبواب المعرفة. ما حدا بيعرف حاله، لأنّه الإنسان غابة مغطّاية بخيمة، والخيمة كلّها أسرار، والأسرار مشبوكة على جلد الإنسان»

«بس أنت طبيب جلد»، قالت.

قال لها إنّ سر مهنة الطبّ هو المرضى، على المريض أن يقتنع بأنّ الطبيب يعرف، عندها يستطيع الطبيب أن يمارس مهنته، «يعني الحكيم افتراض مش حقيقة مطلقة، إذا صدّقته بتشفى، وإذا ما صدّقته ما في يعمل شي»

قالت برناديت إنّه يتكلّم عن السحر وليس عن الطبّ، «بس إنت ساحر فاشل، والدليل أنّ سحرك عليّي ما عاد ينفع من زمان»

أراد أن يخبرها عن نصري الذي لعب بالكيمياء حتى قتلته. لا بدّ أنّ الرجل العجوز شرب دواءه الأخضر وجلس ينتظر في الصيدليّة، لكنّ ضحيّته الجديدة، ولنقل إنّ اسمها نجاة، لم تأتِ، أو لم تشرب الدواء. انتظر طويلاً، وعندما أعياه الانتظار ذهب إلى منزل سلمى، لكنّ سلمى لم تكن في البيت، أو لم تفتح الباب، فوجد نفسه يتّجه إلى منزل ابنه كي يموت.

هل حاول نصري اغتصاب هند، أم بدا غريب الأطوار، بحيث أخاف المرأة، فدفشته أرضًا، ولاقى حتفه بعد ذلك بسبعة أيّام؟

فكّر كريم أنّ قصّة البحث عن قتلة الوالد لا تعنيه، وأنّه لم يأتِ إلى لبنان لهذا السبب، وعليه أن ينسى المسألة برمّتها كان مشروع بناء المستشفى مناسبة كي يعود إلى مسرح جريمته التي لا يعلم بها أحد. والتي شارك في ارتكابها من دون أن يدري، أو من دون أن يعي فداحة تردّده، ما أجبر خالد النابلسي على مغادرته كي يذهب إلى حتفه في طرابلس. لكنّ خالد كان سيذهب على أيّة حال. رأى الرجل موته كقدر لا مهرب منه، فذهب إليه، ولا علاقة لكريم بالموضوع.

كان خالد أصيلاً، وما على الأصيل سوى أن يموت، أمّا هو فكان سينالكول الوهمي، مجرّد شبح لا وجود له، ولا أثر لقدميه على الأرض. لذا اختار أن يكون شقيقًا لسينالكول الحقيقي.

قال إنّه يبحث عن سينالكول، واقتنع بالفكرة. الاسم أعجب منى، التي ضحكت كثيرًا، وهي تشرب معه النبيذ الأبيض، وتستمع إلى حكاية ما أسماه توأمه الروحي، الذي مرّ في أحياء المدينة القديمة في طرابلس كالشبح، ثم اختفى، من دون أن يترك أثرًا أو علامة.

«عن جدّ عم تحكي، اسمه سينالكول»؟ سألت منى.

«هيك بيقولوا، أنا شو بعرّفني، داني خبّرني عنه لمّا بلّشنا نروح نشتغل مع مجموعة حيّ القبّة بطرابلس، وبعدين خالد النابلسي، الله يرحم ترابه، حاول يقتله لأنّه سمعته كانت عاطلة، وهيدا يسيء للثورة، بسّ ما توفّق فيه، بعدين مات خالد، وأنا رحت على فرنسا، وأخدت سينالكول معي»

«مين داني وخالد؟»

«هيدول رفقاتي بالحرب»

«وينهم هلّق؟».

«واحد مات والتاني عايش كأنّه ميت»، قال كريم.

«وسينالكول»؟ سألت.

«ما بعرف يمكن هو كمان مات، بس ما عندي أخبار عنه، بكرا رايح على طرابلس حتى إسأل عنه»

«يعني ما حدا ضلّ طيّب غيرك، عمر الشقي بقي»، قالت.

«لا، أنا ضلّيت طيّب لأنّي فركتها، مرق الموت حدّي، وزمطت بأعجوبة»

أراد أن يقول لها إنّه عاد إلى لبنان ليس من أجل المستشفى، بل بحثًا عن سينالكول، وعن بقايا تلك التجربة التي خاضها في طرابلس خلال الحرب. تلك كانت تجربته الكبرى مع الحياة والموت، وهناك اكتشف أنّ الحياة لا معنى لها، وأنّ الإنسان يخترع المعاني كي يتقبّل فكرة موته.

لكنّه لم يقل شيئًا لهذه المرأة التي جاءته لا يدري من أين، وأقام معها علاقة كي ينسى الجرح الذي نزفت منه قصّة مغامرته مع غزالة الآن، وهو يجلس مع منى، يشعر بدبيب الدم في شرايينه، لكنّه يتلهّى عن قصّة حبّ، جعلته يشعر بالخجل من عواطفه، ومن بلاهته، بعلاقة أفهمته منى منذ البداية أنّها لن تكون سوى علاقة عابرة. وفي العلاقات العابرة يجب أن تكذب، فهذا النوع من العلاقات يشبه قصّة عليك أن تكتبها وترسم ملامحها لا أن تتصرّف كأحد أبطالها الأبطال أغبياء، أو لنقل إنّهم يصدّقون، وحين تصدّق بتاكل الضرب. مع غزالة كان بطلاً، صدّق الغرام ليكتشف أنّه أكل أكبر مقلب في حياته، أمّا مع منى فالأمور واضحة ولا تحتاج إلى تفكير، عليه أن يحكي كي يملأ فراغات الخيال التي تصنعها الرغبة. هذا لا يعني أنّه ضدّ الحبّ. بل هو منذ أن شعر بأنّ زواجه بدأ يملّص، ويتّخذ شكلاً لا مكان فيه إلّا للتكرار، كان يعيش في انتظار حبّ كبير هكذا عاش علاقاته العابرة في المدينة الفرنسيّة البعيدة، لكنّه فهم

حين انتهت قصّة غزالة أنّ الحبّ ضحيّة توقّعات متناقضة، أو أنّه سوء تفاهم من موقعين مختلفين.

ترك هند لأنّه لم يستطع أن يخبرها عن الخوف الذي افترس مفاصله بعد مقتل خالد النابلسي، وشعر أنّ الحبّ، الذي كان يعتقد أنّه سيدوم إلى الأبد، امّحى في لحظة واحدة، ولن يعود إليه الشعور بالاختناق، الذي كان يحتلّ حنجرته عندما تغادره هند عائدة إلى بيتها، إلّا خلال نوبة السعال التي أصابته وهو يستمع من شقيقه، على الهاتف، إلى خبر زواجه من هند.

«قلت لي إنّ سينالكول طرابلسي، مش هيك؟»

«لازم خبّر أحمد، أكيد هيدي لينغوا فرانكا»

«شو؟»

«لينغوا فرانكا»

«شو يعني لينغوا فرانكا؟»

«هيدي لغة بقايا الصليبيّين، بكرا أحمد بيخبرك عن جدّه وعن أبوه، أنا ما بعرف خبّر قصص»

«بلا لينغوا فرانكا، بلا تجليط. لمّن كنّا صغار كان في مشروب غازي اسمه سينالكو، تقليد وطني للكولا، وبتذكّر أنّه كان طيّب، كان في منه على تمر هندي، بس ما بعرف ليش اختفى، الأرجح أنّه الشركة أفلست»

«والمعمل كان بطرابلس، مش هيك؟»

«ما بعرف»

«الشركة مش مهمّة»، قالت منى، «عم بحكي عن الزلمة، إذا كان طرابلسي فأكيد أخد الكلمة من هونيك وما فكّر بشركة الكازوز، وبكرا لمّن بتسمع القصّة رح تقتنع بكلامي»

وضعت مني عويناتها ونظرت إليه كما تنظر المعلّمة إلى التلاميذ طلبت منه أن يتوقّف عن الكلام في هذا الموضوع لأنّه ليس من اختصاصه. كانت في صوتها انحناءة أصوات المعلّمات وتعاليها، فلم يجد ما يقوله، سوى أنّها تتصرّف معه كأنّها معلّمة مدرسة، وأنّها لا تستطيع أن تنسى مهنتها، «والله يساعد زوجك»

سوف يذهب كريم إلى طرابلس، وسيستمع إلى الحكاية من أحمد، وسوف يشرب الليموناضة بالبوظة أمام جامع الدَكيز، ويلتقي بالسيّد عبد الملك، والد أحمد، ويستمع منه إلى حكاية أغرب من الخيال، ويكتشف في لغته السرّيّة أنّ الحرب، التي كان يعتقد أنّها قاطرة التاريخ، مثلما علّمه داني، تستخدم البشر من أجل طحنهم، وتعاملهم كأدوات، لأنّ التاريخ ليس سوى وحش لا يرتوي من دماء الضحايا

لكنّه لا يدري ماذا يجري له الآن، ولماذا يشعر بهذه الهشاشة التي لا علاج لها، ولماذا يجد نفسه من جديد عالقًا في هذا الشعور القديم، بأنّه جزء من رجل آخر، أو أنّه يشكّل مع هذا الآخر شخصًا واحدًا برأسين.

في المدرسة الابتدائيّة، كانت لعبته المفضّلة مع شقيقه اسمها لعبة العيون الأربع. كانا يقفان ظهرًا لظهر، ويريان ملعب المدرسة من الأمام ومن الخلف. لم يكونا في حاجة إلى تبادل المعلومات، فما يراه أحدهما كان ينتقل إلى وعي شقيقه من دون كلام. نسيم كان مخترع هذه اللعبة، وكانت وسيلته للدفاع عن شقيقه الذي كان، بسبب ضعف بنيته، يتعرّض دائمًا للضرب وهكذا وضع الشقيق الصغير حدًّا للاعتداءات التي كان يتعرّض لها شقيقه. أمّا لماذا كان كريم عرضة للضرب دائمًا من ولد يُدعى ميشال عقل، فتلك حكاية لها علاقة بالمعلّمة، التي كان ميشال يعيّره بأنّه يعشقها، ولهذا يتفوَّق عليه في دروس اللغة الفرنسيّة. كان ميشال هذا زعيم عصابة من الفتيان، وكان ينافس كريم على المركز الأوّل في الصفّ، ويفشل دائمًا. تهمة كريم أنّه كان معجبًا بالمعلّمة، مدام أولغا ندّاف.

وكانت أولغا تبادله إعجابه بالحنوّ والاهتمام. امرأة في أوائل الثلاثينيّات، بيضاء وممتلئة من دون سمنة، عينان سوداوان واسعتان، وأنف صغير ترتفع أرنبته إلى الأعلى، وشفتان رفيعتان كأنّهما رُسمتا بالقلم، وضوء يشرق على الجبين، وثياب بيضاء. كانت المعلّمة، التي أطلق عليها التلاميذ اسم مدام عروس، لا تأتي إلى المدرسة إلّا لابسة فستانًا أبيض، كأنّها تملك فساتين بيضاء لكلّ الفصول.

أستاذة اللغة الفرنسيّة سكنت سنة كاملة في عينيْ كريم. كان الفتى يتمنى أن تخلع المعلّمة عويناتها، كي يرى نفسه في مرآتيهما عندما قالت له منى إنّ زوجها يستخدم كلمة مرايات من أجل الكلام عن العوينات، انفجر ضاحكًا قالت إنّ هذه الكلمة وكلمات كثيرة غيرها هي جزء من القاموس السرّي لعائلة الدكيز «العيون هي مرايات القلب»، قال لها، أنتم تشوّهون اللغة. أهل تونس أيضًا يسمّون العوينات مرايات، قال إنّه اكتشف ذلك في باريس عندما التقى عن طريق المصادفة بامرأة «الدلّاع»، مثلما كان يسمّيها بعدما نسي اسمها

لماذا تنهال عليه الذكريات في بيروت، وما معنى أن تنبت الأشياء التي طواها النسيان، من مكان خفيّ لم يكن يدري بوجوده.

الآن تعود امرأة الدلّاع، كأنّها شبح ويجد كريم نفسه عاجزًا عن فهم علاقة الماضي بالحاضر كأنّ الذاكرة تحوّل كلّ شيء إلى علاقة شَبَحيّة. كأنّه لا يتذكّر نفسه، بل يرى إنسانًا آخر يشبهه.

حين التقى بها في باريس، سألته عن والده. وروت له كيف جاء الرجل في صباح اليوم التالي، قالت إنّه كان ينتظرها في ردهة الفندق، رآها فمشى معها إلى غرفة الطعام وتناولا الإفطار سويًّا قالت إنّها مستعجلة، لأنّ عليها أن تلحق بالطائرة، قال إنّه سيوصلها، صعد معها إلى الغرفة مدّعيًا أنّه سيساعدها على ضبّ أغراضها، ونام معها.

كان ذلك في بداية علاقة كريم بالسياسة. دخل إلى الجامعة الأميركيّة في بيروت، من أجل دراسة الطبّ، وبدأت العاصفة في رأسه. هناك التقى بشباب حركة «فتح»، وبدأت علاقته بمنظّمات اليسار اللبناني التي كانت تدعو إلى الكفاح المسلّح.

كانت المرأة التونسيّة في الثلاثين، سمراء ممتلئة بعينين لامعتين ووجه ضاحك صبوح، التقى بها في مؤتمر لدعم القضيّة الفلسطينيّة، نظّمه مجلس الطلبة في الجامعة الأميركيّة. كانت تعمل في صحيفة سرّيّة تونسيّة للتروتسكيّين اسمها «برسبكتيف» ألقت محاضرة عن المجاهدين التونسيّين خلال حرب ١٩٤٨، وروت عن رجل من صفاقس، قالت إنّها سجّلت شهادته الشفهيّة وسوف تنشرها في كتاب، قالت إنّه جاء من تونس إلى فلسطين مشيًا على قدميه، عابرًا ليبيا وصحراء سيناء. قالت إنّ الجيش المصري اعتقله في الفلّوجة، وإن الرجل قضى أربعة أعوام في السجون المصريّة، قبل أن يُطلق سراحه ويعود إلى بلاده. أسرت المرأة التونسيّة الألباب. لا يدري كريم كيف وجد نفسه إلى جانبها كانت الثامنة مساء، وغبش مساء حزيران المحمّل بالرطوبة يزحف على شارع بلسّ. سألته أن يدلّها على مطعم، فمشيا ساعات لا تُحصى على الكورنيش بعدما اشتريا سندويشي فلافل قال لها كريم إنّها امرأة حرّة، فضحكت، «شو يكون حرّة»، سألت. قال يعني إنّها متحرّرة مثل نساء أوروبا، فقالت إنّ الثورة حرّرتها أمسك بيدها قبل أن يصلا إلى فندق «أنتركونتيننتال» في منطقة الروشة. وعندما وصلا إلى مدخل الفندق وبدا أنّ كريم مصمّم على الصعود معها إلى الغرفة، قالت إنّها متعبة، وإنّه لا يزال صغيرًا على هذه الأشياء.

دعاها إلى الغداء في اليوم التالي، قالت إنّها تقبل دعوته شرط أن يأخذها إلى بيت أهله، لأنّها تتمنى أن تأكل طعامًا بيتيًّا لبنانيًّا، «وما تنسوش نحن ولد عمّ، نحن أحفاد أليسّا الفينيقيّة». لم يجرؤ أن يقول لها

إنّه لا أحد يطبخ في البيت، لأنّ أمّه ميّتة. قرّر أن لا يخبر والده، الذي لا يأكل ظهرًا في البيت على أيّة حال، ويزحّط شقيقه، كي ينفرد بالمرأة التي تكبره أحد عشر عامًا

لكنّه فضح نفسه عندما سأل والده عن أفضل مطعم يمكن أن يشتري منه طعامًا مطبوخًا بالطريقة التقليديّة. انكشفت اللعبة، لتجد المرأة التونسيّة نفسها محاطة بثلاثة رجال. يذكر كريم أنّها قالت إنّها أمام ثلاث نسخ من رجل واحد، وإنّ نصري انفجر ضاحكًا، وهو يتفاخر أمامها بأنّه أنجب ابنين في عام واحد.

«هل أشبه أبي»، سألها قبل أن يغادر غرفة الفندق.

«ستشبهه عندما تكبر»، أجابت ضاحكة.

كانت المائدة التي أعدّها نصري فاخرة، ورق عنب بالكراعين، كبّة لبنيّة، إضافة إلى المقبّلات، التي تتصدّرها التبّولة

وكان الأب سيّد اللعبة، أخبر النكات، روى الحكايات، وملأ غرفة الطعام بتموّجات الرغبة.

قال إنّه طبخ كلّ شيء بيديه، وإنّه يكره أكل المطاعم لأنّ نكهة الأشياء تختفي.

«الأكل تاريخ يا مدموزيل، كيمياء روحيّة لا يتقنها سوى من يعرف أنّ المادّة تتحوّل إلى روح»

«أنت طبّاخ»! سألت. «كريم ما قلّيش إنّه والده طبّاخ».

«أنا كيميائي، أعرف كيف أمزج الأشياء»، وبدأ يروي لها عن صيدليّته، واختراعاته، وعن ذلك السائل الأخضر الذي يشعل النبات بالحياة.

حاول كريم وشقيقه الدخول في الحكي، لكنّ نصري أمسك الكلام

بطرف خيط رفيع، ولم يفلت الخيط منه إلّا عندما تكلّم كريم عن قواعد الفدائيّين في الجنوب، عندها تجهّم وجه نصري. خرج من غرفة الطعام وعاد حاملاً جاطًا من البطّيخ الأحمر

«أنا أحبّ الدلّاع»، قالت.

روت أنّهم يسمّون البطّيخ دلّاعًا في بلادها، استولى نصري على الكلام ليمدح الدلّاع، ويقول إنّ الكلمة جاءت من الدلع، وإنّه كان يتمنى أن يرزقه الله بابنة كي يسمّيها دلع.

«لا يا أستاذ ما ظُنّش هذا، الكلمة لازم تكون في الأصل بربريّة»، قالت، «دا الدلع حاجة تانية، دي كلمة مصريّة»، وانفجرت بالضحك.

«الكلمات مثل الحجارة الأثريّة»، قال نصري، «أو مثل الأسماك المتحجّرة، لكنّ الفرق بين الكلمة والحجر أنّ الكلمة روح، والروح لا تتلاشى بل تعيش حتى وإن فقدت ذاكرتها»

عندما همّت المرأة التونسيّة بالمغادرة، ووقف كريم كي يمضي معها قفز الأب، وقال «أنا بوصّلك بسيّارتي» جلس كريم في المقعد الخلفي، بينما قاد الأب السيّارة، وجلست المرأة إلى جانبه. يومها رأى كريم كيف فرش والده الكلام في الطريق، التي انزلقت عليها دواليب سيّارة البيجو ٣٠٤.

عندما وصلا إلى أمام الفندق، أطفأ نصري محرّك السيّارة وتابع كلامه، كما أنّ الفتاة لم تتحرّك من مكانها خرج كريم من السيّارة، وفتح الباب الأمامي مادًّا يده، خرجت الفتاة وهي تقول كلمات الشكر

«يلّا طلاع يا حبيبي»، قال نصري.

«توكّل على الله»، أجاب كريم، وصفق الباب ومضى مع الفتاة إلى الفندق.

«نمتِ معه على الشراشف نفسها؟»

«أبوك سُكّر، هذا رجل»

سألته عن أخبار والده، وقالت إنّها تلقّت عدّة رسائل منه، وإنّه رجل رومنطيقي. لكنّها لم تجب على رسائله لأنّها عندما عادت إلى باريس قرّرت أن تتزوّج صديقها الفرنسي، وإنّها الآن أمّ لثلاثة أولاد. وقالت إنّ ابنها البكر يشبه نصري كثيرًا، وإنّها تعتقد أنّها حبلت في بيروت، لكنّها ليست متأكّدة، وإنّها على أيّ حال أسمت ابنها ڤيكتور على اسم نصري.

«يعني عندي أخ تونسي؟».

«لا، فرنسي، زوجي السابق كان فرنسيًّا، الآن أعيش مع رجل تونسي هنا في باريس، أمّا أولادي ففرنسيّون»

لماذا لم ترض أن تنام معه، تركته يصعد إلى الغرفة، قالت إنّها متعبة ونعسانة لأنّها شربت الكثير من النبيذ، استلقت على السرير بكامل ثيابها، استلقى كريم إلى جانبها، قبّلها، لكنّها أشاحت وجهها، قالت إنّها تريد أن تنام، برمت له ظهرها وغفت. خرج كريم من الغرفة على رؤوس أصابعه، حاملاً طعم الدلّاع على شفتيه، ليكتشف بعد ذلك بأعوام أنّ والده سرق منه المرأة والدلّاع.

هذا الوالد الذي افترس ابنه، كان سبب المشكلة، التي قادت إلى انفصاله عن شقيقه، مدام عروس لا علاقة لها، كانت مجرّد نكهة، هكذا قرّر كريم أن يتذكّرها النكهة اختفت بعد عام من العمل في المدرسة. قيل إنّ أستاذ الرياضيّات نبيل موسى تزوّجها وأخذها معه إلى أميركا كريم كان يكره هذا الرجل بشاربيه الكثيفين وعينيه الصغيرتين، وبشرته الشديدة السمرة. الآن فهم أنّ الأستاذ سطا على قلب المعلّمة، وبدا لطفه مع كريم أشبه بالشفقة. لا شكّ أنّ مدام عروس أخبرت صديقها عن عشيقها ذي الاثني عشر عامًا، ولكن بدل أن تثير غيرته من غريمه، أثارت شفقته. وهذا ما أضاف إلى وجه كريم مسحة جديدة من الحزن.

يوم ذهب إلى المدرسة واكتشف أنّ أستاذًا جديدًا حلّ مكان معلّمته أُصيب بالاكتئاب. كان يريد أن يقول لها إنّه قرأ رواية «الغريب» لألبير كامو من أجلها، وإنّه منذ سطر الرواية الأوّل، حيث يعلن الكاتب الفرنسي موت أمّه، شعر أنّه هو من يكتب الرواية. هذا الشعور سوف يرافقه طوال حياته. يقرأ، وحين تتغلغل الكلمات في عينيه، يتحوّل من قارئ إلى كاتب. لذا كان مقتنعًا أنّه لن يصير كاتبًا حين كان يسكر مع الشاعر العراقي في مونبلييه، ويبدأ في تلاوة مقاطع من روايات عربيّة وفرنسيّة وروسيّة حفظها غيبًا، كان نديمه ينظر إليه بريبة، ويقول له إنّه مجنون. «الناس تحفظ الشعر في العادة، أمّا أنت فتحفظ النثر، والله أنت مجنون» لم يرو أنّه تعلّم أن يحفظ النثر من أجل تلك المرأة، التي لم يستطع أن ينسى مذاق قبلته على خدّها، في اليوم الأخير من الفصل الدراسي، وكيف اصطبغ وجهه باللون الأحمر، وشعر بالماء ينتشر في عينيه. يومها قرصه الرجل ذو الشاربين على خدّه ضاحكًا وهو ينصحه بالاهتمام بالرياضة في الصيف، وأنّ عليه ألّا يضيّع كلّ وقته في القراءة، «قالت لي أولغا إنّك بتقرا كتير، لاحق يا ابني على القراية، روح العبْ وانبسط، الأيّام يلّي بتروح ما بترجع»

هل يستطيع كريم أن يُطلق على تصرّف المعلّمة اسم الخيانة؟ لا يستطيع الادّعاء بأنّه لم يكن يفهم معنى كلمة حبّ. وعندما حفظ قصيدة «يبكي ويضحك» بعد ذلك بعدّة أعوام، ووصل إلى البيت الذي يقول:

«قلبٌ تمرَّس باللذّاتِ وهو فتًى   كبُرعُمٍ لمستهُ الريحُ فانفتحا»

شعر أنّ الأخطل الصغير كتب بيته الشعري من أجله

رأى أمامه فخذي مدام أولغا البيضاوين المتلألئتين من خلف تنّورتها، وشعر بتنمّل في شفتيه.

«شو هالحبّ الخرائي»، قال له نسيم. «خلّيت المدرسة كلّها تضحك علينا».

«أنت شو بيخصّك فيّي»؟ أجاب كريم.

«ما الكلّ بيخربط فينا، حتى المعلّمة خربطت، والله لو ما أنت خيّي ومتل روحي وأكثر، كنت دقّيت فيها».

«ما تحكي هيك عن المدموزيل، كانت أحسن معلّمة»

«أنت أهبل، كلّ التلاميذ كانوا يشوفوا كيف الأستاذ نبيل كان يفوت معها على الصفّ بفرصة الضهر ويكجمجها، أنت صدّقت القصّة يلّي خبّرونا إيّاها أنّها تزوّجته وسافرت هي وإيّاه على أميركا، الأخ أوجين كمشهم وطردهم من المدرسة، لا تزوّجوا ولا شي، هيدي واحدة قحبة، أكلتلك رأسك وعملتك رابوق، وبهدلتنا، ولو ما منّي كان ميشال وعصابته دعوسوك»

لم تكن أولغا هي الحكاية التي أحدثت التشقّقات الأولى في العلاقة التوأميّة بين الشقيقن، فالانشقاق الحقيقي حصل بسبب نصري، الذي اكتشف أنّ نسيم ليس نافعًا في المدرسة

اكتشف الأب أنّ ما رواه الراهب أوجين كان صحيحًا فهناك مشكلة حقيقيّة في دراسة نسيم، وهذا ما أشار إليه جميع الأساتذة. يقرأ بصعوبة، ويبدو في الصفّ كأنّه لا يفقه شيئًا لكنّ المفاجأة كانت في علامات الامتحانات، حيث كان الولد متفوّقًا في كلّ شيء، ويكاد ينافس شقيقه، الذي أجمع المعلّمون على ذكائه.

«يمكن الولد عنده مشكل نفسي، ولازمه علاج، يمكن بيتلبّك مع المعلّمين لأنّه خجول، شي بحيّر فعلاً، الولد تلبيس، لازم يكون في شي مش ظابط، أنا بقترح يشوفه أخصّائي نفسي»

«أخصّائي نفسي! يعني ابني مجنون! لا يا مون فرير، نحن بعيلتنا ما في عنّا هالحركات، الولد منيح وعلاماته ممتازة، والحمد لله الولدين

طالعين شاطرين. بتعرف يا مون فرير، أنا ما تزوّجت كرمال هالولدين، وأنا شايفهم ومش مصدّق، وهلّق جايي تحكيني عن مشكل نفسي، مستحيل»

بعدما غادر الأب المدرسة، سقطت الغشاوة عن عينيه. أحسّ أنّ الولدين يخفيان سرًّا، وأنّ ما يقوله الراهب اليسوعي صحيح. أزاح منذ اللحظة الأولى احتمالات المشكلة النفسيّة، لأنّها في رأيه غير ممكنة، وعالج المسألة بنفسه في صباح اليوم التالي قرّر أن لا يذهب مع الولدين إلى الصيدليّة باكرًا هكذا عوّدهما في الصيف، أراد لهما أن يشمّا روائح الأعشاب الشافية منذ البداية، كي يكملا عمله بعد موته، وكان يعطيهما نهار إجازة واحدًا في الأسبوع، هو يوم الثلاثاء، يسمح لهما فيه بالبقاء في المنزل، كي يتسنى له تصريف أعماله الخاصّة.

انتهت ترويقة البيض، وبدل أن ينهض، ويأمرهما بلبس ثيابهما، طلب من الولدين جلب كتبهما المدرسيّة، وبدأ الامتحان، واكتشف نصري الخدعة. كان نسيم يقرأ بصعوبة، كأنّه يتهجّى الحرف

«شو هالمسخرة؟» صرخ نصري.

واستمع الرجل إلى أغرب اعتراف في حياته، الولدان كانا شخصًا واحدًا، الأوّل للدراسة والثاني للشيطنة، واكتشف أنّه يدفع ثمن طريقته في التربية، إذ لم يكن مهتمًّا بتدريس ولديه، تاركًا المسألة على عاتق ابنه الكبير

«شو بقدر أعمل غير هيك»؟ قال كريم. «يعني بدك ياني أترك خيّي يسقط بالمدرسة»

«أحسن يسقط ويدوبل صفّه حتى يتعلّم شي، لكن هيك منتركه نصف أمّي، وبعدين هو أصغر منك بسنة، حطّيتكم بصفّ واحد حتى ما تفترقوا عن بعض، وليك النتيجة، الفرير أوجين معه حقّ، قال لي إنّ ابنك نسيم

عنده مشكلة نفسيّة، الهيئة أنت يا كبير يا حمار يلّي عندك المشكلة»

«أنا ما بقدر عيش إذا ما كان خيّي معي بالصفّ»، قال كريم.

«وأنا كمان»، قال شقيقه.

وبدأت مسيرة العذاب. يبدو أنّ الوالد لم يكن وحده من تنبّه إلى المشكلة، فتحوّل العام الدراسي الجديد إلى ما يشبه حفلة اضطهاد شملت البيت والمدرسة. في المدرسة اكتشف أستاذ الرياضيّات الجديد مكسيم سينينيان أنّ نسيم لا يفقه شيئًا، وفي البيت تولّى الأب تدريس ابنه بطريقة وحشيّة، ولم تنته المسألة إلّا حين اختفى نسيم.

كانا في السادسة عشرة عندما استيقظ كريم ليجد أنّ شقيقه غادر البيت. أخبر والده الذي كان يحلق ذقنه كعادته وهو يستمع إلى نشرة أخبار الـ «بي بي سي» باللغة العربيّة من راديو ترانزيستور كان يضعه في الحمّام. وبدأت رحلة البحث والعذاب التي دامت أسبوعًا برما خلاله لبنان، وبحثا في كلّ مكان، إلّا في المكان الذي لجأ إليه نسيم.

قال نسيم لشقيقه، بعد ذلك بأعوام، إنّه شعر كأنّ قلبه انفجر، وإنّه لم يعد يحتمل العالم كلّه تهاوى، ولم يعد يرى سوى السواد، فلجأ إلى سوسن، التي تبنّته، وأطلق عليها اسم سوزان. «بتعرف شو يعني تتبنّاك مرا، تنام معها وتتصرّف كأنّها أمّك. دبّرت لي شغل بمطعم الفول والشاورما يلّي بآخر شارع المتنبّي، كنت أشتغل من الخمسة الصبح، وأرجع لعندها آخر الليل ميّت من التعب، تحمّمني، وتطعميني، وتنيّمني بتعرف شو يعني توقف حد سيخ الشاورما يلّي عم يبرم على النار كلّ النهار، كان العرق يطلع من كلّ جسمي، وأنا عم حضّر السندويشات والصحون للزبونات يلّي طالعين من السوق ميّتين من الجوع، ومع كلّ نقطة عرق، حسّ أنّه نصري عم ينسحب من تحت جلدي، وحسّ أنّي حرّ ويوم الأحد الصبح، فقت بكّير متل العادة، وبلّشت ألبس لروح على الشغل،

مسكتني سوزان وقالت لي خلّيك نايم، اليوم الأحد، والأحد هو يوم الربّ، نام، وهلّق منقوم سوا ومنروح على الكنيسة»

«بس نحن ما منروح على الكنيسة»، قلت لها

«من هلّق ورايح رح تصير تروح، يوم الأحد مخصّص لريحة البخور وضوّ الشموع وصحن الكنافة بجبن   نام وبعدين منحكي»

عاد نسيم إلى النوم، ليستيقظ في الثامنة والنصف صباحًا على قبلة سوزان على جبينه، تحمّم، لبس ثيابه، ومضيا إلى الكنيسة، وهناك اكتشف البخور.

قال لشقيقه إنّ أحلى شيء هو القدّاس، أصوات ملائكيّة، ومطران يلبس تاجًا، ولحى بيضاء مضمّخة بروائح البخور   ومن يومها صار نسيم مواظبًا على حضور القدّاس، وفرض على البيت تقليد ترويقة الكنافة بالجبن صباح الأحد.

«بآخر القدّاس مسكتني من إيدي ووقّفتني وراها بالصفّ حتى أتناول، شربت نقطة نبيد حلو مخلوطة بشويّة خبز مفتّت من ملعقة صغيرة كان حاملها الخوري، وحسّيت إنّي سكرت، بعدين رحنا على ساحة البرج وأكلنا كنافة عند البحصلي   قالت لي هون بتاكل كنافة كلّ أحد مفهوم. هلّق طلع بيّك منّك مع العرق، صار لازم ترجع على البيت، أوعا تخبّر حدا وين كنت، هيدا سرّك، وسرّك لازم يصير جزء منك، إذا فضحت السرّ بتاكلها، السرّ لازم يضلّ بيني وبينك»

«يعني تعلّمت القداسة من الشرموطة»! قال كريم ضاحكًا

«مش عم بحكي عن القداسة، عم بحكي عن طعمة الحياة، هيدي هي النكهة، سوزان وكنافة وقدّاس، مش معلّمتك يلّي ضحكت عليك، وخلّت كلّ التلاميذ يضحكوا علينا».

عاد نسيم إلى البيت يوم الأحد في الثانية عشرة ظهرًا، فتح الباب ودخل إلى الغرفة، لحق به شقيقه الذي بدأ يصرخ ويسأله أين كان. دخل نصري، أمر كريم بالسكوت، احتضن ابنه وبكى ولم يسأله أيّ سؤال. تصرّف الأب كأنّ شيئًا لم يكن، وركض كي يعدّ المائدة، قال نسيم إنّه ليس جائعًا لأنّه أكل كنافة بالجبن، خرج الوالد من البيت، وعاد حاملاً صدر كنافة، ومنذ ذلك اليوم، صارت الكنافة جزءًا من إفطار يوم الأحد، وبقيت كذلك حتى موت نصري.

لم يرو نسيم حكاية أسبوعه خارج البيت، احتفظ بالسرّ لنفسه، ولم يسمح لأحد بمشاركته في الحكاية. ما رواه لكريم كان خلاصة الحكاية، لكنّنا نعلم أنّ العلاقة بين الحكاية الفعليّة وخلاصاتها ليست متطابقة دائمًا لم يخبر كيف وصل إلى السوق العمومي، صباح ذلك الأحد ليجد الشارع فارغًا والبيوت مقفلة. وعندما سأل حارس المبنى الذي تعمل فيه سوزان عنها، طرده الرجل. «روح يا ابن الكلب، وما تخلّيني شوفك هون، اليوم الأحد، والأحد الصبح ما في شغل، شو مفتكر النسوان ماكينات، هيدول بني آدمين متلي ومتلك، وبعدين نحن ما منستقبل أولاد، أوعا تخلّيني شوف صورة وجهك، افرقنا بريحة طيّبة»

لم يكن أمام نسيم من خيار آخر، قرّر أنّه لم يعد يستطيع أن يعيش وسط حفلات التعذيب اليوميّة والإهانات التي كان يتلقّاها من والده، أثناء التدريس المسائي. أحسّ أنّ رأسه لا يعمل، وأنّه لا يريد سوى أن ينام. منظر الحروف المتتابعة على أوراق الكتب لا يشبه سوى خطوط النمل. كان عاجزًا عن فكّ رموزها، وحين ينجح بعد مساعدة والده، يصير عاجزًا عن الحفظ. الكلمات تزحط أمامه، وعيناه تتورّمان بالنعاس. عذاب يومي لا ينتهي، وإهانات وضرب. لم يسبق لنصري أن أقدم على ضرب ابنيه كان حين يشتعل غضبًا، ويشعر بالحاجة إلى ضرب الولدين، يخرج من البيت، ولا يعود إلّا بعد شرب نفس نارجيلة في المقهى. يملأ رأسه

وصدره بالتنباك العجمي، الذي يبرّد الرؤوس الحامية، ويعود إلى البيت، ليقول وهو يبتسم من طرف شفته السفلى تلك الابتسامة الصارمة إنّه لم يضربهما لأنّهما يتيمان. لكن يبدو أنّ الشيطان ركبه حين اكتشف كسل ابنه الصغير، ولم تعد قرقعة النارجيلة قادرة على إزالة غضبه. لم يصدّق كريم أنّ والده لم يكن يعرف حقيقة الوضع الدراسي لابنه الأصغر كان يعتقد أنّ نصري يعرف لكنّه يطنّش، إلى أن اكتشف، من خلال ممارسة الطبّ، أنّ الأهل لا يرون في أولادهم إلّا ما يتمنون رؤيته لأنّ الحبّ أعمى. وكان نصري يتصرّف مع ابنه الصغير كالعميان. امتلأ جسم نسيم بالبثور، وانكسرت عيناه، وصار شبه عاجز عن الحركة. شيطنته في المدرسة تلاشت، وتحوّل الفتى خرقة تُثير الشفقة.

الحبّ الأعمى الذي كان يكنّه نصري لولديه تحوّل شيئًا يشبه النفور. صار يكره نفسه في ابنيه، بدل أن يرى فيهما نفسه وقد انشقّت إلى نصفين، مثلما افترض، صار يرى فيهما مرايا فشله ووحدته. القمع انصبّ على نسيم، لكنّ كريم لم يكن بعيدًا عن الشعور بالخوف، وفقدان التوازن.

بدأ كريم ينحل، فشخص الوالد الصيدلي أنّ ابنه مُصاب بفقر الدم، وصار يسقيه زيت السمك، ويجبره على أكل كبد الخروف النيء

انقسم الواحد إلى اثنين، وصار البيت جحيمًا نسيم يئس من الحياة، وقرّر أن ينتحر لم تنفتح أيّة كوّة في الجدار المقفل أمامه، فهرب من البيت في الثامنة من صباح الأحد، ليجد نفسه وحيدًا أمام باب سوزان المقفل

لا يذكر سوى اسمها، لذا قرّر أنّها هي. ذهب إليها لأن لا أحد يذهب إليه. قرّر أن يمضي ولا يعود، فوجد نفسه واقفًا في طرف الشارع لا يدري ماذا يفعل

وحين رآها عرفها من كتفيها، لم ير وجهها حين خرجت من مدخل العمارة حيث تُقيم، لكنّه رأى الكتفين المنتصبتين، فركض إليها وجدته

سوزان أمامها، فعرفته منذ النظرة الأولى، سألته مَا به، فقال كلامًا متقطّعًا فهمت منه أنّ والده طرده من البيت. بدل أن تكمل مشوارها إلى حيث كانت ذاهبة أمسكته بيده، وعادت به إلى المنزل. «هذا قريبي»، قالت للحارس الذي ارتسمت علامات الاستغراب على حاجبيه.

جلس على الكنباية في الصالون الصغير الملحق بغرفتها، أعدّت له فنجان شاي، أشعلت سيجارة، وطلبت منه أن يروي الحكاية.

روى، لكنّه لم يروِ، فهو لم يكن يعرف كيف يروي. سوف يطلب من شقيقه الذي سأله عن سوزان بعد عودته من فرنسا، أن لا يسأله عن الموضوع، لأنّه لا يعرف كيف يرويه. «لحدّ هلّق ما بعرف إحكي عن هالموضوع، كلّ شي بعرف أنّها طلبت مني خبّرها قصّتي وما عرفت إحكي، صارت تسحب مني الحكي وتُعيد تركيبه، وبالآخر هي يلّي خبّرتني شو صار، الله يخلّيك هالموضوع نسيته، وما بدّي أفتح سيرته»

قال نسيم إنّه نسي الموضوع، لكنّه لم ينس شيئًا، كان ذلك الأسبوع هو الذي صنع منه ما صاره. عاد إلى البيت، وتوقّف الاضطهاد، لكنّ حياته انقلبت رأسًا على عقب، وبدأ يشعر بكراهية غامضة تجاه شقيقه.

ليس صحيحًا ما رواه لهند عن حكاية رفض والده رسوبه في الصفّ، وقراره بنقل ابنيه من المدرسة. كانت تلك الحكاية إحدى خدع نسيم، كي يقنع نفسه أنّ الانفصال عن شقيقه كان مستحيلاً رسب أكثر من مرّة، وعانى من القهر ما عاناه، وكان لا يريد سوى الوصول إلى صفّ البكالوريا، لأنّه كان يعرف أنّ شقيقه سيتقدّم إلى الامتحان بدلاً منه. أمّا حكاية الانتقال من مدرسة إلى أخرى فجاءت بعدما قرّر الأخ أوجين طرد نسيم من المدرسة. تنقّل الشقيق الأصغر بين عدّة مدارس، إلى أن لجأ إلى مدرسة تُدعى «الثانويّة الرائدة»، وكانت متخصّصة بقبول التلاميذ الكسالى من أولاد الأغنياء. هناك وجد نسيم طريقة للتقدّم لامتحانات شهادة

البكالوريا، التي نجح فيها، لأن شقيقه ذهب بدلاً منه، وتابع كريم لعبة البدل، حين تقدّم لامتحانات القبول في كلِّيّة الصيدلة في الجامعة اليسوعيّة بدلاً من شقيقه، ونجح. لكنّ اللعبة توقّفت هنا، فصار نسيم صيدليًا بالتفنيص، أي لم ينل شهادة جامعيّة، لكنّه بدأ يمارس العمل مع والده.

وحين اندلعت الحرب الأهليّة في نيسان عام ١٩٧٥، كان كريم طالبًا في الجامعة الأميركيّة، ويُقيم في بيروت الغربيّة، وتتجذر علاقته باليسار، ويصير مناضلاً في منظّمة لبنانيّة صغيرة أنشأتها منظّمة فتح، وكانت تُدعى حركة الثورة الاشتراكيّة، بينما أقام نسيم في بيروت الشرقيّة، وبدأ يتعامل مع شباب أطلقوا على أنفسهم اسم التنظيم، قبل أن ينضمّ إلى الكتائبيّين.

لم تكن الحرب الأهليّة عنوان افتراق الشقيقين، الافتراق حصل يوم اختفى نسيم، وعاد إلى البيت، بعد أسبوع، شخصًا آخر كلّ شيء صار مختلفًا صحيح أنّهما تابعا اللعبة، التي وصلت إلى ذروتها حين تزوّج نسيم هند، لكنّهما كانا يعرفان أنّ اللعبة انتهت، وأنّ العيون الأربع، لم تكن سوى ظلال صنعتها الذاكرة.

انصرف نسيم إلى الرياضة، وصار بطلاً في السباحة. نبتت له العضلات، وكان يصرف الكثير من وقته في النادي الرياضي، بينما ازداد نحول كريم، وتزايدت انطوائيّته، ولم يجد لغته إلّا في الجامعة حين اكتشف أنّ الأفكار يمكن أن تتحوّل قوّة مادِّيّة، وصدّق أنّ الإنسان يستطيع أن يصنع التاريخ

نسيم صار صيدليًا وهميًا، ولم يترك العمل مع والده إلّا حين اكتشف نصري أنّ ابنه لم يكتف ببيع الحبوب المخدّرة في الصيدليّة، بل صار يُحبحب. يغيب أيّامًا ثم يعود متّسخًا وأشبه بالسكران، يرمي بارودته في زاوية غرفته، وينام كأنّه في سبات عميق.

طرد نصري ابنه من العمل، وقال له إنّه يدمّر سمعة أبيه. «أنا يا ابني

بخترع أدوية حقيقيّة، وأنت بدّك تعمل الفرمشيّة محششة»

يومها رفع نسيم يده على والده، وهمّ بضربه، لكنّه تراجع في اللحظة الأخيرة. ضبّ أغراضه ومضى ولم يعد إلى البيت، إلّا بعد إصابته في الحرب. يومها كزّ نسيم على أسنانه، وقال لنصري إنّه يجب أن يقتله، لكنّه لن يفعل، «بتعرف ليش مش رح أقتلك، لأنّك ما بتستاهل يخسر الواحد عليك رصاصة، بس الله يسترك، لأنّي ممكن أقتلك بأيّ لحظة»

فكّر كريم وهو يستمع إلى مارون بغدادي يروي قصّة فيلمه الذي يبحث له عن كاتب، أنّ حكايته مع شقيقه تصلح أن تكون خلفيّة الفيلم. قال إنّه يقترح مسارًا آخر يعود الرجل من فرنسا لا لكي يبحث عن قتلة والده، بل من أجل أن يستعيد امرأته التي سرقها منه شقيقه. قال إنّ قصّة البحث عن القاتل، والدخول في متاهة الصراع الطائفي لن تنتج سوى فيلم تقليدي، الأفضل الابتعاد عن شرك القراءة الطائفيّة، فالحرب قسمت الفرد إلى نصفين، نصفه الأوّل يقتل نصفه الثاني، ويكون الأب هو الضحيّة. هذه المرّة يتساوى الآباء والأبناء في كونهم ضحايا

ابتسم المخرج، وقال إنّه لا يحبّ الأفلام المتحذلقة، يريد الحقيقة كما هي، «طائفيّة، ليش لا، ما نحن هيك، والأب مات، والابن جايي مش لينتقم، بس ليعرف»

«وين العدالة»؟ سأل أحدهم.

«أنا مش عم ببحث عن العدالة، عم ببحث عن الواقع، تعوا ننسى العدالة والواقع ونفتّش عن الجريمة، أنا بدّي قول كلّنا مجرمين»

«مجرمين وضحايا»، قال كريم.

«لا مش ضحايا»، قال مارون، «ما حدا بهالحرب بيستاهل نسمّيه ضحيّة، مجرمين وبس، منشان هيك العدالة ما بتعنيني، لأنّها بتبيّن كأنّه في

ظالم ومظلوم، أنا بدّي قول إنّ كلّ اللبنانيّين ظالمين».

«بس نحنا كنّا عم مندافع عن الفلسطينيّين، والفلسطينيّين مظلومين»، قال طلال.

«فلسطين قصّة تانية»، أجاب المخرج، «هون بقدر أفهم».

قال المخرج إنّه فهم، لكنّ كريم كان مقتنعًا أنّ ذلك الشابّ الجميل النحيل كان يشبه الضحايا، وأنّ داني كان على حقّ حين قال لمارون إنّه لن يعيش كي يرى نهاية الحرب، لأنّه يرى الموت مرسومًا على جبينه.

يومها ضحك مارون، وقال إنّنا سنموت كلّنا قبل أن تنتهي هذه الحرب، لأنّها سوف تكون حربًا لا نهاية لها

ـ ٧ ـ

لم يكن كريم يعرف أنّ الأقدار ستجعل من شقيقه الشاهد الأخير على علاقته ببيروت. العلاقة بين الشقيقين انتهت مع اندلاع الحرب. وجد الشقيقان نفسيهما في معسكرين مختلفين منذ ١٣ نيسان ١٩٧٥ الذي صار التاريخ الرسمي لاندلاع الحرب الأهليّة اللبنانيّة صباح اليوم التالي غادر كريم حيّ الجمّيزة في بيروت، الذي صار جزءًا ممّا صار يُعرف باسم بيروت الشرقيّة، ولم يعد إلّا مرّة واحدة، بعد مرور سنة على حرب المئة يوم عام ١٩٧٨، حين تعرّضت المنطقة لقصف مدفعي متواصل من الجيش السوري، الذي دخل إلى لبنان عام ١٩٧٦، بحجّة فرض السلام في الوطن الصغير الممزّق بين طوائفه المختلفة. عاد يومها للاطمئنان على والده وشقيقه، وكي يستشيرهما في احتمال سفره من أجل إكمال تخصّصه في مونبلييه.

فهم والده أنّه لن يعود.

وفهمت هند أنّه لن يعود.

وحده نسيم قال إنّه سينتظره هنا

«وين ما رحت، ما فيك تروح لمطرح، رح ترجع لهون، لأنّه الموضوع كلّه هون».

«أنا خسرت، ما بقى إلي مطرح»، قال كريم.

«ونحن خسرنا كمان، هيدا ملتقى الخسرانين»، قال نسيم.

«أنت خسرت؟ ما شالله صرت فوق الريح، وانتقلت من أزعر لرجل أعمال».

قال نسيم إنّه لا يريد أن يدخل في نقاش عقيم مع شقيقه، «كلّ واحد عمل قناعاته، بس أنا ما رح صدّق إنّك حاربت، إنت مثقّف ودكتور، والمثقّفين جبنا، وهلّق أنت مسافر لأنّك جبان، لا أكثر ولا أقلّ، وأنا مش حدّك حتى أحميك، قول إنّك جبان، وبلا فلسفة، ساعتها بحترمك، بتعرف أنت كنت مثلي الأعلى كلّ حياتي، وأنا مثل كلّ الناس، بكره مثلي الأعلى قد ما بحبّه، ما تخلّي الكراهية تغلب، روح مطرح ما بدّك، بس الله يخلّيك بلا فلسفة ومواعظ»

حين عاد كريم إلى المنزل في الجمّيزة، كان كلّ شيء قد تغيّر، حتى الرائحة تغيّرت. رائحة الحيّ، التي كانت مزيجًا من الياسمين وتوهّج البن المحروق، اختفت وحلّت مكانها رائحة جديدة، تشبه رائحة النفايات المتعفّنة.

«هيدي الريحة جايي من مكبّ النورماندي، عم يطمروا البحر بالزبالة، هيك بتكبر مساحة بيروت، وبتختلط زبالة الماضي بزبالة الحاضر، مدينة عم تاكل البحر بالزبالة حتى تتوسّع، هيدي هي بيروت»، قال نسيم.

ثلاثة أعوام كانت كافية كي تدمّر الذكريات. رأى كريم كيف تحوّل والده من رجل إلى عجوز كان نصري في الرابعة والستّين. رجل يعرف كيف يدوزن صحّته على إيقاع رغباته، فمن أين أتته الكهولة دفعة واحدة؟ يأكل اللحوم الدسمة، كي يشطّفها بيومين من ريجيم اللبن. يدخّن النارجيلة ولا يبتلع الدخان. يمارس الجنس بانضباط ومن دون إفراط، يمشي كلّ يوم ساعة كاملة كي يحرق الشحم والكوليستيرول.

لا يدري كريم ماذا جرى للرجل، هل هي الحرب؟ أم الخوف من مجهول العمر؟ لم يكن نصري يخاف الحرب، لأنّه لم يكن يحترمها قال لكريم على التلفون أن لا يخف. «تعا يا ابني وقت بدّك، خايف من الحواجز، خراك على الحواجز وعلى يلّي واقفين عليها، هيدول ما بخوّفوا لأنّهم ولاد عم يلعبوا، انطرني على معبر المتحف، وأنا بجي بجيبك»

كيف يُقنع والده بأنّ الحرب ليست لعبة، بل هي قاطرة التاريخ، مثلما قال داني، وهو يستشهد بكارل ماركس.

«ليش أنتم فهمانين على ماركس، لو كنتم بتعرفوا ماركس، كنتم برّات اللعبة. حدّا منكم بيعرف شو قال ماركس عن اللبنانيّين بحرب ١٨٦٠، سمّاهم قبائل لبنان الهمجيّة، هيك كتب ماركس عنكم يا أولاد الكلب، بعدين شو هالعيلة، واحد عامل شيوعي والثاني كتائبي وفاشستي، مش ناقص إلّا تقتلوا بعض، حتى نصير حكاية. تعا لهون وضبّلّي خيّك، أنا بدبّرها مع الكتايب، ومندخّلك على الجامعة اليسوعيّة وبتشتغل معي بالفرمشيّة»

عندما جاء كريم كي يودّع والده وجد نفسه غريبًا عن كلّ شيء. المنطقة مجرّحة بالقصف، والناس مُصابة بالصدمة. قال نصري إنّه أخرج الجفت من الخزانة، وإنّ الناس أُصيبت بالرعب.

«حسّيت أنّ كلّ شي انكشف، صرنا تحت رحمة الرصاص، وما كان عندي حلّ، إلّا طلّع الجفت من الخزانة، وما موت إلّا بعد ما أقتل حدا منهم»

«أنت خرج تحارب يا بيّي؟»

«ما قلت إنّي رح حارب، قلت بدّي دافع عن نفسي، الحقيقة كنت ميّت من الخوف، ولمّن مسكت الجفت، حسّيت إنّي بطّلت أرجف. وقتها فهمت على المقاتلين، شي بيضحّك والله، بيروح الواحد حتى يحارب

فبيموت من الخوف، وحتى يبطّل خايف بيقوّص، متل الدوّيخة تبع الأولاد الصغار».

روى عن مقتل ميشال حجّي. «ما كان حدا ينافسني إلّا أبوه ساروفيم الله يرحمه، كنّا نلتقي عند الحاجّ نقولا غميقة الحلّاق، هو ختيار وشعره شايب وأنا شابّ، هو كيميائي عظيم، وأنا طالع متل الصاروخ كان يستعمل كلمة غريبة ليقول إنّه بده يقصّ شعره، يقول للحاجّ إنّه بده يقصّ رأسه، ما بعرف ليش كان يحكي هيك. قال لي أنت مستقبلك قدّامك يا نصري، شو رأيك نتشارك، وهيك بتاخد بإيد ميشال وبتساعده. الله يرحمهم ويرحمنا»

نصري كان حزينًا بسبب موت ميشال حجّي وهو يقاتل أمام صيدليّته، قال إنّه خاف على ابنه نسيم، «صحيح أنّه كلب، بس الدم ما بيصير ميّ يا ابني»

طرد نصري ابنه الأصغر من الصيدليّة بعدما حوّلها محششة، «لكنّ نسيم دبّر حاله، ما بعرف شو بيشتغل، بس الهيئة صار فوق الريح»

«تصوّر، قال بدّه يقتلني، رفع إيده عليّي، وبعدين ما لاقى حدًا يضبّه إلّا أنا، إجاني منصاب بفخده، الرصاصة مستقرّة باللحم، وما كان فينا نروح على المستشفى، عملت الجراحة من دون بنج، ما كان قدّامي حلّ تاني، بنجته بشويّة تلج كانوا ببرّاد الفرمشيّة، وصار يصرّخ متل التور، ويسبّني ويقول إنّه بدّه يقتلني. كنت حامل مشرط الجراحة، قلت له اخرس، أنا بقدر أقتلك هلّق، بس ما حدًا بيقتل ابنه. ولمّن شفي، ادّعى أنّه صار أعرج، رجع على بيته وصار يقول إنّي عطبت إجره قصدًا، وصار يهدّد ويتوعّد. لا لا ما بدّي شوفه، الله يلعنه ويلعنك معه، أنا ما عندي أولاد، أنا يتيم»

ضحك كريم، وهو يحاول إقناع والده أنّ الأب الذي فقد أولاده لا يُسمّى يتيمًا.

لم يكن نصري جدّيًا في رفضه المصالحة مع ابنه، قرأ كريم في عينيه ظلال الذلّ. «ما في شي بذلّ يا ابني إلّا اتنين لا ثالث لهما الأولاد والحبّ، أنا زمطت من ذلّ الحبّ، فجيت إنت وخيّك حتى تذلّوني».

قال كريم لشقيقه إنّه من العيب أن يُذلّ الأب، وإنّه سيأخذه إلى البيت، «بتفوت وبتسلّم عليه، وبتتغدّا معنا، وخلصت القصّة»

«بس هو يلّي ذلّني»، أجاب نسيم. «كانت حرب الميّة يوم، هي آخر حرب بشارك فيها، قلت خلص، التوبة، نحن منموت والشبّيحة عم يغنّوا، فقرّرت صير شبّيح وإغنى، واشتغلت بالبور، استيراد وتصدير والله بلّش يفتحها بوجهي، بس بيّك عينه ضيّقة، مش قادر يقبل فكرة إنّي تركت الفرمشيّة، طردني وناطر إرجع لعنده متل الكلب، وأنا مش رح إرجع»

حاول كريم إقناع شقيقه الصغير أنّ مصالحة الأب لا تعني العودة إلى العمل في الصيدليّة، إنّها مجرّد مصالحة، كي لا يشعر الأب بالوحدة.

لم يصدّق كريم الحكاية التي رواها شقيقه، عن محاولة الأب قتله خلال استخراج الرصاصة من فخذه، «هيدا تفنيص يا خيّي يا حبيبي، إيمتى رح تبطّل تكذّب»

«والله العظيم مش تفنيص، أنا رحت عند الحكيم بعدما توقّف القصف، وكنت عم بشحط إجري شحط. فحصني وقال الأرجح في عصب مشعور، نصحني بالتدليك، وقال يمكن ضلّ أعرج شي تلات أشهر، حتى ينمى العصب. أكيد بيّك عملها قصدًا هو أشطر من حكيم، كان ناوي يعطبني، بس أنا بفرجيه، الحرب طويلة، وشي يوم رح أقتله»

«بدّك تقتل بيّك»! سأل كريم متعجّبًا

«وبدّي أقتلك إنت كمان، أنا عارف ليش إنت جايي، أكيد بدّك مصاري من بيّك حتى تسافر على فرنسا، مش رح يعطيك ولا فرنك، إذا بدّك مصاري قول، وأنا بعطيك».

«بدّك تقتلني؟»

نهض كريم كي يغادر، وهو متيقّن من أنّ شقيقه أُصيب بلوثة عقليّة، عندما اندفع نسيم صوبه، احتضنه وقبّله، وطلب منه أن لا يزعل، وقال إنّه كان يمزح.

«شو هالمزح التقيل! الله يخلّيك ما تمزح هيك لا معي ولا مع بيّي»

«طيّب بدّك مصاري»؟ سأل نسيم.

«شوي، بدّي شي ثلاث آلاف ليرة»

«بكرا يكونوا معك»

«لا أنا ما باخد مال حرام»

هنا انتفض نسيم وبدأ يشتم. «قال مال حرام قال، ما كلّ المال حرام، لو الناس مش حراميّة ما كانوا اخترعوا المال. الإنسان اخترع المال حتى يسرق، بتعرف حدا غني ومش سرّاق؟ إنت مصدّق أنّ بيّك اخترع أدوية، وعمل مصريّاته من العمل الشريف؟ بيّك نصّاب، سرق خلطة دوا الحرق من سيرافيم حجّي، أنا ميشال الشهيد، الله يرحمه، خبّرني، وقال إنّ بيّه ما كان يسترجي يحكي لأنّ نصري هدّده. حجّي أنطكلي ومقطوع من شجرة، وبيّك ضحك عليه وأوهمه أنّه بيقدر يقتله»

«والله يا خيّي ما بقدر صدّق ولا كلمة بتقولها، من وقت ما اختفيت هيداك الأسبوع عند سوسن يلّي بتسمّيها سوزان، ما عدت فهمت عليك ولا كلمة. بحسّ أنّ حكيك تفنيص، حتى وقت بتكون صادق بحسّك كذّاب، الله يساعد المرا يلّي بدها تتجوّزك، ما بعرف كيف رح تقدر تتعامل مع كذباتك»

لم يكن كريم قادرًا على تصديق كلام شقيقه. نسيم لم يكن يكذب مثلما يدّعي شقيقه، لكنّه كان يحاول أن يتأقلم مع الحياة. خدع الجميع

وانخدع بالجميع، عامله الجميع بوحشيّة، فلم يكن أمامه من خيار سوى أن يصير وحشًا، يتذأّب حين يكون ذلك ممكنًا، ويتثعلب حين يجد نفسه محشورًا، ويتنعّج كي لا يتحطّم، يعلو مع الموج وينام تحته.

لم يرو نسيم لشقيقه سوى نتفٍ من حكاية هربه في ذلك الصباح الشتائي إلى حيث قادته قدماه. لم يكن في نيّته العودة إلى البيت، فجأة تداعى البيت، وانتهت اللعبة. لم يكن يعرف إلى أين يمضي، عالمه كان ضيّقًا ولا مكان فيه لأحد. خرج من البيت ولم يكن في جيبه قرش واحد، مشى في شارع الجمّيزة وحيدًا صباح ذلك الأحد الشتائي البارد، كانت شوارع بيروت فارغة، وكان المطر يتساقط بغزارة. توقّف أمام دكّان الحلّاق الكهل أبو فؤاد. كان الرجل الذي تجاوز السبعين ينحني كي يرتّب صحف الصباح التي يبيعها لمح على الصفحة الأولى من جريدة «النهار» صورة عبد الناصر يخطب في الجموع. لم يقرأ العنوان، نظر إلى الحشد الكبير الواقف في انتظار كلمة من فم الزعيم، وشعر أنّ فمه مسدود بالحجارة. سأله أبو فؤاد ما به، وإلى أين يمضي تحت هذا المطر، فلم يجاوب. أراد أن يحكي لكنّ الكلمات لم تخرج من فمه، ابتلع الكلمات ومشى. مع سوزان سوف يتعلّم كيف يبصق الكلمات. كانت تلك المرأة الرائعة تستخدم كلمة بصق كي تقول تكلّم. هي قالت له إنّ الكذب هو البصاق الذي يلصق الأشياء على بعضها «أوعا تخبّر حدًا إنّك جيت لعندي، إذا سألوك، وأنا أكيدة أنّهم رح يسألوك، ما تحكي، بزّق وكذوب، هيك بيتربّى بيّك، حدًا عنده ولد متل القمر وبيعمل فيه هيك. إنت رجّال حقيقي ومنشان هيك بيّك عم بعذبك، خرا عليه وعلى المدرسة وعلى الفريرات، يعني إذا ناكك الفرير متل ما ناك خيّك، بيكون بيّك مبسوط؟»

فوجئ نسيم أنّ والده لم يسأله أين قضى ذلك الأسبوع ضمّه إلى صدره وقبّله. ذهب إلى محلّات البحصلي في وسط بيروت واشترى صدر

كنافة بجبن، عندما سمع ابنه يقول إنّه أفطر كنافة. أكل نسيم مرّة ثانية لأنّه لم يستطع مقاومة عيني والده الحزينتين. كريم سأل شقيقه أين كان، لكنّ نصري نهر ابنه البكر، طالبًا منه أن لا يسأل. «كان ميّتًا فعاش وضالًّا فوجد»، قال نصري مستعيدًا الكلام الذي كُتب في الإنجيل عن الابن الضالّ، وفي اليوم التالي طلب منه أن لا يذهب إلى المدرسة، أخذه إلى طبيب أمراض جلديّة لا يذكر اسمه لكنّه كان أشقر، توشوش الوالد مع الطبيب، قبل أن يدخل نسيم وحده إلى العيادة الداخليّة. طلب منه الطبيب أن يخلع بنطلونه وأن يعرّي نصفه الأسفل. فحصه من الأمام ومن الخلف.

«هيأتك نمت كتير مع النسوان»، قال الطبيب.

ربّت على قفاه، طلب منه أن يلبس، وخرجا معًا إلى الصالون حيث كان نصري ينتظر واقفًا

«الولد ممتاز ونضيف»، قال الطبيب

لم يتسن لنسيم أن يبصق، مثلما علّمته سوزان، عاد إلى المدرسة، وتوقّف الاضطهاد، لكن كان عليه أن يواجه شعوره بالدونيّة من شقيقه، وأن يعيش الترحّل بين المدارس، فاختار أن يتفوّق في الرياضة، وأن يبصق على عالم والده وشقيقه.

«بيّك بعصني، العمى ما أقسى قلبه، ما سألني ولا مرّة وين رحت، ومات من دون ما خبّره. مش من زمان، كان عندي، وكنّا عم نشرب كاس، فاتت هند على المطبخ، أو ما بعرف وين راحت. هند ولا مرّة قعدت وقت كان يجي بيّك لعندي، تعمل حالها مشغولة، وتختفي. قلت له يا بيّي ما بدّك تعرف وين اختفيت لمّا تركت البيت أسبوع كامل، أنا على بالي خبّرك، رفع كأسه ومصّ من الكاس نتفة صغيرة، ضلّ بيّك لآخر حياته يمصّ النبيذ والعرق مصّ، وكلّ ما يشوفني عم بكرع يبهدلني، الخمر روح يا ابني كان يقول، والروح ما بتنشرب، الروح بتنمصّ مصّ، حرام

البلْوَعَة، الإنسان روح والخمر روح، والأرواح لمّا بتلتقي، بتلتقي بشفافيّة، الخمر مش ميّ ولا أكل، الخمر مادّة روحانيّة ما فيك تحسّه بشكل مادّي»

«هو الله يرحمه كان يحبّ يتفلسف علينا»، قال كريم.

«بس هيديك المرّة ما كان عم يتفلسف، حسّيته عم يحكي من قلبه، وصدّقته، بيّك تغيّر كتير من بعد فضيحة الأختين، وصار روحاني، ما بيحكي إلّا بشعر ابن عربي، الهيئة رجع على تعاليم الدكتور داهش»

«بيّي صار آدمي»! قال كريم مستغربًا

«لو شفته آخر تلات سنين، ما كنت عرفته»

«طيّب ليش. ابتلع كريم سؤاله، وسكت.

تصرّف نسيم كأنّه لم يسمع السؤال المبتور، وتابع حكايته.

«كنت عم خبّرك، أنّه قال ما بدّه يسمع، لأنّ الموضوع بيجرح له قلبه. قلت له بس القصّة حلوة. قال إنّه في غنى عن القصص، وبعدين هو بيعرف كلّ شي. هي خبّرتك؟ سألت. مين هي؟ جاوب. ما دامك بتعرف لازم تعرف عن مين عم بحكي دفش الصحن من قدّامه وفلّ»

«بس بيّك كان يعرف»، قال كريم.

«أنت خبّرته!» سأل نسيم.

«أكيد خبّرته، كان كلّ ما يتطلّع فيّي شوف السؤال بعيونه، بعدين ما عدت أقدر»

«بس أنت حلفت وقلت لي نحن توم، والتوم ما بيخونوا بعضهم»

«والله ما قدرت»

«هلّق فهمت ليش سوزان عملت فيّي هيك. أنت خاين، جزويتي

ونسناس، أنت يلّي كان لازم أقتلك»

لم يرو نسيم ماذا فعلت سوزان، فلقد قرّر من زمان محو تلك المهانة من ذاكرته. ذهب إلى سوزان، بعد شهر من عودته إلى بيته، قالت له أن يغيب شهرًا كاملاً، وأنّها لا تريد أن تراه قبل أن يبصق كلّ الكلام الذي في قلبه. «ارجع لعندي بعد شهر، يوم الأحد ١٠ كانون التاني، منروح سوا على الكنيسة ومنتروّق، وبعدين بتجي لعندي»

«يوم الأحد! بس أنتِ ما بتشتغلي يوم الأحد، وأنا بكون بدّي.

«أنت حمار، معك هيدا ما إسمه شغل، هيدا إسمه حنان»

صباح الأحد في العاشر من كانون الثاني، خرج نسيم من البيت، كان نصري يلبس ثيابه كي يذهب لشراء الكنافة بالجبن، عندما سمع ابنه يقول إنّه مدعوّ إلى الإفطار عند أحد أصدقائه، وإنّه سوف يتأخّر

تابع الأب لبس ثيابه كأنّه لم يسمع شيئًا، فغادر نسيم البيت، من دون أيّ اعتراض من والده.

كانت سوزان تمشي برفقة صديقاتها إلى الكنيسة، حين رأته واقفًا في انتظارها في مدخل السوق العمومي أشاحت نظرها عنه، وأكملت سيرها لحق بها، التفتت وقالت «شو جايي تعمل هون، روح عند بيّك»

«بس أنا جيت حسب الموعد»

«روح عند بيّك وحلّ عنّي، حدًا بياخد موعد مع واحدة شرموطة. أنا شرموطة يا ابني، وأنت من عيلة محترمة، حلّ عنّي الله يخلّيك».

«ما أنا بحبّك»

«ما تجيب هالكلمة على لسانك، سمعتها قبل كتير ولمّن صدّقتها صرت ممسحة، اسأل بيّك هو بيخبّرك، وأنت كمان بعدك ما فقّست من

البيضة وعم تعمل العمايل، حلّ عنّي أنتم كلّكم كذّابين»

«نحن»؟

«أيوه أنتم، كلّكم، كلّ الرجال كذّابين، أنت وبيّك وكلّ سليلتك، أنتم الشراميط الحقيقيّين، نحنا هيدي شغلتنا، يعني مجبورين نشرمط حتى نعيش، بس أنتم شو الله جابركم، مال وعز وجاه، وقاعدين تقحّبوا متل الكزليّات، حلّ عني وروح سلّم على البابا، وإذا شفتك هون بكسرلك إجرك».

ارتفعت الضحكات من حول سوزان، التي أكملت طريقها إلى الكنيسة.

يومها انكسر قلب نسيم، أحسَّ ألمًا في ضلوعه، ولم يعد قادرًا على استنشاق الهواء. شعر أنّ أضلعه تنغرس في صدره، وأنّ بلعومه يحترق. انحنى عنقه إلى الأسفل، ولم يعد قادرًا على رفع رأسه. المرأة التي أحبّها حوّلته إلى نكتة، وقتلته بضحكتها الساخرة.

قال لهند عندما طلبها للزواج، إنّه يعلم أنّ قلبها مكسور، وإنّه لا يعرض عليها ترميم قلبها، بل يعرض ضمّ كسورها إلى كسوره. قال لها إنّ الأيّام كسرت قلبه هو أيضًا، وإنّه يريدها كي يستعيد نكهة بداية الأشياء، لأنّه لا يشعر إلّا بمذاق النهاية.

فجأة صار ذلك الرجل الفجّ كتلة من الحنان، لكنّ هند تردّدت. قالت لأمّها إنّها تخاف منه، لأنّه يشبه شقيقه كثيرًا، قالت إنّه كريم وقد تضخمت ملامحه، «كأنّني عشت هذه اللحظة من قبل، وسمعت هذا الكلام، كأنّ الحقيقي ليس حقيقيًا»

ابتسمت الأم وقالت إنّ كلّ الرجال يتشابهون في النهاية، الزواج كأس يجب أن نشربه، «لازم تتزوّجي يا بنتي»

«بس أنا ما بحبّ نسيم يا أمّي»

«يلّي ما بتحبّيه بتصيري تحبّيه، ويلّي بتحبّيه بتصيري تكرهيه، هيدي هي الحياة»

«طيّب لشو؟»

«ما تعقّديها، شوفي كيف رح يمشي الحال، أحسن ما تضلّي قاعدة بالبيت متل الهمّ على القلب، وبعدين على القليلة بتجيبي ولد».

عملت هند سكرتيرة في مكتب طبيب العيون سعيد حدّاد، أمّها دبّرت لها الشغل، بعدما صار وضع العائلة الماديّ لا يُطاق. لكنّ هند كانت تخطّط لمستقبلها في شكل آخر، أنهت إجازة العلوم السياسيّة في الجامعة اللبنانيّة، وكانت تتمنى أن تجد عملاً يلائم طموحاتها أزاحت فكرة محاولة الالتحاق بالسلك الديبلوماسي، لأنّ السيّدة سلمى قالت إنّها تفضّل ذلّ الحرب على ذلّ الغربة. عملت في شركة إعلانات، لكنّها بعد ثلاثة أشهر وجدت نفسها غير قادرة على الاستمرار في صوغ شعارات الترويج لمساحيق الغسيل. فكّرت في العمل في إحدى إدارات الدولة، لكن الأبواب كانت موصدة، عدا أنّ الوصول إلى وظيفة يحتاج إلى واسطة أحد الزعماء، وهي لا تعرف أحدًا منهم. وافقت في النهاية على العمل سكرتيرة عند طبيب العيون، وهناك اكتشفت عالم العبوديّة الذي لم تكن تعتقد أنّه لا يزال موجودًا في أيّامنا كان عملها ينحصر في تسجيل مواعيد المرضى، وإدخالهم إلى الطبيب. صحيح أنّها خافت على عينيها، أمام هول أمراض العيون الذي رأته، وأمام فكرة العماء، التي كانت تحوم في العيادة، لكنّها تعوّدت في النهاية وصارت لا ترى، واكتشفت أنّ ما يسعى إليه الإنسان هو أن لا يرى. هذا هو سرّ الحياة، أن تتعوّد على الأشياء بحيث لا تراها، وعندما تفقد الرؤية فعلاً، تكتشف فداحة خسارتك هذا ما قاله لها نصري، وهو يخبر عن رعبه من المياه الزرقاء، الكاتاراكت، التي تلتهم

العين ببياضها الحليبي. قال نصري وهو يستمع إلى حكايتها عن العالم الذي اكتشفته في عيادة طبيب العيون، إنّه لا أهمِّيّة للأشياء إلّا حين نفقدها، «وأنا فقدت كلّ شيء أو على وشك الوصول إلى ذلك، لذا صار كلّ شيء مهمًّا بالنسبة لي»

لم يفهم نصري شيئًا ممّا أرادت أن تقوله، كانت تعلن لزوجها رفضها القاطع لوجود خادمة سيريلانكيّة أو آسيويّة في بيتها، وكان نسيم يحاول إقناعها بأن توافق، وأن تقدّم نموذجًا مختلفًا للطريقة التي يجب التعامل بها مع الخادمات، لكنّها رفضت.

حاولت أن تروي لزوجها عن العالم الذي رأته في عيادة طبيب العيون، لكنّه لم يسمع، ادّعى أنّه يسمع لكنّه في الحقيقة كان يفكّر في أشياء أخرى. مشكلتها مع هذا الرجل أنّه رفض الاستماع إليها منذ البداية، هزّ رأسه موافقًا، فلم تجد بدًّا من الموافقة على الزواج

حدّثها عن قلبه المكسور، من دون أن يروي حكاية سوزان. قال لها إنّ قلبه انكسر عندما اكتشف الراهب أنّ علاماته العالية كانت نتيجة خدعة، وأنّه شعر بالوحدة وسط العالم المزدوج الذي عاشه مع شقيقه.

«كريم ما عمل شي، شاف بيّي كيف عم بعذبني وكان عم يتفرّج عليّي حسّيت أنّه مبسوط وعم يستلذّ بالمشهد، متل وقت الأولاد بيتلذّذوا بتعذيب سقّاية أو بسينة، وساعتها فهمت إنّا مش توم، وإنّه فكرة الشخص الواحد يلّي عنده أربع عيون كانت وهم، اكتشاف الوهم كسرلي قلبي، فهربت من البيت، يمكن كريم خبّرك»

«لا ما خبّرني، كريم ما كان يحكي أبدًا عنك أو عن بيّك، وين رحت»؟ سألت.

«مش مهمّ»، قال، «في مرا عطفت عليّي، كانت بتقربنا قرابة بعيدة، ودبّرت لي شغل بمطعم فول».

«وبعدين؟».

«بعدين بيّي إجا على المطعم، وصار يبكي قدّام الناس، استحيت ورجعت على البيت»

«وكنت تنام عندها؟»

«أكيد، شو كان بدّك إيّاني نام على الطريق»

«وكانت حلوة؟»

«كانت من عمر أمّي، قالت لي أنت يتيم وأنا بدّي أتبنّاك»

«وليش رجعت مع بيّك؟»

«ما بعرف»، أجاب. «الحقيقة ما فكّرت، بس شفته عم يبكي مشيت معه، ولقيت حالي رجعت على البيت»

أحسّ نسيم أنّها لم تصدّقه، لكنّه تابع كذبته. لم يكن من الممكن أن يتراجع، فهو قرّر أن لا يخبر أحدًا عن سوزان. وعدها بذلك، ولن يُخلف وعده. وعندما صدّته بتلك الطريقة يوم جاء لزيارتها، بحسب الاتّفاق، شعر أنّ الهواء انقطع من حوله، وأنّه محاصر بالحيطان، فعاد إلى البيت ليجد والده في انتظاره، أمام مائدة عامرة بالكبّة النيئة والعرق البلدي ويتوسّطها صدر الكنافة.

لم يخطر في بال نسيم أن يكون كريم قد فضح سرّه أمام والده، اعتقد أنّ سوزان فعلت ذلك من رأسها، لأنّها شرموطة، ولا يمكن للإنسان أن يثق بامرأة من هذا النوع، وكان على خطأ عندما اعترف له شقيقه بالخيانة، أحسّ بحاجة إلى القتل صحيح أنّه اكتشف خلال الحرب أنّ الإنسان يمتلك غريزة واحدة هي القتل، وأنّ جميع الغرائز الأخرى تتفرّع منها تقتل لتأكل، وتقتل لتسيطر، وتقتل لتقتل إلحاح القتل عليه لمع فجأة كالبرق وهو يستمع إلى شقيقه. الدم يلتمع في عيون القتلة، هذا ما رآه في

عيون رفاقه. وعندما سال دمه قرب ملعب السلام في الأشرفيّة، خاف من الدم والعيون. ركض إلى منزل والده وهو يرتجف من الخوف، ولحظة وصوله إلى الباب تداعى، ولم تعد ركبتاه قادرتين على حمله.

عندما استمع إلى اعتراف شقيقه، أحسّ بالدم يلتمع في عينيه، قال إنّه سيقتله، أشعل سيجارة، ابتلع دخانها إلى أعماق رئتيه، كي يبدّد أشباح القتل، أغمض عينيه وقال إنّه كان يمزح. لكنّه لم يقل الحقيقة هذه المرّة أيضًا

قالت له هند إنّ طيف شقيقه لم يفارقها منذ أربعة أعوام، وإنّها تعتقد أنّه من الصعب عليها أن تحبّ رجلاً آخر

«بتقبل تتزوّج مرا بتحبّ رجّال غيرك؟».

ابتسم ولم يجاوب. قال إنّه أحبّها منذ النظرة الأولى، وإنّه لم يتوقّف عن حبّها حتى عندما كانت تخرج مع شقيقه. قال إنّه تراجع لأنّه لم يستطع الدخول في منافسة مع توأمه، لكنّه سوف يتنافس الآن مع قلبها «قلبك ما بيقدر يرفض حبّي، لأنّي بحبّك من قلبي»

قرّرت هند أنّ هذا الرجل لا يسمع، واكتشفت أنّ الناس لا يسمعون أيضًا أن ترى أكثر سهولة من أن تسمع، لأنّ الاستماع يتطلّب شكلاً من أشكال التواطؤ مع الآخرين. وقبلت به، قبلت لأنّها أحبّته، أو هكذا اعتقدت. بدا لها الأمر وكأنّه ليس حقيقيًا، كأنّها عاشت في المنام، واستعادت مع نسيم شيئًا من التموّجات التي شعرت بها حين أحبّت شقيقه الأكبر

قالت إنّها لا تريد خادمة سيريلانكيّة لأنّها لم تستطع أن تنسى دموع تلك المرأة التي كانت تدعى مينا امرأة في أوائل العشرينيّات ممتلئة حيويّة وحبًّا للحياة. كانت تأتي إلى العيادة في الثالثة من بعد ظهر كلّ يوم، تُعطي الطعام الخاصّ بالطبيب إلى هند، التي تأخذه إلى غرفة جانبيّة، فيلتهمه

الدكتور سعيد في لحظات، قبل أن يعود إلى عمله.

الدكتور سعيد، الذي كان في الخامسة والستّين، هو أحد الأطبّاء القلائل الذين يؤمنون بالطبّ. في العادة، يأمر الأطبّاء مرضاهم بعدم التدخين، ويفرضون عليهم حمية خاصّة من أجل الكوليسترول والضغط، لكنّهم لا يتوقّفون عن التدخين والتهام الأطعمة الدسمة، وتربية كروشهم. الدكتور سعيد كان مختلفًا، يطبّق الوصايا لأنّه لا يريد أن يموت. قال لهند إنّه طبيب ويعرف لماذا يموت الإنسان، لذا فإنّه سوف يسدّ جميع الأبواب أمام الموت، ويعيش حتى يسأم من الحياة.

لم تكن هند تفهم كيف لم يسأم بعد من تجاوز الستّين من العمر ماذا ينتظر بعدما انتهت الانتظارات؟ هي سئمت قبل أن تصل إلى الخامسة والعشرين. بيروت مدينة السأم واليأس، قالت للطبيب، «فالحرب تكرّر نفسها إلى ما لا نهاية، وأنا زهقت من الحرب»

قال لها الطبيب إنّه لا يفهم لماذا تتكلّم بهذا الشكل، «الحرب مثل الحياة، كلّ شيء في الحياة يتكرّر لكنّه يتجدّد أو يوحي بالتجدّد، هذا هو سرّ الفصول في الطبيعة، والحرب أيضًا تجدّد نفسها وناسها وشعاراتها، كأنّها تلخّص كلّ الأزمنة، فيها تختلط الحداثة بالتخلّف، وعلى إيقاعاتها نكتشف معنى التاريخ»

«أنا زهقت من حالي»، قالت هند.

«هنا يقع الخطأ»، جاوب الطبيب، «سرّ الإنسان هو الحبّ، الحرب تعطينا وهم التاريخ، والفصول توهم الطبيعة بالتجدّد، أمّا الحبّ فيجعلنا نعيش الفرادة، نعتقد أنّنا نعيش شيئًا خاصًّا ومثيرًا، لم يعشه أحد غيرنا».

«هيئتِك ما بتحبّي يا بنتي، مع إنّك حلوة وقمّورة».

«الله يخلّيك يا حكيم، بلا حبّ وبلا همّ»

«أنت غلطانة يا هند، حبّي وشوفي»

«بس لازم بالأوّل نلاقي ابن الحلال»

«شو هالحكي»، قال الطبيب، «حبّي الحبّ وشوفي أنّه بيعمل مين ما كان ابن حلال».

وهكذا كان، وجدت هند نفسها تحبّ الحبّ، سحرتها بحّة الصوت، وانتشت بلمعان العينين، كانت كمن يبحر في بحر صاخب بالمفاجآت، واكتشفت أنّ علاقتها بكريم كانت تمرينًا على الحبّ، الذي كان في انتظارها

رأت في خيبة نسيم من الحياة مرآة لخيبتها، وفي معاناته مع أبيه صدى لطفولتها المعلّقة، وفي شعوره بالوحدة شيئًا من شعورها باليأس والإحباط بعد تجربتها الحزينة مع مينا تعلّمت منه أن لا تسأل. قال عندما سألته عن عمله، إنّه لا يريدها أن تتعاطى في هذه الأمور، وإنّ عليها فقط أن تستقبل روحه وحبّه، وتنسى كلّ شيء غسلت هند عالمها الجديد بمياه البحر استأجر نسيم شاليه في مسبح «البيتش كلوب» المطلّ على خليج جونيه، وغرق مع حبيبته في ملوحة البحر كان بطلاً في السباحة، وكانت تنتشي حين يغمر الماء جسدها الأسمر الذي يلتمع بالشمس.

فوجئت هند بأنّ نسيم لم يحاول أن ينام معها خلال أيّام الشاليه الطويلة. كان يرتشف القبلات من شفتيها، ويداعبها، لكنّه لم يقترب أكثر هند لم تكن تمانع، لكنّها لم تبادر، خافت من النظرة الوحشيّة التي ترتسم على عينيه عندما يغضب.

وعندما كانا على أهبة الزواج، سألها أين تريد أن تقضي شهر العسل. جاءها باقتراح الذهاب إلى جزيرة كريت في اليونان، لكنّها رفضت. «شهر العسل بالشاليه بجونية»، قالت.

سألها لماذا، فقالت إنّها انتظرت العسل طويلاً في الشاليه، ولا تريده في أيّ مكان آخر

وعندما نام معها للمرّة الأولى، أُصيب بالذهول.

«يعني بعدك عذراء»! قال متعجّبًا، وهو يقبّلها على نهديها الأسمرين الصغيرين. سألها عنه، لكنّها لم تجاوب. حاول أن يقول، فأسكتته واضعة يدها على فمه.

منذ أن تزوّجا اختفى اسم كريم من التداول، صار يشير إلى شقيقه بضمير الغائب. يقول هو، وهند تفهم أنّ هذه الهو تعود إلى حبيبها السابق. لم تنتبه هند إلى أنّ الأمور تغيّرت بشكل جذري، لأنّها كانت مشغولة بالحمل، وبالتحوّلات النفسيّة والبيولوجيّة التي اجتاحتها خلال الأشهر الأولى الثلاثة. لكنّها بعد ولادة ابنها الأوّل نديم، اكتشفت أنّ الرجل الذي تعيش معه هو مجرّد ظلّ للرجل الذي أحبّته في شاليه جونية. قالت له إنّه تغّير، فقال إنّها هي التي تغيّرت كان لا يُحبّ أن يُسأل أين يذهب، وإلى أين يسافر، ومع من يقضي سهراته في بيروت. قال إنّه العمل، وإنّهما اتّفقا أن لا علاقة لها بالموضوع. وعندما صارت تسأل عن مصادر ثروته المتنامية، كان يجيب بأنّه من الأفضل لها أن تصرف المال بدل الانشغال بكيفيّة الحصول عليه. سألته لماذا يخونها مع نساء أخريات، فانفجر غاضبًا، وغطّت عينيه تلك النظرة الوحشيّة التي كانت تخيفها، وطلب منها أن لا تعود إلى هذا السؤال من جديد.

لم يرو نسيم لزوجته التي يحبّها سرّ رفضه ممارسة الحبّ معها، خلال عام العشق في الشاليه افترضت أنّه تلافى المسألة لأنّه كان يعتقد أنّها نامت مع شقيقه، ولم يكن يريد أن يفتح ثغرة في علاقته بها وكان هذا صحيحًا، ولكن في شكل جزئي فالحقيقة أنّه كان يودّع عالمه القديم المليء بالمومسات، وكان يجد في الجنس البريء مع هند مناسبة للتطهّر

وعندما اكتشف أنّ هند لا تزال عذراء أُصيب بما يُشبه الخشوع أمام هذه المرأة. يومها نهض وركع على ركبتيه أمام السرير الذي كانت تستلقي فوقه عارية، ورسم إشارة الصليب. انفجرت هند ضاحكة، «شو مفكّر حالك بالكنيسة»، سألت «أنت قدّيسة»، قال. «بلا قدّيسة بلا تفنيص، بس هو كان جبان» أغلق فمها بيده وطلب منها أن لا تحكي، لأنّ كلامها يفسد جماليّة اللحظة.

قرّر نسيم التخلّي عن عالم المومسات وفحشه. قطع علاقته بالماضي، وانغمس في حبّ لم يذق مثله منذ أيّامه القليلة مع سوزان.

لكنّه، من دون أن يدري كيف أو لماذا، وجد الحياة تقوده إلى حيث قادته. برّر الأمر لنفسه، في البداية، بأنّ هذا جزء من عمله. فالعمل في التهريب لا يستقيم من دون مستلزماته قال لنفسه إنّ هذه ضرورات العمل، وإنّ من يحيا في ليل المدينة وأزقّة حروبها لا يستطيع أن ينأى بنفسه عن هذه الحياة.

لم يقل هذا لهند، لأنّه كان متيقّنًا من أنّها ستعتقد أنّه يكذب، وكان بالفعل يكذب. لا، كلمة كذب ليست ملائمة، لكنّ نسيم لا يدري كيف علقت به صفة الكذّاب. عندما يقرّر والدك وأساتذتك وجميع المحيطين بك أنّك كاذب، تصير كذلك، حتى عندما تحاول أن تقول الصدق، فإنّك لا تصدّق نفسك.

في إحدى نوبات غضبها قالت له إنّه لم يحبّها، أراد فقط أن يرث شقيقه، كي يثبت لنفسه أنّه أفضل منه، وكي يكون انتقامه مساويًا للعذابات التي عاشها في طفولته. يومها أحسّ نسيم أنّ هذه المرأة تريد أن تكسر قلبه. لم يستطع أن يُجيب، لأنّ الكلام علق في حلقه، تذكّر أنّ عليه أن يبصق الكلمات، مثلما علّمته سوزان، لكنّه رفض، لأنّه لا يريد أن يتخلّى عن هذه المرأة.

نظر إليها بعينين منكسرتين وسألها إذا كانت تزوّجته عن حبّ.

«أكيد»، جاوبت.

شعر أنّها لا تقول الحقيقة، لكنّه اكتفى بهذا التأكيد. «إذا كان هيك خلّينا نحبّ بعض وما تسأليني ولا سؤال عن شو بيصير معي بالشغل وبرّات البيت»

«بس أنا بدّي إفهم أنا شو بعني بالنسبة إلك؟»

«إنت مرتي وأمّ أولادي وحياتي، الله يخلّيكِ بلا فلسفة، أنا ما تغيّرت، أنا هيك، بس هيدا ما بيعني إنّي ما بحبّك»

«بتخوني وبتحبّني! مش عم بفهم»

«أنا ما بخون»

«ليش إنت هيك؟».

«ليش الحرب»؟ أجاب.

قال ليش الحرب، وشعر أنّ صوته ليس صوته. أحسّ بصوت ذلك الرجل الذي قتل أحلامه وأحلام رفاقه. لم يتسن لنسيم الانتشاء بالنصر، انتُخب زعيم الميليشيا الكتائبيّة رئيسًا للجمهوريّة على دويّ القنابل الإسرائيليّة التي أحرقت بيروت. لكنّ بشير الجميّل قُتل في انفجار كبير يوم ١٤ أيلول ١٩٨٢ كان عيد الصليب، يومها أمطرت ماء وغبارًا، يذكر نسيم أنّه أُصيب بما يشبه العماء، غطّى الغبار وجهه وعينيه، وشعر أنّ الدنيا انتهت.

لكنّ الدنيا لم تنته، فالقاتل اعتُقل، ووقف أمام المحقّق، لكنّه بدل أن يجيب عن سؤاله لماذا قتل بشير، سأل «ليش الحرب»

ومنذ ذلك اليوم تعلّم نسيم أن يُجيب على السؤال بسؤال. فحين

تعيش في بيروت، أو في غيرها من مدن العالم العربي، عليك أن تتأقلم على انعدام الأجوبة، وأن تكتشف أنّ كلّ سؤال يحيل إلى سؤال آخر

قال لهند «ليش الحرب»، لا لأنّه لا يعرف الجواب على سؤالها، بل لأنّ هذا هو الجواب الصحيح.

«شو دخل الحرب بحياتنا الشخصيّة؟» سألَت، ولم تنتظر جوابًا، قفزت مباشرة إلى الاستنتاج لتقول إنّه خدعها

لم تقل إنّها صُدمت حين اكتشفت أنّ نسيم ليس التوأم الذي كانت في انتظاره، وأنّه لا يشبه كريم إلّا في الشكل، وأنّ عليها أن تعيش كلّ حياتها مع وهمها الذي تلاشى.

نسيم سمع ما لم تقله، أو هكذا خُيّل إليها وهي ترى الابتسامة الجانبيّة التي ارتسمت على شفته السفلى. هو لم يقل مرّة إنّه نسخة عنه، بل كان حين يُذكَر شقيقه أمامه لا يقول سوى كلمة واحدة، «الجبان» قال لوالده، الذي كان يشكو من انقطاع أخبار ابنه البكر، وكيف لا يسأل عنه وسط جحيم الحرب في بيروت، «ابنك كلب وجبان، هرب وعامل حاله شي مهمّ لأنّه تزوّج واحدة شقراء وبتحكي فرنساوي».

«كلّه إلّا خادمة سيريلانكيّة»، قالت هند.

حاول نسيم إقناعها، حاولت سلمى، لكن من دون جدوى.

سلمى اقترحت على نسيم فكرة الخادمة، قالت إنّها كبرت ولم تعد تستطيع.

«إنت قنّعي بنتك، رح تجنني هالمرا بهالأفكار يلّي ما بعرف من وين جايبتهم».

هكذا دخلت غزالة حكاية العائلة. أمّ فؤاد هي التي اقترحت غزالة، لكنّ هند قرّرت أن تتعامل مع غزالة كصديقة، ورفضت السماح لها بالعمل

خادمة في بيتها عملت أمّ فؤاد في منزل نصري، بعد اختفاء ماجدة. لا يعرفها الأولاد إلّا كامرأة كهلة. تأتي ثلاث مرّات في الأسبوع، تنظّف البيت وتغسل وتحضّر الطعام وتختفي. لم يكن أحد يراها إلّا نادرًا تأتي في الصباح بعدما يكون الجميع قد غادر البيت، وتغادر في الواحدة بعد الظهر، قبل أن يعودوا كانت الشبح الحارس الذي يهتمّ بكلّ شيء، من دون أن يشكّل جزءًا من حياة العائلة. أرادها نصري أن تبقى خارج العائلة فالثالوث، مثلما كان يسمّي نفسه مع أولاده، يجب أن يبقى مستقلًّا، وخارج أيّ ارتباط. «ما تزوّجت حتى ما تجي مرا غريبة تشاركني بأولادي» قال لابنيه إنّه لا أحد يجب أن يُسمح له باختراقهم، «بكرا رح تتزوّجوا، بس أوعا النسوان تدخل بيناتنا، إنت ومرتك ببيتك، بس هون نحن ثلاثة حتى يستردّ الله أمانته»

لم يكن نصري يدري ماذا سيحلّ بالثالوث، الزمن لا يعلّم بل يقتل ويدمّر عندما جاء نسيم ليخبره عن قراره بالزواج من هند، صار يرتجف من الغضب. لم يجد كلامًا ملائمًا يقول فيه لابنه الثاني «إيّاك ثم إيّاك»، رأى في قرار نسيم بالزواج من هند شيئًا يشبه زنى المحارم، «حتى قايين وهابيل مش هيك، أوعا يا ابني» لكن غضبه امتزج بحزنه، وتمتم عبارات لم يسمعها ابنه جيّدًا

عندما سافر كريم شعر والده بالارتياح، فقصّة هند وأمّها يجب أن تخرج من العائلة. الشهوات يجب أن تبقى خارج البيت. سلمى كانت شهوة ومضت، عانى نصري الكثير من نهاية العلاقة التي ربطته بهذه المرأة البيضاء، وسوف تبقى المرارة تلازمه، وحين سيحاول العودة إليها، سوف يكتشف أنّ رأسه اصطدم بحائط الوهم.

عندما حملت هند بابنها الثاني، قرّر نسيم أنّ الوقت قد حان من أجل أن يجلب خادمة إلى البيت أعدّ كلّ شيء، من دون أن يستشير زوجته، ذهب إلى مكتب استيراد الخادمات السيريلانكيّات، وهناك اكتشف أنّ هذه

المكاتب تشبه مناجم الذهب. وأنّها تجارة رابحة على كلّ الجهات. وفكّر بتوسيع أشغاله وفتح مكتب مشابه، إلى جانب أعماله التجاريّة الأخرى.

قبل أن تصل المرأة إلى بيروت بيومين، طلب من زوجته أن تعدّ نفسها لاستقبال الخادمة. كان فخورًا بنفسه، لأنّه توصّل مع مدير مكتب الاستخدام إلى صفقة رابحة بكلّ المقاييس. إذ حصل على امرأة في الأربعين، تتقن اللغة العربيّة لأنّه سبق لها العمل في دبي، وهي أمّ لأربعة أولاد.

فوجئ نسيم برفض هند القاطع.

«مش ممكن»، قالت هند، «هذه تجارة بالعبيد» حاول نسيم تهدئتها، وتدخّل نصري كي يروي لها أنّ حكاية السيريلانكيّات تشبه كثيرًا حكاية اللبنانيّين في بداية هجرتهم إلى أميركا روى أنّ الهجرة بدأت في نهاية القرن التاسع عشر بالنساء. وهذا هو حال خالة أمّه، التي تركت زوجها وأولادها الثلاثة في قريتها في أميون، وهاجرت إلى بوسطن، «وبعدين سحبت كلّ عيلتها، وعلى نتفة كانت رح تسحب أمّي. شو مفتكري كانوا اللبنانيّات يشتغلوا بأميركا، كانوا أساتذة جامعة؟ أكيد لا، كانوا خادمات، راحوا واشتغلوا وتعبوا، وصاروا فوق الريح، وهلّق أحفاد وحفيدات الصنّاع صاروا يستوردوا صنّاع، ويشوفوا حالهم. وبكرا بعد شي ميّة سنة، السيريلانكيّات بصيروا يجيبوا صنّاع من بلاد تانية، وهكذا دواليك، هيدا حال الدنيا، كبّري عقلك يا بنتي»

رفضت هند أن تكبّر عقلها، وقالت لا كيف تخبرهم أنّها لا تستطيع أن تنسى وجه مينا وبطنها المستدير

«مينا خربت لك عقلك»، قالت سلمى، «حدا بيترك شغله يا بنتي منشان واحدة سيريلانكيّة، بعدين مين بيقدر يبرهن أنّ جورج هو بيّ الصبي، هيدول شراميط يا بنتي، أنا ما قصدي شي، بس بتعرفي الهجرة

والتعتير بتفكّك العيل، وهيدول نسوان مقطوعين عن بلادهم وعائلاتهم. فالشرمطة بتصير شي طبيعي، هيك بيحصل دايمًا مع الجيل الأوّل من المهاجرين»

«يعني اللبنانيّين كلّهم شراميط!».

«شو هالحكي يا بنتي، هيك صرنا نحكي؟».

«ما كلّ اللبنانيّين مهاجرين، يلّي ما هاجر لبلاد برّا هاجر من ضيعته على بيروت»

«أنا ما قلت هيك»، قالت سلمى، «أنا قلت هيدا احتمال».

«يعني أنت كمان يا ستّ سلمى، أنت هربت من الضيعة مع رجّال غير زوجك، أكيد كلّ الناس عم بتقول عنك يلّي عم بتقوليه عن غيرك»

«حدا بيحكي هيك مع أمّه؟».

«ومش بس هيك، أنا بعرف وكلّ الناس بتعرف، خلّينا نسكت ونخلّي هالبير مغطّى، أحسن».

لم تروِ هند لزوجها كيف تغيّرت نظرتها إلى الدنيا بسبب مينا انخرطت في جمعيّة الدفاع عن حقوق الإنسان، وكانت هذه الجمعيّة تضمّ ناشطات وناشطين في الدفاع عن الخادمات الأجنبيّات في لبنان، جمعوا كمّيّة هائلة من المعلومات حول المعاملة الوحشيّة التي تتلقّاها السيريلانكيّات والحبشيّات والفيليبينيّات في لبنان.

لكنّ هند شعرت أنّها أخطأت، وكان الوقت قد تأخّر لأنّها لم تستطع أن تفعل شيئًا

«هيدي حمرنة»، قال نسيم، وهو ينظر إلى صورة طفل أبيض الملامح أخرجته هند من جزدانها.

كانت هند على استعداد للاعتراف بأنّها تحمرنت، لكنّها لن تسامح جورج ولا والده الدكتور سعيد حدّاد.

تطوّرت العلاقة بين هند ومينا في شكل طبيعي، تأتي الفتاة السريلانكيّة كلّ يوم حاملة طعام الحكيم، وبعد أن ينتهي، تحمل المطبقيّة الفارغة وتعود. نمت الصداقة في الانتظار والصمت. كانت هذه الفتاة التي لم تتجاوز العشرين، لا تحكي إلّا نادرًا، وحين تتكلّم، تحاول أن تلفظ الكلمات الإنكليزيّة والعربيّة بشكل سليم، وليس بالطريقة التي يعتقد الناس هنا أنّ السيريلانكيّين يتكلّمونها

سألتها هند عن مدينتها، فقالت إنّها من كولومبو

سألت لماذا تعمل خادمة في لبنان، فابتسمت الفتاة، ولم تعرف كيف تجاوب.

لكن مع زيارات مينا اليوميّة إلى العيادة، فهمت هند أنّ مينا لم تستطع إكمال دراستها في معهد المعلّمين، بسبب مرض والدها، الذي أُصيب بشلل نصفي، ما أجبره على التوقّف عن العمل في دكّانه الصغير لبيع الأقمشة، وأنّها جاءت إلى لبنان لأنّ أمّها وأشقّاءها وشقيقاتها صاروا من دون معيل

«قرّرت أدرس عربي مدام»

«اسمي هند، ما تندهيلي مدام»

«يس مدام»، أجابت مينا وانفجرت ضاحكة.

اكتشفت هند في مينا سحر الشرق، قالت لها وهي تستمع إلى حكاية الجبل حيث ترك آدم أثر قدميه مطبوعتين على قمّته، إنّ الشرق الحقيقي هناك، نحن لسنا في الشرق، نحن في الوسط، لذلك نعيش التباسًا في هويّتنا، أنتم الشرق الحقيقي، وقالت إنّها تتمنى زيارة الهند وسيلان.

«نحن كمان مش شرق»، مدام، «كلّ عالم صار غرب، كلّنا منقلّد كلّنا، منشان هيك صارت شمس تغيب وما تعرف من وين تشرق»

اكتشفت هند من خلال مينا عالمًا مسيّجًا بالأسرار والمرارات. وبدأت تلاحظ مشهد صداقات الشرفات، وكيف تعيش الخادمات خلف بيوت مقفلة الأبواب، فيصعدن إلى الشرفات حيث يتكلّمن بالإشارات خوفًا من أن تنتبه المدام، لأنّه ممنوع الحكي.

«وإنتِ؟».

«أنا غير شكل، مستر جورج منع مدام تاخد باسبور، ويسكّر باب، وقال هيدا مش إنساني، مينا إنسان إذا بدها تترك شغل فيها تروح، بس أكيد أنّ مينا ما بتترك. ولمّن صار حرب إسرائيل بقينا بالبيت، الحكيم ما بيقدر يترك شغل، وبعدين بلّشت انتحارات، المستر جورج قال للحكيم لازم نفلّ، رحنا برمّانا، برمّانا حلوة كتير، يا ريت ضلّينا»

عام ١٩٨٢ غادر الناس بيروت هربًا من الاجتياح الإسرائيلي وتركوا الخادمات في منازل مقفلة الأبواب، معتقدين أنّ غيابهم لن يطول. لكنّ حصار بيروت وقصفها داما ثلاثة أشهر كاملة، وبسبب ذلك حدثت المأساة، حيث قاد ذلك إلى انتحار خمس خادمات رمين أنفسهنّ من الشرفات، قبل أن يقوم المسلّحون بفتح أبواب الشقق بالقوّة.

قضت مينا جزءًا كبيرًا من الحرب في برمّانا، لأنّ المستر جورج قال إنّ الحالة في بيروت لم تعد تُطاق.

«مين هيدا المستر جورج»؟ سألت هند.

تمايل عنق مينا الطويل وارتسمت ابتسامة على شفتيها قبل أن تُجيب أنّه ابن الطبيب الوحيد، وأنّه درس الحقوق، وأنّه جنتلمان.

عندما تلفنت مينا لهند وطلبت أن تلتقي بها خارج العيادة، دعتها هند إلى اللقاء في مقهى «شي جان»، في الأشرفيّة. وصلت هند في الثامنة مساء

لتجد مينا واقفة على الرصيف في انتظارها قالت مينا إنّها وصلت قبل الموعد، لكنّ النادل طردها، «هيدا محلّ محترم»، قال، «نحن ما منستقبل هالأشكال».

«ما تزعلي»، قالت هند، «امشي معي على البيت»

في المنزل روت مينا حكايتها قالت إنّها جاءت لتودّعها لأنّها ستعود إلى بلادها، وإنّها تريد استشارتها في أمر العشرة آلاف دولار، التي عرضها الطبيب عليها، وإنّها ضائعة، ولا تدري ماذا يجب أن تفعل

يجب أن نرفع دعوى قضائيّة، «أنت متأكّدة أنّ جورج والد الجنين»

«يس مدام»

«ما بقى تقولي مدام، ووقفي الحكي بالسيريلانكي الله يخلّيكِ»

ابتسمت مينا، وقالت إنّ السيريلانكيّات يسمّون هذه الطريقة في الكلام اللغة اللبنانيّة، وإنّ الطريقة التي تتكلّم فيها المدامات معهنّ تضحكهن.

روت مينا حكايتها استمعت هند إلى الحكاية وهي تكاد لا تصدّق، قالت إنّها حكاية تقليديّة، وكان من الأفضل التخلّص من الجنين. نظرت إلى مينا، ورأت الجنين الصغير الذي يتكوّر في بطنها، وقالت للفتاة إنّها حمارة. «ليش خلّيتيه يضحك عليك وينام معك؟».

صيف ١٩٨٢، وبينما بيروت تتلوّى تحت القصف الإسرائيلي، وتئنّ من العطش، ويسيل فيها الدم، اكتشفت مينا فضائل الرمّان، وعاشت في ما يشبه الغيبوبة، قبل أن تصير بذرة الرمّان جنينًا في أحشاء الفتاة الآتية من مدينة كولومبو

الحكاية لا تشبه حكاية اغتصاب الخادمات في الأفلام المصريّة. أصرّت مينا على أنّها لم تُغتصب، وأنّها تدفع الآن الثمن، لكنّها تشعر

بالمهانة لأنّ جورج لم يكتفِ بالتخلّي عنها، بل هرب، قالت المدام إنّه سافر إلى أميركا كي يتابع دراسته في جامعة هارفارد.

«أنا تركت البيت مبارح، وسكنت عند صديقتي مالي بسدّ البوشريّة»

«منرفع دعوى ومنجبرهم يعترفوا بالولد»، قالت هند.

أقنعت هند مينا بصعوبة بضرورة البقاء في بيروت، ورفع دعوى قضائيّة على جورج، فالفتاة لم تكن تريد شيئًا أو أنّها كانت لا تعرف ماذا تريد.

«تركك ابن الكلب وهرب، لازم يدفع الثمن»

لا تدري هند من أين عرفت مينا أنّ جورج لم يهرب وأنّه أرادها حتى اللحظة الأخيرة، لكنّه لم يستطع لأنّه خاف من احتمال موت والده. كانا يتشاجران، جورج يقول إنّه لا يعرف ماذا يجب أن يفعل، والأب يصرخ بضرورة إجبار الخادمة على الإجهاض فجأة سقط الدكتور مغشيًّا عليه، تمّ نقله إلى المستشفى، حيث شخص الطبيب أنّ الدكتور سعيد يعاني من ذبحة قلبيّة، وأنّ عليه الانتباه على صحّته.

نظر الطبيب المعالج إلى جورج، وقال له «بيّك رجّال كبير ولازم تنتبه عليه، وأخطر شي على مريض القلب هو الزعل، أوعا حدا يزعله».

قالت مينا إنّها فوجئت بالحبّ. الفتاة السيريلانكيّة التي وجدت نفسها مضطرّة إلى العمل كخادمة في لبنان، وصلت إلى بيروت، من دون أن تعرف ماذا تعني الإقامة في مدينة تمزّقها الحروب.

فهمت أنّ المجيء إلى لبنان أفضل من الذهاب إلى دول الخليج. قال لها متعهّد الخادمات في كولومبو إنّ بيروت أفضل على الرّغم من الحرب. وعندما سألت عن الحرب، قيل لها إنّها مثل حرب نمور التاميل في بلادها، ففهمت أنّ بيروت مثل كولومبو لا تصيبها الحرب إلّا بشظاياها

البعيدة. لكنّهم كذبوا عليها، الحرب كانت في قلب بيروت، واللبنانيّون قد يكونون الأسوأ في طريقة تعاملهم مع الخادمات.

وصلت مينا إلى مطار بيروت، لتجد أنّ الخادمات يعاملن كالأغنام. ما إن نزلت من الطائرة، حتى طُلب من السيريلانكيّات التجمّع، حيث تمّ وضعهنّ في إحدى الغرف المقفلة. جاء عسكري وأخذ جوازات سفر الجميع، وأمرهن بالصمت. وجدت نفسها في غرفة صغيرة تشبه زنزانة السجن، حيث بقيت حوالى ساعتين. بعدها جاء ضابط يحمل في يده عصًا، وبدأ يقرأ الأسماء، الفتاة التي تسمع اسمها تتبع حركة عصا الضابط وتقف أمام باب الغرفة. في النهاية قرأ الضابط أسماء جميع الفتيات في الغرفة، وقادهنّ إلى الخارج، حيث وجدن في انتظارهن ثلاثة متعهّدين، رجلين وسيّدة، كانوا يلوّحون بالباسبورات. وقفت مينا لا تدري ماذا تفعل. نظرت إلى الضابط وسألته عن باسبورها، فكان جوابه ضربة من قضيب الخيزران على قفاها، وضحكة عالية. جمدت في مكانها، فمرّر القضيب على قفاها من جديد، وقال شيئًا باللغة العربيّة، نظرت مينا صوبه كالمذهولة وانهمرت دموعها رأت رجلاً يلوّح بباسبور في يده ويركض نحوها، أمسكها من يدها وخرج بها إلى حيث الحقائب، أخذت حقيبتها ووجدت نفسها محشورة مع خادمات أخريات في سيّارة بيك أب أخذتهن إلى المكتب.

باتت ليلتها الأولى في غرفة مقفلة تُشبه زنزانة المطار، وفي الصباح فتح الرجل الأشيب الباب، وسمعت اسمها، خرجت من الغرفة التي امتلأت برائحة العرق، وتنفست الهواء للمرّة الأولى. وكانت المدام في انتظارها

سألت الرجل عن باسبورها، فأشار إلى المدام، التي هزّت رأسها، وقالت يلّا يلّا كانت هذه هي الكلمة العربيّة الأولى التي تعلّمتها تكلّمت معها المدام بإنكليزيّة غريبة، لا أثر فيها للأفعال، كي تقول passport with

me، وأشارت بحركة من يدها إلى صدرها أجابتها مينا أنّها تريد الاحتفاظ بباسبورها، لكنّ المدام أصرّت على التكلّم بهذه اللغة العجيبة، كي تقول إن شروط الاتّفاق تقضي بأن يبقى الباسبور معها، وإنّها ستعطيها إيّاه عندما ينتهي العقد وتقرّر السفر إلى بلادها، ورسمت إشارة تشبه أجنحة الطائرة كي توضح فكرتها

هذا العالم الغرائبي الذي دخلته مينا سرعان ما بدأ يتبدّد. المدام ظلّت تعاملها بعجرفة، لكنّ الحكيم كان لطيفًا معها، وكذلك ابنه، واكتشفت أنّ المسألة لم تكن بالسوء الذي بدا لها، لأنّها محظوظة، مقارنة بصديقاتها اللواتي تعلّمت منهن لغة الشرفات.

تعلّمت مينا العربيّة من التلفزيون، وصارت تخرج من البيت يوميًّا، كي تأخذ الطعام للدكتور، وبنت لنفسها عالمًا من الانتظار. كانت تقبض مئة دولار شهريًّا، ترسل منها سبعين دولارًا إلى أهلها وتحتفظ بالباقي، الذي لم تكن تصرف منه شيئًا افترضت أنّها بعد خمس سنوات، تعود إلى بلادها، وتكون في الرابعة والعشرين، ومعها حوالى ١٥٠٠ دولار تلتحق بدار المعلّمين من جديد، تدرس ثلاث سنوات، تتخرّج مدرّسة للغة الإنكليزيّة، ثم تتزوّج.

بعد خمس سنوات يكون شقيقها في العشرين، وعليه أن يدبّر عملاً، ويتحمّل مسؤوليّة العائلة. لذا قرّرت أن تتابع دراسة الإنكليزيّة في بيروت، وأن تتعلّم اللغة العربيّة أيضًا

قالت لهند إنّ وضعها غير شكل، وكانت تعني ما تقول.

الغير شكل هذه ليست ناجمة عن لطف الحكيم، وحنوّه عليها فقط، بل لأنّها استطاعت أن تفرض حضورها على العائلة. صارت سيّدة البيت الصغيرة، مثلما سمّاها جورج تطبخ جميع المآكل اللبنانيّة، تنظّف البيت، وتهتمّ بالجميع حتى المدام أحبّتها، رغم أنّها أصرّت على متابعة التكلّم

معها بالإنكليزيّة السيريلانكيّة وهي ترفع أنفها الذي ضمر بعد إجراء عمليّة تجميل فاشلة، كأنّها تشمّ رائحة كريهة

لا تذكر مينا أيّ حضور لجورج في حياتها كان الشابّ يخرج من البيت في الصباح، ولا يعود إلّا ليلاً مينا لم تكن تراه في البيت إلّا نادرًا الدكتور سعيد كان يمازحها حول جمالها، ويقول لها إنّها تأخّرت عشرة أعوام. «لو جيتي من عشر سنين كان اخترب بيتي، بس هلّق نو، المكنة تعطّلت وصدّت يا بنتي، وكلّه من العمر ومن المدام».

فرضت مينا وجودها، وشعرت أنّ وحدتها في هذه المدينة الغريبة، وتعاملها مع اللبنانيّين الذين يتصرّفون وكأنّهم أرقى شعب في العالم، رغم أنّهم يتذابحون، هي الصحراء التي عليها أن تعبرها كي تصل إلى اكتشاف نفسها، كما كانت تعلّمها جدّتها العمياء.

لم تكن تلتقي ببنات وطنها إلّا يوم الأحد، حيث تذهب إلى كنيسة القدّيس فرنسيس. مينا ليست مسيحيّة، لكنّ الكنيسة كانت وسيلتها الوحيدة للالتقاء بزميلاتها، وكانت مقتنعة أنّ الصلاة هي تأمّل الذات، وأنّ بوذا يتجلّى في كلّ مكان، وأنّها تجد الراحة في رفقة الشموع المضاءة التي تتصاعد منها رائحة البخور

كلّ أحد كانت تعود إلى البيت حزينة، بعد أن تستمع إلى حكايات القهر والعذاب والاغتصاب أيضًا شعرت أنّها وقعت في فخّ لا تستطيع حياله شيئًا وهناك التقت بمجموعة من الشبّان والشابّات اللبنانيّين، الذين كانوا يأتون بين الحين والآخر، يستطلعون أحوال الخادمات، ويعدونهن بالمساعدة. فهمت مينا أنّ هناك حاجزًا داخل كلّ لبناني يمنعه من أن يرى الآخر ويتعاطف معه. الكراهية في كلّ مكان، وتذكّرت شعورها بالرعب في كولومبو الرعب نفسه، والحرب نفسها

كانت مينا تعرف كلّ ذلك، وتشعر به في أعماقها، فماذا جرى كي

تجد نفسها في هذا المأزق؟

قالت هند إن الدكتور سعيد «عمل مسرحيّة على ابنه، بدِّك تعلّميني عليه، ما أنا خابزته وعاجنته، أكبر ممثّل بالعالم، كلّ الوقت بمثّل على المرضى، وعامل حاله مريض أكثر منهم، بس هو نسناس».

«نو مدام، أنا بعرفه، بس ما بعرف ليش عمل هيك؟»

«أنا يلّي بدّي أعرفه هو ليش أنتِ عملتِ هيك»؟ سألت هند.

الشمس تغيب خلف أشجار الصنوبر، ومينا تقف على شرفة البيت في برمانا وحيدة. وسط غابة الصنوبر رأت شجرة تين المعابد، سمعت صوت الشجرة تحكي من خلال الريح التي تخترق أغصانها، وأحسّت أنّ عليها أن تنزل من الشرفة وتذهب إلى الشجرة كي تطلب منها أن تزيل من أذنيها صوت عويل الموت الذي احتلّ سماء بيروت. رأت جدّتها تجلس تحت الشجرة المقدّسة، تنظر إليها وتحكي عن الأصوات التي لم تستطع مينا سماعها قالت جدّتها بأنّ صوت الريح في أوراق أغصان تين المعابد هو صوت الموتى «الموتى لا يتركوننا أبدًا، يتكلّمون معنا بأصوات الأغصان، ويهتمّون بنا، ويعلّموننا ماذا يجب أن نفعل»

سمعت مينا صوت الموتى، ورأت الماء. لا تدري ماذا جرى لها في لبنان، كانت تشعر بالوحدة، كأنّها أُصيبت بالطرش. اللغة العربيّة التي حاولت أن تتعلّمها كانت عصيّة ومغلقة، والإنكليزيّة التي كانت تعرفها بدأت تتلاشى في هذا المزيج اللغوي الغريب الذي كانت تستخدمه المدام في تعاملها معها، فوجدت ملجأها في الماء كانت لا تتوقّف عن الشطف وتلميع البيت، إلى درجة أثارت غيظ المدام. صحيح أنّ البناية التي يُقيم فيها الدكتور سعيد تمتلك مولّدًا كهربائيًّا وبئر ماء ارتوازيّة، لكنّ المدام كانت دائمة الرعب من فكرة شحّة الماء في المدينة لذا كانت مينا تستغلّ فترات غياب المدام عن البيت من أجل أن تشطف وتلهو بالماء، خصوصًا

على شرفة المنزل الكبيرة والعريضة.

هوس النظافة والاستحمام مرّتين في اليوم، والتقاط كلّ شيء من أجل غسله، كان يثير ضحك الدكتور سعيد، الذي رأى في هذا الهوس رغبات مكبوتة، وقال لزوجته أن تحلّ عن الفتاة، «ولمّا بيفضى البير منشوف شو منعمل»

امرأة الماء والصابون، كانت تكره الطعام اللبناني، وتجده بلا طعم. تعلّمت أن تطبخ جميع أنواع المآكل اللبنانيّة، لكنّها كانت تطبخ لنفسها طعامها الخاصّ المجبول بالبهارات والفلفل الحارّ ونكهة الحياة. وكانت تستغرب موقف المدام، التي ما إن تشمّ رائحة الطعام الذي كانت مينا تعدّه في إحدى زوايا المطبخ الكبير، حتى تسدّ أنفها بأصابعها، وتفتح النوافذ، وتصرخ في وجه الخادمة windows, open windows

عندما قرّر الطبيب الصعود إلى برمّانا هربًا من أتون الاجتياح الإسرائيلي، شعرت مينا بغربة فظيعة. شيء ما تغيّر في هؤلاء اللبنانيّين الذين هربوا من أصوات القذائف في بيروت إلى المنتجع الجبلي الذي صار مكتظًّا لم تعد تحبّ الخروج من المنزل، لأنّ تعليقات الناس في الشوارع كانت مليئة بالعنصريّة، وكانت تقرأ في عيون الشبّان الكراهية والاغتصاب

قالت للخواجة جورج إنّها خائفة.

في برمّانا بدأت تتعرّف إلى جورج، الابن الوحيد للطبيب، الذي كان يلازم البيت، يقرأ الصحف، ولا يتوقّف عن التدخين.

كانت تعتقد أنّها وحدها في المنزل، عندما فوجئت بجورج يدخل إلى المطبخ، حاملاً كوزًا من الرمّان.

«شو هالريحة الغريبة»؟ قال جورج.

«عم بطبخ مستر».

«الريحة بتشبه ريحة الأكل الهندي، وأنا بحبّ الأكل الهندي»

طلب منها أن تسكب له قليلاً من طعامها، وقال إنّ أكلها طيّب.

أعطاها ثلاثة أكواز رمّان وطلب منها أن تقشّرها

«انتبهي ما لازم يوقع منها ولا حبّة على الأرض، لأنّه بكلّ كوز رمّان في حبّة من رمّان الجنّة»، وقال لها إنّ الناس في هذه البلاد كانت تعبد إله الحبّ الذي كان اسمه رامون، ويعيش في أشجار الرمّان.

انتهت من تقشير الرمّان، وضعت الحبّات الحمراء في جاط زجاجي، وأخذتها إلى الشرفة حيث كان يجلس.

«يومها رآني»، قالت مينا قالت لهند إنّها شعرت كيف رأتها عيناه، وأنّه وضع يده على خدّها، وقال إنّها جميلة.

«وبعدين نمتِ معه»؟ سألت هند، «يا لطيف شو مجدوبة»

«نو مدام، بعدين ما شي»

قالت إنّه سألها أيّ عطر تستخدم، فابتسمت وأجابت أنّها تحبّ عطر الماء. سألته إذا كان يشمّ الماء، فأجاب أن لا رائحة للماء وانفجر ضاحكًا ضحكت مينا وقالت إنّ عطر الماء لا يظهر إلّا على أجسام الناس، وأنّ العطر الحقيقي هو عطر الإنسان. قالت إنّ جدّتها روت لها أنّ الإنسان خُلق من الطين والماء، وأنّ رائحة الأرض حين تتبلّل بماء المطر هي الرائحة الأصليّة للإنسان.

قالت مينا إنّ كلّ شيء حصل في عيد الصليب. جاء عيد الصليب في الرابع عشر من أيلول علم ١٩٨٢، مثقلاً بمطر الأحزان. في ذلك اليوم، قُتل زعيم الميليشيا المسيحيّة المتحالفة مع إسرائيل بشير الجميّل، الذي صار رئيسًا لجمهوريّة لبنان. بدت برمّانا شاحبة وسوداء، كان الناس يقفون في الطرقات، وقد أعياهم الذهول. سمعت الدكتور سعيد يقول لابنه إنّه

كان ينتظر هذه النهاية. جورج بكى وهو يقول إنّ الحلم مات.

وبعد ثلاثة أيّام، امتلأ لبنان بالجثث، قالت مينا إنّها بعدما رأت صور المذبحة على التلفزيون، صارت تتمنى أن تكون عمياء، لأنّها لم تعد ترى أمامها سوى الأموات. كان الطبيب يحمل في يده جريدة «السفير»، وهو لا يتمالك نفسه. صور مذبحة مخيّمي شاتيلا وصبرا الفلسطينيّين تحتلّ الصفحة الأولى من الجريدة. وفي المساء، شاهد جميع أفراد العائلة نشرة الأخبار على التلفزيون. مينا كانت تجلس على الأرض في زاوية الصالون، تحاول أن تفهم ما يقوله التلفزيون، وحين بدأت تفهم شيئًا من الكلمات التي ارتسمت على الجثث المنتفخة بالموت، هبّت واقفة وركضت إلى غرفتها حيث انفجرت بالبكاء، وبدأت تضرب رأسها بالحائط. جورج تململ في جلسته، وحاول النهوض للحاق بها لكنّ الدكتور سعيد كان أوّل من دخل إلى غرفتها ليرى الدم. أخذها الطبيب بين ذراعيه واحتضن بكاءها المنهمر وصل جورج إلى الغرفة، لم يفهم حين رأى الدم على قميص والده، اقترب منهما، أخذ مينا من يدها إلى الحمّام، وغسل جروح رأسها لم تكن الجروح خطيرة، كانت مجرّد جلوف خارجيّة.

حكى معها جورج، لكنّها لم تجاوب، تركته وذهبت إلى غرفتها

في تلك الليلة قرع جورج على باب غرفة مينا، عرفت أنّه هو، لكنّها تردّدت. وحين فتحت الباب ضمّها إلى صدره. كانت رائحة الخمر تفوح من فمه، وبدا مثل طفل تائه، ضمّته إليها، فشدّها صوب السرير، قالت لا، قبل أن تستجيب لقبلاته.

لا تذكر مينا ماذا جرى بعد ذلك، قالت إنّ جورج تكلّم، لكنّها لم تفهم ماذا أراد أن يقول بالضبط، قالت إنّه غضب لأنّها لم تخبره أنّها كانت عذراء، لكنّه وضع رأسه على عنقها، وضمّها إليه طويلاً قبل أن يغادر غرفتها في الثانية صباحًا.

قالت مينا إنّها لا تلوم جورج، «الحقّ عليّي أنا»، قالت.

«بس هيك»؟ سألت هند.

هزّت مينا رأسها إلى الأسفل.

«يعني ما نمتِ معه إلّا مرّة واحدة»

سكتت الفتاة ولم تجب.

«نمتِ معه كتير، أنا أكيدة أنّه ضحك عليك وقال إنّه بيحبّك»

«نو مدام، ما ضحك، ولا مرّة قال الكلمة، بس كان يقول إنّي بجنّن، وإنّه يا ريت»

«يا ريت شو؟»

«ما بعرف قالت مينا، أنا الغلط، حبّيته، وبعدني بحبّه، بس خلص»

بعد ثلاثة أشهر ونصف، ذهبت مينا إلى الطبيب لتتأكّد من أنّ هواجسها صحيحة، وأنّ انقطاع الدورة الشهريّة لم يكن بسبب التوتّر النفسي، مثلما قالت لها المرشدة الاجتماعيّة التي كانت تلتقي بها في الكنيسة. لم تحزن، اتّخذت قرارها الفوري بضرورة التخلّص من الجنين، وعادت إلى البيت.

لم تخبر جورج أنّها حامل، بل قالت له إنّها قرّرت التخلّص من الجنين، وإنّها تريد مساعدته في إيجاد طبيب يُجري لها عمليّة الإجهاض. لم يفتح جورج فمه، وضع رأسه بين يديه وقال «حرام» طلبت منه أن يأخذ لها موعدًا سريعًا مع الطبيب، وتركته في الصالون ودخلت إلى غرفتها سمعت صوت قدميه أمام بابها، لكنّه لم يقرع أغمضت عينيها وحاولت أن تنام.

بعد يومين جاء جورج إلى غرفتها ليلاً، وكانت في انتظاره جلس

على حافّة السرير وقال إنّه يحبّها   قالت إنّ الوقت ليس للعواطف الآن، وسألته عن الطبيب، قال إنّه أخذ لها موعدًا مع طبيب يعمل في مستشفى الروم، وإنّه سيأخذها إليه في التاسعة من صباح الغد. «لا أنا بروح لحالي، بلا أنت ما تتبهدل»، وسألته عن اسم الطبيب.

في عيادة الدكتور سليم حامض، حدثت المفاجأة التي لم يتوقّعها أحد. كان الطبيب لطيفًا، وبعدما انتهى الفحص، قال الطبيب إنّه متأسّف، فهو لا يستطيع إجراء الإجهاض، لأنّ الجنين في شهره الرابع، وإنّ هذا حرام، لأنّه جريمة قتل، «أنا ما بقدر، بعتذر، شوفوا غيري، يمكن بيعملها، بس أنا لا».

في تلك اللحظة قرّرت مينا الاحتفاظ بالطفل   عادت إلى البيت منهكة، وشعرت بالدوار. سمعت المدام تصرخ فيها أين كانت، وتطلب منها أن تعدّ الطعام، لأنّ الدكتور سعيد دعا بعض أصدقائه إلى الغداء. لكنّها لم تجب، دخلت إلى غرفتها وأغمضت عينيها

لم تتكلّم إلّا مع جورج الذي عاد متأخّرًا، وهو مقتنع بأنّ الطبيب أجرى عمليّة الإجهاض، لذا عندما سمع أمّه تصرخ بأنّ الخادمة ترفض الخروج من غرفتها، طلب منها أن تهدأ، وذهب إلى الغرفة. قالت له مينا إنّها ستحتفظ بالجنين مهما حصل.

«طوّلي بالك، بركي أنا بلاقي حكيم بيعمل الإجهاض»

«أنا ما بدّي أقتل الولد، رح خلّيه، بعرف كان لازم إنتبه، بس ما بعرف شو صار، نفسي لعيت كتير، بس ما ربطت الأمور، هيدي مسؤوليّتي أنت ما دخلك، وهيدا طفلي، وما رح إسمح لحدًا يقتله»

هذا هو المنعطف الذي قاد إلى المرارة. فقط لو قال إنّه لا يستطيع أن يفعل شيئًا، فقط لو تبرّأ من المسألة بأسرها، لفهمت وتفهّمت، لكنّه بدلاً من ذلك جلس إلى جانبها على السرير.

وعندما خرج جورج من الغرفة، رأى والديه في انتظاره في الصالون. قال لهما إنّ مينا حبلى، وهو لا يعرف ماذا عليه أن يفعل، وإنّه المخطئ.

أُصيبت العائلة بمسّ من الجنون، صراخ وتهديدات المدام هدّدت بالانتحار، والأب قال إنّ الإجهاض هو الحلّ الوحيد، وإلّا فهذا يعني حكمًا بالإعدام على العائلة كلّها حاول إقناع مينا بالقبول بمبدأ الإجهاض لكنّه فوجئ برفضها القاطع.

لكن بعد إصابة الدكتور سعيد بالذبحة القلبيّة تغيّر كلّ شيء. اختفى جورج في المستشفى مع والده، لأنّه رفض أن يفارقه لحظة واحدة، وعندما عاد المريض إلى البيت لم يعد ابنه معه.

المدام نقلت الخبر للخادمة، «جورج سافر على هارفرد، ورح يبقى أربع سنين، وأنت لازم تضبّي أغراضك وتمشي، ما إجانا منك إلّا المصايب»

الدكتور سعيد حاول إقناع مينا بإجراء عمليّة إجهاض، قال إنّه يعرف جميع الأطبّاء، وإنّه سيأخذها إلى أفضل طبيب.

مينا رفضت، وكان عرض الدكتور سعيد الأخير أن يعطيها عشرة آلاف دولار أميركي، شرط أن تغادر لبنان فوراً

«بكرا ما بدّي شوف وجهك»، قالت المدام.

«بكرا المسا بجبلك المصريّات وتذكرة السفر، وبتسافري بعد بكرا»، قال الدكتور سعيد.

«أبدًا قطعيًّا»، قالت هند، فيك تجي لعندي إذا ما عندك محلّ تنامي فيه، وبكرا بشوف الجمعيّة ومنوكّل محامي ومنرفع دعوى ومنكسرلهم راسهم»

سوف تكتب مينا إلى هند أنّها أخطأت، «قرار الدعوى كان خاطئًا ولا لزوم له»

عادت مينا إلى منزل مخدوميها، ضبّت أغراضها من دون أن تقول كلمة وداعيّة. الأمور سوف تتطوّر بسرعة، رفع محامي جمعيّة الدفاع عن حقوق الإنسان دعوى على المحامي جورج حدّاد، وعلى والده الدكتور سعيد. قدّم الدكتور سعيد قضيّة ضدّ الخادمة متّهمًا إيّاها بتشويه سمعته وسمعة ابنه. استُدعيت مينا إلى قصر العدل، حيث أصدر القاضي قرارًا وجاهيًّا بتوقيفها رهن التحقيق. بعد يومين، ذهبت هند برفقة المحامي لزيارة مينا في سجن رومية، ليكتشفا أنّه صدر قرار من الأمن العامّ بترحيلها من لبنان، وأنّه تمّ تسفيرها في اليوم التالي على متن طائرة تابعة للخطوط الجوّيّة السيريلانكيّة، في الرحلة رقم ٤٢٠ المتّجهة إلى كولومبو عن طريق دُبي.

لكنّ القصّة لم تنته هنا، هند تركت العمل في العيادة، وأُصيبت بانهيار عصبي، أمّا مينا فكتبت بعد ستّة أشهر رسالة إلى هند، روت فيها أنّها أنجبت صبيًّا جميلاً، وأنّها أرادت أن تسمّيه رامون، لكنّ الجميع هنا يدعونه باسم Baby Lebanon، وأنّها سوف تتزوّج من شابّ يعمل سائقًا على سيّارة «توك توك»، وأنّ الجميع هنا يحبّون الصبي، وأنّها ليست حزينة إلّا من أجل قلبها ومن أجل جورج الذي لن يرى ابنه.

اكتفت مينا في رسالتها بإرسال صورة الطفل إلى هند، ولم تطلب منها شيئًا، لكنّ هند أخذت الصورة إلى عيادة الدكتور سعيد، الذي ما إن رآها حتى وضع يده على قلبه، وانحنى باحثًا عن كرسي.

«بلا هالمسرحيّة»، صرخت هند، «شو مفكّرني هبلا»

أزاح الطبيب يده عن صدره، انتصب واقفًا، وأمر هند بصوت مرتعش بالخروج من العيادة.

لكنّ مينا لم تكتب أنّها حين كانت تُقاد إلى الطائرة مكبّلة، لمحت شبحًا يقف في البعيد وينظر إليها مينا متأكّدة من أنّ الشبح الذي لمحته كان جورج.

قالت هند لا قاطعة لوجود خادمة سيريلانكيّة في بيتها «ما بدّي لا خادمة سيريلانكيّة ولا غير سيريلانكيّة، ما بدّي حدا يساعدني بشغل البيت، ما أنا خادمة، ليش أنا شو ناقصني، لا شغلة ولا عملة، قاعدة بالبيت وناطرة، عالقليلة هيك بلتهي»

كرهت هند نفسها، ذهبت إلى مقرّ لجنة حقوق الإنسان وقدّمت استقالتها من هذه الجمعيّة غير الحكوميّة. قالت لميّ نشواتي، رئيسة الجمعيّة، إنّها تكره نفسها، وتكره الـ NGO'S، «أنا كذّابة وأنتم كذّابين، صدّقت حالي وأنا عم بتفرعن على الحكيم، وطمّن مينا، بس مستحيل الشغل بمجتمع قايم على الكذب والجريمة، وظيفتنا كانت تبييض الكذبة بكذبة أسوأ منها حتى نريّح ضمايرنا، وليكِ كيف انتهت القصّة بالكارثة»

خرجت هند من مقرّ الجمعيّة منكسرة، شعرت أنّ صوتها اختنق، وأنّها صارت عاجزة عن المشي، أحسّت بالدوار والغثيان.

«أكيد هلّق عم بيقول الحكيم إنّي حمارة»، قالت لأمّها حين عادت إلى البيت، لكنّ سلمى لم ترحم ابنتها، ذكّرتها بما قالته لها، عندما عادت إلى البيت معتزّة بنفسها لتروي وقائع لقائها الأخير بالطبيب.

دخلت هند إلى مكتب الطبيب، وقالت إنّها تريد أن تحكي معه كلمتين.

رفع الدكتور سعيد رأسه عن الأوراق التي كانت أمامه. «خير يا بنتي»

«أنا جايي قلّك إنّي قرّرت أترك الشغل، لأنّي ما بقدر أشتغل معك بعد يلّي صار».

«ليش شو صار؟».

«مينا»! قالت.

«شو»؟ أجاب بصوت مرتعش.

«أنا عضوة بجمعيّة حقوق الإنسان، ونحن وكّلنا المحامي إسكندر لحّام بهالقضيّة»

«أنتِ؟»

«منشان هيك ما بقى فيّ إشتغل معك، أنا ما بشتغل مع ناس عنصريّين وبلا رحمة، وبيستغلّوا الناس»

برمت هند كي تخرج، قفز الطبيب وأمسك بها من رسغها، «لا ما فيكِ تروحي قبل ما تسمعي كلامي»

«بسمع بالمحكمة»، قالت. «الحق عليّي يلّي صدّقت إنّك مريض، صدّقت وانشغل بالي عليك، وبعدين فهمت أنّ القصّة كانت فيلم مركّب منشان تقتل مينا والطفل يلّي ببطنها، وتبتزّ إبنك وتجبره على السفر»

وقف الطبيب مرتعشًا، وضع يده على قلبه، وقال بصوت متحشرج إنّه لا يسمح لها «إنت متل بنتي، يا هند، ليش عم تحكي معي بهالطريقة؟»

لا تذكر هند ممّا ستطلق عليه اسم هذيان الطبيب سوى عبارة «الطفل الأسود» خرجت كلمة أسود من بين شفتيه، رأت الزفت يلوّث لسانه وفمه، وشعرت بالقرف. كان يتباكى على حظّه، فهو لا يملك سوى هذا الابن الوحيد، «هيدا خراب يا بنتي، كيف بده يعيش ببيروت مع مرا هيك، رح نصير مضحكة، بعدين أنا شو عامل لربّي حتى يكون حفيدي أسود»

قالت هند لأمّها إنّها حين سمعت كلمة أسود، برمت ظهرها وصفقت الباب وراءها.

«بس الحكيم معه حقّ، أنا مطرحه بعمل متله». قالت سلمى. «تخيّلي مثلاً لو صارت القصّة معِك، كنت بموت»

في ذلك اليوم، عادت هند إلى البيت منكسرة الكتفين، لكنّ سلمى لم ترحم انكسارها وحزنها، بل لامتها لأنّها ضيّعت عملها من أجل موقف أبله، لا يفيد في شيء. «الخادمة خادمة وستبقى خادمة، أنا هيك بفهم الدنيا»

وسط هذا الحزن الذي يقترب من الانهيار العصبي بدأت علاقة هند بنسيم، ووجدت نفسها تنزلق تدريجيًّا فرش نسيم الكلام أمامها قالت له إنّها تشعر أنّها كمن ينزلق على الصابون، «حكيك متل الصابون، وأنا رح بلّش إزحط»

«ازحطي وما تخافي، أنا بستلقيكِ»

«بس هيدا صابون، والصابون مش حقيقي»

«تعي وما تخافي لا من الحكي ولا من الصابون»

«من شو لازم خاف»؟ سألت.

«خافي من الخيانة، وأنا مش ممكن خون»

روى لها عن الخيانات التي طوّقته من كلّ ناحية، وقال إنّه يشعر معها بالأمان.

«بس أنا ما بعرف، بفتكر صعب حبّك»

«ما في شي صعب» قال، ودعاها للسباحة معه في الشاليه، وذهبت.

لم تستطع هند أن تروي لنسيم قصّتها مع شقيقه، قالت إنّها لا تقدر أن تحكي عن الموضوع لأنّها تشعر بالخيانة. «كأنّي عم خونه، مع أنّه هو يلّي تركني».

طلب منها نسيم أن لا تشعر بالذنب، فهو المذنب إذا كان هناك من مذنب في هذه الحكاية.

لم تروِ، لا لأنّها اقتنعت برأيه، بل لأنّ قصص الحبّ تبدو مضحكة للذي لم يعشها

كان نسيم يحمل في يديه عنقودًا من عنب مغدوشة الأبيض. سألها عن رأيها في العنب، وهو يقول ضاحكًا إنّ العنب هو فاكهة الحبّ.

أخذت حبّة من العنقود، وقالت إنّها كانت تعتقد أنّ الرمّان هو فاكهة الحبّ.

«هيدا كان من زمان»، قال. وأخبرها كيف تبهدل الرمّان. «من زمان كان الرمّان كناية لصدر المرا، وكان العاشق لمّا يتغزّل بحبيبته يشبّه صدرها بأكواز الرمّان، بتعرفي هلّق لما منقول رمّانة شو منعني؟ الرمّانة قنبلة يدويّة. تخيّلي كيف نزلت الرمّانة عن عرش الحبّ وصارت جزء من الحرب. ومن زمان يا ستّ هند كان الرمّان زينة الفاكهة، هلّق اختفى عن الموائد، وصاروا يستعملوا العصير منشان صناعة دبس الرمّان، ودبس الرمّان يُستخدم كحامض مع العصافير المقليّة»

قال بأنّ الرمّان انتهى، وأن لا أحد يحترمه إلّا بعض الرومنطيقيّين، الذين يذرفون دموع الحبّ الكاذبة.

«بس أنا بعرف قصّة حبّ صارت بسبب الرمّان»

«أكيد العاشق كان كذّاب أو نصّاب، والبنت كانت مجدوبة»

«معك حقّ» قالت هند، وأمسكت عنقود العنب الذي كانت حبّاته البيضاء تتلألأ، وبدأت في التهامها

انتهت قصّة الخادمة السيريلانكيّة عبر قيام نسيم ببيع الخادمة التي جلبها إلى بيروت إلى صديقه وشريكه أنطوان السباعي، وربح في الصفقة ألف دولار، وخطر في باله أنّ هذه التجارة سهلة ومسلّية، لكنّه فضّل الابتعاد عنها كي لا يقطع الخيط الأخير الذي يربطه بزوجته. حتى غزالة لم

ترض هند بأن تأتي سوى مرّة في الأسبوع، ثم قرّرت بعد ستّة أشهر الاستغناء عن خدماتها

لماذا لم تعد هند تفهم لغته؟

قال لها إنّها كانت تعرف كلّ شيء منذ البداية في أيّام الشاليه، وإنّها كانت سعيدة بنمط حياته. أخبرها كلّ شيء من دون أن يخبرها شيئًا، لكنّها فهمت عليه. كان نسيم متأكّدًا من ذلك، وإلّا فما معنى أن تقول لك امرأة إنّها تحبّك.

نسيم متأكّد من شيء واحد هو أنّه يريد هذه المرأة مهما كان الثمن. من أجلها أحدث تغييرات كبرى في حياته وطلّق الكوكايين. كيف تشرح لمن لم يجرّب شمّ البودرة البيضاء معنى أن تتخلّى عن أنفك، وينقطع نفسك، وتشعر أنّك ثقيل كالحجر ولا تستطيع أن تحرّك أعضاءك، فتجمد في مكانك، في انتظار أن تتلاشى الرغبة. والرغبة لا تمضي قبل أن تجعلك متجمّدًا مثل لوح من الخشب.

كان الكوكايين زينة الطاولات في تلك الأيّام. يصنع في وادي الشربين، وهي قرية نائية تقع على كتف صنّين. طلب منه أنطوان السباعي، مسؤول الميليشيا في بيروت، المشاركة في العمل باعتباره صيدليًّا، جلبوا خبراء من كولومبيا وتركيا، وبدأ تصنيع الكوكايين والهيروين. وقال الكريم خود. صار الكوكايين ضيف موائد الشباب خلال الحرب لكنّ نسيم، الذي جمع ثروة طائلة من عمله في هذا القطاع، قرّر الانسحاب من الموضوع، بعد مقتل أنطوان، الذي وُجد محترقًا في سيّارته. يومها فهم نسيم أنّه لا يستطيع منافسة الحيتان الكبيرة، وأنّ لعبة المخدّرات مرتبطة في شكل مباشر بقيادة الميليشيا

انحنى نسيم للعاصفة، لأنّه تعلّم أنّ الحرب الأهليّة هي لعبة انحناء. وحين يبدأ الانحناء يصير طريقة حياة. نسيم لم يكن جبانًا، لكنّه اكتشف

مُبكرًا أنّ اللعبة لا تستأهل أن يموت المرء في سبيلها رأى الموت في دمه النازف، ثم جاء خبر موت ميشال حجّي كي يشلّ قدرته على التفكير كان مُلقًى على الفراش في منزل والده، عندما جاء روبير الحايك مبلّلاً بالمطر، حاملاً الخبر فأُصيب نسيم بالعجز عن الكلام. تحامل على نفسه، ومشى يجرّ قدمه المصابة خلفه إلى مستشفى الروم، حيث كانت الجثّة الممزّقة بالرصاص، ملفوفة بشرشف أبيض، وموضوعة في برّاد المستشفى نظر نسيم إلى وجه ميشال فلم يتعرّف إليه، كانت الملامح شبه ممحوّة، كأنّ جميع الموتى يتشابهون. انحنى على جبين صديقه مقبّلاً، ففوجئ برائحة الموت وطعم الإسفنج.

«إنت متأكّد أنّه هيدا ميشال»؟ سأل نسيم، ولم ينتظر جوابًا

«هيدا مش هوِّ»، قال وهو يتراجع إلى الوراء ويغالب شعوره الحادّ بالغثيان. انحنى إلى جانب الحائط كي يتقيّأ، فلم يستطع، أحشاؤه تتمزّق، وهو يصدر أصواتًا تشبه الحشرجة. اقترب منه روبير وربّت على ظهره. «خلّينا نمشي من هون»، قال روبير مشى نسيم خلفه من دون أن يعترض أو يقول شيئًا، وشعر بالخوف. لم يستطع أن يشرح لهند سبب خوفه في شكل واضح، كيف يقول لها إنّه خاف من الجثّة لأنّه لم يستطع أن يتعرّف إليها كيف يشرح لماذا وجد نفسه عاجزًا عن متابعة القتال. روبير وعده بإلحاقه بفرقة الـ «ب. ج وهي نخبة القوّة العسكريّة الكتائبيّة، التي ستتحوّل إلى فزّاعة الحرب الأهليّة. كان نسيم فخورًا بهذا الاقتراح، لأنّه سيثبت للجميع مقدرته ومواهبه. لكنّه أمام جثّة ميشال انهارت قواه. رأى نفسه مُسجًّى في البرّاد، وتخيّل نصري يقف أمام الجثّة ويشعر بحاجة إلى التقيّؤ، وأحسّ بذلّ الموت.

«الذلّ يا حبيبتي يا هند هو ذلّ الموت. منشان هيك وقت الإنسان بده يموت لازم يبتعد عن الناس، ويروح يسلّم نفسه للطبيعة، ويموت لوحده، وما يخلّي حدًا يشوف جثّته بسّ ذلّ الموت بيلاحق الإنسان وما حدا بيقدر

يهرب منه، لأنّه لازم نندفن، وهون المأساة».

نظرت إليه هند مستغربة، من أين يأتيها بهذا الكلام الذي لا سياق له. قالت له إنّها تعوّدت أن لا تفهم حين يحكي، فهي لا تريد منه شيئًا، لكنّها كانت تتمنى أن تعرف ماذا يشتغل بالضبط.

هل كانت هند تخاف من نسيم، مثلما ادّعت أمامه؟ أم كانت تُشفق عليه، مثلما قالت لها أمّها؟

«الرجّال يا بنتي ما بينخاف منه، الرجّال بينشفق عليه، يا حرام مجبور يبرهن أنّه رجّال كلّ الوقت».

رأى نسيم في هذه المرأة بداية كان في انتظارها قال لها إنّه أحبّها دائمًا، ولم يكن كاذبًا، فهو منذ لقائه الأوّل بها على مدخل الصيدليّة، شعر بدبيب الغموض الذي يشعّ من وجهها الأسمر المنمنم، ومن جسدها النحيل. لم تكن هند قصيرة، مثلما توحي مشيتها المنحنية، لكنّها كانت أشبه بكائن ينزلق على الأشياء، إسكربينتها التي كانت من دون كعب، بساطة فستانها الطويل، الذي كانت تتغيّر ألوانه، لكنّ شكله لا يتغيّر، ركبتاها المضمومتان إلى صدرها حين تجلس مسترخية، ونظراتها الشاردة التي لا تستقرّ على شيء محدّد. وقف إلى جانبها على الرصيف، وأضحكها لا يذكر ماذا روى، ولماذا ضحكت، لكنّه يذكر أنّها قالت له إنّه «مهضوم وبيضحّك»، فقرّر أنّها هي. ودعاها إلى فنجان قهوة، فقالت إنّها لا تستطيع لأنّها تنتظر والدتها التي مرّت على الصيدليّة من أجل أن تشتري دواء الأعشاب الشهير طلب رقم تلفونها، فابتسمت ولم تجاوب. تراجع نسيم عن قراره عندما رأى الحبّ في عيني شقيقه، وقرّر أن لا يدخل في منافسة سوف يخرج منها خاسرًا كالعادة.

لم تكن الحكاية مجرّد انتقام أهوج، كما قال نصري، وهو يعلن بشكل قاطع رفضه لهذا الزواج.

«بتجي معي لنطلبها غصب عنك، أوعا تتخرين متل ما عملت كلّ حياتك»

«أنا ضدّ هالزواج»، صرخ نصري.

«إنت بتعمل متل ما قلت لك وإلّا بتعرف شو بصير»

«ما صار شي»، قال نسيم لهند، «إجا زاركم متل الشاطر وطلب إيدك من إمّك»

«بس ليش بيّك كان ضدّ الزواج بهالطريقة القطعيّة، يا لطيف كيف كان حنكه رح يوقع، كأنّه ما كان قادر يحكي، مع أنّه قصّتي مع خيّك صارت قديمة، ومضى عليها الزمن»

«قال لأنّه أنا وكريم راح نصير متل قايين وهابيل».

«أعوذ بالله من هالحكي، يعني كان عم بخطّط حتى تقتلوا بعض»

«لا كان خايف إنّي أقتل خيّي، كان رأيه إنّي أنا قايين، هيك صرخ وهو عم يسحب الرصاصة من فخدي، قال لي إذا كنت مفكّر حالك قايين فأنا بقتلك قبل ما تقتل خيّك»

ما بدا سوء تفاهم عارضًا بين هند وزوجها بسبب رفضها وجود خادمة في البيت، سرعان ما فتح كلّ الجروح، التي اعتقدت هند أنّها اندملت في سياق قصّة الحبّ التي عاشتها مع نسيم خلال سنة الشاليه التي أطلقت عليها اسم سنة العنب. لا تدري كيف استطاع نسيم تدبير العنب خلال فصول السنة الأربعة، وكان هذا أشبه بالأعجوبة في مدينة مقفلة بحرب أهليّة. قال لها إنّه يستورد العنب خصّيصًا لها من أميركا الجنوبيّة. «هون شتا وهونيك صيف، أنا بقدر جيب الصيف على الشتا، هيدي هي فلسفة التجارة، وهيدا هو الحبّ يلّي بيعمل من كلّ أيّامنا صيف».

سبحا في الشاليه فصول السنة الأربعة، وكان للفصول اسم واحد هو

ترميم القلب. في تلك الفصول المصنوعة من عنب الرغبة تعلّمت هند أن تحبّ نفسها صار موج البحر مرايا متداخلة لوجهها وجسدها، وتحوّلت عينا نسيم، الناظرتين إليها بِوَلَه، نافذتين على روحها المنكسرة.

بعد تسفير مينا إلى بلادها، بدا لها كلّ شيء قبيحًا لم تعد تستطيع النظر في المرآة، صارت ترى وجهها قناعًا لا تستطيع نزعه، وتكره شعرها القصير الذي يتساقط من الأمام على عينيها، فيملأهما بالظلال، ولم تعد تحبّ جسمها المنمنم وطريقتها في تصغير خطواتها حين تمشي حتى يخال الناظر أنّها تكاد تسقط إلى الأمام. قرّرت هند أنّها تريد التخلّي عن اسمها وعينيها وشعرها، وأنّها تستطيع أن تموت.

«معك حقّ»، قالت له. «القلبان المنكسران التقيا، تعال نتزوّج»

تزوّجا في المنعطف الذي أطلق عليه نسيم اسم المشي على حدّ السكّين. كان لانسحابه من عالم المخدّرات طعم نشارة الخشب في الفم. وجد نفسه وحيدًا ومجرّدًا من الحماية التي كان يؤمّنها له أنطوان. تهاوى ذلك المناخ الذي كان يوحي بأنّ البودرة البيضاء تستطيع أن تغطّي الدم، وأنّ امتزاج اللونين الأحمر والأبيض يجعل المال يتدفّق بغير حساب.

ليس صحيحًا أنّ الحروب تخلق مناخًا من التضامن بين الناس، كما يكتب الروائيّون، الحروب تحوّل الإنسان إلى كائن متوحّد. وحش يعيش بين الوحوش، ولا يستمع إلّا إلى عواء الذئاب التي تُحيط به من كلّ صوب. عاش نسيم في الوحدة والخوف. تبدّد وهم معمل الكوكايين، وانهارت كلّ مشاريعه، ووجد أنّ عليه أن يبدأ من الصفر وفي الصفر التقى هند ورآها من جديد. قال لها إنّها عندما ظهرت أمامه أحسّ بأنّ الضباب تبدّد. قال إنّه كان يرى كلّ شيء مغطًّى بما يشبه اللون الحليبي، وأنّه اعتقد أنّ الكاتاراكت، أو المياه الزرقاء، جاء في غير ميعاده، كأنّ لعنة والده أصابته بالعمى المبكر ضحكت هند، وقالت إنّ العرب كانوا

يسمّونها المياه البيضاء، أمّا اليونانيّون فأطلقوا عليها اسم المياه الصفراء، وإنّ ما يدّعيه ليس صحيحًا، لأنّها من خلال عملها في عيادة طبيب العيون، صارت ترى العلامة على البؤبؤ، وأن لا شيء من هذا في عينيه.

لعب معها في البداية لعبة المياه الزرقاء، كان يشعر بالوحدة واللامعنى، وتراءى أمامه شبح شقيقه التوأم الذي صار طبيبًا في فرنسا، فقرّر أن يلعب الحبّ مع هذه الفتاة السمراء المهيوبة، التي يلتمع جلدها بالشمس، ويشفّ عن بهاء مليء بالخفر الانتقام من الشقيق الناجح لم يعد واردًا هذا ما كان يعتقده فعلاً، وهذا ما حاول أن يشرحه لها، حين ارتسم على وجهه قناع الغضب، بسبب كلامها الجارح

جاء الحبّ وسط حمّى العمل أعاد نسيم تأسيس نفسه بالمال الذي جمعه من تجارته السابقة، وفي غضون سنتين تحوّل إلى تاجر أخشاب وحديد وبنزين. يستورد موادّ البناء ويضحك في عبّه، يكره الحرب ويتمنى استمرارها لأنّها مصدر رزقه الوحيد. يهرّب ويجمع المال، ويعيش كالملوك.

قال لهند إنّه يحبّها، لكنّ عمله يقتضي منها التسامح. لا لم يشتغل في الدعارة مثلما اتّهمته، كلّ ما في الأمر أنّه ذهب تحت القذائف إلى السوق العمومي، وأنقذ سوزان، وأسكنها في شقّة في حيّ البدوي، على أطراف الأشرفيّة، وصار يصرف عليها، مثلما يفعل أيّ ابن مع أمّ وجدها بعد طول غياب.

لكنّ هند لم تكن تريد أن تفهم، كانت تقضي وقتها في البيت مع الكتب، لا يدري من أين جاءتها حمّى القراءة، ولا لماذا لا تقرأ إلّا روايات سوداويّة. قال لها إنّه لا علاقة لنا نحن بكافكا، «شو هالقصّة يلّي صرتي قاريتيها ثلاث مرّات، مش ناقصنا إلّا نصير صراصير»

«بس نحن صراصير ومش عارفين، يمكن لو منعرف منلاقي طريقة نخلص من هالوضع»

إذا أراد نسيم أن يلخّص أزمة علاقته بهذه المرأة فسيقول إنّ المشكلة هي بين الحياة والموت، «أنا بحبّ الحياة، وإنتِ مش شايفة قدّامك إلّا الموت، أنا بدّي عيش وإضهر وإسكر وأرقص، وإنتِ بدّك تضلّي بالبيت، أنا بدّي حبّك، وإنت بدّك إيّاني إزهق منك ومن كلّ شي»

رفضت هند الخروج مع زوجها إلى الملاهي التي نبتت كالفطر في قرية بحريّة تُدعى المعاملتين. ذهبت معه مرّة واحدة بسبب إلحاحه، واستمتعت بأداء مغن شابّ كان يغني لأمّ كلثوم بصوت مبطّن ببحّة خفيفة، لكنّها شعرت أنّ المكان كان أشبه بالكاباريه، وأنّ النساء يتصرّفن وكأنّهن عاهرات. بدأ الرقص على إيقاعات أغنية «أنت عمري»، لكنّه لم يكن رقصًا شرقيًّا، رجال ونساء يحتلّون الحلبة، ويتمايلون في شكل عشوائي، ويقفزون في أماكنهم، وضحكاتهم تفرقع في المكان. وعندما بدأ المغنّي ينشد أغنية «وين عَ رام الله»، سرى ما يشبه النار في جمهور الراقصات والراقصين، وصاروا يصرخون بالغناء مع المطرب الشابّ. أمسكها نسيم في تلك اللحظة من يدها كي يشدّها إلى الحلبة، فسحبت يدها من يده بعنف، وقالت إنّها تريد العودة إلى البيت لأنّها تكاد تختنق.

قالت في طريق العودة إنّها تعجب كيف يغني هؤلاء عن رام الله وفلسطين، بينما دماء ضحايا شاتيلا وصبرا لم تجفّ بعد. رمى نسيم السيجار من النافذة، وقال لها إنّها تكره الحياة، «والله مش عم أفهم عليك، شو بدّك نعمل تنعمل، الناس بدها تعيش وبدها ترقص وتغنّي، رام الله ما رام الله ليش حدا فهمان شو عم بيغني، الناس سكرانة وبدها تعيش»

«هيدي سكرة الموت»، قالت.

وقالت إنّها لم تستطع أن تميّز بين النساء والعاهرات، كأنّ الحدود بين الأشياء انكسرت، فصار الرجال كالقوّادين مع زوجاتهم، «شوهيدا، حدا بيعيش هيك؟».

قال إنّها الحرب، «الحرب هيك، ونحن لازم نعيش».

«لا، إنت هيك، وأنا ما بقبل عيش بهالطريقة»

لكنّ هند لم تجد لنفسها طريقة مختلفة، كانت تشعر بالتقزّز من الجمعيّات التي تُعنى بالمصابين والمعوّقين، لأنّها رأت فيها شبح جمعيّة الدفاع عن حقوق الإنسان، التي لم تفعل شيئًا لـ مينا، كما رفضت الدخول في عالم زوجها الذي رأت فيه مرآة للتفسّخ الذي يعيشه المجتمع اللبناني، ولم تعد تجد ما تقوله لأمّها التي كانت ترى في صهرها نسيم الرجل الذي لم تعثر هي عليه.

«أهمّ شي بالرجّال الكرم يا بنتي، زوجك قادر، والله فاتحها بوجهه، ليش بيضلّ وجهك مقلوب، وليش مش عم تفهمي أنّه هيدا نصيبك من الدنيا»

لا يدري كريم لماذا روت له هند قصّة موت والده، لم يفهم منها ماذا جرى بالضبط، هل دفشته أم سقط أرضًا وهي تحاول التخلّص من يديه؟ هل صحيح أنّ نصري حاول معها أيضًا؟ لماذا إذًا قال له نسيم إنّ نصري تغيّر كثيرًا في أيّامه الأخيرة، وإنّه لم يعد يُثير سوى الشفقة والأسى.

«صار متل كأنّه إبني، بس كيف بدّي قول، متل لا سمح الله الواحد عنده إبن عطيلة، بيشفق عليه وبيحبّه، إبنك بتحبّه كيف ما كان، ما هو إبنك، أمّا بيّك فعلقة والله علقة، ما فيك ما تشفق عليه، بس منين بدّك تجيب الحبّ، الحبّ لازم يكون جديد، متل ما كان الأبونا أوجين يعلّمنا بالمدرسة، منشان هيك صار المسيح طفل حتى نحبّه، بلا الأوّل ما في حبّ»

روى نسيم عن نصري الذي نحل جسمه كثيرًا، وصار جلده أسود ومليئًا بالبقع تراه من الخلف فتحسب أنّك أمام بنطلون واسع يخفي رجلاً في داخله، وتراه من الأمام فتجد نفسك أمام شبح مغطّى بوشاح أسود.

أصرّ نصري على صبغ شعره، فالبياض الذي كان يتغنى به، عندما كانت الحياة تسري في جسده، صار مكروهًا قال لنسيم الذي سخر من شعره الأسود، الذي بدا كباروكة من الشعر المستعار، إنّ البياض علامة الموت، وإنّه لم يعد يستطيع تحمّل اللون الأبيض، لأنّه لون العماء

بعد إصبع ابنه نسيم الذي ارتفع في وجهه، كأنّه كان على وشك أن يفقأ عينيه، دخل نصري في صراع مع آلام الرأس، التي لم تنفع معها جميع أنواع الأعشاب الطبّيّة، ثم فجأة بدأت مشكلة عينيه، العين اليسرى التي أجرى لها عمليّة مياه زرقاء بدأت تغبّش والعين اليمنى اجتاحها البياض. وكان الرعب والصمت. الدكتور سعيد، الذي كان أشهر أخصّائي في طبّ العيون في بيروت، اقترح تنظيف العين اليسرى بالصدمات الكهربائيّة وإجراء جراحة للعين اليمنى. شرح الطبيب لمريضه أنّ المسألة تحمل شيئًا من الخطورة. فالعدسة التي وُضعت في العين اليسرى مجرّحة ولا يمكن استبدالها، أمّا العين اليمنى، فمن الصعب التكهّن بمدى نجاح جراحتها، لأنّ المسألة لا تتعلّق بالعدسة فقط، بل بالقرنيّة الممزّقة والمتهالكة.

منذ تلك اللحظة دخل نصري في الميلانخوليا التي لن يخرج منها حتى وفاته. لم يكن في استطاعته أن يستشير أحدًا، أو أن يشكو همّه لأحد. اكتشف الرجل أن لا أصدقاء له، وأنّه وحيد.

«هذه هي الكهولة»، قال نصري لسلمى. «الكهولة هي أن تكتشف أنّك وحيد في هذه الدنيا، وأن لا صديق تستطيع استشارته أو طلب نصيحته وأنت تواجه قدرك» ذهب إلى سلمى كالتائه، كان يريد أن يقول لها إنّه اكتشف أنّه كان يحبّها، وأنّه يريدها أن تكون رفيقة أيّامه الأخيرة. كان يعلم أنّ هذه الزيارة لن تُفيده في شيء، فقد جاءت متأخّرة كثيرًا، وأنّه لن يكون قادرًا على استمالة قلب المرأة الذي تحجّر من القهر، لكنّه ذهب إليها لا يدري لماذا.

صرخت وهي تبكي أنّ الحقّ عليها كانت تقف مع نسيم وهند، أمام سرير الرجل في المستشفى. كانت كمّامة الأوكسيجين تغطّي وجه نصري وأنفه. قالت سلمى إنّها مذنبة لأنّها لم تخبر نسيم بالحقيقة.

«أيّ حقيقة يا مرت عمّي، ما الزلمة تفركش قدّامي ووقع، يعني خلص زيته متل ما منقول، الحكيم قال لي إنّها مسألة أيّام»

«وقع قدّامك أو مش قدّامك، ما بعرف، يلّي بعرفه أنّ نصري إجا لعندي من جمعة وخبّرني الحقيقة، والحقيقة أنّه صار تقريبًا أعمى، رفض يعمل عمليّة الميّ الزرقا بعينه اليمين، وعينه الشمال ما بقى يشوف فيها إلّا خيالات، كان لازم خبّركم، بس ما بعرف ليش سكتت، كلّ ما إجي لخبّرك إنسى. الرجّال وقع لأنّه أعمى، ونحن تركناه يموت».

«أعمى»! صرخت هند.

هل كان نصري أعمى فعلاً؟ ولماذا انتظر ثلاثة أعوام كي يخبر عن حقيقة وضعه، وكيف دبّر حاله، وعاش وسط الظلال البيضاء التي افترست عينيه؟

كان نسيم يعتقد أنّ والده وقع تحت سطوة أحد أطبّاء الجلد من أتباع المذهب الداهشي، الذي أكل له رأسه بأعاجيب رجل فلسطيني من المذهب السرياني، وُلد في بيت لحم، وهاجر إلى بيروت، حيث أسّس مذهبًا دينيًّا، جمع فيه المسيحيّة بالإسلام وأعلن نفسه نبيًّا لا يعلم نسيم شيئًا عن سليم العشّي ومذهبه، فعندما احتلّ هذا المذهب المشهد السياسي اللبناني في أربعينيّات القرن العشرين وخمسينيّاته، لم يكن الشقيقان التوأمان قد وُلدا بعد، كما لم يكن الصيدلي نصري مهتمًّا بالموضوع. كان نصري في شبابه عدوًّا للروحانيّات، يقرأ الكتابات الإلحاديّة، ويُبدي إعجابه بطبيب ومفكّر لبناني يُدعى جورج حنّا أقام الدنيا وأقعدها في بيروت بسبب كتاب صغير ألّفه كان بعنوان «ضجّة في صفّ الفلسفة». نصري كان

من مريدي الدكتور حنّا، لكنّه رفض الانضمام إلى حزب البولشفيك، لأنّه لم يكن يؤمن بأنّ الإنسان يحمل في داخله طبيعة واحدة هي الخير «أنت أقنعتنا يا دكتور أنّ الإنسان أصله قرد، قلنا ممتاز، وصدّقنا هلّق كيف بدّك إيّانا نصدّق أنّ القرد يلّي صار إنسان نسي طبيعته الحيوانيّة وصار كلّه خير، شو هالحكي السخيف أنّ الصراعات بتزول إذا أمّنّا للإنسان حاجاته. حيوان وعنده خيال، كيف بدّك يقتنع بحاجاته، حاجات البشر ما بتخلص» قال للدكتور حنّا، في نقاش صاخب جرى في الصيدليّة، إنّه لا يفهم كيف يعمد حزب ملحد إلى تعميم أفكار دينيّة تحت ستار محاربة الدين، «الإنسان ليس مسطّحًا مثلما تعتقدون»، قال للدكتور حنّا، «الإنسان غابة متشابكة الأغصان، وعندما تلغون اللاوعي، فهذا يعني أنّكم تؤسّسون كنيسة جديدة، وهيك ما بيمشي الحال يا حكيم».

ماذا جرى لنصري الذي كان يؤمن أنّ الإنسان تركيبة كيماويّة، كي يلعب بعقله طبيب الجلد، الدكتور خنيصر، ويهديه إلى روحانيّات السحر، والإيمان بأنّ الإنسان يملك أكثر من جسد، وأنّ المسيحيّة والإسلام قد يكونان دينًا واحدًا، أو وجهين لدين واحد.

لم يكن كريم على دراية بالتغيّر الجذري الذي أصاب والده في الأعوام الأخيرة. كانت علاقته به تقتصر على اتّصال هاتفي موسمي لا يدوم أكثر من دقيقتين، كان فيها الأب لا يسأل إلّا عن حفيدتيه، ولا يجاوب عن أيّ سؤال متعلّق به. «ما تسألني كيفك، شو بدّك إيّاني قول، حدا بقول عن حاله إنّه منيح لمّا ما بعود يستطعم بالدنيا، فيك تشرح لي يا حكيم ليش طعمة الأشياء راحت، إذا أكلت كنافة أو أكلت خرا بحسّ بالطعمة نفسها، إذا فيك تشرح لي بجاوب على سؤالك. الله يخلّيك بطّل هالأسئلة وطمّني نادين ولارا بيحكوا عربي، أوعا يا ابني ما تعلّمهم عربي، لأنّهم بيبطلوا بناتك، الإنسان مش ابن أمّه وبيّه، الإنسان ابن اللغة يلّي بيحكيها، منشان هيك منسمّيها اللغة الأمّ، الأمّ الحقيقيّة هي اللغة، طمّني

عم تحكي معهم عربي».

كيف يشرح كريم لوالده أنّ هذا مستحيل، بل كيف يخبره أنّهما تكرهان الأكل اللبناني، وترفضان أن تقولا في المدرسة إنّهما لبنانيّتان، وإنّهما لا تتكلّمان العربيّة، وعندما تلفظان اسم العائلة تضعان له لكنة فرنسيّة، فتصير شمّاس Shama وتدّعيان أنّهما من ليون مدينة والدتهما

أراد نصري أن ينهي حياته مع سلمى. كلّهم لا يعرفون، لكنّ سلمى تعرف أنّه أحبّها، وأنّ لعبة الدواء الأخضر كانت مجرّد بداية، لكنّ المرأة خافت منه. قالت له وهي ترمي في وجهه قارورة الدواء الأخضر إنّه لم يفهم شيئًا، «أنت مفكّر إنّي بجي لعندك بسبب هيدا، بس إنت ما بتفهم ولا بدّك تفهم، الحياة مش لعبة الحنبلاسة وشويّة تأوّهات وكذب، الحياة حبّ ورفقة وحنان»

عندما روى لها عن عينيه، وعن البياض الذي يصير ظلالاً ويغطّي الأشياء بالباهت الأصفر، ابتسمت، وقالت له أن يتوقّف عن ألْعابه معها، «خلص يا نصري، التفنكات ما بقى تنفع لا معي ولا مع غيري، وبعدين صار بدنا السترة، الآخرة هي طلب السترة من ربّ العالمين، الله يسترك ويسترنا، خبّرني عم تشوف أصْفر ولّا أخضر؟»

عندما نظرت في عينيه الشاردتين إلى البعيد، فهمت أنّ الرجل لا يكذب، لكنّها وجدت نفسها عاجزة عن تصديقه. «بتعرف شو مشكلتك يا نصري، مشكلتك أنّي كنت خاف منك، ويمكن بعدني لهلّق بخاف، ويلّي بيخاف يا حبيبي مش ممكن يصدّق، منشان هيك ما فيّي صدّقك، وأولادك كمان ولا مرّة صدّقوك»

«بس أنا عشت هيك كرمال أولادي»

لا يدري نصري كيف انزلقت هذه العبارة من بين شفتيه، فهو لا يرى حياته هكذا، لكنّه في الحقيقة لم يعد يعرف كيف يقرأ حياته. ماضيه يبدو

بعيدًا جدًّا، وحكايته تبدو غريبة، كأنّ من عاش تلك الحياة شخص آخر، أو أشخاص آخرون. كما أنّ الأمور تبدو وكأنّها مرّت خطفًا وبلمح البصر، لولا هذا الجسد اللعين.

«عم بتحكي هيك لأنّي ختيرت، معك حقّ يا سلمى، بس كلّ ما ختير الجسم، الروح بتحسّ أنّها عم تصغر، تفو عليك يا بني آدم ما أقرفك، بيرجع الواحد طفل بجسم عجوز، يا إلٰهي ما أصعبها»

لم يحاول نصري إقناع سلمى بتبديد خوفها منه، فهو في الحقيقة لا يعرف ماذا دفعه للمجيء إليها قال لها إنّ الأشياء التي مضت لا تعود، وإنّها محقّة في خوفها منه، «ما حدًا بيخوّف قد الخايف»، قال إنّه خاف من الحبّ فبدّده في اللعب، وقال إنّه خاف من الحياة فحطّمها، وإنّه خاف على ولديه ففقدهما

سألته كيف يقضي أيّامه وهو شبه أعمى، ونصحته بأن يجلب خادمة إلى البيت كي تساعده في قضاء حاجاته، فغمغم ليقول إنّه حلف أن لا تدخل امرأة إلى البيت بعد وفاة زوجته، «ومش معقول أكسر يميني حتى جيب خادمة. يا ريت يا سلمى، بس أنا بعرف أنّه مش ممكن، لأنّه نسيم بيقتلني وبيقتلك، يمكن أحسن هيك، وبعدين في الله، والله بيساعدني»

«ليش صرت تآمن بالله؟»

لم يجب، نهض، حمل عكّازه ومضى وهو يدندن أغنية لمحمّد عبد الوهّاب.

صار نصري وحيدًا، هذا ما أراد أن يقوله لابنه كريم على التليفون، وهو يطلب منه أن يأتي لزيارته في بيروت قبل أن يموت. «بس بدّي شوف البنات، معقول موت من دون ما شوف نادين ولارا»، لكنّه لم يقل إنّه اكتشف وجود الله في أيّامه الأخيرة.

لم يكن نصري مستعدًّا لشرح علاقته بالله، فالرجل الذي أمضى حياته في السخرية من الدين، إلى درجة أنّه احتقر البولشفيك لأنّهم كانوا دعاة دين جديد، وجد الله وسط العماء الذي حاصره بالبياض. لم يكن إلٰهه تلك اللعبة الخشبيّة التي جاءته هديّة من صديقه الصيدلي ساروفيم، الذي عاد من باريس حاملاً معه وجهًا إفريقيًّا صغيرًا على قطعة خشبيّة مستطيلة طولها عشرون سنتمترًا كان الوجه الإفريقي مصنوعًا من خشب الأبنوس الأسود، وعيناه الواسعتان مفتوحتين على ما يشبه الهاوية. أخبره الصيدلي أنّه عثر على هذا الوجه في بولڤار سان جيرمان، واشتراه من بائعة سوداء كانت تقف خلف بسطة مليئة بالوجوه الإفريقيّة قال إنّ البائعة سحرته بزيّها الإفريقي والوشم الذي غطّى يديها المرأة التي كانت تشبه تماثيلها الخشبيّة روت للصيدلي اللبناني أنّ تماثيلها الصغيرة هي وجوه للآلهة. كانت تحاول أن تشرح، بفرنسيّتها المرتبكة، أنّه يستطيع تحويل الوجه الذي سيشتريه إلى إلٰه شخصي، لا يشاركه فيه أحد.

«ولكن كيف يصير الوجه إلٰهًا»؟ سألها

«في اللحظة التي تؤمن به، تحلّ فيه روح أحد أجدادك، ويصير إلٰهًا»

قال ساروفيم إنّه اشترى هذا الوجه من أجل نصري.

فكرة الإلٰه الشخصي راقت لنصري كثيرًا، خصوصًا في تلك المرحلة التي استشعر فيها خطر الأخ أوجين على ابنه كريم. فكريم لم يكن متفوّقًا في الدراسة فقط، بل كان متفوّقًا في الدروس الدينيّة أيضًا وهذا ما أخاف نصري، لأنّه كان يعرف أن لا شيء يستدعي العلاقات الجنسيّة المحرّمة مثل المناخات الدينيّة، حيث تختلط رائحة البخور بروائح الرغبة، وتصير الصلوات وشوشات تأخذك إلى عتمة الروح.

أعلن نصري ولادة إلٰهه الشخصي على طاولة الغداء. رفع كأسه، سكب قليلاً من الخمر على الأرض، وشرب نخب الأجداد، حمل الرأس

الأسود بين يديه ورفعه إلى الأعلى، ونظر إلى ابنه كريم وهو يقول إنّ هذا الإله أفضل من جميع الآلهة الآخرين، لأنّه لا يصير حقيقيًّا إلّا إذا آمنّا به. نستطيع أن نصلّي له كما نستطيع أن نشتمه، نقدّسه حين نشاء ونضربه حين نريد، ويبقى معنا ولا يفارقنا مثلما تفعل الآلهة الأخرى بأتباعها قبّل رأس الإله الذي أطلق عليه اسم هبابيل، وقال لولديه إنّ التقليد الإفريقي الذي جاء منه هذا الإله الأسود يفرض على الأبناء تقديس إله آبائهم، وحين يموت الأب يجب دفن إلهه معه، وعندها على كلّ ابن أن يجد لنفسه إلهًا شخصيًّا يعبده.

«إذا سألك الأخ أوجين عن الله فقل له نحن نعبد إلهنا الخاصّ، ولا علاقة لنا بإلهكم الذي مات على الصليب، إلهنا لا يموت، ولا يشاركنا فيه أحد، نحبّه ونكرهه، نتضرّع إليه وحين لا يستجيب لصلواتنا نهمله، لا يوجد خطايا في ديننا ولا ندم. إلهنا يخطئ مثلنا ونحن لا نعاقبه لأنّه لا يعاقبنا، لكنّنا نستطيع أن نفعل به ما نشاء»

انفجر نسيم ضاحكًا، أخذ الوجه الأسود من يد والده، قبّله، ثم بصق عليه، التفت إلى شقيقه وطلب منه أن يقبّل رأس الإله. «شو قال اسم هالإله؟»

«هيدي مسخرة»، قال كريم، ونهض كي يمضي. أمسكه والده من زنده مجبرًا إيّاه على الجلوس.

صار هبابيل ضيف طاولة الطعام، ووجد فيه نصري ونسيم مادّة للتندّر على حكايات الرهبان الجزويت، وعلى إيمان كريم بالإله الذي يعبده الرهبان في المدرسة، ويجبرون التلاميذ على تلاوة الصلوات لأجله في كلّ صباح

فجأة اختفى هبابيل

كان نصري متأكّدًا من أنّ كريم رمى هبابيل في المزبلة. لكنّه كان على

خطأ هبابيل كان الهديّة التي أراد نسيم تقديمها لسوزان عندما ذهب لزيارتها بناء على موعده معها أعدّ سيناريو عبادة كاملاً، بل اخترع صلاة يجب تلاوتها قبل ممارسة الجنس. تخيّل سوزان تخلع ثيابها في الغرفة وهي تنظر إليه بطرف عينيها، رأى نهديها الأبيضين الكريميّين ينبثقان وشعر بالدوار. لكنّه بدلاً من أن يقفز ويأخذها إليه، حمل هبابيل بيده ووضعه على رأسها، طلب منها أن تجثو، جثا إلى جانبها وبدأ في تلاوة الأدعية، طلب منها أن تردّد وراءه كلماته التي يتحدّث فيها عن الجسد الإنساني بوصفه بخورًا للآلهة.

لكنّ سوزان هزئت منه وطردته.

تركته واقفًا على الرصيف وقالت تلك الكلمات التي أحدثت في قلبه جروحًا لم يشفَ منها إلّا حين تزوّج هند.

وعندما أقفلت هند روحها في وجهه، شعر بالحاجة إلى هبابيل، وندم لأنّه رمى ذلك الإلٰه الخشبي في كومة النفايات، في شارع المتنبّي.

لم يسأل نصري ولديه عن الوجه الأسود، اختفى هبابيل واختفت حكايته. لكنّ الرجل الكهل الذي صار شبه أعمى، وأقفل صيدليّته لأنّه لم يعد قادرًا على العمل، تغلّب على وحدته بالموسيقى اكتشف إلٰهه مع محمّد عبد الوهّاب، وأغنياته التي تبدّد العتمة بنشوة الإيقاع.

كان يجلس في بيت ابنه نسيم، وهو يحاول أن يروي لهند عن العزاء الذي تنشره الموسيقى ويصنعه الشعر قال لها إنّ عليها تعليم الأولاد العزف على آلة موسيقيّة. قال إنّ الله هو إيقاع العالم، والعالم يصنع إيقاعاته بالموسيقى روى أبياتًا من الشعر لحّنها عبد الوهّاب، وقال إنّ بيتًا واحدًا من الشعر يختصر كلّ الصلوات التي ابتدعها البشر لتمجيد آلهتهم.

«اسمعي»، قال: «مولاي وروحي في يدِهِ/ قد ضيَّعها سلمتْ يدُهُ».

نهض واقفًا، وهو يطلب منها أن تجلب آلة التسجيل كي يُسمعها كاسيت قصيدة «مضناك»، تعثّرت قدمه بطرف السجّادة، انحنى مادًّا يديه إلى الأمام، تراجعت هند، لكنّ الرجل تابع انحناءته وكاد أن يسقط عليها، حاولت أن تتخلّص من يديه بأن دفعتهما عنها، فسقط الرجل أرضًا

لم يكن أحد يدري أنّ نصري صار شبه أعمى، اعتقد نسيم أنّ قذارة والده ناجمة عن الكهولة، سلمى وحدها كانت تعرف، لكنّها لم تقل لأحد.

«يا دلّي»، صرخت هند، «يعني أنا قتلته من دون ما أعرف شو عملت»

«أنا يلّي قتلته»، قالت سلمى باكية.

«ما حدًا قتله»، قال نسيم. «خلصه زيتاته ومات، غريب كيف بعد كلّ شي عمل فيكِ بتصدّقي حَكْياته، الله يرحمه ويرحمنا، نقطة على السطر، ما بقى بدّي إسمع هالقصّة من حدا»

ـ ٨ ـ

كان على كريم أن يبرّر لهند ما جرى، ولماذا أدار ظهره لعلاقة دامت أربعة أعوام. قال إنّ الحبّ انتهى عندما لم يعد أمامه من طريق سوى الهجرة إلى فرنسا لكنّه كذب عليها، أو لنقل إنّه حاول أن يقول الحقيقة من دون أن يقولها أي حاول أن يكون لطيفًا، كي لا يجرح مشاعرها

الحكايات لا تنتهي بل تنام. والنائم قد يستيقظ في أيّ لحظة، وقد لا يستيقظ أبدًا

بيروت أيقظت كلّ الحكايات عندما أضافت إليها حكايات جديدة كريم سوف يخسر رهانه الجديد، لأنّه في الحقيقة لم يراهن، بل وجد نفسه عائدًا إلى بيروت، فعاد.

اعتقد كريم أنّ حكاية هند انتهت عندما التقى جمال في معسكر بيصور عام ١٩٧٦ لكنّ الحكاية لم تنته. اتّخذت مسارًا آخر، وصارت بمثابة منطقة أمان للشابّ الذي شعر بأنّ الحرب الأهليّة تخلخل معاني وجوده كلّها جمال لم تكن قصّة حبّ، كانت محاولة لتسلّق حبال المستحيل، والتقاط التماعات البرق التي كانت تتساقط من عينيها، وهي ترى ما لم يكن كريم قادرًا على رؤيته.

لم يجرؤ على أن يخبر أحدًا حقيقة مشاعره تجاه جمال. كيف يقول

عندما لا يكون متأكّدًا من شيء. هل أحبّها؟ أم أنّه اعتقد أنّه أحبّها عندما قرأ نتفًا من مذكّراتها؟

اكتشف كريم، وهو يقرأ مذكّرات جمال بعد موتها، أنّ الكلمات تحمل معاني شتّى، وأنّه وهو يلملم أحزانه ويحاول أن يكتب حكاية الفتاة الفلسطينيّة التي قادت عمليّة انتحاريّة في الطريق الساحلي بين حيفا وتلّ أبيب، صنع لنفسه حكاية حبّ من ركام الكلمات، وأنّ جمال دخلت في ذاكرته بوصفها كلمات تتراصف في صفحات شبه ممزّقة

غريب أمر الموتى، كيف يحتلّون مساحات خيالنا، ويصيرون مثل أشباح تلعب بذاكرتنا قال كريم لروحه إنّ السبب هو لحظة الضياع التي يعيشها، منذ تلقّيه ذلك الاتّصال الهاتفي من شقيقه الذي يدعوه فيه إلى العودة إلى بيروت من أجل مشروع بناء المستشفى.

قال إنّه موافق ورأى الموتى أمامه.

رأى نصري يسقط أرضًا بعينين مفتوحتين على الموت الذي تحجّر فيهما

رأى خالد وقد محا الموت عينيه، يسقط مجندلاً بالرصاص، الذي مزّق جسده

رأى عيني جمال كنقطتي ضوء في سفينة الموت، تترك بين يديه نتفًا من الكلام أسمتها مذكّرات، وتمضي من دون أن تلتفت إلى الوراء.

رأى ولم ير، وأحسّ أنّه لا يستطيع مقاومة إغراءات العودة إلى المدينة التي صارت رائحة غامضة تنبعث من ذاكرته بين وقت وآخر، وتجعله يشعر بالدوار

قال لبرناديت إنّ رائحة الذاكرة تصيبه بالدوار

برناديت لم تفهم لماذا قرّر الرجل العودة إلى بيروت من أجل مشروع لن يتحقّق.

قالت له إنّ مشروعه مستحيل، «المستشفى لن يُبنى وأنا والبنات لن نذهب إلى بيروت»

قالت برناديت إنّه كان عليها أن تفهم منذ ليلة زواجهما أنّه رجل يعيش في الخيال، ويصنع من أوهامه حقائق.

قالت عن سعاله الذي لا يتوقّف في الفراش، وعن الأصوات التي يصدرها في نومه، وكأنّه يتكلّم باللغة العربيّة.

لماذا تنفتح أبواب الجحيم في النهاية، وما معنى النهاية؟

بدأت الأمور تتّخذ مسارًا مختلفًا عندما تلفن نسيم لشقيقه كي يخبره بأنّه تزوّج هند، وقبل أن ينطق كريم بكلمة مبروك، سمع الاسم فجمد الكلام في زلعومه، وبدأ يسعل. سوف يكتشف أنّ الكلام يموت حين يتشردق به الإنسان. يومها بدأ السعال الذي لم يتوقّف. ذهب الطبيب اللبناني إلى طبيب حنجرة فرنسي، ليكتشف أنّه لا يعاني من أيّ مرض عضوي، وأنّ المسألة «بسيكو سوماتيك»، كما قالوا لكنّه لم يعرف كيف يخبر برناديت بمرضه النفسي الذي لم يتوقّف إلّا حين عاد إلى بيروت. الحقيقة أنّ مرضه لم يكن يظهر إلّا في البيت، بحيث صار عاجزًا عن الكلام مع زوجته وابنتيه. لحظة يفتح فيها فمه بالكلام يبدأ السعال، وتتحجّر الكلمات، ويشعر بالاختناق.

لا يدري ماذا جرى. كانت برناديت والطفلتان نادين ولارا يملأن حياته. قرّر أن ينسى تلك البلاد، فأغرق جسمه في جسد المرأة الفرنسيّة الأبيض، ونسي كلّ شيء، حتى إنّه صار لا يحلم إلّا باللغة الفرنسيّة. قال لها، في أيّام الحبّ الأولى، إنّها وطنه. لم تكن برناديت تفهم سبب هوس هذا الرجل العربي، الذي لا يشبع من جسدها، بالأوطان. ينام معها كمن يتشبّث بها، يتحسّس بياضها بأنامله ولا يغمض عينيه مثلما يفعل الرجال عندما يمارسون الحبّ مع النساء. وحين ينتهي يجلس عاريًا في السرير،

يستمع إلى أغاني فيروز، وتلفّه الكآبة.

في بيروت اختفت برناديت عن شاشة وعيه، كأنّها امّحت هنا وسط خرائب المدينة شعر أنّ حياته الفرنسيّة كانت مجرّد منام، وأنّه بعودته إلى مدينته يستعيد الشابّ الذي تركه تائهًا في دهاليز الخوف في بيروت.

برناديت وافقت على مضض، قالت إنّها تعرفه جيّدًا وتعرف أنّ الستّة أشهر التي سيقضيها في بيروت لن تضيف سوى خيبة أمل جديدة في حياته.

قالت إنّها تفهمه، وتعرف أنّ قلبه سيحترق شوقًا إلى نادين ولارا، وأنّه سيكتشف من جديد كم يحبّهما، ولا يستطيع العيش من دونهما

كانت برناديت على حقّ، فهذه المرأة ذات العينين الزرقاوين اللتين تتوشّحان بالحبّ والحنان، كانت تعرف كيف تقرأ مشاعره.

تحبّه حين يأتي الحبّ، وتعامله كطفل حين تشعر أنّه ضائع في بلاده الجديدة، تقسو عليه حين يسترسل في هجاء حياته السابقة، وتمدّ له جسرًا كي يتصالح مع نفسه.

قالت له إنّ هذا هو الحبّ.

الحبّ ليس الرغبة التي تأتي وتمضي، الحبّ هو دفء الأمان، ومتعة التواطؤ، ولذّة اكتشاف الحياة في عيون الأطفال.

تركت عملها في المستشفى كي تتفرّغ لبيتها وابنتيها، وقرّرت أن لا تكون سوى زوجة هذا الرجل الذي يثيرها بتناقضاته، وتحبّ فيه تردّده بين رجوليّة وهميّة يدّعيها، وأنوثة خجولة تستولي عليه حين يواجه مصاعب الحياة وتقلّباتها

امّحت برناديت في بيروت، لكنّ الشوق إلى الصغيرتين كان ينمو في أحشائه، ينهض من نومه على صوت بكائهما، وحين يكتشف أنّه في

بيروت، يعود إلى النوم حزينًا، ويقرّر أن يتّصل بهما في الصباح الباكر قبل ذهابهما إلى المدرسة.

لكنّ التلفونات لا تعمل في هذه المدينة اللعينة.

وحين تفكّك المشروع برمّته على إيقاع صوت رضوان وتهديداته، أحسّ أنّه لا يريد سوى العودة إلى مونبلييه كي يحتضن المرأة البيضاء، ويتنشّق رائحة أوّل الحبّ.

أُصيبت برناديت بالدهشة ليلة الزواج، وهي تستمع من زوجها إلى ذلك الطلب الغريب.

وقّعا عقد الزواج في مبنى البلديّة بحضور شلّة من الأصدقاء الفرنسيّين، ثم ذهب الجميع إلى بالافاس دي فلو، حيث مُدّت مائدة السمك الملكي، سمك البار أو اللقّز مشويًّا داخل جبل من الملح، وفُتحت قناني الشمبانيا وتلألأ النبيذ الأبيض على إيقاع الموج

شرب كريم كثيرًا في تلك الليلة، مثلما يفعل جميع العرسان. رقص وأكل وقال إنّه يريد أن يلتحم بالبحر الأبيض، الذي بدا رماديًّا من شرفة المطعم. أمسك بيد برناديت وقادها إلى الشاطئ.

ركضا وضحكا وتمرّغا في رمل بالافاس المرصوص، شدّها من يدها وقال إنّه يريد أن يسبح.

قالت له إنّه مجنون، وإنّها تحبّ جنونه، لأنّه يضحكها ارتفعت قهقهات برناديت وهي ترى كريم يتقدّم من الماء البارد، يخلع حذاءه ويدخل اليمَّ بثيابه. رأته يرتجف بردًا، طلبت منه أن يعود، لكنّه واصل تقدّمه، ثم رأت تلك الموجة العالية التي كانت تتدحرج حاملة معها رذاذًا باردًا وصل إلى الشاطئ، صرخت من الخوف وجلست على الرمل. لكنّه بدلاً من أن يختفي في الموجة بدأ يركض ليسبق الموجة إلى الشاطئ، وقد تبلّلت ثيابه.

«رأيتِ لقد سبقت الموجة»

أمرته أن يعود إلى المطعم، حيث لفّته بمعطفها الطويل، وقالت إنّ عليهما الذهاب إلى البيت، قبل أن يُصاب بالزكام. لكنّ كريم رفض العودة، فتح قنّينة شمبانيا جديدة، ورفع كأسه نخب وطنه الفرنسي الجديد، الذي ذاق اليوم طعم بحره، وتعمّد بجسد أحلى نسائه.

«أنت مجنون»، قالت له وهما في طريق العودة.

قال كريم إنّه لا يريد العودة إلى البيت، لأنّه حجز غرفة في الفندق.

«لماذا الفندق»؟ سألته.

«من أجل شهر العسل»، قال.

«لكنّنا نعيش في منزل واحد منذ عام كامل، ولا لزوم لهذه الحركات»، قالت.

«لكنّ الزواج لا يكتمل من دون الفندق»، قال.

كانت برناديت مرهقة، لكنّ كريم أصرّ أنّه لا يجوز، الزواج يعني ممارسة الجنس.

وحين قالت إنّها لا تستطيع لأنّها في الدورة الشهريّة، التمعت عيناه وقال هذا أفضل، هكذا أشعر أنّني فتحتك.

«ما هذا الكلام السوقي، شو يعني فتحتني؟ أبشع شي هو الفتح، نشكر الله يلّي مش أنت يلّي عملتها، لأنّي كنت كرهتك كلّ حياتي»

ضحك كريم ولم يجاوب، قال إنّه بردان ويحتاج إلى جسدها كي يتدفّأ، وتابع قيادة سيّارة الرينو الصغيرة إلى فندق رويال أوتيل.

في الصباح قال معتذرًا إنّها كانت مجرّد caprice، قال الكلمة الفرنسيّة وهو يفكّر بكلمة نزوة العربيّة، نزوة من نزا وتعني وثب، لكنّها ليست الوثب بل استعارة للرغبة الجامحة.

أمّا كلمة caprice فلا تحمل هذا المعنى، لأنّها مجرّد تعبير بارد عن رغبة غير متوقّعة. قال الكلمة الفرنسيّة وهو يسعل، لأنّه لم يجد كلمة أخرى. ثم وثب على زوجته الفرنسيّة، ونام معها، وهو يرتجّ بالسعال

لكن ماذا جرى لبرناديت؟

بعد ستّ سنوات من الزواج، وإنجاب ابنتين، صارت الممرّضة الفرنسيّة ملولة منه ومن رغبته، إلى أن بدأ يشعر أنّ رغبته تخلّت عنه، وأنّ البياض الساحر في جسد المرأة الفرنسيّة بدأ يتشقّق ويصير مائلاً إلى الصفرة.

أنقذه السعال من خيبته في السرير الزوجي، لا يدري ماذا جرى، يقترب من برناديت، يضمّها بين ذراعيه، يشعر أنّ رغبته بدأت تتروّس، وفجأة قبل أن يأخذها يتلاشى، ويضربه السعال. فتنهض المرأة لتعدّ له فنجان مليسيا، وينتشر الأسى على وجهها قبل أن تعود إلى نومها ووحدتها

لم تقل له إنّ سعاله اليوم صار مختلفًا في الفندق نام معها من دون أن يستحمّ وينزع عن جسمه آثار الرمل وطعم الملح. كان وكأنّه يتابع التهام السمك، يزحط بها ومعها ويتأرجح فوق حبال اللهب التي كانت تشعّ من عينيه، ولا يتوقّف عن السعال.

«سوف تمرض»، قالت.

لكنّ الرجل لم يكن يبالي بالمرض، كان كمن يسبح، تأخذه النشوة إلى الأعلى، يهبط إلى الأعماق ثم يرتفع من جديد.

قالت له برناديت في الصباح إنّها تحبّه، على الرّغم من أنّها لا تريد لهذا أن يتكرّر

«النوم خلال الدورة الشهريّة ليس صحّيًا كما تعلم»

«لا أعرف شيئًا»، قال، وهو ينتزع فنجان القهوة بالحليب من يدها وينام معها من جديد.

«لكنّك طبيب، وتعرف».

«الطبّ في المستشفى، أمّا معك فأنا مريض دائم»

المرض الدائم صار حقيقة، حتى مع نادين ولارا هل يمكن أن يفقد الإنسان القدرة على التكلّم مع أولاده، ويصيبه نوع من الخرس الذي يغطّيه السعال. كان كريم مسحورًا بالابنتين، نادين في الخامسة ولارا في الثالثة. يقول لزوجته إنّه صار رجل ثلاث نساء، وإنّه لا يزال يحتاج إلى امرأة رابعة، كي يشعر أنّه اكتمل بالحبّ.

«أنت تمزح»، قالت برناديت، «أنا أعرف أنّك تريد صبيًّا»

قال لا، ولم يكن كاذبًا شعر أنّ عليه أن يؤسّس سلالة من النساء، كي يتحرّر كلّيًّا من أعباء الماضي الثقيل الذي حمله معه من لبنان. فكرة الابن الذي يشبه جدّه كانت تثير فيه الذعر

«لا أريد صبيًّا، أريد أن أملأ الأرض بالفتيات الجميلات»

قالت إنّه يجب أن يتصالح مع شقيقه التوأم، تمهيدًا للمصالحة مع أبيه.

قال إنّه جاء إلى هنا كي ينسى أنّه جزء من توأم وهمي افترس حياته، وجعله لا يعرف كيف يعيش، وأنّه لا يريد من والده سوى أن يمّحي من ذاكرته.

برناديت لم تصدّقه، رغم أنّها كانت تستمتع بالعلاقة التي نجح في إقامتها مع ابنتيه، بحيث كان يتعامل معهما كصديقتين، ويصرف كلّ أوقات فراغه في اللعب معهما.

لكنّ الأمور انقلبت فجأة.

لم يبدأ الانقلاب بقرار السفر إلى بيروت، كما اعتقدت الزوجة، أو أرادت أن تعتقد. الانقلاب بدأ حين سمع كريم اسم هند من أخيه على التلفون، معلنًا أنّها صارت زوجته

يبدو أنّ نسيم أخفى زواجه عن شقيقه أربعة أعوام، وحين مر اسم الزوجة الجديدة على لسانه، بدا نسيم متعجّبًا لأنّ شقيقه لا يعرف.

«أنا تلفنت وخبّرتك، بس يبدو أنّك ما صدّقت أو ما كان بدّك تصدّق»

«مستحيل»، قال كريم، واجتاحه السعال

يومها بدأ السعال والتنحنح، وصارت الكلمات ثقيلة في فم الطبيب اللبناني، واجتاحته نوبات السعال المتقطّع، التي كانت تتحوّل سعالاً مزمنًا في الفراش الزوجي

البنتان أحسّتا بالتغيّر وبدأتا في الابتعاد لا أحد يلتقط ذبذات الحبّ كالأطفال. عندما كان ممتلئًا بهما، كانتا لا تنامان إلّا على قبلاته. وحين يضطرّ إلى التأخّر في المستشفى كانت الفتاتان تنتظرانه في الصالون. يعود إلى البيت ليجدهما نائمتين على الكنباية في الصالون، يخلع حذاءه ويركض حافيًا إليهما، يحملهما إلى سريريهما وهو يقبّلهما فتخرج من بين شفتيهما ابتسامة رضى، كانت تكفي لتجعله يشعر بالانتشاء.

مع هذه القبل تعلّم معنى كلمة انتشاء، وفهم أنّ العرب أخطأوا في نسبة الطرب إلى صوت أمّ كلثوم الذي يجعل من يغرق فيه وكأنّه يترنح من السكر

قال لها إنّ والده لم يسكر بابتسامة ولديه مرّة، كان أنانيًا لا تهمّه سوى ملذّاته الصغيرة، تعلّمت الطرب هنا في فرنسا، تكفي ابتسامة من

إحدى الفتاتين كي أرتفع إلى السماء، وأترنح بسكرة الحبّ.

لكن من أين أتى هذا السعال اللعين الذي صار مثل حبل يخنق زلعومه ويخرسه، ويجعله يبتعد عن العالم الصغير الذي بناه لنفسه في فرنسا، كي يتقوقع في داخله، ويحتمي من ذاكرته؟

نادين ولارا شعرتا بالرجل يبتعد فبدأتا في الابتعاد. التقطتا بحدس الطفولة ما عجزت برناديت عن فهمه إلّا حين سمعت كريم يقرّر الذهاب إلى بيروت من أجل بناء مستشفى.

«هذا جنون»، قالت، «ماذا يجري لك، هل تعرف أنّك تدمّر حياتك وحياتنا بهذا القرار؟»

لم يكذب على برناديت طوال علاقتهما الزوجيّة، مثلما قالت عندما سمعت قراره بالسفر إلى لبنان.

قال لها إنّها أخطأت في فهمه اليوم، مثلما أخطأت في الماضي في فهم دوافعه كي يقطع كلّ صلة له ببلاده.

برناديت لم تصدّق ماذا جرى للرجل بعد الزواج. فجأة صار فرنسيًّا، وبدأ يسعى للانتقال إلى العمل في باريس.

قال لها إنّ الإنسان لا يتفرنس إلّا في المنطقة الباريسيّة. هناك يتكلّمون اللغة الفرنسيّة الحقيقيّة، ويلدغون حرف الراء، ويشرقون كلمة Oui كأنّهم يشربونها

قالت برناديت إنّها تكره باريس وتكره الإقامة في المدن الكبرى، لذا غادرت ليون واختارت الإقامة في مونبلييه لأنّها مدينة صغيرة وتطلّ على البحر المتوسّط. قالت إنّها فكّرت بمارسيليا في البداية، وإنّ كورنيش المدينة سحرها، لكنّها شعرت أنّها ليست مدينة فرنسيّة بما فيه الكفاية، وأنّ الحياة هناك تشبه الإقامة في إحدى مدن شمال أفريقيا الساحليّة.

لكنّ مارسيليا هي بيروت. قال إنّه لا يحبّ مارسيليا لأنّ كورنيش البحر يشبه كورنيش بيروت، وأنّه عندما زارها شمّ رائحة الحرب الأهليّة.

قالت إنّها أحبّته لأنّه لبناني، ولأنّ فيه شيئًا من عطر الشرق.

لم تفهم المرأة ما معنى أن يستيقظ الموتى في الأحياء، ولم يكن كريم قادرًا أن يشرح لها

مشكلة كريم مع الموتى بدأت في بيروت. ذهب إلى فرنسا هربًا منهم، لكنّهم استيقظوا فجأة، كأنّهم كانوا نائمين في داخل روحه.

هل ينام الموتى في أرواحنا؟ ومتى نشعر بيقظتهم؟

هل أيقظهم نصري حين مات والبياض يحاصره، أم أنّ كريم ارتكب خطأ تسمية نفسه سينالكول عندما التقى برناديت في البار برناديت ضحكت وهي تشرح للطبيب اللبناني معنى الكلمة الإسباني. وكريم ضحك وهو يعتقد أنّ الاسم كان الصنّارة التي اصطاد بها الممرّضة الفرنسيّة الشقراء، التي جعلته يشعر أنّه وصل أخيرًا إلى فرنسا

لكنّ برناديت لم تتوقّف عن لعبة إطلاق اسم سينالكول على زوجها حين كان ينام معها كأنّ الاسم صار بالنسبة إليهما محفّزًا للرغبة الجنسيّة.

وعندما صرخ بها كريم، وسط سعاله، أن تتوقّف عن استخدام هذا الاسم، فهمت برناديت أنّ الطلسم تفكّك

لكن هل مات سينالكول؟

هل كان اختفاؤه، بعد دخول الجيش السوري إلى طرابلس، إعلانًا بموته؟ هل الاختفاء يعني الموت؟

يعرف كريم أنّ أكثر من سبعة عشر ألف لبناني اختفوا خلال الحرب، نتيجة الخطف الذي كانت تمارسه الميليشيات على الحواجز الطائفيّة

الطيّارة. ويعرف أيضًا أنّ التعرّض للخطف في لبنان يساوي الموت في أغلب الاحيان.

لكنّ اختفاء سينالكول لا يعني بالضرورة أنّه مات. قد يكون هاجر إلى أميركا أو البرازيل، واختفى هناك كغيره من مجرمي الحرب اللبنانيّين الذين صاروا اليوم رجال أعمال في شتّى أنحاء العالم.

لم يكن كريم يعرف اسمه الحقيقي، لكنّ سينالكول صار شبح الحرب الأهليّة اللبنانيّة في عاصمة الشمال عامي ١٩٧٥ و١٩٧٦ لم يره أحد، ولا يعرف أحد ماذا حلّ به بعد احتلال الجيش السوري للمدينة. قيل إنّه كان يغطّي وجهه بالكوفيّة الحمراء، ويمشي في عتمة الليل، ينتقي في كلّ مرّة مجموعة صغيرة من المحالّ التجاريّة، يكتب على أبوابها الحديديّة كلمة سينالكول، وفي الليلة التالية يمرّ من أمام المحالّ نفسها، يجمع الخوّات التي يتركها أصحاب الدكاكين داخل علب كرتونيّة صغيرة وضعها سينالكول في الليلة السابقة حين كتب اسمه بالطبشور الأحمر أمّا من لا يدفع فسيجد باب دكّانه مدمّرًا بالديناميت.

لم يسرق سينالكول مرّة واحدة، ينسف الباب الحديدي ويمضي، فيأتي صاحب الدكّان ليجد أنّ بضاعته لم تُمس، فيفهم أنّ عليه أن يدفع فورًا، وهكذا

صار سينالكول حديث المدينة، وأُلّفت من حوله القصص، خالد أراد قتله، ولكنّه فشل، وتلك حكاية أخرى

عندما طلبت منه برناديت أن يصف لها سينالكول، احتار ماذا يقول، فهو لم يجد كلمة فرنسيّة يستطيع أن يترجم بها كلمة شبّيح. الكلمة استنبطتها لغة العامّة في لبنان كي تنسب أفعالاً معيّنة كالنهب والابتزاز والقتل على الهويّة إلى أشباح الحرب الأهليّة. فقال شيئًا لم تفهمه برناديت.

. c’etait un fantomiseur

أراد أن يصنع صفة من كلمة fantome فلم يعثر إلّا على عبارة زادت الغموض غموضًا لا يعرف كيف يصف الرجل لأنّه لم يره. لكنّه بناء على إلحاحها بدأ يصفه ليكتشف أنه كان يصف شقيقه.

«غير معقول، هل يشبهك سينالكول إلى هذا الحدّ»؟، سألت.

الحقّ على داني، فهذا الرجل الطويل الأشقر الذي درس الفلسفة في باريس، وعاد إلى لبنان كي يصنع الثورة التي ذاق طعمها في شوارع الحيّ اللاتيني، كان نافذته على عالم الحرب الأهليّة.

لم يكن كريم معنيًّا بالحرب. كان عكس شقيقه. كيف تكون معنيًّا بحرب بين الطوائف الدينيّة وأنت لا تشعر بأيّ انتماء إلى أيّ طائفة أو إلى أيّ دين؟

قال لنصري إنّه يكره هذه البلاد التي تنتحر كلّ مئة عام، وإنّه لا يشعر بأيّ انتماء. هزّ الأب رأسه موافقًا، لكنّه قال إنّ الحرب لن تندلع من جديد، «شويّة زعبرة متل سنة ١٩٥٨، وبعدين بيجوا الأميركان وبيحلّوها»

وبعدما جاء الأميركان ورحلوا، ولم يحلّوها، قال نصري حكمته الشهيرة: «جاءت هذه الحرب من أجل بهدلة الحروب، بعد حرب لبنان لن تكون حروب محترمة في العالم»

وجد كريم نفسه وقد صار جزءًا من الحرب من دون أن يقرّر ذلك، رغم أنّه لم يحارب فعليًّا كريم ادّعى أنّه شارك في القتال، لكنّه لم يقاتل. اقتصرت حربه على دورتين تدريبيّتين، الأولى في مخيّم نهر البارد قرب طرابلس، حيث وجد نفسه، من دون أن يدري، يشارك في الاشتباكات التي اندلعت بين الجيش اللبناني والفدائيّين. والثانية في قرية بيصور حيث التقى جمال وفي الحالين كان داني هو السبب.

كان على داني أن يموت، مثلما يفعل الأبطال. لكنّه بقي حيًّا، وعاد إلى مهنة تدريس الفلسفة في مدرسة «الليسيه» الفرنسيّة في بيروت، واختفى عن الشاشة بعد طلاقه من زوجته.

لماذا انقلبت حياة كريم رأسًا على عقب بعد لقائه داني في الجامعة الأميركيّة في بيروت؟

في بيروت تلفن كريم لداني، وذهبا سويًّا إلى مطعم «السبورتينغ كلوب»، حيث شربا العرق وتغدّيا سمكًا مقليًّا يومها بدا داني مكتهلاً، يمشي وهو يعرج نتيجة إصابته بـ «ديسك» في عموده الفقري، اضطرّه إلى إجراء جراحتين غير ناجحتين، وصار يمشي منحنيًا على جنبه الأيمن.

يستطيع كريم أن يلخّص الحرب الأهليّة اللبنانيّة باسمين: سينالكول وخالد النابلسي. لا يدري كيف قادته الأقدار إلى طرابلس، السبب هو داني، أستاذ الفلسفة الطويل الذي كان مسؤول إحدى الخلايا الطلّابيّة في حركة «فتح».

يستحقّ داني رواية خاصّة به، لأنّه علق في ذاكرة كريم في وصفه شخصيّة خياليّة. قال لبرناديت إنّ الأشخاص الذين يصيرون جزءًا منّا، يفقدون حقيقتهم، ويصيرون مثل أبطال الروايات، الذين لا نذكر منهم سوى الالتماعة التي تصير وعاء حال إنسانيّة لا تجد معناها إلّا في أسمائهم.

هل عاد كريم إلى لبنان من أجل أن يضع وردة حمراء على قبر خالد، أو بحثًا عن سينالكول مثلما ادّعى؟ أم أنّه لفّق الحكاية كي يبرّر عودته التي لا سبب لها سوى ذلك الحنين الغامض إلى ماضٍ كان كريم يعلم في قرارة نفسه أنّه مضى ولن يعود.

اتّصل كريم بداني، لأنّه كان آخر صديق بقي له في بيروت. أراد أن يسأله عن خالد وعن رضوان وبقيّة الأصدقاء.

لا يدري كريم لماذا صنع لنفسه قصّة حيث لم تكن قصّة. علاقته بالحرب لا تستدعي كلّ هذا الشعور العارم بالانتماء، لكنّه بعدما وجد نفسه وحيدًا في فرنسا، صنع لنفسه مرآة الحرب كي يغطّي بها مرآة حكايته العائليّة، التي لم تكن تثير فيه سوى الشعور بالوحدة والبهدلة.

ابتسم كريم وهو يرى الهلع مرتسمًا على وجه برناديت حين روى لها عن مرآة الحرب.

قالت إنّها لم تعد تفهم لماذا وضع بينه وبين أبيه وشقيقه هذا الحائط السميك. قالت إنّها اعتقدت في البداية أنّها «تروما» الحرب، ولم تسأله عن التفاصيل لأنّها احترمت حزنه وسكوته.

لم يرو لها إلّا عن أمّه، وعن عينيها المفتوحتين على الموت، وشذرات قليلة عن علاقته الملتبسة بشقيقه التوأم، وحكايته مع المومس اليونانيّة التي جعلته يفهم معنى الجنس. قال لها إنّ عليها أن تقرأه بوصفه صفحة بيضاء عليها بعض الخربشات التي لا تحمل الكثير من المعاني، وأنّه يبدأ حياته من جديد كأن لا حياة قبل لقائه بها

لكنّه يأتي اليوم مغالبًا سعاله، كي يقول لها إنّه ذاهب إلى بيروت ليس من أجل بناء المستشفى فقط، بل لأنّه يريد أن يرى ماذا حلّ بمرآة الحرب اللبنانيّة التي غطّى بها مرآة حياته.

لم يستطع أن يشرح لزوجته ماذا تعني هذه العبارة، التي بدت مجرّد استعارة جوفاء، تشبه الاستعارات التي يردّدها أبطال أفلام الحرب العالميّة الثانية، الذين كانوا يحتلّون الشاشات في فرنسا

كريم مقتنع أنّ استعارته جوفاء كحياته. فهو ليس متأكّدًا من شيء. تتراءى له ذاكرته مثل بقع سوداء، يخرج منها شبح رجل يشبهه، تختلط فيه الحقيقة بأشباهها، فيبدو كمن يتعثّر بظلّه.

لكنّه، بعد شهرين من إقامته في بيروت، قرّر أن يفتح دفاتره العتيقة، وأن يستعيد ظلال ذلك الماضي. وكانت منى وزوجها أحمد الدكيز هما من قاده إلى دفاتره الطرابلسيّة، حيث برزت، من وسط قلعة صنجيل الصليبيّة، أشباح الماضي كلّها، وظهر داني من جديد.

كان داني لا يتقن اللغة العربيّة بشكل جيّد، لكنّه كان يصرّ على التكلّم بها، مستخدمًا التعابير الفصيحة، كي يؤكّد عمق ارتباطه بوطنه. ولد في أبيدجان في عائلة هاجرت من قرية بيت شباب في جبل لبنان، حيث عمل والده في تجارة الأقمشة، ومات فقيرًا ومريضًا بعد إصابته بالحمّى. لم يتكلّم عن والده ووالدته سوى مرّة واحدة، حين روى أنّه عاد مع شقيقتيه من باريس حيث كانوا يدرسون من أجل تشييع والدهم، ليكتشفوا أنّ أمّهم قرّرت العودة إلى لبنان، طالبة من داني قطع دراسته من أجل أن يبيع ممتلكات والده، قطع داني دراسة الفلسفة ليكتشف أنّ والده كان مفلسًا، وأنّ عليه الهرب من الدائنين قبل أن يجد نفسه في السجن.

«الرأسماليّة اللبنانيّة ظاهرة منحطّة، والدليل هو والدي إذا لم تشتغل في التهريب والزعبرة في أفريقيا، تموت فقيرًا جميع أغنياء أفريقيا ليسوا سوى حفنة من اللصوص. إنّهم مثل طبقة الكومبرادور في لبنان»

كانت هذه هي المرّة الأولى التي يسمع فيها كريم كلمة كومبرادور. خجل من أن يسأل كي لا يبدو غبيًّا وفي النهاية سوف يعتاد على استخدام الكلمة من دون أن يفهم معناها، ثم فهم أو خُيّل إليه كذلك. لكنّ هذا لم يعد مهمًّا، بعدما ابتلع في فرنسا عشرات الكلمات التي خُيّل إليه أنّه فهم معانيها لأنّه كان يستخدمها في حياته اليوميّة.

لم يتكلّم داني عن أمّه أبدًا، فرسم كريم في رأسه سيناريو أنّ المرأة عادت إلى قرية بيت شباب كي تعيش في منزلها وعندما سأل داني مرّة عن الوضع السياسي في القرية، نظر إليه الرجل الطويل باستغراب، وقال: إنّه

لم يزر القرية إلّا مرّة واحدة، وإنّه لا يحبّ الريف.

اختفى داني أسبوعًا كاملاً من دون أن يعرف أحد أين هو وحين ظهر من جديد، بدا في عينيه شيء من الانكسار، فسّرته زوجته سحَر لكريم، بأنّه نتيجة إصابة داني بالاكتئاب بسبب موت أمّه وحيدة في دار العجزة، حيث كانت تعاني من الخرف.

بدا داني لكريم أشبه ببطل رواية «الغريب»، لألبير كامو، منه بالقائد الثوري الذي كان يحاول أن يكونه

لكنّه كان رجلاً يملك كاريزما هائلة. هل كانت الكاريزما بسبب طوله وشعره الأشقر، وعينيه الحمراوين نتيجة السهر المتواصل؟ أم بسبب الشال الأبيض الطويل الذي كان يلفّ به عنقه صيفًا شتاءً؟ أم بسبب معرفته الدقيقة لنصوص ماركس ولينين؟ أم لأنّه كان المثقّف اللبناني الأوّل الذي التحق بالفدائيّين، وقاتل في الجنوب اللبناني؟ أم بسبب سحَر زوجته الجميلة، التي كانت تعمل مهندسة معماريّة في شركة «علمي» في بيروت، تصرف على المنزل وعلى ابنتها الوحيدة، ولا تطلب من داني سوى أن لا يتوقّف عن حبّها؟

عندما حضر كريم الاجتماع السياسي الأوّل في منزل داني في «تلّة الخيّاط»، سقط تحت سحر الرجل. لم يجد ما يقوله أمام دعوة داني لتأسيس تنظيم ماركسي داخل منظّمة «فتح»، سوى أن يوافق. لكنّه كان متردّدًا أمام فكرة المشاركة في العمل العسكري.

قال إنّه لم يقتل عصفورًا، فكيف يقتل بشرًا؟

قال إنّه موافق على أنّ العنف هو طريق الثورة، لكنّه طبيب، والثورة في حاجة إلى علمه وليس إلى دمه.

«أنت عم تحكي حتى ما تحكي»، قال داني

وأقنع كريم بالالتحاق بدورة عسكريّة مدّتها أسبوع في مخيّم نهر البارد، قرب طرابلس، وهناك بدأت حياة كريم تأخذ شكل الظلال التي لا يمكن القبض عليها

هذا الكلام ليس دقيقًا، لأنّ فكرة الظلال هذه لم تخطر في بال كريم إلّا بعد عودته إلى بيروت. حيث اختلطت عتمة المدينة بعتمة روحه في ليلة الانتظار الأخيرة. هنا اكتشف كريم أنّ ما تبقّى منه وله ليس سوى مجموعة من الصور الغامضة عن حياة ترتسم كظلال سوداء على حيطان المدينة المهدّمة.

عندما سألته هند لماذا عاد إلى بيروت، قال إنّه لا يدري.

«إنت مصدّق قصّة المستشفى؟»

أجابها أنّ المهندس انتهى من العمل على الخرائط، وأنّ الأمور ماشية بسرعة.

«بس خيّك تغيّر كتير، كأنّك مش عارف شي، أو كأنّك عارف وما بدّك تعرف»

قال إنّه عاد لأنّه لم يعد يعرف ماذا عليه أن يفعل بحياته، وإن الأشياء بدت من هناك وكأنّها قد فقدت كلّ طعم وكلّ معنى

«يعني جايي تفتّش على المعنى بمدينة كلّ شي فيها صار بلا معنى!»

قالت له إنّ معنى الأشياء هو في داخلنا، وإنّها تشعر أنّ داخلها يتفكّك، «ما كان لازم تجي، شو بدّك فينا وبقصصنا المشربكة، ارجع على بيتك وعند مرتك وبناتك، هون ما في شي، حتى الذكريات ما عادت موجودة، الناس عم بتدعوس على ذكرياتها»

هل اتّصل بداني كي يدعس على ذكرياته؟

عندما تلفن له أتى صوت داني متردّدًا، كأنّه لم يعرفه، ثم استعاد الصوت سويّته، مقترحًا الغداء في مطعم مسبح «السبورتينغ كلوب»

شربا العرق، لكنّ الكلام لم يكن قادرًا على أن يتشكّل، فتناثر نتفًا على المائدة. تحدّث داني طويلاً عن أمراضه، وعن جراحتين صعبتين أجراهما في عموده الفقري، وعندما سأله كريم عن سحَر، ضربه الوجوم، وقال إنّه لا يعرف عنها شيئًا، سوى أنّها تعيش في بروكسل.

«وابنتك سُهى؟»

«سُهى تزوّجت»، قال، وتعيش في مونتريال.

«مين هو العريس؟»

رفع يده إلى الأعلى كي يقول إنّه لا يعرف أو لا يبالي.

«تزوّجت واحد لبناني»؟ سأل كريم.

«لا»، أجاب داني من دون أن يُضيف كلمة.

صمت وبحر وموج ذابت الكلمات وتلاشت. كان داني كلوح من النحاس. السباحة اليوميّة التي فرضها عليه الطبيب رسمت علاماتها بالشمس على وجهه ولون بشرته. لم يبق منه سوى بقايا شعره الأشقر الذي تساقط راسمًا ما يشبه صلعة مغطّاة بنتف من الشعر، وأسنانه الأماميّة المدبوغة بأسود التبغ الفرنسي. رجل قرّر أن يدفن ذكرياته، ويعيش بلا ذاكرة.

سأله عن الشباب، فقال إنّه لا يرى أحدًا

سأله عن رضوان.

سأل وسأل، لكنّ صمت داني ارتفع كحجاب سميك، لا يبدّده سوى مضغ الطعام وشرب العرق

عندما سأله عن سينالكول انفجر داني ضاحكًا، «ما هو أنت سينالكول؟ شو نسيت شو كانوا يندهولك الشباب، الرفيق الدكتور سينالكول، ولمّا تدير ضهرك، يقولوا ليك هالمثقّفين، ما بيجوا إلّا ليتسلْنَكوا علينا».

«هيدي من اختراعاتك»، قال كريم، «أنت يلّي صرت تندهلي سينالكول قدّام الشباب، حتى لزّق الاسم فيّي، وكلّه لأنّي رفضت قراركم بقتل الزلمة»

«هلّق رجعت سينالكول متل أيّام زمان»، قال داني.

كان كريم يكره هذا الاسم الذي ألصقوه به، ماحين بذلك الاسم الحركي الذي اختاره لنفسه، «أنا سالم» كان يقول، «رجاء يا إخوان ما حدا يسمّيني سينالكول»

التصق اسم سينالكول بكريم من دون إرادته، عمل كلّ ما في وسعه كي يمحوه، لكنّ الأسماء تصير كلون العينين، تصعب إزالتها وما أزعجه كثيرًا، في الأعوام الأولى من إقامته في مونبلييه، هو ذلك المنام الذي كان لا يتوقّف عن التكرار، يرى نفسه ماشيًا في شارع طويل مقفر، القناع يغطّي وجهه، يقف أمام باب محلّ تجاري، يكتب عليه بالطبشورة اسم سينالكول، ويركض هاربًا، كأنّهم يلاحقونه.

وحين سألته برناديت عن اسمه أجاب في لحظة سكره أنّ اسمه سينالكول!

«بعدك بتتذكّر يا كريم شو كنت دايمًا قول، وما كان حدًا يصدّقني، هلّق صار فيكم كلّكم تشوفوا بعيونكم كيف كان معي حقّ»

«إنت دايمًا معك حقّ، يا داني»

«أنا إسمي فارس مش داني، داني كان إسمي الحركي على أيّام

الفدائيّين، هلّق خلص، داني مات وفارس قاعد قدّامك. والله ما بعرف شو بدّي سمّي حالي، لمّن بسمع التلاميذ عم بينادوني أستاذ فارس، بجي لأفقع من الضحك، تخيّل شو هالعلقة، الواحد ما بقى يعرف شو اسمه! متل ما كنت قول: المنايك بتركب فلايك والأبطال راجعين سباحة».

«صحيح متل ما عم بيقولوا عن مارون إنّه كان معه بنت شقرا وطويلة، وإنّها اختفت»؟ سأل كريم.

«مش مهمّ»، أجاب داني. «إجا مارون لعندي قبل ما يبلّش تصوير الفيلم وخبّرني السيناريو، قلت له هيدا حكي بلا طعمة، ما فينا نعمل فيلم عن الغفران، لأنّ الحرب ما خلصت، بالأوّل لازم تخلص الحرب، وبعدين منكتب عنها، بس مش هيدي المشكلة، المشكلة أنّ كلّ شي كان غلط، المسكين، جسّد الكذبة اللبنانيّة بإسمه، قبل ما يدفع حقّها بموته. إسمه كان غلط، إسمه مارون وهو مش ماروني، ومن عيلة بغدادي وهو مش عراقي. هيدي هي فلسفة الحرب اللبنانيّة، أسماء مستعارة بس بكلّ أسف الموت فيها حقيقي»

قال كريم إنّ موت مارون كان إشارة رمزيّة إلى اندثار جيل الثوريّين في لبنان. «أنا التقيت فيه بفرنسا، وحكي عن الفيلم، وشفت الموت بعيونه»، قال كريم.

«ما تقول هيك»، قال داني، «إنت بتعرف يلّي بيشوف الموت هو القتيل، لأنّ الموت بينرسم بعيون القاتل، وإنت بتعرف عن مين عم بحكي»

ما هذا الغداء الغرائبي، أراد كريم من لقائه بداني أن يصل ما انقطع، فإذا بهذا الرجل الذي يمشي منحنيًا على آلام ظهره المبرّحة، يقطع بدل أن يصل، ويرسم الحاضر بألوان الغياب.

«الحرب كانت ستندلع بنا ومن دوننا، واستمرّت من دوننا. لذلك لا

أتأسّف على شيء، بلى أسفي على شيء واحد، وهو أنّني بدلاً من أن أنصرف لكتابة الفلسفة صرت مقاتلاً، وحين تكتب بالرصاص، يصير من الصعب عليك أن تكتب بالقلم، أنا الآن أعمل على دراسة أثبت فيها أنّ جميع الأدباء الذين كتبوا عن الحرب لم يحاربوا في شكل جدّي، بل كانوا أشبه بالمغامرين الذين بقوا على هامش الأشياء. لا همنغواي قاتل في الحرب الإسبانيّة ولا مالرو. مالرو قاتل في المقاومة الفرنسيّة ضدّ الاحتلال النازي، هذا صحيح، لكنّه توقّف بعد ذلك عن الكتابة كي يصبح وزيرًا دراستي سوف تفكّك وهم الكُتّاب المقاتلين أو المناضلين. هذا تفنيص، لا لوركا كان بطلاً ولا نيرودا كان مقاومًا، أمّا ناظم حكمت الذي أهلك القرّاء بقصائده عن زوجته منوّر حين كان سجينًا، فإنّه سرعان ما تخلّى عنها وتزوّج ممرّضة روسيّة بعد إطلاق سراحه»

«ولكن»! قال كريم.

«ما فيش لكن، صحيح ولّا لا»، أجاب داني.

عاد إلى عبارته الشهيرة التي كان ينهي بها أيّ نقاش في اجتماع الخليّة. يسأل «صحيح ولّا لا»، فلا يعود أمام الحاضرين من خيار سوى أن يقولوا صحيح، لأنّ صيغة «ولّا لا» تعني أنّ كلمة «لا» مستحيلة.

«ولكنّ سانت أكزوبري»، قال كريم.

«معك حقّ، بس سانت أكزوبري كتب عن الأمير الصغير ولم يكتب عن الحرب، ثم أنا لا أتحدّث عن هذا النوع من الكتّاب، أنا أتحدّث عن الكتّاب الثوريّين»

«صحيح»، قال كريم.

«المشكلة»، قال داني، «هي أنّ الأبطال لا ينهارون أمام الموت، بل ينهارون أمام الكتابة، هذا هو الوهم الأكبر، يريدون أن يصيروا كتّابًا، أو

أن يجدوا من يكتب عنهم، وهذا ما سوف أُطلق عليه في دراستي اسم لوثة الخلود، يعتقدون أنّ الكتابة هي طريق البقاء على قيد الحياة بعد الموت، وهذا هراء»

«صحيح»، قال كريم، «ولكنّك بطل، لا أفهم لماذا تريد أن تتحوّل كاتبًا؟»

شرح داني لكريم أنّ مشكلة الأبطال اسمها التقاعد، الانسحاب من النضال يساوي الموت، «لذا يمكن أن تعتبرني ميّتًا يا صديقي»

كان كريم يريد أن يسأل صديقه عن سرّ اختفائه بُعَيد مقتل خالد، لكنّه لم يسأل ما نفع الأسئلة بعد كلّ تلك الأعوام الطويلة التي مرّت؟ داني هو السبب، قال كريم وهو يتّخذ قراره بالهرب من لبنان إلى فرنسا داني كان المرشد الذي أخذ كريم إلى نهر البارد، وعرّفه على خالد ومجموعة شباب حيّ «القبّة»، وأدخله في دوّامة الرعب التي انتهت به إلى قرار السفر إلى فرنسا

تبدو تلك الأيّام وكأنّها بقع سوداء في ذاكرة كريم. فطالب الطبّ في الجامعة الأميركيّة في بيروت، وقع تحت فتنة ظهور ملاك ملاك في مخيّم تلّ الزعتر، بعد اعتقاله على أثر قيامه بقتل عميدين في الجامعة الأميركيّة في بيروت. قيل إنّ داني هو من نظّم عمليّة هرب ملاك من سجن رومية، وإنّه كان في استقباله في حمّانا عندما انسحب مع المقاتلين الهاربين من المخيّم لحظة سقوطه عام ١٩٧٦، حيث جرت واحدة من أكبر مجازر الحرب الأهليّة اللبنانيّة

لم يكن كريم معنيًّا بالسياسة في شكل خاصّ، الإضراب الشهير الذي نفذه طلبة الجامعة الأميركيّة عام ١٩٧٤ لم يعنِ له الشيء الكثير، شارك في الإضراب الذي انفجر بسبب زيادة الأقساط، كما شارك في الاعتصام في «الأسمبلي هول»، حين قام الطلّاب باحتلال مباني الجامعة الأميركيّة، لكنّه

لم يشعر أنّه معنيّ بالمسألة، فبقي على هامش الحركة. لذا لم يكن كريم واحدًا من مئة وثلاثة طلّاب طُردوا من الجامعة بعد نهاية الإضراب.

كان الإضراب إعلانًا بأنّ المقاومة الفلسطينيّة وحلفاءها اليساريّين اللبنانيّين صاروا محور الحياة السياسيّة في لبنان. «الذي يحتلّ الجامعة يحتلّ بيروت»، قال داني لحلقة الطلّاب التي كان يُديرها ولم يدُر في خلد أحد أنّ إدارة الجامعة ستطلب من الشرطة اللبنانيّة اقتحام المباني وإنهاء الإضراب، قبل أن تطرد جميع قادة التحرّك.

انهزم الإضراب كي ينتصر بالدم. ملاك ملاك الطالب في السنة الرابعة في كلّيّة الهندسة، الذي ينتمي إلى عائلة فلسطينيّة مسيحيّة من نواحي حيفا انضمّت إلى سيل اللاجئين عام ١٩٤٨، كان بطل تلك الحكاية.

بعد محاولته إكمال الدراسة في العراق، حيث تعرّض للاعتقال والتعذيب على يد رجال المخابرات العراقيّة، من أجل إجباره على التعامل معهم، نجح ملاك في الهرب والعودة إلى لبنان، كي يصبح قاتل العميدين نجيمي وغصن، ولينقذ بعمله الجنوني مستقبل جميع زملائه.

الجريمة التي ارتكبها ملاك، والدم الذي سال، وانهيار إدارة الجامعة وموافقتها على عودة الطلبة المصروفين إلى الدراسة، شكّلت الفصل الأخير من العنف الرمزي الذي مهّد الطريق أمام تحوّل بيروت ساحة للدم.

لم يخفِ داني فخره بأنّه ساعد ملاك على الهروب من سجن رومية، ونصحه باللجوء إلى مخيّم تلّ الزعتر فالمسألة بالنسبة لداني كانت إعلانًا بأنّ العنف الثوري صار اللغة الوحيدة التي يجب استخدامها من أجل التغيير

«تغيّرت كثيرًا يا داني»، قال كريم.

«ختيرنا»، أجاب داني.

«شو أخبار ملاك»؟ سأل كريم.

«أيّ ملاك»، قال داني.

من الواضح أنّ داني نسي ملاك وحكايته، كلّ الناس نسوا الشابّ الأسمر الطويل، الذي هرب من سجن رومية وقاتل في تلّ الزعتر، قبل أن يختفي. حتى حكاية مقتل عميدي الهندسة والطلبة في الجامعة الأميركيّة في بيروت، اندثرت، وصارت جزءًا من الذي لا يُقال.

وملاك لم يحكِ.

قالت هالة صديقته إنّه تغيّر كثيرًا في العراق. قالت إنّه لم يروِ لها سوى نتف من تجربته المريرة هناك. اكتفى بأن قال إنّ الموت أفضل من السجن. وعندما طلبت منه أن يخبرها ماذا جرى، أهداها رواية عبد الرحمن منيف: «شرق المتوسّط»

«اقرئي هذه الرواية كي تتعرّفي إلى العالم العربي»، قال

«رجل دخل في عتمة الصمت»، قالت هالة. «لم أعد أعرفه، كأنّه صار رجلاً آخر، هل يعيش هذا الآخر في داخلنا، ثم يخرج فجأة من حيث لا ندري، ويقوم بأفعال لم تكن تخطر في بالنا»

المحقّق اللبناني الذي اعتقل هالة، في سياق محاولته معرفة شركاء ملاك في جريمته، أُعجب بقدرة الفتاة على التهرّب من الإجابة على أسئلته.

«أنا مش عم بتهرّب» قالت، «هيدي هي الحقيقة، ليلة الجريمة شربنا كابوتشينو بمقهى «الإكسبرس» بالحمرا، وقال لي إنّه بطّل يحبّني لأنّ الحبّ خلص، وإنّه رايح عند جوني حتى يلعب دقّ ورق شدّي. قال لعب الطرنيب أحسن من تضييع الوقت مع بنت متلي ما بقى قادرة تفهم كلامه، وبرم ضهره وفلّ»

«لا ما جاب سيرة قتل الأساتذة بالجامعة، وكان رايق، يمكن كان عم يحكي معي ويخبّرني من مطرح ما قدرت أوصل عليه، يمكن كان معه حقّ، من بعد تجربة الطرد من الجامعة والسفر على العراق والحبس والتعذيب هونيك، يمكن لاقى الحلّ بلغة أنا ما بعرفها، هي اللغة يلّي جوّات روح الواحد، وما منقدر نقيسها بكلماتنا، لأنّها مصنوعة من دون كلمات»

«شو بتدرسي بالجامعة يا مدموزيل؟»

«فلسفة»، قالت.

«والله ما مرق عندي حالة متل حالتك، بيني وبينك ما فهمت شي من يلّي قلتيه، غير يلّي كلّ الناس بتعرفه عن الاعتقال بالعراق، مش قليل والله، شو خيالهم واسع، كنت عم بسمع خبريّات الحبس بالعراق وما عم بقدر صدّق، يمكن لازم نتعلّم منهم شوي، بس هيدا مش مهمّ هلّق، المهمّ إنّي ما فهمت شي من يلّي قلتيه، يمكن لأنّك عم بتحكي معي بلغة فلسفيّة»

«لا يا حضرة الضابط، هيدي مش لغة الفلسفة، هيدي لغة الجريمة»، قالت

«عم تحكي عن فلسفة الجريمة، مش هيك؟ الله يساعدنا على هالجيل، ما استفدنا منك شي، روحي الله معك».

لم تحكِ هالة عن فلسفة الجريمة. حكت عن الحرب التي جعلتها تشعر بأنّها فقدت توازنها أحبّت زميلها في الجامعة، وهو طالب فلسطيني، لتجد نفسها ملوّثة بالدم. ثارت على بيئتها السنّيّة البيروتيّة المحافظة، وقالت لوالدها الحاجّ يحيي الفاكهاني إنّها ستتزوّج ملاك رغم كلّ شيء. قالت إنّه سيتخرّج بعد سنة وسيسافران إلى قبرص حيث سيعقدان زواجًا مدنيًّا، مثل جميع خلق الله

هدّدها والدها بالقتل

لكنّها لم تكترث. حصل الإضراب وخربت الدنيا، طُرد ملاك مع المطرودين، سافر ليكمل دراسة الهندسة المدنيّة في العراق، لكنّه قطع دراسته وعاد إلى بيروت. غير أنّ الرجل الذي عاد لم يكن ملاك الذي تعرفه. كأنّه ترك ضحكته ونكاته التي لم يكن يتوقّف عن روايتها في بغداد، وعاد لابسًا وجهًا جديدًا

صار مقلًّا في الكلام، متبرّمًا بكلّ شيء بناء على إلحاحها روى لها ما جرى، كيف طلبوا منه العمل مع المخابرات العراقيّة، وكيف اعتقل عدّة مرّات ولفترات قصيرة، وأنواع التعذيب التي تعرّض لها

قال إنّه اكتشف، في سجون العراق، أنّ الإنسان يستطيع أن ينفصل عن جسده، وأنّه أُصيب بالدهشة عندما رأى نفسه يصلّي للسيّدة العذراء ويطلب منها أن تساعده.

«زيّ ما بقلّك، بني آدم كلب، بنسى نفسه وقناعاته قدّام المصايب، وبرجع زيّ ستّه وسيّده غرقان بالخرافات»

قال إنّه غرق في الخرافات، وإنّه لولا إيمانه بأنّ جدّته تصلّي له، كان سينهار ويصير اليوم عميلاً للمخابرات.

«بعدك بتحبّني»؟ سألته هالة.

«إيش بعرّفني شو معنى الحبّ، الله يخلّيكِ بلاش هالأسئلة»

اختفى الرجل وصار الاتّصال به صعبًا، وكان على هالة أن تذهب إلى شقّة جوني بحثًا عنه، حيث تجده منكبًّا على لعب الورق، والسيكارة لا تفارق شفتيه. يراها، فيرمي الورق من يديه، ويخرجا معًا ليجلسا في مقهى «الإكسبرس»، حيث لا يجد ملاك كلامًا يقوله للفتاة التي وعدها يومًا أنّه سيتزوّجها وسيأخذها إلى جنينة عبّاس أفندي في الكرمل بعد تحرير حيفا

انتهى الحبّ، قال ملاك. انتهى لأنّه بعد تجربته العراقيّة لم يعد قادرًا

على الكلام، قال لها إنّه اكتشف أنّ في داخل الإنسان كلامًا لا لغة له، وإنّها لا تستطيع أن تلتقط معاني هذا الكلام لأنّها لم تعش معه التجربة.

قالت إنّها تحبّه، وإنّها تفهم ألمه، لكن «ما بصير هيك يا حبيبي، تعا نتزوّج وبعدين منشوف شو بدنا نعمل».

نظر إليها بعينين فارغتين كأنّ كلامها زحط على أذنيه.

قرّرت هالة أن لا تتّصل به من جديد، وأن تنتظر كي تمرّ الأزمة النفسيّة التي يتخبّط فيها، لكنّها فوجئت بصور ملاك مكبّلاً تحتلّ الصفحات الأولى من الصحف، وبخبر الجريمة المزدوجة التي ارتكبها

ذهبت إلى منزل صديقه جوني، وهو طالب فلسطيني ـ أردني، طُرد أيضًا من الجامعة، كي تعرف ماذا جرى، قرعت طويلاً على باب الشقّة، في الطابق الثالث من بناية فليحان، في شارع عبد العزيز، لكنّ الباب بقي موصدًا، نزلت درج المبنى المعتم، لتجد رجال الشرطة في انتظارها، حيث باتت ليلتها في مخفر حبيش، قبل أن يُطلق المحقّق سراحها لأنّها لا تُفيد التحقيق في شيء

لم تكن هالة مناضلة، مثل بقيّة أعضاء شلّة الجامعة. كانت طالبة فلسفة في الجامعة اللبنانيّة، ولم تكن تشعر أنّها يمكن أن تنتمي إلى المناخ السياسي الذي كان سائدًا في الجامعات في بيروت. لكنّها كانت عاشقة، وعلى استعداد أن تفعل كلّ شيء من أجل هذا الفلسطيني الذي احتلّ قلبها وأوجعه. قالت له إنّ حبّها له يجعلها تشعر بوجع في القلب، وإنّها ستبقى معه وستحتمل طريقته في الحياة، رغم أنّها لا تعتقد أنّ هذا النضال سيقود إلى مكان. لكنّها لم تكن تتوقّع أن تأخذ دروب النضال حبيبها إلى الجنون.

قالت لجوني عندما التقت به، إنّ ملاك مختلف عنهم جميعًا، لأنّه ذهب في اقتناعاته إلى النهاية، بينما هم يقومون بتدبيج بيانات الاستنكار للجريمة، التي كانت جزءًا من صفقة عودتهم إلى الجامعة.

قال جوني، وهو يُداري تكشيرته، إنّ ملاك مجنون، «هادا عمل جنوني، والتنظيم ما إلوش علاقة، وإحنا استنكرنا لأنّ الاغتيال عمل مُستنكَر».

«إذا كنتم ضدّ الاغتيال، فيك تشرح لي ليش استعملتم الجريمة، منشان ترجعوا كلّكم على الجامعة، بينما ملاك بالحبس ورح يحكموا عليه بالإعدام».

حاول جوني أن يشرح لها أنّ السياسة هيك، وأنّها ليست جزءًا من العمل السياسي كي تفهم تعقيداته، وأن لا ينشغل بالها، «لأنّه ما فيش إشي ما بيتزبطش»

اختفت هالة عن الشاشة، داني الذي روى للشباب خبر اعتقال هالة وإطلاق سراحها، قال إنّ الفتاة لا علاقة لها، «ما بعرف كيف ملاك كان قادر يصاحبها ويوعدها بالزواج، بنت محافظة بكلّ معنى الكلمة، ولا علاقة لها بالنضال السياسي، ما بعرف شو شاف فيها، ما بيكفي الواحدة تكون سمرا وعيونها خضر حتى تصير شريكة حياته للواحد».

«السياسة هيك»، قال داني، وهو يؤكّد على الفرق بين النضال الجماهيري والاغتيال. لكنّ كريم لم يجد ما يقوله، لم يقل إنّ هذه زعبرة، مثلما خطر له، كان يشعر بالضياع، فهو يُقاتل أحيانًا مع الشباب، وهو جزء من الحرب الأهليّة لكنّه لا يعرف كيف يقول لرفاقه إنّ اللعب بنار هذا النوع من الحروب لا يقود إلّا إلى الهاوية. بلى قال ذلك مرّة لداني وهما يشربان الفودكا كانت سحَر تملأ البيت بحيويّتها وجمالها امرأة ممشوقة بحاجبين مزجّجين، وعينين عسليّتين، وابتسامة عاشقة لا تفارق شفتيها ومعها ابنتها سُهى، التي كانت في السابعة من عمرها، والتي يخال من يراها أنّه أمام نسخة مصغّرة عن أمّها كانتا مثل شقيقتين تتنافسان على قلب رجل واحد، وكان داني يتمتّع بهذا الحبّ المزدوج

قال كريم إنّ اللعب بنيران الطوائف اللبنانيّة، واستعادة المخزون الدموي لحرب ١٨٦٠ الأهليّة، سوف يعنيان القضاء على كلّ الأفكار الثوريّة، والعودة إلى عصور الهمجيّة.

ابتسم داني مستهزئًا وهو يحاول أن يشرح لرفيقه المتردّد أنّ الثورة ليست مستقيمة مثل شارع نيفسكي، وأنّ لينين كان يعرف وهو يقود الثورة الاشتراكيّة الأولى في العالم أنّ على الثورة كي تنتصر أن تدخل في وحل التاريخ.

«لكنّ شارع نيفسكي في بتروغراد وليس في بيروت»، أجاب كريم.

«صحيح»، قال داني، «لكنّ الثورة هنا مثل الثورة هناك»

«بس هون ما في إلّا طوائف، والطوائف بتخوّف»، قال كريم.

«صحيح ومش صحيح، ما تنسى الطبقات والصراع الطبقي، بس معك حقّ، الطوائف خطر كبير، وما في شي بيقدر يتعامل مع هالخطر ويشلّه إلّا طليعة ثوريّة متماسكة»

«بس وين الطليعة»؟ سأل كريم.

«نحن الطليعة»، قال داني، «شفت العمل البطولي يلّي صنعه ملاك، وكيف أجبر الجامعة الأميركيّة على إعادة كلّ الطلاب المفصولين، هيدا شغل الطليعة»

«بس إنت قلت قبل شوي إنّ نحن ضدّ الاغتيالات!»

«ضدّها بالمبدأ، هيدا صحيح، بس مرّات بتكون ضروريّة، نحن ضدّ الانقلابات العسكريّة، بس لينين اضطرّ بثورة أكتوبر يعمل شبه انقلاب عسكري، الثورة يا حبيبي مش شارع مستقيم متل شارع

أحنى كريم رأسه كأنّه موافق وفهم المقصود، لكنّه لم يكن موافقًا،

فهو كان يجد نفسه مشلول الإرادة أمام داني. كان أستاذ الفلسفة يملك منطقًا لا يقاوم. رجل مليء بالأفكار والطموحات، يقود خليّة الطلبة في الجامعة الأميركيّة، وفي الوقت نفسه يقود مجموعة حيّ القبّة في طرابلس، المؤلّفة من قبضايات وعاطلين عن العمل وعمّالٍ زراعيّين، وحين يعود إلى البيت يشرب الفودكا والمارتيني، وهو يستمع إلى الموسيقى الكلاسيكيّة.

قال داني إنّه أراد أن يصبح موسيقيًّا، وإنّه عندما كان صغيرًا تعلّم العزف على البيانو، لكنّه توقّف عندما بدأ يهتمّ بالرياضيّات والفلسفة. «ثم جاء النضال يا رفاق، النضال علّمني أنّ الفلسفة الحقيقيّة والموسيقى الكبرى هي الممارسة»

عندما سأله كريم عن ملاك، قال إنّه لا يعرف عنه شيئًا قال إنّه دبّر أمر هربه من سجن رومية، «حيث استخدم ملاك حراماته كحبل وتدلّى من نافذة السجن ليجد رفاقنا في انتظاره، ولم يكن وحده، مش مهمّ كان معه مصطفى القدّور، هيدا واحد من جمهوريّة المطلوبين بطرابلس، المهمّ الشباب دلّوهم على طريق تلّ الزعتر، يلّي بعرفه أنّهم وصلوا بعد صعوبات كبرى، وحرّاس المخيّم المحاصَر أطلقوا عليهم النار، صرخ ملاك ما تطخّوش أنا ملاك، يبدو أنّ واحد من الشباب كان سامع بقصّته، ومن وقتها اختفى. الحقيقة ما بعرف، عاطف مساعد أبو إياد نصحه بالسفر لأنّه مطلوب، والثورة ما فيها تحميه. بفتكر سافر على ألمانيا الشرقيّة، وهونيك جنّدوه «الستازي»، وسمعنا قصص ما بتتصدّق، وأنّه عملوله جراحة، غيّرت معالم وجهه والله ما بعرف، يمكن هو هلّق ببيروت، بس إذا شفناه ما منعرفه»

«وهالة»؟ سأل كريم

«مين هالة؟»

«صاحبته».

«ما بعرف»، قال داني. «مبلى زوجتي سحر قالت إنّها بتدّرس فلسفة بمدرسة «الراعي الصالح» وإنّها بتتصرّف متل البنات العوانس».

«بحبّ شوفها»، قال كريم.

«ما تضيّع وقتك، ما عندها إلّا قصّة واحدة تخبّرها، وقصّتها ما بتتصدّق، بفتكر أنّها اخترعتها حتى تعطي معنى لحياتها قال إنّه ملاك تلفن بعد طول غياب، وأعطاها موعد بالإكسبرس، راحت التفتت يمين شمال ما لاقته، قعدت بالزاوية يلّي كانت تقعد فيها معه بأيّام الحبّ، شوي إجا رجّال وقف قدّامها، تطلّع فيها، وقال أكيد ما عرفتيني. الصوت كان صوت ملاك، كان الصوت وما كان الزلمة. إنت مش هو، قالت، أنا ما بعرفك، قال إنّه غيّر وجهه بألمانيا وغيّر اسمه، قال إنّه هلق صار اسمه منير، وإنّه بحبّها ماتت البنت رعبة. إنت مش هو، قالت، بعدين أنا بخاف أنّه يقتلني بعدما عمل الجريمة. قالت إنّها طلعت من القهوة عم تركض وخافت يكون الشبح لاحقها مدري ليش بعتوا لي هيدا الزلمة يلّي عامل حاله ملاك، أنا أكيدة أنّ ملاك مات بتلّ الزعتر، مات من دون ما يتّصل فيّي ولا مرّة، مات وهو ما بحبّني، كيف واحد ارتكب كلّ هالجرايم بيقدر يحبّ؟»

أين داني اليوم من داني الأمس؟

ليس صحيحًا أنّ هذا الداني هو بطل حكاية لم تُكتب، مثلما كان يعتقد كريم في الماضي. داني ليس مثل الأبطال، لأنّ الأبطال يتجمّدون في خيالنا داخل لحظة البطولة. أمّا حين يتأرجحون، وتفترسهم الحياة، فإنّهم يفقدون السحر ويتحوّلون إلى مجرّد ظلال تتفتّت في التفاصيل اليوميّة. سرّ داني وجماله كانا في سحَر امرأة جميلة تشتغل كي تسمح لزوجها بأن يتفرّغ للعمل السياسي. يختفي فتنتظره، وحين يعود لا تسأله أين كان. يلتمع وجهها بالضوء وهي تقوده إلى الحمّام، تنزع ثيابه الداخليّة المتّسخة، تملأ الحوض بالمياه الساخنة التي تطفو عليها رغوة صابون له

رائحة عطر الياسمين، تغادره إلى المطبخ لتعود بكوب من الشاي والنعناع، تجلس على حافّة الحوض، تمسك يده المبلّلة بالماء وتغرق معه في صمت بخار المياه الساخنة.

امرأة الانتظار، التي كانت تملأ حياة داني وأصدقاءه بالفرح، اختفت فجأة. لا أحد يدري ماذا جرى لها ذهبت في رحلة إلى إيطاليا لحضور مؤتمر عن العمارة في البندقيّة وانقطعت أخبارها في ليلة ممطرة جاء داني إلى منزل كريم، وقال إنّه متعب. كان داني حزينًا ومرتبكًا، وغير قادر على ضبط حركة لسانه. يبدو أنّه دخّن وأكل الكثير من الحشيش قبل أن يقرّر أنّه لم يعد يستطع البقاء في البيت وحده. قال إنّ شقيقة زوجته أتت وأخذت ابنته كي تنام عندها، وإنّه يشعر بالوحدة. ثم روى. قال إنّ سحَر تلفنت له بالأمس. قال إنّها اختفت منذ ثلاثة أسابيع، كان من المفترض أن تعود بعد أربعة أيّام، لكنّها لم تعد، وإنّه لم يكن يمتلك طريقة للاتّصال بها أخبر شقيقتها منذ يومين، لم يبد على الشقيقة أنّها فوجئت بالخبر، أو أنّ بالها كان مشغولاً، قالت إنّها لا تعرف شيئًا عن الموضوع، ووعدت بأن تأتي اليوم لتأخذ سُهى. بعد ذهابها بنصف ساعة، تلفنت سحَر، وقالت إنّها في بروكسل حيث وجدت عملاً، وإنّها لن تعود إلى بيروت. قالت أشياء غريبة، قالت إنّها تكره بيروت وتكره لبنان وتكرهني، وإنّها تريد الطلاق. قالت إنّها طلبت من شقيقتها أن توضّب أغراض سُهى لأنّها قرّرت أن تُقيم ابنتها معها في بروكسل، وأنّها تنتظر منه أن لا يعترض، لأنّه على كلّ حال مشغول بأمور أخرى، ولا يعرف ابنته، ولا علاقة له بها، وأنّها تترك له حرّيّة التصرّف بحسابهما البنكي المشترك، بعدما سحبت نصفه.

حكى داني كأنّه ببّغاء يردّد أشياء لا يفقه معانيها، تكلّم بصوت أجشّ وكانت الكلمات تتلعثم في فمه، كأنّها ترفض أن تخرج، قال إنّه تعبان ويريد أن ينام، ثم بدأ قلبه يخفق في شكل عنيف ومتواصل. قال له كريم إنّه يجب أن يأخذه إلى طوارئ مستشفى الجامعة الأميركيّة، لأنّ نبضات

القلب تتسارع، «وأنا مش حكيم قلب، ما بعرف شو لازم أعمل، يلّا قوم خلّينا نروح على المستشفى»

«ما في لزوم»، قال داني، «دايمًا بصير معي هيك لمن بزيدها بكمّيّة الحشيش»

أمره كريم بأن ينام على ظهره، وضع ثلاث مخدّات تحت رأسه، سقاه كوب ماء بارد وجلب قطعة ثلج من البرّاد وأمره أن يمتصّها، فهدأت ضربات القلب، لكن داني لم يتوقّف عن الهذيان.

«ما في لزوم للحكي هلّق، منحكي بعدين»

لم يتوقّف داني عن الكلام، كان كمن يُكلّم نفسه، بقي يحكي أكثر من ساعتين، وكريم يجلس إلى جانبه محاولاً أن يفكّ الجمل المتراكبة إلى كلمات، من دون أن ينجح سمع اسم رنا يتردّد كثيرًا، لكن ما علاقة رنا بالموضوع. رنا كانت عضوة في خليّة الجامعة الأميركيّة، وكانت تستعدّ للزواج من صديقها الذي تُقيم معه منذ ثلاثة أعوام. فهم كريم أنّ داني أقام علاقة مع رنا، وأنّ سحَر رأتهما في مقهى «الماندرين» في شارع ڤردان، بينما كانت تعتقد أنّه يقاتل في الجنوب. قال إن سحَر دخلت إلى المقهى حيث كان يجلس مع رنا متشابكي الأيدي. ذهبت إلى «السوبرماركت» مع ابنتها، ثم توقّفتا في المقهى لأنّ سهى تحبّ «الفوريه نوار» «شافتني، وأنا ما شفتها، سُهى ركضت لعندي، وأنا ما انتبهت، كلّه من أثر الحشيش، كنت راجع من بعلبك، بتعرف هونيك كيف بيعملوا الشباب، الدنيا برد، بيشعّلوا كانون الفحم وبيقعدوا حوله، وبيرشّوا الحشيش على الفحم، وبتطلع الريحة، أحلى ريحة وأطيب حشيش، ومنسكر من دون ما ندخّن. نزلت سكران من بعلبك، وبدال ما روح على البيت، عطيت موعد لرنا، كان بدّي شوفها ببيتها، قالت إنّ ما فيها بالبيت لأنّه يمكن يجي صاحبها في أيّ لحظة، وهي اقترحت «الماندرين»، وما بعرف ليش قبلت، وتبهدلنا».

«يعني أنت بتحبّ رنا؟»

«أعوذ بالله، أنا بحبّ سحَر، بس رنا كانت هيك، يعني مازة»

«وهي رأيها إنّك مازة؟».

«الله يخلّيك بلا فلسفة، الخيانة الزوجيّة ضروريّة لاستمرار الزواج، هيك هو الإنسان»

«يعني كنت دايمًا تخون سحَر».

«ليش أنت ما بتخون هند؟»

«أكيد ما بخونها، يعني كيف؟ ما أنا بحبّها»

«إذا ما بتخونها يعني ما بتحبّها»

«يعني سحَر كانت تعرف إنّك بتخونها؟»

«ما بعرف، بفتكر كانت عارفة، بس كانت تطنّش»

«تطنّش!»

«سَحَر امرأة ذكيّة، وكانت تعرف أنّ خيال الإنسان بلا حدود، والخيال هو أوّل الخيانة»

«وليش هالمرّة ما طنّشت؟»

«لأنّنا عم ننهزم، من وقت ما دخل الجيش السوري، وانقتل زعيم الحركة الوطنيّة كمال جنبلاط ونحن عم ننهزم ونتبهدل، وسحَر فهمت، يمكن خلص، يمكن كانت تحبّني لأنّي بوحي بالبطولة. يمكن كانت تحبّ البطل، والبطل ما بينهزم، البطل بيموت، أنا ما متّ وصرت عاطل عن العمل وعن البطولة، الثورة فشلت، وما بقي منها إلّا الحرب الأهليّة، والحرب الأهليّة بتبهدل، وخصوصًا لمّا بتصير داخل بيتك. لمّا شافتني مع

رنا ما حملها راسها، وأنا كنت متل الأهبل، مش شايف قدّامي، ما وعيت على حالي إلّا والبنت بحضني، وسحَر عم تصرخ فيها حتى تقوم وتمشي على البيت»

بعد تلك الليلة لم يلتقِ كريم بداني، اختفى الرجل خلف ستار من دخان الحشيش. حتى عندما قُتل خالد النابلسي، وجاءت زوجته تطلب اللجوء في منزل داني، لم يعثر أحد عليه. لم يكن يردّ على التلفونات أو يفتح باب بيته، ممّا أوقع كريم في ورطة، وشعر أنّه خائن وجبان، وهو يقول لزوجة خالد إنّه لا يعرف ماذا عليها أن تفعل.

اختفت المرأة خلف حجابها، وعاش كريم لحظات تردّده الأخيرة في بيروت، قبل أن يقرّر أن يمضي إلى فرنسا

ـ ٩ ـ

يرى كريم هند اليوم في بيروت مثلما كان يراها من زمان. غريب أمر هذه المرأة كيف لم تتغيّر، كأنّها هنده هو وقد زادها العمر فتوّة وشبابًا كان يتوقّع أن يرى امرأة تهدّل جسدها بعد إنجاب ثلاثة صبيان، تفوح منها رائحة البيت والغبار، ولا تتوقّف عن النقّ. لكنّه فوجئ بجلدها الأسمر وقد اندبغ بلون الشمس، وصار اللون الجديد كأنّه جلد من الجمال يغطّي جلدها، ويعطي بشرة وجهها ملامح الفاكهة التي أنضجتها الشمس.

أدار كريم ظهره لبيروت، بعدما خلع تلك الفتاة التي لبسته طويلاً لم يكذب على داني، فهو لم يخنها، لا لعفّته أو إخلاصه بل لأنّه لم يكن يستطيع، كانت نكهتها التي تشبه نكهة محار البحر عالقة في حواسّه الخمس

كانا يسبحان مرّة أمام صخرة الروشة في بيروت، هند تنتقل بين الصخرتين وهي تسبح على ظهرها وتجدف بيديها وهو يحاول اللحاق بها يدور حولها، يغطس في الماء تحتها، وهي مستسلمة لصوت البحر وتموّجاته. مخطوفة بالشمس والماء والملح، تسبح وحدها ولا تستمع إلى نداءات الحبّ والماء التي كان يطلقها

«خلص، أنا تعبت»، قال، «تعي نرجع»

برمت وقالت له أن يعود إذا أراد، فهي سوف تسبح صوب المغارة.

كان هذا طقس سباحتها الدائم، تبدأ بالدوران بين الصخرتين المنتصبتبن قبالة كورنيش المنارة، ثم تذهب إلى الصخرة الكبيرة، وتسبح على ظهرها في وسط الفجوة التي أحدثها الزمن، جاعلاً من الجزء الأسفل من الصخرة قوسًا تجري من تحته المياه. هناك تغمض عينيها وتستسلم لرذاذ الموج الذي ينهمر من الصخرة ويغطّي جسدها بحبيبات الماء الملوّنة التي تشتعل فيها خيوط الشمس. وبعدها تدور على نفسها، وتسبح صوب البركة التي أسماها الفرنسيّون بركة الحمام، هناك تدخل في عتمة الماء وتختفي. كريم لم يدخل المغارة سوى مرّة واحدة، سبح إلى جانبها ودخلا في تلاشي الضوء قال لها إنّه يشعر بحاجة إلى الهواء، وإنّه يكاد يختنق، فسمع ضحكتها، انسحب وسبح إلى باب المغارة في انتظارها وعندما خرجت بعد ربع ساعة قال إنّه خاف عليها من الحيوانات البحريّة.

«وليش ما رجعت حتى تخلّصني»، قالت وهي تضحك.

«خفت»، أجاب.

«خفت عليّي أو خفت على حالك؟»

كان ينتظرها على باب المغارة، قبل أن يعودا على ظهر قارب مسطّح يطلق عليه اللبنانيّون اسم «الحسكة»، إلى مسبح «السبورتينغ كلوب» القريب، حيث يشربان عصير البرتقال.

كريم لم يكن يحكي كثيرًا، أخبرها عن داني وعن رفاقه الفدائيّين، وكان ذلك عشيّة اندلاع الحرب، لكنّ هند كانت غير مبالية بالموضوع من أساسه، كانت ترى في السياسة وسيلة لقتل الوقت.

«أنتم متل الرجال يلّي بيلعبوا ورق شدّي، بتعرف شو بيقولوا لمن بيلعبوا ورق، بيقولوا تعوا نقتل الوقت، أنتم مش بس رح تقتلوا الوقت،

الأرجح أنّكم رح تقتلوا حالكم وتقتلوا الناس يلّي حواليكم».

لم يستسلم كريم أمام هذا النوع من الكلام، كان يعتقد أنّ الوقت سوف يغيّر رأيها، وأنّ هذه الهند الملوّحة بالشمس والبحر سوف تكون رفيقة حياته.

قالت هند وهي تنفض عنها مياه صخرة الروشة، وتستلقي على كرسي بحري في «السبورتينغ كلوب»، إنّها رأت منامًا مرعبًا منذ ثلاثة أيّام، وإنّها تفضّل أن لا تخبره، كي لا يتحقّق، لكنّها غيّرت رأيها وقرّرت أن تخبره المنام، لأنّها شعرت اليوم للمرّة الأولى بالخوف من عتمة المغارة.

قالت هند إنّه منام طويل، استغرق كلّ الليل، وإنّها لم تنس منه شيئًا، وإنّها خائفة.

«المنام هو رغباتنا المكبوتة»، قال كريم، «هاتي لنشوف شو هي رغباتك»

جلس كريم على طرف الكرسي، أشعل سيجارة غولواز فرنسيّة من دون فيلتر، ابتلع المجّة الأولى إلى أعماق رئتيه، وانتظر الحكاية.

«شو هالدخان يلّي ريحته بشعة»، سألت.

قال إنّ الدخان الأسود المطبوخ أقلّ ضررًا على الصحّة، وإنّه يملأ الرأس. لم يقل إنّ هذا من تأثير داني، وإنّ الدخان الفرنسي صار موضة يساريّة لبنانيّة بعد ثورة أيّار ١٩٦٨ في فرنسا

«كنت عم بسبح أنا وإيّاك تحت صخرة الروشة، ومتل العادة تركتك وفتّ على المغارة، كانت الدنيا عتمة، سبحت، الميّ كانت باردة كتير، وبعدين بلّشت حسّ أنّها عم بتلزّق على جسمي، بردت وخفت. جرّبت أطلع من المغارة، برمت صوب المدخل، وبدال ما شوف الضوّ صارت العتمة تزيد. عادة لمن ببرم حتى أرجع بشوف أحلى منظر بالعالم، بتكون الشمس كأنّها نايمة على الميّ بقلب المغارة، والضوّ عم يطلع من تحت

الميّ. يا الله وين باب المغارة، برمت من جديد، وما عدت أعرف الاتّجاهات، صرت أبرم محلّي وصرّخ. صرخت بس ما سمعت صوتي، كأنّ صوتي اختفى كنت عارفة أنّ ما في حدًا بيقدر يخلّصني»

«وأنا وين كنت»؟ سأل كريم.

«أنت اختفيت»، قالت هند.

«كنت لوحدي وما معي حدا، وصرخت يا بيّي. مدري من وين خطر على بالي أصرخ لشخص ما بعرفه إلّا من الصور، وبدال ما بيّي يجي ليخلّصني شفته بالبيت، كان قاعد بالصالون وعم يشرب كاس ويسكي، وأمّي عم بتروح وتجي على المطبخ، لأنّها كانت عم بتحضّر الغدا رنّ جرس الباب، قالت لي أمّي قومي يا هند افتحي، ركضت صوب الباب حتى أفتح، لقيت الباب مفتوح، وكان في رجّال طويل واقف بالباب وحامل بإيده فرد، شي شافني قوّصني، وشفت الدم عم يطلع من كتفي، بسّ ما وقعت على الأرض، وسمعت أمّي عم تصرخ أنّ زوجها قتل بنتها، وصارت تضرب حالها على راسها وتصرخ أنّ بنتها ماتت. مدّيت إيدي صوب بيّي، وقلت له بصوت واطي خلّصني يا بيّي. اتطلّعت من الشبّاك شفت بيّي ممدّد على الأرض، والرجّال الطويل يلّي قالت أمّي إنّه زوجها واقف فوق بيّي وقعت على الأرض، وكنت عم بسبح بالبحر، وكانت السما زرقا وصافية، والبحر هادي متل الزيت. وكان بيّي عم يسبح حدّي. ولمّا وصلت على الصخرة شفتها عم تغرق، كانت متل سفينة مايلة، وبدال ما تستند الصخرة الكبيرة على الصخرة الصغيرة، ضربت فيها وغرقوا تنيناتهم. شفت كيف الصخرة عم تنزل تحت الميّ، وبلّشت أبكي، قلت كيف بدها الناس تعرف أنّ هيدي بيروت. إذا راحت الصخرة راحت بيروت، وأنا كمان مين بدّه يعرفني بعدما صرت من دون إسم، وحسّيت حالي عم بغرق، وصرخت لبيّي، وكانت الدنيا كلّها عتم، وأنا علقانة بقلب المغارة».

«وبعدين شو صار؟»

«بعدين فقت من النوم عم برجف، قمت على المطبخ حتى أشرب ميّ، كانت أمّي قاعدة لحالها بالعتمة عم بتدخّن سيجارة. قرّبت صوبها لبوسها فانتبهت أنّ وجهها مبلّل بالدمع. كانت عم تبكي دموع من دون صوت. كان بدّي خبّرها أنّ صخرة الروشة غرقت، بس لمّا شفتها بهالحالة ما عرفت شو لازم أعمل. شربت كبّاية ميّ ورجعت على تختي».

قالت هند إنّها شعرت اليوم، للمرّة الأولى في حياتها، بالخوف من البحر ومن المغارة. كانا يسبحان في أوائل شهر نيسان عام ١٩٧٥، شمس الربيع البيروتي لم تكن قادرة على إزالة لفحة البرودة من هواء البحر لكنّ هند كانت لا تتوقّف عن السباحة طوال السنة، تقول إنّها تحبّ الارتطام بالمياه الباردة، لأنّها تنعش القلب وتحييه، وتنشّط الدورة الدمويّة. كريم لم يكن يحبّ البرد، حاول مرّات لا تُحصى أن يثني هند عن عادة السباحة طوال فصول السنة، لكن من دون جدوى.

جلس على الكرسي وقد تغطّى بالمنشفة وهو يداري الهواء البارد الذي كان يتسرّب إلى مسامّه، واستمع إلى المنام الذي روته هند المستلقية بالبكيني على ظهرها مغمضة العينين.

«شو رأيك»، قالت.

«شو بيعرّفني، والله منام غريب، الإشيا مش واضحة أبدًا، كلّ شي بعرفه أنّ لمّا الواحد بيحلم البحر فهيدا بيعني رغبة جنسيّة مكبوتة، بس حلمك مشربك كتير»

«متل منامات ميليا»، قالت، «يا دلّي خايفة يصير فيّي متل ما صار فيها بالآخر»

«مين ميليا»؟ سأل كريم.

«كانوا أولاد خيّها جيراننا، وأمّي خبّرتني عنها قصص غريبة، قال إنّ مناماتها كانت تتحقّق، وكانوا كلّ الناس يخافوا منها»

«وبعدين؟».

«بعدين شو بيعرّفني»

قال إنّ أفضل علاج للمنامات هو نسيانها، وإنّه بردان ويريد أن يلبس ثيابه.

عندما اندلعت الحرب، روى لداني أنّ صديقته تنبّأت بالحرب لأنّها حلمت بغرق صخرة الروشة، وأنّ هذا الرمز البيروتي الذي صنعه الفرنسيّون ووضعوه على جميع البطاقات البريديّة في وصفه تجسيدًا لبيروت في عهد الانتداب، يجب أن يغرق، مع نهاية لبنان القديم.

اكتفى داني بابتسامة استعلاء كانت إحدى علامات سلطته على الآخرين. يستمع إلى الكلام من دون مقاطعة، ثم يقول جملته عن رفضه المقولات الفرويديّة التي تجعل من الإنسان عبدًا لمناطق مظلمة لا منطق لها يسمّونها اللاوعي. لن يكتشف كريم أنّ الفرنسيّين لا علاقة لهم بموضوع الروشة إلّا في فرنسا كان يناقش مع طلال في مونبلييه فكرة فيلم مارون بغدادي، عندما لمع منام هند في رأسه. قال لطلال إنّ الفيلم يجب أن ينتهي باختفاء صخرة الروشة، وأعاد على مسامعه حكاية الرمز الانتدابي الذي يجب أن يزول.

«شو علاقة الفرنسيّين بالموضوع»؟ سأل طلال.

«الفرنسيّين أطلقوا الاسم على المنطقة انطلاقًا من الصخرة، صخرة بالفرنساوي يعني rocher، من هون إجت كلمة الروشة وصرنا نقول صخرة الروشة».

لم يبتسم طلال ابتسامة داني الاستعلائيّة، لكنّه روى للطبيب اللبناني

أنّ هذا خطأ شائع، فالفرنسيّون لا علاقة لهم بالموضوع لا من قريب ولا من بعيد. روشة أصلها كلمة روش السريانيّة وتعني رأس، هذه صخرة رأس بيروت بحسب أجدادنا الذين كانوا يتكلّمون اللغة السريانيّة، لكن جهلنا جعلنا نصدّق أنّها اختراع فرنسي. الفرنسيّون أطلقوا على المنطقة اسم grotte aux pigeons، نسبة إلى المغارة الموجودة قرب الصخرة، أمّا الصخرة فسريانيّة مئة بالمئة روى طلال أنّ أمّه أخبرته هذه الحكاية لأنّها امرأة غريبة الأطوار، «بتعرف بتّتصل بالتلفون من بيروت، وبتكون القذايف عم تشتّي فوقها، حتى تخبّرني اكتشافاتها اللغويّة، قالت إنّ القاموس وكتب أنيس فريحة هي أحسن طريقة حتى الواحد ينسى الحرب»

طلال أعاد الحكاية إلى أوّلها لم يكن كريم صديقًا لهذا الشابّ، كان يلتقي به في شكل عابر في البار، يحتسيان البيرة ويدردشان قليلاً ثم دعاه إلى لقاء مارون بغدادي. والآن يأتي ليقدّم، من دون أن يدري، تفسيرًا مختلفًا لمنام هند!

عند وصوله إلى بيروت، وبعد كأس العرق الذي شربه في منزل شقيقه، حيث اكتفت هند بالكلام معه من رأس شفتيها، سألت عن برناديت ونادين ولارا، وعن الحياة في فرنسا، لكنّها لم تكن معنيّة بالاستماع إلى الجواب. لم تجلس إلى المائدة إلّا لحظات قليلة، وقضت وقتها كلّه بين المطبخ وغرفة الطعام.

«خبّرنا عن البنات، جايب معك صور؟»، سألت سلمى.

لفتت كلسات النايلون السميكة السوداء التي توشّح قدمي سلمى نظر كريم. اختفى البياض الذي كان ينفجر على أطراف فستانها الأسود، لتحلّ في مكانه بقع سوداء كأنّها تلطّخ القدمين والفخذين. لم يدرِ كريم أنّ سلمى عادت إلى لبس هذا النوع من الكلسات بعد موت والده. هند أخبرته عن صيحة أمّها أمام سرير الموت في المستشفى بأنّ الرجل فقد بصره، وبعدها

عادت المرأة إلى ثياب حدادها القديمة.

«وشو رأي نسيم»؟ سألها

«نسيم ما قال شي، صار لمّا يوصل على البيت، يسكت. ما بيحكي معي إلّا الكلام الضروري، حتى مع أولاده ما بقى يحكي، ما شفته كيف لمّا منكون قاعدين ما بيحكي أبدًا».

خلال إقامته في بيروت لم يلاحظ كريم صمت شقيقه، بل على العكس، حكى نسيم كثيرًا، وأعاد عبر كلامه تركيب الحكاية كلّها وفي حكايته انقلبت الأمور رأسًا على عقب. الشقيق الكبير الذي كان يعتقد أنّه حافظ على نقائه قبل الحرب وخلالها، اكتشف في رواية شقيقه أنّ الحكاية مختلفة كلّيًّا، وأنّه وسط ضياعه فقد القدرة على ترميم ثقوب حياته التي انفتحت كلّها دفعة واحدة.

في الليلة الأولى، وبعد انتهاء العشاء الترحيبي، وبعد ذلك الدفق من المشاعر التي سيطرت على كريم، وهو يشعر بالغياب الفادح لوالده، ويرى نفسه عاجزًا عن صوغ كلمات الحبّ نحو رجل اعتقد طوال حياته أنّه يكرهه ويكره تسلّطه، نهض كريم كي يمضي إلى البيت.

«أنا بوصّلك»، قال نسيم.

«لا، معليش إنت خلّيك، شربنا كتير عرق، بفضّل آخد تاكسي»

نهض نسيم من دون أن يعير التفاتًا إلى كلام شقيقه.

«بس إنت شربت كتير»

«وين المشكلة، أنا بس أشرب بشوف الإشيا أحسن».

ركبا في السيّارة صامتين. شعر كريم بما يشبه الاختناق. الرطوبة والحرّ والعجز عن الكلام.

«شو رأيك نشرب قهوة على الكورنيش»؟ قال نسيم.

«أنا اشتقت للبحر ببيروت، البحر بمونبلييه عنده لون واحد، كأنّه رمادي، والشطّ كئيب ما بعرف ليش، كلّ ما روح على بالافاس أنا ومرتي والبنات، كنت خبّرهم عن الكورنيش وعن صخرة الروشة».

وقفا أمام صخرة الروشة يحتسيان قهوة الإكسبرسو، من أحد مقاهي «الفانات» الصغيرة المنتشرة على الكورنيش. كانت الصخرة تتلألأ بالأضواء التي تتكسّر على أطراف الموج الناعم الذي يرتطم بها

«هيدي بيروت»، قال كريم. «بتعرف بفرنسا، مدري شو صابني، كلّ ما كنت أسمع أخبار القصف بلبنان، كنت خاف تنصاب الصخرة وتغرق، الحقيقة كنت أحلم إنّ الصخرة غرقت وحسّ بيروت صارت بلا شكل، وكلّ بيوتها وبناياتها عم تهبّط»

«أنتَ حلمت إنّ الصخرة غرقت! شي غريب»

«شو الغريب؟»

«بتعرف كأنّه رجعنا صغار، بتتذكّر كيف كان بيّك يخلّينا نكمّل منامات بعض، هلّق كأنّك عم بتخبّرني مناماتي»

«مناماتك!»

«أوعا تكون جايي منشان نرجع نلعب اللعبة من الأوّل، أنا مفتكرك نضجت بعد هالغيبة الطويلة، نحن جايين نشتغل، عنّا مشروع أحسن من منجم دهب، الطبّ اليوم بلبنان دهب، بس الهيئة أنت مش عارف أهمّيّة المشروع، وجايي تفتح أبواب الذكريات يلّي سكّرناها خلص»

لم يفهم كريم عن أيّ ذكريات يتكلّم شقيقه، فهو عاد من دون أن يفكّر مليًّا بقراره، أخذ إجازة من دون راتب وجاء. لم يفكّر كثيرًا في تبعات هذا القرار، كان يعلم أنّ برناديت لن تأتي إلى بيروت، وهو لا يملك أيّ

سبب لتدمير عائلته الفرنسيّة الصغيرة التي كانت ملجأه من نفسه ومن ضياعه. لكنّه، ولأنّه شرب الكثير من العرق، وهو يأكل الكبّة النيئة، زحط وروى عن منام لم يره.

«غريب»، قال نسيم، «كنت مفكّر أنّ هيدا منام هند، هلّق ضيّعتني، وما عدت أعرف»

«اعطيني سيجارة»! قال كريم.

«شو مبيّن عالوصلة رجعت على السيكارة، ما على بنا وقّفت التدخين بفرنسا؟»

نفث كريم دخان سيكارته في الهواء، ووقف يتأمّل صخرة الروشة، وهو يشعر بالخدر في جميع أنحائه.

«قلت لي حلمت أنّ صخرة الروشة غرقت»! وانفجر نسيم ضاحكًا

فجأة بدأ كريم يضحك أيضًا، رفرف الضحك على المكان كأنّ الشقيقين عادا طفلين توأمين مثلما كانا، يتحايلان بتكاملهما على العالم، ويجدان لنفسيهما حيّزًا من الاستقلاليّة عن مظلّة تسلّط والدهما، الذي كان يحشر نفسه بينهما بوصفه ثالث أضلاع المثلّث الذي لا يمكن أن يتفكّك.

تفكّك المثلّث من زمان، أمّا المثنّى الذي حافظ الشقيقان عليه، رغم اندلاع الحرب الأهليّة، ووجودهما في معسكرين متحاربين، فإنّه بدأ يتفكّك لحظة قرار كريم الرحيل إلى فرنسا، ثم تلاشى نهائيًّا، مع تلك المكالمة الهاتفيّة التي أبلغ فيها نسيم شقيقه بزواجه من هند، فغصّ كريم بالسعال وفقد القدرة على الكلام.

في تلك الليلة البيروتيّة، وأمام صخرة الروشة، انتصب المثنى من جديد. عادا طفلين يلهوان بالكلام، ويتراشقان بالنكات، ويسخران من كلّ شيء.

«خبّرني»، قال نسيم، «في شي ولا مرّة فهمته، بيّك كان يلمّحله، وسوزان استنتجت أنّه حصل، بشرفك قول الحقيقة، مزبوط الأخ أوجين ناكك؟»

«أكيد لا، متذكر بيّك شو كان يقول عن حاله وعن أولاده، نحن طيز نمر»

«شو؟»

«شو باك كأنّك نسيت كلّ شي كان كلّ ما يشرب ينهي القعدة وهو عم بيقول الحمد لله بعدني طيز نمر»

«ما بتذكر، بس مش مهمّ، شو يعني طيز نمر، وبعدين جاوب على سؤالي»

«طيز نمر يعني ما حدا في يركبه، حدًا بيسترجي يقرّب على النمر، هيدا هو جوابي»

«طيّب بلا الجواب، خبّرني شو بيحسّ الواحد لما حدًا بينام معه؟»

«شو مفكّرني أهبل، بس رح جاوبك، بيحسّ إنّه قلبه نطّ من مطرحه، وإنّه في شي جوّاته عم يفتح أبواب روحه المسكّرة».

«يعني دقّ فيك، والله كنت أكيد أنّ هيدي كانت أوّل خيانة للعلاقة بيناتنا»

«كنت حمار ورح بتضلّك حمار، يلّي بيصدّق هالكلام الشعري المبتذل، بيكون ما بيفهم شي»

«يعني عم تضحك عليّي»؟ قال نسيم

«متل العادة يا حبيبي، ما في شي تغيّر بيناتنا، أنا بحكي وأنت بتصدّق متل المجدوب، هيك كنّا وهيك رح نبقى»

«أنت المجدوب يا حبيبي، أنا يلّي لعّبتك أنت وبيّك على الشَّكَر بَكَر، وورجيتكم نجوم الضهر، وأخدتكم على البحر ورجّعتكم عطشانين، متل ما بيقولوا».

«وسوزان»؟ سأل نسيم، «مزبوط إنّك رحت لعندها، بعدما أنا رجعت على البيت، وطردتك، وقالت لك روح يا حبيبي حلّ عني إنت وبيّك وخيّك، شو أنا فاتحة ميتم؟».

«أنا! هيئتك أنت السكران مش أنا»

«هي خبّرتني، بتعرف أنا إنسان ما بينكر الجميل، لمّا علقت الحرب رحت على السوق العمومي وسحبتها من هونيك، وسكّنتها ببيت صغير بالأشرفيّة، وضلّيت أصرف عليها حتى ماتت. كانت صارت كبيرة بالعمر، وعيونها يا حرام كأنّهم صغروا، والعمش أكلهم، قالت لي أنت الرجّال الوحيد بلبنان، لأنّك ابن أصل، وهي خبّرتني. ولو! حدًا بيروح عند صاحبة خيّه، شو أنت مش خيّي، والله ما بعرف»

«أنا ما رحت لعندها»، قال كريم، «أكيد هيدا الحكي جايي من الخرف، يمكن تغلبطت بيني وبينك، وقالت أنا وكان قصدها أنت»

«مستحيل»، قال نسيم، «كلّ الناس تغلبطوا فينا ما عدا النسوان، النسوان عندهم حاسة شمّ قويّة، ومش ممكن يغلطوا»

«أنا مش أكيد»، قال كريم.

«شو قصدك؟»

«ما قصدي شي، عم بحكي من حيث المبدأ»

«إذا كان قصدك شي تاني، انس الموضوع من أساسه، لأنّه ما في موضوع»

صمت وليل، وبحر يمتدّ إلى ما لا نهاية. صخرتان، واحدة جاثمة فوق البحر فاتحة قلبها للماء والريح، والأخرى كأنّها قطعة من الصخرة الأولى، أبعدها الموج فوقفت تنتظر، ورجلان يقفان صامتين.

شعر كريم أنّه سقط في الفخّ، لقد أعدّ شقيقه الأصغر انتقامه بعناية، أغراه بمشروع المستشفى لأنّه كان يعرف أنّ ابن نصري البكر لا يستطيع مقاومة إغراءات العودة إلى لبنان. أغراه بالمستشفى كي يُريه أنّه لم يكتفِ بوراثة الأب، بل ورث شقيقه أيضًا وتزوّج المرأة المثقّفة التي تهوى البحر، والتي لم يكن يستطيع في الأيّام الماضية أن يحلم بالاقتراب منها

«أنت بتربح»، قال كريم.

«شو بربح»؟ سأل نسيم.

«بتربح كلّ شي، ومع أنّي ما رحت عند سوزان، وأنت أكيد بتعرف إنّي ما إلي علاقة بالموضوع، بس يبدو أن يلّي عم بتقوله رح يصير كأنّه مزبوط. الحقيقة مش مهمّة، المهمّ شو بيضلّ منها بالذاكرة، وذاكرتك أقوى، لأنّك أقوى»

افترق الشقيقان بسلام. أوصل نسيم شقيقه إلى بيت والدهما، حيث سيسكن خلال مدّة إقامته في بيروت، وعاد إلى منزله.

عندما وصل نسيم إلى بيته في الثانية صباحًا، كانت هند نائمة. استلقى إلى جانبها في السرير وشعر برغبة في ممارسة الجنس. بدأ في إيقاظها بهدوء وهو ينثر القبل على شفتيها وعينيها المغمضتين. سألته وهي نصف نائمة لماذا تأخّر حتى هذه الساعة، وقالت إنّها تعبانة، «بكرا حبيبي، هلّق الوقت متأخّر كتير وأنا ميتة تعب» لكن نسيم تابع التحرّش بها، قال لها إنّه لا يستطيع أن يتوقّف في منتصف الطريق، وإنّه يريدها «بسّ يا حبيبي .»، لكنّه أسكتها بقبلة طويلة على شفتيها واقترب منها، وبدأ يتغلغل فيها. أغمضت هند عينيها من جديد، واستسلمت لفيض رغبة

زوجها، التي ذكّرتها بأيّام الحبّ الأولى، عندما كان لا ينام معها إلّا بعد أن يأكلا العنب الأبيض الذي تخرج منه رائحة البخور

لم تستطع هند أن تقاوم، ووجدت نفسها، رغم مشاعرها المتناقضة التي سبّبتها عودة كريم، مغمورة بذلك الدفق من الحبّ الذي كان هذا الرجل يستطيع أن يعطيه، بحيث يصير في الفراش رجلاً آخر كأنّ رجل الليل مختلف عن رجل النهار، ورجل الحضور ليس رجل الغياب. في النهار تشعر بالغربة عن عالمه السرّيّ والغامض، وفي غياباته الليليّة حين يعود منهكًا ورائحة الخمر تفوح منه تكرهه، وتحسّ بحاجة إلى الانفجار في وجهه، كي تقول له إنّ زواجها منه كان غلطة. وحين تستمع إليه وهو يقيم طقوس الإفطار الصباحيّة مع أولاده، تشعر أنّها أمام نصري، وأنّ هذا الرجل الذي لا يخفي كراهيّته لوالده واحتقاره له، ليس سوى نسخة مكرّرة عنه.

في تلك الليلة، حين جلس في السرير وأشعل سيجارته وسعل، لفّها الضياع. كانت، وهي تخرج من أتون الحبّ والجنس، تشعر أنّها غريبة عن نفسها وعن رغبتها التي أفلتت منها

قال لها إنّه لم يستطع أن يتكلّم مع شقيقه، «أخدته على الكورنيش حتى نشرب قهوة ونحكي، وبدال ما نحكي عن مشروع المستشفى وكيف بدّه يديره، وهل هو مستعدّ يترك فرنسا ويجي يسكن بلبنان، أو بدّه صيغة بين بين، يعني ستّ أشهر هونيك وستّ أشهر هون، قام الأهبل خبّرني مناماته، ما بعرف كيف صار هالزلمة، كأنّ الأمور مشوّشة براسه، يمكن فكّرني بعرف فسّر منامات، وما قدرنا نحكي، وبالآخر اضطرّيت فسّر له منامه»

«وشو كان تفسيرك»؟ سألت هند.

«ليش هو خبّرك المنام، أو يمكن حلمتم المنام نفسه، يا إلٰهي شو هالعلقة يلّي علقتها».

«عن شو عم تحكي»؟ سألت هند.

«وعاملي حالك مش عارفة كمان!».

«الله يخلّيك بلا حكي ألغاز، لأنّك رح تنزع كلّ شي، إذا ما بدّك تحكي المزبوط خلّينا ننام»

منذ ليلتهما الأولى، وعندما كانا في الشاليه، كان نسيم يُصاب بالذهول حين تلتمع عينا هند بعد ممارسة الحبّ. وعلى الرّغم من إصراره على عدم المساس بعذريّة صديقته قبل الزواج، فإنّ القُبل، وحدها، كانت تكفي لتحويل عينيها إلى مرآتين تلتمع فيهما الأعماق.

نظر إلى عينيها وقال «الله يخلّيكِ قومي شوفي عيونك على المراية كيف عم يلمعوا، يا الله شو حلو»

«ما صار شي يا حبيبي، بكرا رح تلتقوا وتحكوا، خلّينا ننام هلّق»

«ما بدّك تعرفي شو هو المنام»، سألها

«ما إنت هلّق قلت إنّي بعرفه»

«يعني بتعرفيه؟».

«الله يخلّيك شيل هالأفكار من راسك، وخلّينا ننام»

تغطّت بالحرام، وطلبت من زوجها أن يُطفئ النور في الغرفة، لكنّه اعتدل في جلسته، أشعل سيجارة جديدة، وروى لها أنّ شقيقه أخبره حلمها عن غرق صخرة الروشة مدّعيًا أنّه حلمه»

«خيّك مجنون»، قالت وأطفأت النور

«ما بدّك تعرفي شو جاوبته؟»

«بدّي نام»

سمعت تنفس زوجها العميق إلى جانبها، ورأت نفسها في عتمة اليقظة. لم تستطع هند أن تنام، وهي تستعيد في ذاكرتها حكاية خيبتها مع كريم. لماذا هرب هكذا؟ لماذا تركها تشعر بأنّها غير مرغوبة؟ هل مضى بعد حادثة خالد النابلسي، مثلما روى، أم مضى بعدما طُلب منه كما ادّعى أن يكتب كتابًا عن موت جمال؟ قالت له عشيّة سفره وهما يجلسان في مقهى «الأنكل سام»، إنّها لا تصدّقه، وإنّها لن تسافر معه ليس من أجل أمّها، بل لأنّها بدأت تشمّ فيه، منذ فترة، رائحة امرأة أخرى.

«هيدا مش صحيح»، قال.

«صحيح أو مش صحيح، المهمّ إنّي حاسّة هيك»

طلب الحساب من النادل، ومضى.

مضى كريم لأنّه كان يجب أن يمضي، فبعد موت خالد وحادثة جمال وتهافت داني المريع، لم يعد الرجل قادرًا على احتواء حياته من جديد. بدت الحياة ركامًا من الأحداث والذكريات التي لم يعد قادرًا على إعادة تنظيمها

«الحياة سياق»، قال لبرناديت وهو يحاول إقناعها بمشروع المستشفى في بيروت.

نظرت إليه زوجته الفرنسيّة بعينيها الزرقاوين، وقالت إنّها لم تفهم قصده.

عن أيّ سياق تكلّم كريم؟ ألم يقل لزوجته الفرنسيّة في أيّام اللقاء الأولى، إنّه يريد أن يبدأ معها من الصفر، وإنّه ترك خلفه الحياة التي عاشها بين القذائف التي أحدثت فجوات في روحه وذاكرته، من أجل أن يبدأ حياة جديدة. قال لها إنّه لن ينظر إلى الوراء، لأنّ الوراء عتمة تهيمن عليها أشباح الموتى. حتى الأحياء الذين تركهم خلفه في بيروت صاروا يشبهون

أشباح الموتى. قال لها إنّه هارب من السواد إلى أزرق عينيها الذي يشعّ ضوءًا، وإنّه صار إنسانًا جديدًا

حين كان يشرب النبيذ الفرنسي، وتأخذه غيمة السكر إلى ذكرياته، لم يكن يروي إلّا عن سينالكول. كان سينالكول، الذي لم يلتق به كريم مرّة، ولا يعرف حتى اسمه الحقيقي، هو الحكاية التي اختبأ كريم خلفها

«لماذا لا تخبرني إلّا عن سينالكول»؟ سألته.

«لأنّه توأمي الروحي، ومرآتي اللبنانيّة»، قال، «سينالكول هو الحكاية الوحيدة التي بقيت معي من هناك، ربّما لأنّه ليس حكاية كالحكايات. في العادة نروي حكايات نعرفها، أمّا معه، فأنا لا أعرف شيئًا، ما أعرفه لا يتعدّى بضع شائعات لا يستطيع أحد تأكيدها، ومع ذلك فأنا أشعر به هنا، أمام كأس النبيذ، وأمام عينيك الزرقاوين»

حين يتذكّر كريم هوسه بسينالكول في مونبلييه، ويقارنه بنفوره ولامبالاته هنا في بيروت، لا يفهم ماذا جرى. ربّما لأنّ سكره الشديد في الحانة، يوم التقى برناديت للمرّة الأولى، جعله يدّعي أنّ اسمه سينالكول، فالتصق به الاسم من دون أن يقصد ذلك.

في بيروت لم يتذكّر سينالكول إلّا حين ذكّرته برناديت به. كان يتحدّث معها على التلفون، ويروي عن مشروع المستشفى، وعن اقتراحه بأن يقسم وقته إلى نصفين: نصف في بيروت والنصف الآخر في مونبلييه، وأنّه بذلك سيرتاح من عمله المرهق في فرنسا، وينصرف إلى هواياته في قراءة الروايات، حين سألته عن أخبار سينالكول.

«عرفت شي عن سينالكول»؟ سألت.

«لا، بعد ما رحت على طرابلس»

«بس إنت قلت لي إنّ أوّل شي رح تعمله هو زيارة طرابلس».

«ما تخافي، مش رح إرجع على فرنسا إلّا وصورة سينالكول معي، بس هلّق مشغول كتير»

لم يقل كريم الحقيقة، فهو سيذهب إلى طرابلس من أجل لقاء رضوان. حتى خالد النابلسي الذي لن يجد قبره، تناساه. لكنّ شعورًا بالمسؤوليّة تجاه حياة زوجة خالد، استولى عليه طوال إقامته في بيروت، ولن يجد مبرّرًا لتقاعسه وتردّده حين زارته حياة في بيته طالبة مساعدته بعد اغتيال خالد، لم يعرف كيف يتملّص منها ارتسم الخوف على حنكه الذي صار يرتجف، ففهمت المرأة، وغادرت من دون أن تنتظر الجواب.

المرأة الأخرى التي شمّت هند رائحتها لم تكن سوى جمال. لكنّها لم تكن، بلى كانت، لا يدري، ولم يعرف السر إلّا حين قرأ مذكراتها

بعد مقتل جمال في الحادي عشر من آذار ١٩٧٨، وظهور ملصقها بالكوفيّة الملتفّة حول عنقها، تحمل الكلاشينكوف وتقف منحنية، وحولها صور شهداء «مجموعة دير ياسين»، وتحت صورتها عبارة قائدة «عمليّة كمال عدوان»، فهم لماذا نظرت إليه الفتاة باستغراب، حين التقى بها في مقهى «الجندول»

لم تقل له جمال «شو بدّك فيّي»، تركته يغازلها، كأنّها لم تكن تستمع إلى كلامه. رأى في عينيها هاوية من الفراغ الأبيض حين يتذكّر عينيها، لا يرى سوى هوّة بيضاء، كأنّها لم تكن تراه، أو لم تكن ترى شيئًا، كأنّها كانت في عالم آخر

التقى بها في معسكر للتدريب العسكري في بيصور عام ١٩٧٦، داني أخذه إلى بيصور، قال له إن المعركة الكبرى على وشك أن تبدأ، وعلى جميع أعضاء التنظيم الالتحاق بدورات تدريبيّة مكثّفة، لأنّ الجميع يتوقّعون غزوًا من الجيش السوري لمنع اليسار اللبناني والمقاومة الفلسطينيّة من حسم معركة السلطة في لبنان.

لم يفهم كريم ماذا يعني هذا الكلام، ولا كيف سيكون ممكنًا صدّ الجيش السوري الذي احتلّ مرتفعات صنين، وحسم المعركة العسكريّة قبل أن تبدأ لكنّه ذهب. وهناك التقى بالشهداء. عشرات الشبّان الذين التحقوا بالدورة التدريبيّة هنا قُتلوا في معركة بحمدون. كريم لم يذهب مع الذاهبين إلى بحمدون، ألحقوه بمركز الهلال الأحمر في بيصور بوصفه طبيبًا، وهكذا زمط من الموت. أمّا جمال فذهبت إلى بحمدون ولم تمت. اختفت جمال من حياته. وعندما سأل عنها قال له داني إنّها تركت «الكتيبة الطلّابيّة»، بعدما أمرها قائد الكتيبة بمغادرة المعسكر لأنّها كانت الفتاة الوحيدة بين عشرات المقاتلين الذكور قال داني إنّ جمال التحقت بإحدى المجموعات التابعة للقطاع الغربي، أي قطاع الأرض المحتلّة، الذي كان تحت إمرة القائد خليل الوزير، أبو جهاد، وإنّه لا يعلم عنها شيئًا

بعد سنتين، في أوائل أذار ١٩٧٨، التقى بها كريم عن طريق الصدفة في مستوصف برج البراجنة، ودعاها إلى فنجان قهوة في مقهى «المودكا» في شارع الحمرا، وافقت لكنّها طلبت تغيير المكان، قالت إنّها تفضّل مقهى «الجندول»، في كورنيش المزرعة، لأنّه قريب من منزل ذويها

في بيصور كانت جمال فتاة مختلفة، سمراء، بعينين عسليّتين كبيرتين، وأنف دقيق، وشفتين ممتلئتين، وشعر أسود قصير، وكوفيّة مربوطة على العنق. في ليالي بيصور التي امتدّت أسبوعين، كان كريم يتعمّد الجلوس إلى جانبها والتحدّث إليها لا يدري من أين كان ينبع الكلام، بعد محاضرات مملّة عن حرب الشعب ونظريّات الجنرال جياب بطل ديان بيان فو، وأفكار ماو تسي تونغ عن التناقض الرئيسي والتناقضات الثانويّة كان حين ينتهي النقاش السياسي، يجد نفسه جالسًا إلى جانب هذه الفتاة، يحكي معها عن كلّ شيء ولا شيء. لم يعلق شيء من ذلك الكلام على شريط الذاكرة، لكنّ انحناءة كتف الفتاة، وتبرّمها بكلّ شيء، وإصرارها على الكلام الدائم عن الشهداء، كانت تُثير في روحه أمواجًا من الرغبات

التي لم تكن تجرؤ على الظهور. كان يكتفي منها بمشاوير قصيرة في الحرج، حيث بدأ الكلام يتّخذ شكل الحبّ. روت له حكايات والدها، الذي هرب سيرًا على الأقدام من يافا إلى لبنان، تحت القصف الذي كانت تتعرّض له المدينة.

ترك كريم معسكر التدريب، ومات من مات في بحمدون، لكنّ التماعة عينَي الفتاة الفلسطينيّة بقيت ترافقه، من دون أن يدري ماذا يستطيع أن يفعل بهذه العاطفة الغامضة.

في مقهى «الجندول»، قال لها عن حبّه.

لكنّ نظرة جمال بقيت ممتلئة بفراغات اللون الأبيض. رشفت قليلاً من فنجان القهوة، وسألته إذا كان مستعدًّا للموت من أجل المرأة التي يحبّها

«إذا بحبّها لازم عيش كرمالها»

ابتسمت، أشعلت سيجارة، نفخت الدخان في الهواء، قبل أن تسأله من جديد.

«مش هيدا قصدي، كان بدّي إسألك إذا كنت مستعدّ تموت معها»

«ما فهمت»؟ قال.

بدا على الفتاة التردّد، كأنّها كانت تريد أن تقول شيئًا، ولا تقول.

«مش مهمّ»، قالت.

«بس أنا بحسّ نحوك بعاطفة غريبة»، قال.

«بكرا بتنسى»، قالت.

«ليش لازم أنسى، بعدنا ما بلّشنا»، قال.

«بتعرف يا حكيم، أنا بفتكر إنّ كلّ المثقّفين جبنا، الذكا الكبير بيخلّي الواحد يصير جبان، كنت أسمع ملاحظاتك بالدورة على يلّي سمّيته سذاجة أفكار ماوتسي تونغ، وخصوصًا نظريّته عن التناقض، ومعك حقّ يمكن، بس بلا سذاجة ما فينا نقاتل، بلا فكرة بسيطة وواضحة وبتدخل على القلب، متل الأفكار الدينيّة ما فينا نحارب»

«بس نحن علمانيّين وماركسيّين، ولازم نتحرّر من الدين»

«صحّ، بس ما في حلّ تاني»، قالت.

«إذا صرنا متل الأديان منخسر كلّ شي»، قال.

«بتعرف أنت أذكى مني، ورح تربح بالنقاش، المسألة مش هون، المسألة إلها علاقة بالجبن والشجاعة وعدم الخوف من الموت»

«في حدا ما بيخاف من الموت؟»

«أنا»، قالت، وبدأت تستعدّ للنهوض سألها إذا كان سيلتقي بها من جديد، فأجابت «يا ريت»، قال إنّهما يستطيعان تحويل «يا ريت» هذه إلى حقيقة الآن، «فيّي شوفك بعد يومين، خلّينا نروح نتعشّى سوا».

«يا ريت»، قالت، ومضت.

لم يفهم كريم معنى تلميحاتها إلّا بعد أسبوع، حين احتلّت صور جمال الصفحات الأولى في صحف بيروت. كانت ملقاة على الأرض، على الطريق الساحلي بين حيفا وتلّ أبيب، ضابط إسرائيلي يقف فوق جسدها المثقب بالرصاص، كأنّه يفتّش الجثّة.

هل كانت تريده أن يذهب معها إلى الموت؟ هل أرادت من تلميحاتها في مقهى «الجندول»، دعوته للالتحاق بمجموعتها التي تسلّلت إلى شاطئ حيفا بزوارق مطّاطيّة، واستولت على باصين إسرائيليّين، قبل أن تشتبك مع الجيش الإسرائيلي وتموت.

هل الانتحار هو الاسم الآخر للحبّ؟ أم أنّ جمال لم تكن، عشيّة قرارها بقيادة عمليّة انتحاريّة في إسرائيل، قادرة على الحبّ، كلّ ما في الأمر أنّ قلبها كان يحتاج إلى الكلمات، فكما تشعر الشفتان بالعطش إلى الماء لحظة الموت، كذلك القلب فإنّه يعطش إلى الكلمات.

ولدت جمال سليم الجزائري في ١٢ كانون الأوّل عام ١٩٥٨، في بيروت. كانت الابنة البكر لعائلة فلسطينيّة من يافا والدها سليم جمال الجزائري خرج من يافا يوم سقوط المدينة ماشيًا على قدميه. كان الرجل في العشرين من العمر جميع أفراد عائلته غادروا المدينة بالسفن، لكنّ الفتى الذي كان مقاتلاً في صفوف كتائب «الجهاد المقدّس»، رفض أن يغادر معهم، وقاتل في المدينة حتى النهاية. سقوط المدينة ودخول رجال «الهاغاناه» إلى أحيائها، أجبره على دفن بندقيّته في حديقة المنزل، والهرب مشيًا على الأقدام إلى لبنان. في لبنان، لن يلتقي بأفراد عائلته الذين قذفتهم الأقدار إلى مدينة دمشق، حيث أقاموا في مخيّم اليرموك. وصل إلى بيروت، ورفض أن يُقيم في أحد المخيّمات التي خُصّصت للّاجئين الفلسطينيّين. استأجر غرفة في منطقة المزرعة، وعمل ميكانيكيًّا في كاراج يملكه الحاجّ فيصل المغربي، قبل أن يصير مالكًا لكاراجه الخاصّ، وينجح في التحوّل إلى أفضل ميكانيكي لإصلاح السيّارات في كورنيش المزرعة. تزوّج عام ١٩٥٧ من دلال البطل، وهي فلسطينيّة من قرية طيرة حيفا، كانت في الثامنة عشرة من العمر، وأنجب منها أربعة أولاد، وكانت جمال ابنته البكر وعلى الرّغم من أنّه أنجب ثلاثة صبيان: سليم وأمين وناصر، فإنّه بقي طوال حياته يتكنّى باسم «أبو جمال»

روت جمال حكاية العائلة لكريم في معسكر بيصور، كما روت له كيف شجّعها والدها على الالتحاق بدورات التدريب للزهرات التي كانت مخصّصة للفتيات الصغيرات، وأنّ والدها لم يعترض، عندما قرّرت الالتحاق بالعمل الفدائي بعد نيلها شهادة البكالوريا قالت إنّها فضلت

جامعة الثورة على الجامعة، وإنّها لا تفهم كيف لا يلتحق جميع الشبّان والشابّات الفلسطينيّين بالعمل الفدائي، وإنّها تريد أن تكون نموذجًا للمرأة الفلسطينيّة المقاومة، مثلما صارت جميلة بوحيرد رمزًا للمرأة الجزائريّة.

عندما قرأ كريم تفاصيل العمليّة الانتحاريّة التي قادتها امرأة، أُصيب بالذهول وهو يرى جمال ملقاة على الأرض، والضابط الإسرائيلي يعبث بجثّتها صارت رمزًا، مثلما أرادت. ها هي فتاة معسكر بيصور، التي كان بعض الشباب يتذمّرون من وجودها في معسكر للتدريب مع الرجال، تثبت للجميع أنّها الأشجع والأجمل والأكثر قدرة على التضحية بالذات.

فتاة في العشرين، قادت عشرة فدائيّين بينهم لبنانيّان ويمنيّان، ومضت بهم ليلاً في زورقين مطّاطيّين وصلا إلى شاطئ حيفا استولوا على باص يحمل خمسة وعشرين راكبًا، ثم بعد ساعتين قاموا بالاستيلاء على باص آخر، ومضوا وهم يطلقون الرصاص في الهواء من أجل فتح الطريق أمامهم، وكانت يافا قصدهم.

في الساعة الثانية والنصف من بعد ظهر الأحد ١١ آذار تمّ الاستيلاء على الباص الأوّل، وفي الرابعة وأربعين دقيقة، انتقل الفدائيّون مع رهائنهم إلى باص جديد، وصار عدد الرهائن أكثر من ستّين رهينة. وفي الخامسة والنصف، تمّ اعتراض الباص من قبل حاجز في سوق السيّارات المستعملة في هرتسيليا قرب نادي كونتي كلوب.

مروحيّات ومجنزرات اعترضت الباص، وبدأت المعركة، احترق الباص وهبط الفدائيّون إلى الطريق واشتبكوا مع القوّات الإسرائيليّة، مات ثمانية وسقط اثنان في الأسر، وقُتل ثلاثون إسرائيليًّا

لحظة ورود خبر موتها، شعر كريم أنّه أضاع المرأة التي أحبّها كأنّ جمال كانت تختبئ تحت جلد هند، كأنّ الفتاتين كانتا فتاة واحدة، أو صارتا كذلك.

«لماذ أرسلوها إلى موتها؟».

عندما جاءه داني بذلك الاقتراح الغريب، شعر بالذعر

«لماذا أنا؟»

«الأخ أبو جهاد الوزير يريد أن يلتقي بك، قرأ مقالك في مجلّة «فلسطين المحتلّة»، عن تاريخ قلعة الشقيف، ويريدك من أجل أن تكتب كُتيّبًا عن جمال؟»

«أنا؟»

«نعم أنت»، قال داني.

«ولكن كيف عرف أنّي كتبت المقال، فأنا نشرته تحت اسم مستعار، أنا لا أريد أن يعرف أحد أنّني كتبت في المجلّة الفلسطينيّة، أنت تعرف ظروف أهلي الذين يُقيمون في المنطقة الشرقيّة من بيروت، لا أريدهم أن يتعرّضوا للأذى بسببي»

«بس أبو جهاد مش حيالله حدًا، هو قائد الثورة الحقيقي، وهو بيعرف كلّ شي، وبيعرف كمان أنّ خيّك نسيم بيشتغل مع الكتائب»

«شو دخل خيّي بالموضوع، الله يخلّيك ما تجيب هالسيرة لحدا»

«المهمّ يا حبيبي أنّ الأخ أبو جهاد أُعجب بنَفَسك القصصي، وسأل مين من الشباب يلّي كانوا يعرفوا الشهيدة جمال بيكتب كويّس، واختارك إنت، قال إنّ مقالك عن الصليبيّين ممتاز، لأنّه مجموعة حكايات، وطلب تروح لعنده بكرا الساعة عشرة بالليل على «مركز ٣٨»، حتى يحكي معك بالموضوع»

«وين هيدا مركز ٣٨؟»

«أنا باخدك»، قال داني، «بتعرف شو يعني يختارك الأخ أبو جهاد

حتى تكتب عن جمال، بتعرف شو كانت تعني له الشهيدة، هو اختار اسمها الحركي جهاد، لأنّها متل أولاده»

«إذا كان بيحبّها هالقدّ ليش بعتها على الانتحار؟ على كلّ حال أنا مش كاتب. الكتابة عندي هواية، أنا بفضّل أقرأ كتبت المقال عن تاريخ قلعة الشقيف، حتى قول إنّ الإفرنج صحيح احتلّوا بلادنا ميتين سنة، بس بالآخر رحلوا وما تركوا وراهم إلّا القلاع والشنكليش، وهيك رح يصير بالصهاينة بفلسطين»

«هيدا يلّي عجب أبو جهاد، قال إنّه مقالك هو تعبير عن التفاؤل التاريخي، قدّ ما قعدوا اليهود وتسلّطوا فمصيرهم بالآخر يتركوا البلاد لأهلها»

«أنا ما قلت اليهود، قلت الصهاينة، وهيدا هو جوهر الموضوع، نحن مع دولة ديموقراطيّة علمانيّة بفلسطين، ومش لازم نستعمل كلمة يهود لوصف الاحتلال الإسرائيلي. إذا أبو جهاد قال يهود، فأنا ما بدّي إشتغل معه»

شرح داني أنّ جميع أبناء الجيل الذين عاشوا وقائع النكبة الفلسطينيّة عام ١٩٤٨، يطلقون اسم اليهود على الإسرائيليّين، وذلك لأنّ الإسرائيليّين قبل تأسيس دولتهم وبعدها أصرّوا على استخدام هذا الاسم. أن تقول «جيش اليهود» عام ١٩٤٨، فهذا لم يكن يحمل في داخله أيّ دلالة عنصريّة، كان هذا مجرّد اسم أطلقه الفلّاحون على أفراد جيش «الهاغاناه»

«بس نحن منميّز بين اليهود والصهاينة»، قال كريم

«أكيد»، أجاب داني، «والأخ أبو جهاد كمان، بس مش لازم لمّا نتعامل مع ناس من هالجيل ندقّر على الكلمات، بكرا منلتقي الساعة تسعة بقهوة «الجندول»، وأنا بوصّلك على الـ ٣٨».

«أنا بحبّ دقّر على الكلمات لأنّي انفلقت، هون بلبنان ونحن بحرب أهليّة ضدّ الفاشيّين، ما بسمعكم إلّا عم بتقولوا المسيحيّين، درت دينة الطرشة ميّة مرّة بس خلص، ما بقى بدّي ضلّ أهبل، لأنّه هيك رح تبلعنا الطوائف، ويموت اليسار، وتصير قضيّة فلسطين قضيّة دينيّة، ومنخسر كلّ شي. بكرا إذا قال أبو جهاد اليهود رح دير ضهري وأمشي»

التقيا في التاسعة من مساء اليوم التالي في مقهى «الجندول» داني اختار المقهى لأنّه قريب من برج أبي حيدر حيث يقع أحد المكاتب السرّيّة لأبو جهاد، الذي عُرف باسم ٣٨. أمّا كريم فكان له رأي آخر، اعتقد كريم أنّ هذا الاختيار رسالة سرّيّة توجّهها جمال إليه. هنا التقاها للمرّة الأخيرة، وهنا اكتشف جمال شعرها القصير الأسود الذي تنحدر منه خصلة صغيرة على عينها اليمنى، وهنا اعترفت له بحبّها عبر دعوته إلى الموت معها!

جاء داني بكامل أناقته، فهذا الثوري المحترف، الذي كان يفتخر بأنّ زوجته أجمل امرأة في بيروت، كان يعتني بأناقته كأنّه ديك. يلتحف شالاً طويلاً، وينتقي ألوان قمصانه ما بين الأزرق السماوي والنيلي، والتي يجب أن تكون مكويّة ولا أثر فيها لأيّ جعلكة. يلتمع حذاؤه كما يلتمع شعره المائل إلى اللون الأشقر كان صورة لا شائبة فيها لولا ابتسامته التي تظهر أسنانًا صغيرة ملطّخة باللون الأسود الذي اندبغ عليها من أثر السجائر الفرنسيّة. طلب داني «سابليه» بالشوكولاته، وطلب معه كأس كونياك «ريمي مارتان» التفت النادل صوب كريم، الذي طلب الشيء نفسه. لكنّ داني قال للنادل: «٢ سابليه وواحد كونياك وواحد شاي»

«ما بقى بدّك كونياك»؟ سأل كريم.

ابتسم داني وتكلّم بعربيّة متفاصحة، «كلّا يا أخ، الشاي لك، وليس لي» وشرح له أنّه من غير المناسب أن يذهب إلى مقابلة الأخ أبو جهاد ورائحة الخمر تفوح منه.

«ليش ممنوع شرب الخمر؟».

هزّ داني رأسه، «أنت مش عملي أبدًا يا أخ كريم، المسألة متل ما علّمنا الرئيس ماو، لازم نحترم الجماهير وتقاليدها».

«والله مش عم بفهم عليكم، ليش الأخ أبو جهاد جماهير!»

«الأخ أبو جهاد ما بيشرب، وما بيحبّ يلّي بيشربوا، نقطة على السطر بدّك تناضل لازم تعرف وين إنت عايش، يلّا اشرب الشاي وخلّصني، ما لازم نتأخّر»

ابتلع كريم الشاي الساخن، وهو يراقب داني يشمّ الكونياك، ثم يمسك الكأس داخل راحة يده كي يسخنه، ويرتشف قطرات الكونياك بلطف كأنّه يقطّرها في فمه.

هل كانت مشكلة كريم أنّه لم يقل رأيه، مثلما يدّعي الآن، أم أنّ مشكلته كانت في انبهاره بالفدائيّين، بحيث كان نقده يتلاشى حين يجد نفسه أمام البطولة؟ قال لأبو جهاد بحياء إنّه لا يؤيّد العمليّات الانتحاريّة، لم يقل تلك العبارة في شكل واضح، قال «حرام إرسال الشباب إلى الموت بهذه الطريقة، حرام يا أخ أبو جهاد»

«إيش هو الحرام»، سأله القائد، وهو يحملق في خريطة عمليّة الشهيد كمال عدوان الموضوعة على مكتبه.

بدل أن يشرح كريم موقفه، أو يردّ، رأى نفسه ينظر إلى الخريطة بأنفاس مبهورة، وهو يرى المحطّات التي توقّف عندها الفدائيّون، قبل أن يصلوا إلى موتهم.

أوصله داني إلى مبنى في برج أبي حيدر، سألهما حارس يحمل مسدّسًا ماذا يريدان دير ياسين، قال داني. يبدو أنّ هذه كانت كلمة السرّ، التي ما إن سمعها الحارس حتى تكلّم عبر جهاز اللاسلكي، وبعد دقائق

جاء شابّ يلبس ثيابًا كاكيّة، وسأل عن كريم، ثم أشار إليه بأن يتبعه.

«أنا رح كون بالبيت إذا بدّك شي»، قال داني.

دخل كريم مع الشابّ الذي برز مسدّسه التوغاريف على وسطه إلى المبنى، ونزلا درجًا لا نهاية له. كان كريم يعدّ الدرجات بصمت، وعندما وصل إلى الرقم ستّين رأى أمامه بابًا ينفتح، وبهره الضوء.

تركه الشابّ أمام الباب، وبدأ يصعد الدرج من جديد، تردّد كريم قليلاً فسمع صوتًا يدعوه إلى الدخول. كانت هذه هي المرّة الوحيدة التي التقى فيها أبو جهاد. كان القائد يلبس قميصًا رصاصيًّا غامقًا ويجلس خلف مكتبه.

«أهلاً بالأخ كريم، إيش بتحبّ تشرب؟».

صبّ أبو جهاد كاستي ميرميّة من تيرموس موضوع أمامه، قدّم كاسة لكريم، شرب من كاسته، وقال إنّه سعيد بهذا اللقاء.

قال أبو جهاد إنّه اختاره لثلاثة أسباب، السبب الأوّل لأنّه كان يعرف الشهيدة، وقد نمي إليه أنّ صداقة بريئة نشأت بينهما في معسكر بيصور منذ عامين، السبب الثاني أنّه قرأ مقالته عن قلعة الشقيف، وأُعجب بقدرتها على رواية التاريخ وتلخيصه ووضعه في خدمة القضيّة، وأنّه التفت في شكل خاصّ إلى استشهاده بقصّة لكاتب إسرائيلي اسمه يوشع عن الفلسطيني المقطوع اللسان وقريته المدمّرة.

«يهوشع»، قال كريم.

يهوشع، أنت بتقرأ عبري».

«لا، أنا قريتها بالإنكليزي»

«أنت من دار شمّاس من الجليل، أظنّ من فسوطة».

«أنا مش فلسطيني»، قال كريم، «أنا من بيروت».

«إحنا شعب واحد على كلّ حال»

«شكرًا»، قال كريم.

«وين كنّا، السبب التالت إنّي بدّيش كتّاب محترفين، بدّي الكتابة عن جمال تكون مليانة حياة، عشان هيك لازم الكاتب يكون زيّك، يعني مش كاتب»

بدأ أبو جهاد يشرح لكريم الخريطة التي أمامه، وكيف تسلّل الشباب عبر سفينة تجاريّة، ثم حين وصلوا قبالة شاطئ حيفا رموا زوارقهم المطّاطيّة في اليمّ، ثم ألقوا بأنفسهم وسط الأمواج كي يصلوا إليها، وأنّ هناك شابّين استشهدا غرقًا، ولولا التدريب القاسي لغرق الجميع قبل أن يصلوا إلى المراكب. ثم روى عن الباصين، وكيف أنّ الجيش الإسرائيلي مسؤول عن المجزرة التي حصلت، «الأوامر لجمال والشباب كانت بعدم قتل أيّ رهينة إسرائيليّة، يصلون إلى يافا، وهناك يفاوضون على إطلاق سراح مئة أسير وأسيرة من الفدائيّين، وعلى تأمين خروجهم سالمين من الأرض المحتلّة، لكنّ الجيش الإسرائيلي أقفل الطريق في هرتسيليا، وقصف الباص من المروحيّات، وحصلت المذبحة»

«بس يا أخ أبو جهاد أنا بعرف من جمال أنّ احتمالات عدم الموت كانت صفر»

«مش صحيح، إحنا منحضّر الشباب نفسيًّا للاستشهاد، بس هادا ما بعنيش أنّ احتمال العودة سالمين صفر، هادا غير صحيح»

سأل كريم ماذا تعني عبارة الاحتمالات ليست صفرًا، فابتسم أبو جهاد بمرارة، «هادول زيّ أولادي، وعلى كلّ حال الطريق يلّي اخترناها ما بتوصّل إلّا على الاستشهاد، وأنا متأكّد أنّ اللحظة اللّي بدّي ألتقي فيها

معهم قريبًا، سوف تكون أسعد لحظة في حياتي»

شرح أبو جهاد لكريم أنّه ينتظر منه نصًّا صغيرًا بحجم كرّاس من خمسين صفحة، يروي حكاية جمال ويحوّلها إلى رمز للمرأة الفلسطينيّة.

«بس يعني حتى أكتب ما عندي كلّ المعطيات»، قال كريم.

فتح أبو جهاد جارور مكتبه وأخرج منه كرّاسة موضوعة في مغلّف أسمر مقفل، «عملت لك نسخة من اليوميّات يلّي كتبتها الشهيدة، أكيد ممكن تكون مصدر فائدة كبيرة، ما فيش من هاليوميّات إلّا نسختين، الأصليّة معايي والفوتوكوبي معاك، لازم ما حدنش بالدنيا يشوف هادا النصّ، خود وقتك واقرأ بهدوء، وإذا عندك أسئلة، اتّصل مباشرة بالأخ نبيل، هو يلّي رح يوصّلك على بيتك، وأيّ وقت بتتّصل أنا جاهز حتى أشوفك وأجاوب على كلّ الأسئلة، هادي أمانة كبيرة سلّمتك ياها الثورة، رجاء ما تتوقّفش كتير عند بعض القضايا الشخصيّة، لأنّها مش مفيدة، بس لازم أنت تعرفها حتى تقدر تكتب»

أمسك كريم المغلّف الأسمر بيدين مرتجفتين، وقف حين رأى القائد يقف، مدّ أبو جهاد يده وسلّم على كريم الذي سمع صوت الأخ نبيل، الذي صار فجأة في الغرفة. خرجا إلى عتمة الدرج وصعدا صامتين ركب إلى جانب نبيل في سيّارة فولسفاكن صغيرة، قاد نبيل السيّارة بهدوء وسط شوارع فارغة من دون أن يسأل إلى أين يجب أن يمضي به. توقّفت السيّارة أمام منزل كريم في شارع عبد العزيز، ناوله نبيل رقم هاتفه، وقال إنّه ينتظر اتّصاله. فتح كريم باب السيّارة وهمّ بالنزول، لكنّ يد نبيل امتدّت إلى ركبته مستوقفة.

«إنس مكان اللقاء بالأخ أبو جهاد، ما لازم حدّ يعرف وين الـ ٣٨»

أحنى كريم رأسه وخرج من السيّارة مهرولاً، صعد على الدرج إلى الطابق الثالث حيث يُقيم، لأنّ الكهرباء كانت مقطوعة، أشعل قنديل

الكاز، جلس على الكنباية الوحيدة في غرفته، وبدأت كلمات جمال تزحف على عينيه، شعر بالاختناق والعطش، وكانت الكلمات تتراقص فوق شظايا ضوء القنديل المنعكس في دموعه.

لماذا لم يجرؤ أن يقول لأبو جهاد إنّه لن يكتب هذا الكرّاس؟ هل هو الجبن أم الإعجاب بالرجل أم مزيج منهما؟

كان يريد أن يقول إنّه حرام، وإنّ العمليّات الانتحاريّة لا تفيد، وإنّه ضدّها لأنّ قتل المدنيّين ليس عملاً ثوريًا، لكنّه كان في المقابل معجبًا ومسحورًا بهذه الفتاة التي صنعت البطولة بموتها كانت الأمور مشوّشة في ذهنه، فهو لم يكن ضدّ العمليّة البطوليّة التي قادتها جمال، كان يريد للعمليّة أن تحصل وتنجح وتهز المجتمع الإسرائيلي من جذوره كي يشعر بمعنى نكبة الفلسطينيّين وطردهم من بلادهم، لكنّه كان يريد لجمال أن تبقى حيّة. مشكلة الثورة أنّ الرجال والنساء الذين يموتون في سبيلها، ويتحوّلون ملصقات وصورًا، لا يرون ملصقاتهم. يموتون وهم يتخيّلون الملصق، تصير الحقيقة وهمًا في حياتهم، بينما تتلاشى حياتهم في عتمة الموت

ضاع وسط كلمات جمال، شعر أنّ الكلمات صارت أفخاخًا، وأنّه سقط في الفخّ ولن يخرج منه. لماذا اختاره أبو جهاد لهذه المهمّة المستحيلة؟ هل كان الرجل يعرف حكاية حبّه الصامت للشهيدة، فاختاره كي يجعله يدفع ثمن جبنه؟ لم يكن في استطاعة جمال دعوته إلى الموت معها لو لم تستشر قائدها في هذه المسألة. ربّما اعتقدوا أنّهم في حاجة إلى طبيب، لكنّ الطبيب لا يستطيع أن يعالج الانتحار حين ينتحر مع المنتحرين. ما هذه العلقة، كيف يكتب خيبته، كيف يكتب بعدما قرأ ما كتبته جمال عنه، هل صحيح أنّه كان يبكي في بيصور، ولماذا تخيّلته هكذا، هل أرادت إخصاءه كي تبرّر لنفسها عدم تجاوبها معه؟ لكنّها تجاوبت، صحيح أنّها كانت متحفظة في المعسكر، لكنّها في مقهى «الجندول» كانت مختلفة، بعيدة وقريبة، عيناها تائهتان كأنّها تريد أن تقول

ولا تقول. ثم ما هذا اللقاء في مستوصف برج البراجنة الذي تمّ عن طريق الصدفة. كريم متأكّد أنّه لم تكن هناك مصادفة على الإطلاق، وأنّ جمال تعمّدت المرور بالمستوصف كي تلتقي به، لأنّها كانت تريد إيصال رسالة محدّدة إليه، لذا وافقت على دعوته إلى فنجان قهوة في «الجندول»، لكنّها تردّدت هناك ولم تقل ما كانت تودّ قوله.

سهر كريم الليل كلّه، وهو يقرأ ويُعيد القراءة. لم يخبر داني عن وقائع لقائه بأبو جهاد، وداني لم يسأل. عاش الرجل مع يوميّات جمال ثلاثة أيّام، كان كالذاهل، يقرأ كلمات متجاورة لكنّه لا يصل إلى المعنى. المعنى يفرّ من النصّ قبل أن يدخل في وعي كريم. يقرأ ويُعيد القراءة، واكتشف أنّه لن يستطيع أن يكتب. كيف يُعيد كتابة نصّ فكّكه الموت ثم أعاد تجميعه؟ كيف يفسّر صوتًا آتيًا من العالم الآخر؟ ماذا يستطيع الموتى أن يقولوا للأحياء؟ جمال كتبت شعرًا، قرأ الشعر وأعاد قراءته. رأى قصيدة أو ما يشبه القصيدة تتفكّك قبل أن تُعيد تجميع نفسها وإيقاعاتها، وتنساب في عينيه. قرأ القصيدة عشر مرّات، قرأها بصوت خافت وقرأها بصوت مرتفع. قرأها مغمضًا وقرأها بعينين مفتوحتين.

استيقظت جمال في ذاكرته حين قرأ خبر اغتيال أبو جهاد في تونس.

التقى طلال في المقهى في ساحة الكوميدي، كان الطالب اللبناني يحمل في يده جريدة «السفير» وبدأ يقرأ مقالاً يصف مأتم أبو جهاد في مخيّم اليرموك في دمشق. لا يذكر من الوصف سوى مشهد النعش وهو يطير فوق الأكفّ. «خرج المخيّم كلّه، جميع قرى الجليل اجتمعت من أجل وداع قائد انتفاضة أطفال الحجارة في فلسطين، ثم طار النعش، كان النعش يحلّق فوق الجموع ويمشي على رؤوس أصابع الأكفّ التي ارتفعت كي تحمله لم يكن بمقدور حاملي النعش التقدّم من شدّة الازدحام. جمدوا في أماكنهم، ولكنّ النعش عرف كيف يكمل رحلته إلى المقبرة. طار النعش الملفوف بالعلم الفلسطيني فوق الأنامل، أيدي جميع المشيّعين

ارتفعت كي تستقبله كأنّ النعش كان يطير، وكأنّ الأيدي المرتفعة صنعت له طريقًا في الهواء»

وضع طلال الجريدة جانبًا وسأل كريم عن رأيه في هذا الوصف الجميل. في تلك اللحظة رأى كريم نفسه جالسًا أمام أبو جهاد الذي قال إنّه يريده أن يرسم بكلماته خريطة الأمل فوق خريطة الموت التي كانت مفتوحة على مكتبه. في تلك اللحظة عادت كلمات جمال ترنّ في أذنيه، لم يبق في ذاكرته من قصيدتها سوى القليل من الأبيات، لكنّه سمع صوتها في مقهى «الكوميدي»، كأنّ الزمن تلاشى، كأنّه معها في كورنيش المزرعة، يحتسيان القهوة في مقهى «الجندول»، رأسها ينحني وخصلة من شعرها تغطّي عينها اليمنى، تنظر إلى لا مكان وتقول.

«سأمشي وأمشي

وأتلو بلاغ الحجرْ

وأتلو بلاغ الشجرْ

وأحضن حبّي

وأبني لقلبي

بيوتًا من الحزن والذكرياتْ

وأجلس وحدي

مع الموت وحدي

وصوتي هناك

كصوتي هنا

نداء لأرضي،

يرسم وجه المطرْ»

«هيدا شعر رومنطيقي»، قال كريم.

«أنا ما بهمّنيش الصفات، بكرا رح تكتشفوا إنّي كتبت أحلى قصيدة»

«شو؟»

«مش عم أحكي عن هادي القصيدة، لأنّ الشعر لازم يفاجئ الشاعر قبل ما يفاجئ القرّاء، عم إحكي عن قصيدة مكتوبة غير شكل، بكرا بس تقرأها تذكّرني، وقول جمال قالت»

عصفت به الذاكرة، وأحاط به صوتها، وندم لأنّه لم يكتب الكرّاس الذي كُلّف بكتابته. قرأ النصّ عشرات المرّات، وقرأ تفاصيل العمليّة الانتحاريّة، وشاهد جميع الصور المتوفرة، بل إنّ الأخ نبيل جلب له صورة فوتوغرافيّة لمكان يُطلقون عليه في إسرائيل اسم «مقبرة الأرقام»، حيث يدفنون الفدائيّين بحسب الأرقام وليس بحسب الأسماء. قال نبيل إنّه لا يعرف رقم جمال في المقبرة، لكنّ هذا ليس مهمًّا، المهمّ أن نستخلص الدرس، حتى موتانا صاروا أرقامًا، وهذه نقطة يمكن التركيز عليها للمقارنة بين الأرقام التي كانت تُحفر على أذرع اليهود في معتقلات الموت النازيّة، وأرقام موتانا

الفكرة لم تُعجب كريم، قال لنبيل إنّ هذه المقارنات غير مفيدة، الفلسطينيّون ضحيّة بذاتها وهم ليسوا في حاجة إلى المقارنة مع ضحايا آخرين كي يبرهنوا عن وجود مأساتهم.

كلّ ذلك ذهب هباء، النصّ لم يُكتب، ونبيل قُتل في انفجار عبوة ناسفة في منطقة الفاكهاني، والصلة بأبو جهاد انقطعت.

الغريب أنّ أحدًا لم يسأله عن النصّ الذي كتبته جمال. أغلب الظنّ أنّ حكاية جمال نسيت كغيرها من الحكايات. كانت هناك زحمة شهداء،

كأنّ الموتى الجدد يمحون الموتى الذين سبقوهم. هكذا ضاعت حكاية جمال ولم يبقَ منها سوى صورة البطولة في جسدها الملقى على الطريق في هرتسيليا

تذكّر كريم أنّ الشيء الثمين الوحيد الذي جلبه معه إلى مونبلييه كان نصّ جمال. لم يكن في استطاعته، عشيّة سفره، عندما رمى جميع أوراقه في سلّة المهملات، أن يرمي بجمال في مزبلة الذكريات.

ترك طلال معلّقًا في كلامه عن حكاية الفيلم الأوّل الذي سوف يصوّره في لبنان، عن العضلات ورياضة كمال الأجسام، وهرع راكضًا إلى البيت. دخل إلى غرفة النوم، فتح الجارور في الكومودينة إلى جانب السرير، حيث وضع المغلّف الأسمر، لكنّه لم يعثر عليه. فتح أبواب خزانة الثياب وبدأ يقلّب فيها حين دخلت برناديت إلى الغرفة

«ماذا تفعل»؟ سألت.

«ماشي، عم فتّش على غرض جبته معي من لبنان»

قالت إنّه لا شيء يضيع في البيت، وإنّها ستعثر عليه، لكنّها الآن مشغولة بابنتها لارا قالت إنّهم استدعوها إلى المدرسة، وقالت لها المدرّسة إنّ لارا بالت على نفسها، وإنّ هذا ليس طبيعيًا لفتاة في السابعة من عمرها، وإنّه يجب أن يراها المعالج النفسي في المدرسة، لأنّ هذا يدلّ على اضطراب في علاقاتها بأهلها وإنّها اضطرّت أن تُعيد الفتاة إلى البيت كي تغيّر لها ثيابها، وعندما رجعت بها إلى المدرسة، قابلت المعالج النفسي المسيو شارل، الذي استنتج من حواره معها أنّ الفتاة تعاني اضطرابًا في علاقتها بوالدها، وأنّه يتمنّى مقابلة الأب.

«أعطاك المسيو شارل موعدًا بعد أسبوع، وقال إنّه من الضروري أن تذهب».

«كسّ أخته»

طلبت منه أن لا يشتم، وقالت إنّها لم تتعلّم سوى الشتائم باللغة العربيّة، كأنّ هذه اللغة لا تستخدم إلّا للشتائم، وإنّ عليه، بدلاً من الانفعال، أن يفكّر بتحسين علاقاته بالأولاد، لأنّ البنتين لا تريانه إلّا نادرًا، حتى عندما يأخذهما إلى الحديقة العامّة، أو إلى ساحة الكوميدي، فإنّه لا يحكي معهما، ولا يهتمّ بهما

«شو هالقصّة التافهة، أنا لمّا كان عمري سبع سنين خريت تحتي بالمدرسة، بيّي ما أخد ولا عطي وقال لي إنس الموضوع، ونسيته، يمكن البنت خافت من المعلّمة لأنّها ما عرفت تكتب شي جملة، لا أكثر ولا أقلّ، هلّق جايين تعملولي البنت معقّدة نفسيًّا، شو هالحكي، ليش أنا وقت شخّيت تحتي بالمدرسة كان عندي مشكلة نفسيّة؟».

«أكيد»، أجابت برناديت.

«أنا؟»

«نعم أنتَ»

«لا يا مدام يلّي معقّد وعنده مشاكل نفسيّة هو إنتِ مش أنا»

قالت إنّها لم تعد تستطيع أن تتكلّم معه، لأنّه صار يغضب بسرعة، وأنّه يرفض أن يواجه أيّة مشكلة سواء أكانت صغيرة أم كبيرة، وبدلاً من أن يفكّر كيف يهتمّ بابنته، لأنّه هو من سبّب مشكلتها، يزيح التهمة عنه ويلصقها بها

طلبت منه بصوت يخفي الغضب بارتعاشات الهدوء أن يكفّ عن هذه التصرّفات، وإذا كان يعتقد أنّها هي المسؤولة عن اضطرابات الفتاة النفسيّة، فهي مستعدّة أن تستمع إليه.

«أنا رأيي أنّ البنت ما بها شي، ووقفي الحكي عن اضطرابات، وإذا

كان في حدًا موتّر الجوّ بهالبيت فهو إنتِ»

خرجت برناديت من الغرفة غاضبة، لتعود بعد دقائق حاملة مغلّفًا أسمر في يدها قالت إنّها خبّأته لأنّها وجدته مرميًّا بين الكلسات، «كنت أكيدة أنّك ستبحث عنه يومًا، فخبّأته في الجارور حيث أضع أوراق ملكيّة البيت، تفضّل، وأرجوك توقّف عن تخريب الخزانة»

اعتذر منها وقال إنّه لم يقصد شيئًا وإنّ هيدا معناة الحكي، وإنّه كان منرفزًا، وإنّه سوف يهتمّ بالفتاة، لكنّه يجب أن يقرأ هذا الملفّ الآن.

أخذ المغلّف منها وجلس خلف طاولة الطعام، ارتجفت يداه وهو يرى الحروف تنبثق من عتمة الموت، وسمع صوت أبو جهاد يقول إنّه يريده أن يجعل من جمال رمزًا للمرأة الفلسطينيّة.

فض المغلّف ليجد ثلاثة ملفّات مصوّرة عن مفكّرة كتبت عليها جمال نصّها التاريخ مطبوع في أعلى الأوراق. بدأت جمال الكتابة يوم الثلثاء ٢٦ كانون الأوّل، وانتهت منها يوم الاثنين ١٨ أيلول، على الصفحة الأخيرة كتبت جملة واحدة بخطّ عريض ملأ الصفحة بأسرها «والثورة وفيّة لدمائي، أختكم جمال سليم الجزائري، «جهاد» ٩ ـ ٢ ـ ١٩٧٨» هذا يعني أنّ التواريخ في أعلى الصفحات لا علاقة لها بالتواريخ الحقيقيّة. الأجندة التي كُتب عليها النصّ مصنوعة لتلائم الكتابة بالفرنسيّة أو الإنكليزيّة، أي من اليسار إلى اليمين، لكنّ جمال استخدمتها للكتابة بالعربيّة، فكتبت من اليمين إلى اليسار، وبدل أن يتقدّم التاريخ في أعلى الصفحات، صار يتراجع إلى الوراء، وفقد دلالاته. ليس هذا مهمًّا، فكّر كريم. قرأ اليوميّات من بدايتها إلى نهايتها، واكتشف أنّ ما علق في ذهنه من قصيدة جمال ليس هو القصيدة، إذ إنّ ذاكرته التي حفظت القصيدة أضافت إليها وحذفت منها هذا ما تفعله الذاكرة بنا وجمال أيضًا انخدعت بذاكرتها، فالسطور الأولى من قصيدتها الوحيدة ليست من

تأليفها، بل جزء من قصيدة لمعين بسيسو ألقاها في قاعة الأونيسكو في بيروت عام ١٩٧٤ تحمل عنوان «الأرض»، بمناسبة الاحتفال بيوم الأرض. لكنّ ذاكرتها خدعت القصيدة وأعادت تأليفها

وجمال الآن صارت خدعة كريم الكبرى، لماذا إذًا أراد أن يقرأ؟ في بيروت حين وصل إلى ذلك المقطع أغمض عينيه. لم يرمِ الكراريس جانبًا، أو ينهض عن الكنباية الوحيدة في شقّته الصغيرة، ويتوقّف عن القراءة، لكنّه أغمض عينيه، وأغفى. ماذا سيفعل الآن؟ هل سيغمضهما من جديد ويغفو؟ أم سيقرأ ويتمعّن في خديعته بنفسه؟

كتبت جمال عن كلّ شيء، وضعت إصبعها على مظاهر الفساد والإفساد في الثورة، لكنّها مع ذلك ذهبت إلى موتها من أجل ثورة لم تعد تؤمن بأبنائها هذه هي مفارقة موتها وسحر بطولتها لم تكن ساذجة كي تصدّق، لكنّها كانت مؤمنة إلى درجة جعلتها تتناسى ما تراه. يستطيع كريم أن يتحدّث اليوم في المدينة الفرنسيّة البعيدة عن السذاجة والإيمان، لكنّه في بيروت، حين كانت الكلمات الثوريّة تشعله ببراكين الاحتمالات، لم يشعر بسذاجته. حتى الخوف الذي كان يتملّكه ويشلّ حركته لم يعترف به إلّا بعد مغادرته بيروت. تحدّث في أيّامه الأخيرة في بيروت عن القرف من الحرب، وعن تحوّل السياسة إلى لعبة من اللاجدوى التي تتكرّر لكنّه لم يعترف إلّا هنا في بلاد الفرنسيس، مثلما كان والده يدعو فرنسا، بأنّ المسألة لم تكن لها علاقة باقتناعاته السياسيّة، بل كانت تجسيدًا لذلك الشعور المدمّر الذي اسمه الخوف.

عجز عن أن يشرح لهند بأنّ رغبته فيها لم تتلاشَ بسبب امرأة أخرى، رغم أنّه كان يومها مقتنعًا بأنّ جمال هي تلك المرأة الأخرى، بل إنّ التلاشي سببه الخوف. الخائف لا يأكل ولا يشتهي شيئًا، الخائف يخاف

جمال كانت تلك المرأة الأخرى، لكنّها لم تكن التقى بها أكثر من مرّة في مكتب القطاع الغربي لحركة فتح في الفاكهاني، لكنّ جميع

اللقاءات كانت سريعة. شربا الشاي مرّات عدّة في مقهى «الشموع»، لكنّ الجلوس في المقهى المكتظّ بالفدائيّين كان يجعل من اللقاء مجرّد طيف للعلاقة التي بناها معها في مخيّم بيصور، وعندما كان يطلب منها موعدًا حقيقيًّا كانت تجاوب أنّها سوف تتّصل به.

لماذا تعمّدت أن تراه قبل موتها بأيّام قليلة، وقبلت دعوته، وحدّدت المكان. لم ترفض الذهاب إلى مقهى «المودكا» في شارع الحمرا كي تفرض عليه لقاء حزينًا وبلا نكهة، في مقهى «الشموع»، بل قامت هي بتحديد مقهى «الجندول» هل كانت متردّدة، أم كانت تودّع الدنيا على طريقتها؟ يذكر أنّها لم تطلب منه أن يسكت عندما تغزّل بجمال عينيها وأنّه حين مدّ لها يده مدّت يدها الصغيرة الخجولة، وأنّها عندما انحنت على نفسها وهي تستمع إلى كلام الحبّ الذي قاله، كانت تشعُّ خجلاً ورغبة. لماذا إذًا كتبت عنه ما كتبت في يوميّاتها؟

عاد إلى اليوميّات لأنّه حين استمع إلى طلال يقرأ له عن تشييع أبو جهاد في دمشق، شعر بأنّ مزيج الوجد والحزن، الذي اعتقد أنّه تركه خلفه في بيروت، احتلّه من جديد. شعر بالارتجافة نفسها التي سبق له أن شعر بها يوم سمع بخبر عمليّة جمال وموتها الفاجع في هرتسيليا

أعاد قراءة الكرّاسات سطرًا سطرًا، قرأ عن نقد جمال للفساد، وعن فكرتها بأنّ المرأة كي تحصل على حقّها في المساواة يجب أن تقاتل كالرجل تمامًا قرأ عن معاناتها مع قائد السريّة الذي أمرها بمغادرة معسكر بيصور لأنّها كانت الفتاة الوحيدة بين مجموعة من الرجال وصل عددهم إلى الثمانين. قرأ عن إعجابها بالقادة مجيد وأبو عزّام وسعد جرادات، وتوقّف عند التدريب القاسي على قيادة المراكب المطّاطيّة، التي كانت وسيلة المجموعة للوصول إلى شاطئ حيفا

«تصوّروا كيف كنت أنام. كنت أنام مع أربعة شباب في السرير نفسه،

ولا أخجل من ذلك، لأنّ الباخرة كانت لا تصلح لحمل خمسة أشخاص. ولكن، رغم ذلك كنّا جميعًا يدًا واحدة، وكلمة واحدة، يجمعنا التصميم والإرادة والعطاء. كنّا نغني ونتدرّب وننتظر لحظة الشروع في العمليّة»

تعذبت كثيرًا وتحمّلت الباخرة التي لم يكن فيها مرحاض. «ربّما لن تصدّقوا أنّه خلال الأيّام الأربعة التي قضيناها في الباخرة لم أدخل الحمّام في انتظار الوصول إلى الشاطئ. عشت في البحر مع المرض والتعب والإرهاق، ولكنّي كنت أرفع من معنويات الشباب، أجلس معهم وأغني معهم، وأعدّ الأكل والشاي لهم»

تعذبت جمال كثيرًا كي تصل إلى لحظة تألّقها على الملصق. قرأ كريم كأنّه يستمع إليها، سمع نبرة صوتها من خلال الكلمات المكتوبة، وفهم لماذا لم يكن هو المقصود. فهو لم يعش معها لحظات التوتّر والخوف والمعاناة خلال التدريب في البواخر المطّاطيّة. ماذا جرى له إذًا حين قرأ المقطع عن الشابّ الذي أحبّته جمال، ولماذا أُصيب بالحزن والضياع وهو يقرأ كيف وصفته وروت عن علاقتها به في يوميّاتها، شعر أنّه هو المقصود، وأحس أنّ قلبه يحترق. لكنّه يكتشف اليوم أن لا علاقة له، وأنّها تتحدّث عن شابّ آخر أحسّ أنّ روحه تتفكّك، وجسمه يتلاشى، وضربه حزن من أحسّ أنّه كان مخدوعًا

«خلال فترة تواجدنا في المعسكر، كنت أعامل أحد الإخوة معاملة خاصّة، لأنّ هذا الأخ كان بحاجة إلى من يقف بجانبه ويساعده ويشعر معه. فكان دائمًا يشاورني بكلّ شيء يفعله. وكان إذا لم أتجاوب معه، وأحدّثه وأضحك معه وأجلس بقربه، يبقى زعلان. فكان يبكي دائمًا وإذا قلت له عن خطأ ما ينصدم ويتعقّد ويجلس لوحده دون أكل أو شرب ونوم. كان بكاؤه يحزّ في نفسي وأقول إنّه من أجلي يبكي. فكان قائد المعسكر يصيّح عليّ لأنّني أذهب معه وأتأخّر، فأطلع بكذبة من أجل أن لا يزعل هذا الأخ»

«ليش عم تكتبي عني هيك؟ أنا مش هيك»، صرخ كريم ورمى الكرّاس من يده.

هكذا يذكر نفسه في شقّته في بيروت، وحيدًا يقرأ ويرتجف حزنًا وغضبًا لكنّه لم يبك، تذكّر أنّه بكى مرّة في ليل بيصور، كان يتمشّى مع جمال، عندما سألته عن جورج. لم يبك لأنّ جمال أنّبته على خطأ ارتكبه، بل بكى لأنّ جورج كان صديقه. مات صديقه الطالب الفلسطيني في الجامعة الأميركيّة في بيروت. عاد محمولاً ومكلّلاً بثلج صنين الأبيض. وعندما طلبت والدته أن يُرفع صليب على قبر ابنها الوحيد الذي دُفن في مقبرة شهداء فلسطين، وهي مقبرة ذات طابع إسلامي، أُصيب الجميع بالخرس لكنّ مروان، الذي سيموت بعد ذلك بعشر سنوات اغتيالاً في قبرص، قال إنّ الصليب سيكون هناك. جلب صليبًا كبيرًا أسود وعليه اسم الشهيد، وزرعه على القبر كان الصليب الخشبي بطول متر ونصف، ولا يشبه الصليب الصغير الذي رُسم على بلاط ضريح كمال ناصر بحيث لا يُرى.

تلقّت مجموعة طلبة الجامعة الأميركيّة الأمر من داني بأن تحمي المقبرة، ذهب عشرة شبّان، كان كريم واحدًا منهم، بكامل أسلحتهم إلى المقبرة، كي يحموا المراسم. وصل داني مكفهرًّا، قال إنّ كاهن كنيسة السيّدة الأرثوذكسي هرب، ورفض أن يأتي إلى المقبرة، فاضطرّوا لجلب قسّيس بروتستاني فلسطيني جاء ليحضر صلاة الجنّاز في الكنيسة. وما إن أطلّ النعش، حتى انهار أفراد مجموعة الحماية المسلّحون، وهم يرون زميلهم محمولاً على خشبة، وانخرطوا في البكاء، ولم يعد هناك من معنى لأوامر داني الصارمة بتطويق المقبرة.

لم يحمِ الجنازة أحد، جورج لم يكن في حاجة إلى حماية، لأنّ الأيّام كانت غير هذه الأيّام. هذا ما سيقوله لخالد الذي روى له عن الإسلام، وعن ضرورة الانخراط في التيّار الأصولي لأنّه هو المستقبل،

بعدما تأكّدت هزيمة اليسار وبؤسه. يومها سأل خالد «ماذا سنفعل بجورج والصليب الذي رفعناه بناء على طلب أمّه وسط مقبرة إسلاميّة»؟ وسوف يُطرق خالد ولا يجد الجواب.

لو حكى كريم وهو يقرأ مذكّرات جمال لقال إنّه لم يبكِ، وإنّ جمال شوّهت صورته. العاشق لا ينتحر إلّا إذا مات حبيبه، ربّما لأجل ذلك تحدّثت جمال عن الموت سويًّا

تابع القراءة ليكتشف أنّه ليس بطل الحكاية، فجمال تتكلّم عن شابّ كتبت الحرفين الأوّلين من اسمه، ن ع لا يذكر كريم أنّه انتبه إلى وجود هذين الحرفين حين قرأ النصّ للمرّة الأولى في بيروت. كان ن.ع. يتدرّب مع المجموعة الانتحاريّة، وأُصيب في رجله ودخل المستشفى قبل العمليّة بثلاثة أسابيع، ولم يعد صالحًا بسبب ذلك لمتابعة المهمّة. زارها في بيتها وهو يعرج، ورجاها أن لا تذهب إلى موتها، وعندما رفضت هدّدها بأن يخبر أمّها بوقائع العمليّة الانتحاريّة، لكنّه كان أكثر جبنًا من أن يفعل ذلك.

الآن في فرنسا، تقفز السطور وتصفعه في عينيه، هل كانت قصّة حبّه لجمال مجرّد وهم؟ هل اخترع حكاية جمال من أجل أن يصير التخلّي عن هند ممكنًا؟ ولماذا تخلّى عن هند؟

صحيح أنّها قالت إنّها لا تستطيع أن تترك أمّها كان في إمكانه أن يسافر كي يكمل دراسته ثم يعود ويتزوّج. لكنّه قرّر أن لا يعود. قرّر أن يهرب من سلمى ومن والده ومن انحدار داني إلى الهاوية بعد موت خالد، ومن شبح الموت الذي رآه خالد في عينَي الجنرال السوري، فاخترع لنفسه قصّة حبّ وهميّة.

جمال وحيدة في مقبرة الأرقام هناك، في مكان ما من الجليل، وهو يجلس في بيته في مونبلييه، يجترّ الذكريات.

جاء إلى فرنسا كي يمحو الذكريات ويصنع لنفسه ذكريات جديدة، في

بلاد جديدة، ومع امرأة لا علاقة لها بالماضي.

يذكر أنّه عندما استفاق في اليوم التالي وكانت برناديت في سريره، وعرف أنّها ممرّضة، قال وجدتها امرأة بيضاء، جلدها يشفّ عن بياض يستوطن ما تحت الجلد. كأنّ البياض ليس لونًا، بل وهج يتسلّل من الأعماق ويصعد إلى جسمها ويلوّنه، ثم يتابع انبثاقه اللانهائي.

في إحدى نوبات سكره، وبينما كان يستمع إلى أغنيات أديث بياف، جاءه ذلك البيت من الشعر الجاهلي، حاول أن يتجاهله ويسافر في صوت المغنّية الفرنسيّة، لكنّه لم يستطع. رندح الشعر وغنّاه بصوت منخفض، مثلما كان يفعل أستاذه في صفّ البكالوريا، الذي كان يُطلق عليه الطلّاب اسم ربّ الأدب، ثم انفجر الشعر على لسانه، وشعر أنّ صوت المعلّم بطرس البستاني يخرج من حنجرته، مرتعشًا بالإيقاع

خفضت برناديت صوت آلة التسجيل وسألته ماذا يقول. وبدلاً من أن يجاوبها، ردّد البيت مرّة جديدة، ومرّة جديدة خرج صوت ربّ الأدب من حنجرته

حاول أن يترجم لها البيت لكنّه لم يستطع، قال إنّه يُنسب إلى شاعر جاهلي عاش في صحراء العرب، يتغنّى بجمال المرأة البيضاء، ويقول إنّ بياضها هو جلد لجلدها

سألته أين رأى الشاعر العربي امرأة بيضاء.

شرح لها أنّ البياض كان منتشرًا في جزيرة العرب.

«لكنّك أخبرتني العكس»، قالت.

حاول أن يقول إنّ ما يهمّه الآن هو بياضها هي، وجمالها هي.

عندما استفاق كريم بعد ليلته المخمورة ووجد برناديت في سريره، أُصيب بدهشة الجمال. هكذا سيسمّي لحظة تغلغله في عينيها، وهي تروي

له كيف التقت به تحت ثديي تلك العاهرة، وكيف تمشّيا في شوارع مونبلييه على غير هدى، وكيف تعلّق بعنقها ورفض أن يتركه، عندما قالت له إنّها متعبة ومضطرّة إلى العودة إلى بيتها

«ثم اكتشفت أنّك سكران، وأنّي لا أستطيع أن أتركك وحدك، فقرّرت أن أمشي معك إلى بيتك، وهناك عبطتني، وأخذتني إلى السرير، وفي الصباح، سألتني عن اسمي وماذا أعمل، وعندما قلت إنّني ممرّضة، قلت إنّك تحبّني، فأصابتني موجة من الضحك»

«أنا؟»

قالت إنّ سعاله نفسي، «أنا متأكّدة أنّك لا تسعل أو تتثاءب في المستشفى، لكن ما إن تصل إلى البيت وتضطرّ للكلام معي أو مع البنتين، حتى تُصاب بنوبة سعال، أنا لم أعد أعرفك، ولا أعرف كيف وافقت معك على الاستقالة من المستشفى من أجل التفرّغ لتربية الطفلتين، فضاعت حياتي. البنتان في المدرسة وأنت في العمل وأنا أنتظر حوّلتني إلى امرأة شرقيّة، والآن تريد أن تتركنا وتذهب إلى بيروت، نحن لن نخرّب حياتنا كي نرافقك لأنّ علينا أن نحتمل نزوات الوحش العربي النائم في أعماقك. أخفيت هذا الوحش عنّي وعن نفسك، لكنّه استيقظ اليوم كي ينتقم مني ومنك ومنّا جميعًا»

لم يقل لها إنّ الإنسان لا يستطيع أن يعيش من دون مراياه. استبدل نسيم وهند وجمال وداني وملاك، بمرايا فرنسيّة. لكنّه بات يشعر أنّه لم يعد يرى نفسه في محيطه الجديد. كأنّ كريم تلاشى وصار بلا صورة. يريد فقط أن يستعيد صورته قبل أن يقرّر ماذا سيفعل بما تبقّى له من عمر

كان كريم يقترب من الأربعين، عندما قرّر الموافقة على اقتراح شقيقه. قال لنسيم على التلفون إنّه لا يعده بشيء، «خلّيني شوف وبعدين بقرّر». الغريب أنّ حديث الشقيقين الهاتفي بدا وكأنّه يدور بين رجلي

أعمال. لا عواطف ولا اشتياقات ولا نكات. كلام ناشف ومجرّد من الأحاسيس، كأنّ التوأمين كانا يستخدمان الكلام من أجل تغطية الكلام.

الكلمة العاطفيّة الوحيدة على الهاتف قالها نسيم.

«هلّق أنتَ تعا ومنشوف، رح يصير عمرنا أربعين، والعمر عم بضيع من دون ما نحسّ»

فكرة العمر الضائع أصابته بالرعب. تراءت له صورة نصري يمسك كأس النبيذ بيد مرتجفة، يدنيها من شفتيه ويقول إنّ العمر مثل الحلم. تغرورق عيناه بالدموع قبل أن ينفجر ضاحكًا

«كذبة، الحياة كذبة، والحقيقة الوحيدة والأكيدة أنّه كلّنا بدّنا نموت»

«شو هالحكي يا بيّي بعدك شابّ» يقول نسيم.

الآن يكتشف كريم أنّ الحقيقة الوحيدة هي الكهولة في الأربعين يكتشف الإنسان أنّ ما مضى لم يمض، كأنّه انزلق من بين الأصابع، وأنّ الوراء صار أكبر من الأمام.

كان ربّ الأدب أستاذًا غريب الأطوار، رسمت الكهولة تجاعيدها على وجهه، صغرت عيناه وكبُر أنفه، وصار نحيلاً كخيط من المصّيص، يهتزّ طربًا وهو يردّد بيتَي المتنبّي اللذين يرثي فيهما العمر

«وكيف التذاذي بالأصائلِ والضُحى

إذا لمْ يَعُدْ ذاكَ النسيمُ الذي هبّا

ذكرتُ بهِ وصلاً كأنْ لم أفز بهِ

وعيشًا كأنّي كُنتُ أقطعُهُ وَثبا»

شعر كريم أنّ العمر مضى به وجرّده من كلّ شيء، تاركًا إيّاه غريبًا في بلاد غريبة. وحدهم الذين ماتوا استطاعوا التحايل على هذه اللعبة رافضين

قرأ نصوص جمال وفهم. الفتاة الفلسطينيّة السمراء لم تكن تحبّه، ومن المرجّح أنّها لم تدر بوجود هذه العاطفة التي يدّعيها الآن، وهو جالس في غرفة الطعام في منزله في فرنسا بلى، ربّما أرادت اللقاء به كي تهرب من نظرات الخوف في عيني حبيبها الحقيقي الذي وجد طريقة كي يتهرّب من الموت في اللحظة الأخيرة. جمال قبضت على اللحظتين الوحيدتين اللتين يستطيع الإنسان من خلالهما تحدّي العمر والانتصار على الزمن: الحبّ والموت. حبيبها الأوّل أراد تجريدها من الموت كثمن للحبّ، لكنّها رفضت، أمّا كريم فلم يكن سوى حكاية صغيرة أثبتت لنفسها من خلالها أنّها تستطيع القبض على الجمرتين معًا

علا صوت الموج في مطعم مسبح «السبورتينغ كلوب»، وكان داني يشرب العرق من دون حساب. بدا داني غريبًا، كأنّه ليس داني القديم بل شبيهه. فكّر كريم أنّ هذا الداني الذي يُعيد على مسامعه الحكايات نفسها كالكهول، يشبه داني القديم كأنّه توأمه، لكنّه ليس هو علاقة تشابه وامتزاج وافتراق تشبه علاقته هو بشقيقه التوأم.

عندما التقيا بعد تلك الأعوام الطويلة، شعر كريم أنّ سقف السماء صار منخفضًا، وأنّ البحر لم يعد امتدادًا للمدينة بل صار أشبه بوادٍ يهدّد بابتلاعها عادت به الذاكرة إلى صديق داني الذي أطلق على نفسه اسم كميل. كان هذا الكميل رجلاً غريب الأطوار، جاء من قريته البعيدة في البقاع، كي يصير كاتبًا ثوريًا، كما وصف نفسه يقضي معظم وقته في غرفته الصغيرة في حيّ الوتوات، يشرب الفودكا ويأكل اللحوم، ويكتب. لم يقرأ أحد شيئًا من الروايات التي ادّعى أنّه كتبها كان يقول إنّه يرفض أن ينشر لأنّه يكتب لزمن لم يأتِ بعد، وكان يزور المواقع العسكريّة برفقة داني، ولحيته الصغيرة المدبّبة تنفض خمرًا

سأله عن كميل، فابتسم داني وغامت عيناه في الفراغ، امتصّ رشفة من كأس العرق، «كلّنا مجرمين»، قال داني.

«لا مش صحيح، أنا يعني، أنا ما قتلت حدا»، قال كريم.

«ما قتلت لأنّك جبان، جبنك منعك من القتل، بس أنت مجرم»

«أنا   أنا كان بدّي.

«أنت كان بدّك تقتل بس ما قدرت، أنا قدرت، وشو الفرق، حتى خالد كان جزء من هالقصّة يلّي أبطالها مش أبطال. أنت جايي تعاتبني لأنّي لمّا قتل خالد اختفيت، وإجت مرته لعندي على البيت ودقّت وما فتحتلها الباب»

«هي خبّرتني، إجت لعندي وسألتني عنك»

«وإنت شو عملت، ضبّيت أغراضك وفركتها على فرنسا، وجايي تشوفني حتى تسألني ليش خنت خالد، ما إنت كمان خاين يا حبيبي».

«أنا ما خصّني، أنا خفت»

«وأنا كمان بقدر قول إنّي خفت، بس بكون عم كذب عليك متل ما إنت عم بتكذب، الحقيقة أنا كنت تعبان ووحيد وحزين، وقت راحت مرتي حسّيت حالي متل الضايع، أنا كنت عارف أنّها بدها تفلّ وما ترجع، أنا قلت لها تفلّ لأنّه خلصت القصّة، بس لمّا فلّت صرت متل المجنون، كأنّي نسيت إنّي كنت عارف، هيدا هو الفشل، لمّا الواحد بينسى الأشيا يلّي بيعرفها وبيصير كأنّه ما بيعرف شي، وقتها بيكون كأنّه مات. أنا فعلاً كنت حاسس إنّي ميت. كان بدّك ياني أفتح وخلّص المرا من الموت. إنت ليش ما فتحت بابك؟»

«أنا فتحت، بس قلت لها إنّي ما بقدر خبّيها عندي لأنّ بيتي مش آمن»

«يعني كذبت عليها وتركتها تموت»

«ليش هي ماتت؟»

«هي وبنتها قتلوهم، فاتوا على بيتهم ودبحوهم بالسكاكين، دبحوا المرا ودبحوا البنت ومسحوا أيديهم المليانة دم بالحيطان»

«دبحوهم!».

«ليش ما كنت عارف؟»

«ما أنا كنت مسافر».

«لا دبحوهم قبل ما تسافر».

«وسينالكول؟ قتلوه ولا بعده طيّب؟»

بدا صوت كريم وهو يسأل عن سينالكول أشبه بصوت ممثّل هزلي في مسرح مهجور. سمع حكاية ذبح المرأة وابنتها بالسكاكين كي يكتمل الانتقام، ويدفع خالد الثمن كلّه، لكنّه بدل أن يشعر بالخجل ويسكت، لم يجد ما يسأل عنه سوى حكاية الشبح الذي لم يكن أحد متأكّدًا من وجوده.

نظر إليه داني بعينين نصف مغمضتين وقال إنّه يجب أن يمضي. طلب الحساب، دفع رافضًا محاولة كريم أن يدفع، اتّكأ على جنبه، ومشى وهو يعرج، من دون أن يلتفت إلى الوراء.

ـ ١٠ ـ

لا تستطيع هند أن تستجمع حياتها مع زوجها في سياق. فالرجل الذي استولى على قلبها في غفلة منها، كان مليئًا بالتناقضات إلى درجة جعلتها تشعر أنّها لا تعيش مع رجل واحد، وأنّ هذا الرجل الذي يُدعى نسيم شمّاس، الذي طلّق تجارة المخدّرات، وصار يعمل في استيراد الأخشاب والبنزين، هو عدّة رجال في شخص واحد.

يكون حنونًا حين يحتاج الأولاد إلى حنان، ومحبًّا حين يأتيه الحبّ، وداعرًا حين يسكر ويبدأ في كلامه الجنسي الفاحش معها في السرير، ولطيفًا حين ينام إلى جانبها كالطفل، وضائعًا حين لا يجدها إلى جانبه، وضاحكًا حين يواجه الصعوبات. كتلة من التناقضات اجتمعت في رجل واحد. لا تدري هل يحبّها أم كان زواجه منها مجرّد انتقام من الزمن ومحاولة للبرهنة لنفسه بأنّه يستحقّ أن يكون أفضل من شقيقه، لأنّه أكثر شجاعة منه وأكثر صدقًا مع نفسه ومع الآخرين

لم يكن نسيم قادرًا على إخفاء مشاعره، فالأشياء ترتسم على وجهه، كأنّ وجهه كان صفحة بيضاء تنكتب عليها الحقيقة، لذا لم يكن في استطاعته أن يكذب على زوجته، أو يخفي عنها شيئًا، أو يخترع الحجج كي يتغطّى بها مثلما يفعل معظم الناس.

«ما تكذب، بقدر أقرأ كلّ شي على جبينك»، قالت له هند بعدما انتظرته في إحدى الليالي حتى الثالثة صباحًا كانت تمطر وكانت القذائف. قال لها قلبها إنّ هناك خبرًا سيّئًا، وهند كانت تصدّق قلبها لأنّه لا يكذب عليها حدست أنّ زوجها قُتل، وأنّ جثّته رُميت تحت أحد الجسور على عادة تلك الأيّام، فجلست في الصالون من دون أن تنتظر، صعقتها فكرة موت زوجها، لكنّها لم تبكِ، حتى الحزن تلاشى أمام شعورها بالفراغ

عندما عاد، فوجئت بأنّه لم يمت. نظرت إليه من طرف عينيها المغمضتين، ولم تقل شيئًا

«بعتذر حبيبتي أكيد انشغل بالك، بس بتعرفي التلفون معطّل»

«قومي لننام»

نهضت متثاقلة، وقالت إنّها فوجئت بعودته قالت إنّها كانت متأكّدة من موته، وإنّها مصدومة لأنّها لم تفرح عندما رأته. قالت إنّها في لحظات الانتظار كانت لا تتمنى سوى عودته، «وبعدين استسلمت لفكرة الموت، كنت أكيدة إنّك متّ، وما بعرف كيف ارتخيت، بدال ما أزعل نعست، الموت بينعّس»

نظرت في وجهه بينما كان يخلع ثيابه وقالت إنّها لا تريده أن يحكي لأنّها تعرف كلّ شيء، وإنّها تُعجب من أمره، كيف يخاطر بحياته في سواد الليل البيروتي المليء بالمخاطر من أجل امرأة من إيّاهن.

«قلت لك كان عندي شغل، وأنا نعسان، الله يخلّيكِ ما إلي جلادة تفتحي معي محضر».

قالت إنّها تريد تذكيره بأنّها تستطيع أن تقرأ جبينه، وإنّها ليست في

حاجة إلى الاستماع إلى أكاذيبه، وإنّها تعرف كلّ شيء، لأنّها تعلّمت من حياتها معه أن تشمّ النساء. «بتعرف خلّيتني إنسى ريحة الرجولة، كلّ ما بتقرّب عليّي بشمّ ريحة نسوان، وهلّق ريحة نسوان، ومكتوب على جبينك نسوان، بتعرف شو أسوأ شي فيك هلّق، أسوأ شي أنّ النعّوسة طارت بسببك، موتك الافتراضي نعّسني، وخياناتك وعّتني من النوم، حلّ عني، ما بدّي إسمع»

كيف يشرح لها أنّه لا يخونها، وأنّه لم يخنها مرّة في حياته، وأنّ كلّ هذا لا علاقة له به. كأنّ الذي يخرج مع النساء ليس هو بل شخص آخر أراد أن يقول، لكنّه يعرف أنّ الكلام يصير جرحًا مع هذه المرأة التي يحبّها

لم يقل لها إنّه منذ أن تزوّجها لم يخرج مع امرأة أخرى، كلّ النساء اللواتي خرج معهنّ كنّ عاهرات، والعاهرة امرأة، لكنّها ليست كالنساء، إنّها صورة امرأة لكنّها لا تعلق في الجسد ولا تترك آثارها على الروح

نسيم يعرف أنّ هذا ليس حقيقيًّا، لكنّ الحرب تجعل الباطل حقًّا، مثلما كان يقول نصري. خيبة نسيم المزدوجة كانت مع سوزان التي لم يتخلَّ عنها، رغم أنّها تخلّت عنه بسبب حماقة والده وخوفه على ابنه. ومع ذلك يجرؤ أن يحكي أنّ المومسات لا يعلقن في الجسد ويتركن بصماتهن على الروح لم يضع نسيم حكايته مع سوزان في خانة العلاقة مع المومسات، سوزان قصّة أخرى. ذهب إليها تحت القصف كي ينتشلها من السوق العمومي، بعدما تحوّل ساحة قتال، وقام رجال الميليشيا الكتائبيّة باغتصاب نسائه قبل توجيه إنذار إليهنّ بضرورة المغادرة.

كان نسيم جالسًا مع شباب «الإس ك إس»، أي الشرطة الكتائبيّة، في ثكنتهم في مدرسة الثلاثة أقمار في الأشرفيّة، يحتسي معهم العرق، ويدخّن الحشيش ويعدّ القذائف، حين ظهرت سوزان أمامه. كان الشباب

يتفاصحون ويقولون إنّ الريّس ديب بدأ بتنفيذ تهديده. روني، وهو شابّ في التاسعة عشرة روى أنّه كان في الأمس في دوريّة الأسواق، وأنّ المشهد كان مثل أفلام الرعب، وأنّ الريّس ديب حسمها، سحب الشباب بالقوّة لأنّ المشهد كان مقرفًا، وأبلغ النساء بضرورة مغادرة المكان قبل السادسة من مساء اليوم. «وقال، بكرا الساعة ستّة المسا رح أقصف قبل ما أقتحم عن جديد، ويلّي بتكون هون وما بتموت تحت القصف، رح يقتلوها الشباب، الأوامر واضحة مفهوم».

«وين بدّهم يروحوا يا زلمي، ما هيدول مقطوعين»؟ سأل نسيم.

«يروحوا أو ما يروحوا، يصطفلوا، الباش أمر بتسكير سوق الشراميط والريّس ديب لاقى أنّ هيدي أفضل طريقة، قصف ثم اقتحام، أنا والله كنت ناوي إنزل مع الشباب اليوم، بس الريّس منعني، ما بعرف شو صارلي مبارح، من بعد ما عملنا وسوّينا بالنسوان، بلّشت أستفرغ وصار لوني أصفر متل الزعفران»

«خفت»؟ سأله نسيم.

«ليك على هالحكي، من شو بدّي خاف، شويّة نسوان معتّرين، وقال ما قبلوا يخلّوا الشباب، فاضطرّينا نغتصبهم، عمرك سمعت عن شرموطة تُغتصب!»

في تلك اللحظة ظهرت سوزان أمامه، رآها مرميّة في وسط الشارع، تئنّ والدم يتدفّق من جميع أنحائها وقف نسيم، حمل بندقيّته واتّجه صوب سيّارته.

«وين رايح بحشرة القصف»؟ سأل روني، وهو يركض خلف نسيم، ويحاول أن يوقفه قبل أن يصل إلى السيّارة.

«نازل على السوق، في واحدة لازم طلّعها من هونيك».

اندفع نسيم إلى سيّارته وقادها كالمجنون، وكانت القذائف تلتمع في سماء بيروت المقفرة.

وصل إلى السوق العمومي، ركن سيّارته قرب مطعم الشاورما الذي كان شبه مهدّم، حمل بندقيّة الكلاشينكوف بيده اليمنى واندفع صاعدًا على الدرج إلى الطابق الثالث. كان القصف، وكان الباب مفتوحًا دخل وهو ينادي باسمها، سمع أنينًا خافتًا آتيًا من صوب المطبخ، اقترب ورآها كانت سوزان تجلس أرضًا واضعة يديها على أذنيها اقترب منها وسط دويّ القذائف التي كانت تخترق بدايات العتمة، مدّ لها يده طالبًا منها أن تنهض.

بدلاً من أن تلتفت إلى مصدر الصوت، تقوقعت سوزان على نفسها في زاوية المطبخ وارتفع أنينها

«قومي امشي معي»، قال نسيم بصوت منخفض.

«ما تقرّبوا عليّي، بيكفّيني يلّي فيني، الله يخلّيك، أنا ما عندي مطرح روح عليه، اقتلني بس أوعا تقرّب، عيب، يا عيب الشوم، ما عندكم أمّهات، ليش عم تعملوا فينا هيك» وصرخت بصوت عظيم «يا يسوع، تعا شوف أولاد الشرموطة شو عم يعملوا بالمجدليّات»

«قومي يا أمّي، أنا نسيم»

«مين»؟ قالت بصوت متحشرج

«نسيم»

«مين نسيم؟»

«نسيم ابن نصري الفرمشاني، قومي معي لنروح»

وضعت سوزان رأسها بين يديها وبدأت تبكي، كان كلّ جسدها

يرتعش بالنشيج الذي خرج من صدرها ويديها

أمسكها من ذراعيها كي يوقفها، فتشبّثت في تقوقعها، انحنى، تراجع إلى الوراء، قرفص إلى جانبها، وأفهمها أنّه جاء من أجل إنقاذها وأنّ عليها أن تأتي معه، قبل أن يتوقّف القصف ويجتاح المسلّحون المكان. قال إنّه سيأخذها إلى بيته، وسيؤويها كما آوته عندما كان صغيرًا، «ما تخافي أنا معك، قومي تنروح»

تراجع رأس المرأة إلى الخلف ونظرت إلى الشابّ الذي يجلس إلى جانبها، «أنت نسيم ما غيره، شو بدّك فيّي يا ابني، روح عند أهلك»

جلس نسيم أرضًا، أخذ سوزان بين ذراعيه، وضمّها إلى صدره، وقال موشوشًا، إنّها يجب أن تأتي، وإنّها إذا رفضت سيبقى هنا ويموت معها

نهضت المرأة، دخلت إلى غرفة النوم، وبدأت تجمع أغراضها، «اتركي كلّ شي بأرضه، ما في وقت، منك سامعة القصف، هلّق بيجوا، خلّينا نفركها»

وقفت، تردّدت، ذهبت إلى سريرها وأخذت من تحت مخدّتها أيقونة صغيرة لمريم العذراء، وضعتها في عبّها، ومشت منحنية إلى جانب نسيم.

هكذا استعاد نسيم المرأة التي طردته من بيتها أخذها إلى شقّته الصغيرة التي أقام فيها قبل زواجه من هند، بعدما ترك منزل والده، حيث أقامت معه حوالى أسبوع، ثم وجد لها شقّة هُجّر أصحابها المسلمون في حيّ البدوي، أقامت فيها عشرة أعوام، قبل أن تموت كان نسيم يزورها خلال هذه الفترة مرّة في الأسبوع، في الخامسة من بعد ظهر كلّ يوم جمعة، ويرسل لها صحن كنافة بالجبن صباح كلّ أحد.

قال لروني إنّ ما جرى في السوق العمومي لا يجوز، «شو ذنبهم النسوان»، لكنّه لم يجد أمامه سوى آذان صمّاء، فأُصيب هو الآخر

بالطرش. ميشال حجّي نصحه أن لا يلتفت إلى هذه الأمور، «القضيّة أكبر من هيك، نحن عم ندافع عن الوجود المسيحي بالشرق، وشويّة تجاوزات هون أو هونيك مش لازم تأثّر علينا»

فهم نسيم أنّ عليه أن لا يرى، وأنّ المقاتل الحقيقي هو من يُغمض عينيه ويندفع إلى الحرب، ولا يسأل، بل يترك الأشياء تأخذه إلى حيث تريد. لذا طلب من سوزان أن تتوقّف عن رواية الحكاية نفسها في كلّ مرّة يزورها قال لها إنّها يجب أن تنسى، وأن تقضي ما تبقّى لها من أيّام وهي تتذكّر الأشياء الجميلة التي عاشتها، بدلاً من أن تُعيد على مسامعه حكاية فاتن المصريّة.

رفضت سوزان أن تنسى، قالت له إنّ صورة فاتن تأتيها في كلّ ليلة ببطنها المبقور، «ليش؟ فيك تشرح لي ليش جماعتك عملوا هيك بالنسوان؟ ليش أخدوا البنات المصريّات والتركيّات والحلبيّات وقتلوهم بهالطريقة؟».

ماذا جرى في السوق العمومي يوم الخميس ١٤ كانون الثاني ١٩٧٦؟

الحكايات انطوت مع موت أبطالها جميعًا، كلّهم ماتوا، قال نسيم للمهندس أحمد الدكيز الذي كان يروي له عن مشاريع تهديم بيروت القديمة وبناء بيروت جديدة في مكانها «رح تصير بيروت متل باريس وأحلى»

«بس الحرب بعدها ما خلصت»، قال نسيم.

«ومش لازم تخلص هلّق»، أجاب المهندس، «الحرب هي أفضل مهندس معماري، هي بتدمّر حتى نحن نقدر ندمّر ونعمّر»

السوق العمومي أو شارع المتنبّي بقناطره العثمانيّة، ولوحات النيون المضاءة التي تزيّن شرفاته معلنة أسماء المومسات، بقي منتصبًا وشاهدًا على المجزرة التي لن تُمحى ذاكرتها إلّا بعد عشرة أعوام، حين توفيت سوزان.

هل صحيح ما روته سوزان؟

هل صحيح أنّ الشباب قسّموا المومسات بحسب جنسياتهن بعدما قاموا باغتصابهنّ في شكل وحشي. ثم قاموا بفرزهن، قتلوا المصريّات والتركيّات والحلبيّات، أمروا المسلمات اللبنانيّات بمغادرة المكان فورًا، وأعطوا المسيحيّات مهلة حتى مساء اليوم التالي؟

سأل نسيم روني ماذا جرى، لكنّ ذاكرة الشابّ كانت مشوّشة، بحيث إنّه لم يستطع أن يستجمع الأحداث، فروى شذرات مليئة بالتناقضات، وسط ضحكاته الهستيريّة.

لماذا انتظر نسيم كلّ تلك الأعوام كي يعرف من شقيقه سبب طرد سوزان له، حين عاد إليها صباح ذلك الأحد، بحسب الاتّفاق بينهما؟

لماذا لم يسألها ويكسر جدار الصمت الذي ارتفع بينهما خلال عشرة أعوام؟

يومها شعر نسيم بالندم، صبّ شتائمه على شقيقه وهدّده بالقتل، لكنّه كره نفسه، وكره عجزه عن الكلام.

كانت سوزان، خلال زياراته الأسبوعيّة لها شبه صامتة لم تكن تجد ما تقوله سوى الدعاء له، وحين يحكي عن ذكرياته معها، كان يلفّها الصمت، وعندما يسألها عمّا بها كانت تقول إنّها بردانة. كانت سوزان تشعر بالبرد في كلّ الأوقات، ولم يفهم نسيم سبب ذلك الشعور. اعتقد كالأهبل أنّها عاهرة، وأنّ العاهرة لا تستطيع أن تنام وحدها في فراش خالٍ من الرجال، وأنّ هذا هو سبب شعورها بالبرد حتى في عز الصيف. لم يفهم نسيم أنّ البرد الحقيقي الذي يتغلغل في العظام ناجم عن العجز عن الكلام. أحسّ بالحاجة إلى زيارة قبرها، كي يقف أمامه ويقول إنّه لم يخنها، ولم ينكث عهده لها، وإنّ الذي خانها وخانه هو نصفه الثاني. أخبره بما جرى، لأنّه كان كمن يُخبر نفسه، ولم يكن يتوقّع أن يغدر به

توأمه ويروي الحكاية لوالده. يستطيع نسيم أن يتخيّل سوزان المهانة تحت نظرات نصري القاسية، ولؤمه وعدم رحمته. الآن فهم لماذا لم تستطع سوزان أن تغفر له. حين أتى بها إلى بيته، شعر أنّه بطل وشهم. غامر بحياته وغفر لم يسألها مرّة لماذا طردته كي لا يحرجها ويهينها، ويبدو كمن يمننها حاول أن يحكي معها وأن يتصرّف كصديق يشبه الأبناء، لكنّها التفّت بالصمت، فاحترم حزنها ووحدتها

لم يذهب نسيم إلى القبر كي يغطّي رفات سوزان بالكلام، فهم أنّ الإنسان يتغطّى بالكلام كي لا يبرد، لكنّه لا يعرف أين قبر سوزان. دُفنت المرأة في المقبرة الجماعيّة، لأنّها لم تكن ابنة عائلة تمتلك قبرًا، ولا إمكانيّة الآن للوصول إليها ستبقى سوزان بردانة إلى الأبد، ونسيم لن يستطيع أن يجد الكلمات.

حاول أن يقول لهند إنّه يريد أن يحكي وأن يروي لها، لكنّ الكلام يتلعثم في فمه، فالكلام كالبذور يحتاج إلى أرض تستقبله، ولم تكن أذنا هند مستعدّتين للاستماع. لا، الحقّ ليس على هند، فنسيم لم يكن يجرؤ، لأنّه لم يكن يعرف كيف يقول، أو ماذا يقول. هل يردّد كلام والده بأنّ الباطل صار حقًّا بسبب الحرب؟ لكنّ هذا ليس صحيحًا قال والده إنّ اللبنانيّين جعلوا من الحرب حائط مبكى، كي يبرّروا نذالة الإنسان وجبنه وعجزه عن فهم الغابة الداخليّة المتشابكة الأغصان التي تستوطن روحه وعقله، وتجعله عاجزًا عن فهم أفعاله. وغدًا عندما ستنتهي الحرب، ماذا سنقول؟ هل نحن إليها لأنّها ملأت فراغ حياتنا بالفراغ؟ أم نبقى نجترّ ذكرياتها حتى نهاية أعمارنا؟

سلمى قالت لشقيقه إنّ الحرب لن تنتهي لأنّها موجودة في أعماقنا، وكريم حين عاد إلى بيروت، لم يجد سوى هذه العبارة يستخدمها للهزء من والدة هند!

«والله طلع براسي إنّي أقتلك، أنت دبحتني، وخلّيت العمل النبيل الوحيد يلّي عملته بحياتي بلا طعمة. بتعرف شو عملت سوزان لمّن شافتني ببيتها وجايي لآخدها من تحت القصف، غطّت وجهها بإيديها، وقالت لي إنت لا، ما بدّي، فكّرت أنّها مخجولة مني، وبعدين فهمت أنّها احتقرتني وضلّت هيك حتى ماتت وكلّه بسببك. يا لطيف كيف لعب الشيطان بعبّي، وحسّيت إنّي بقدر أقتلك. تفو على الشيطان وساعته، أنت خاين يا خيّي يا حبيبي، وأنا سامحتك، خلّينا نشوف شو بدنا نعمل بالمستشفى»

قال نسيم عن المستشفى، وهو يجلس مع شقيقه وحدهما في انتظار وصول المهندس أحمد الدكيز، حاملاً خرائط المبنى. هند كانت غائبة عن هذا اللقاء، كانت تجلس في غرفة الطعام تدرّس أولادها قالت لنسيم إنّها تحتقر هذا المهندس الذي لا همّ له سوى تجميع المال، يعمل مع الشركة العقاريّة فيما يستعدّ للهجرة إلى كندا يتحدّث عن جمال المدينة القديمة في مونتريال ويساهم في هدم بيروت القديمة! كما أنّها لا تحبّ زوجته التي لا تتوقّف لحظة واحدة عن الغواية، كأنّها لا تستطيع أن تنسى أنّها أنثى، كأنّ مركز ثقلها يقع ما بين فخذيها، «وأنت يا حبيبي بتحبّ هالنوع من النسوان، بعتذر أنا ما بقدر أخدمك، ولا بقدر صاحب أصحابك»

سؤال الحرب لا معنى له، السؤال هو كيف يستطيع نسيم أن يروي ما لا يُروى؟

ماذا يقول لهند؟ وكيف يشرح لها أنّه لا يعرف ماذا يجري له، وأنّه عاد إلى حياة الليل التي تطهّر منها بالحبّ الذي أخذته إليه، من دون أن يعرف لماذا، ولا كيف، لكنّ هذا لا علاقة له بحبّه لها؟

كيف يشرح لها ما لا يستطيع أن يشرحه لنفسه؟

كيف يروي الفرق بين الحقيقة وعكسها؟ كيف يقول إنّه لا يعرف الكثير، لكنّ ما يعرفه أنّ حياته في البيت معها ومع الأولاد هي الحقيقة،

وأنّ الأشياء الأخرى تشبه ظلال الأشياء، وأنّ من تنزعج من تصرّفاته ليس هو، بل مجرّد ظلّه، وأنّه يمشي على ظلّه في كلّ يوم، من دون أن يشعر بالألم؟

«هيك لازم تحسّي، كأنّه يلّي عم يندعس هو خيالي مش أنا، ادعسي على ظلّي حتى تقدري تشوفيني».

لم تستطع هند أن تفهم سر زوجها، وخصوصًا بعد موت والده، عندما انقلبت حياته رأسًا على عقب، وقرّر الاستعانة بشقيقه من أجل أن يطوي صفحة الماضي كلّها، ويبدأ من النقطة التي توقّف فيها كلّ شيء

لم يدعُ شقيقه إلى بيروت كي ينتقم منه، ويريه أنّ النصف الفاشل من التوأم هو الذي نجح في النهاية. هذا الشعور الذي وسم رحلة عودة شقيقه فرضته هند، التي ما إن علمت بمشروع المستشفى حتى انقلبت رأسًا على عقب. لم تستطع أن تضرب رجلها في الأرض وتقول لا، مثلما فعلت حين حاول أن يأتي لها بخادمة سيريلانكيّة. هذه المرّة كانت حجّته معه قال لها إن الماضي خلص، وإنّه صار يقرف من نفسه بعدما تاب إلى ربّه، وإنّ عمله سوف يتغيّر، لا تهريب بعد اليوم، ولا حياة موازية للحياة، «منبني المستشفى، أنا بمسك الإدارة وكريم بيشرف على الناحية الطبّيّة، والحرب خلصت» قال لها إن الله قبل توبته، بينما لم تقبلها هي، وإنّها ظالمة، وإنّه سيريها كيف يستطيع أن يتغيّر

أراد نسيم أن يروي لشقيقه كيف شعر أنّ عينيه انفتحتا بعد موت والده، ورأى ما كان عاجزًا عن رؤيته. غريب أمر علاقتنا بالحياة، كان يجب أن أرى نصري قبل أن يموت، لكن يبدو أنّ إغماضة عينَي الوالد كانت شرطًا لتفتّح عينَي الابن. أراد أن يقول لشقيقه إنّه فهم الآن لماذا كان الأقدمون يعبدون أجدادهم، لأنّهم مثلنا شعروا بالذنب، ولم يستطيعوا أن يفهموا أنّ علاقة الإنسان بالحياة تبدأ لحظة اقترابه من الموت وارتطامه

باحتمالات الغياب. لذا تقوم علاقة الأحياء بالموتى على شعور عميق بالندم.

نسيم فهم لأنّه شعر، لحظة موت والده، أنّ الموت اقترب منه، وفهم أنّه أضاع فرصة اللقاء بذلك الرجل الذي انكسرت علاقته به يوم هرب من البيت إلى سوزان، ولم تترمّم إلّا حين صرخت سلمى بأنّ الرجل فقد بصره. لماذا لم يخبر نصري ابنه عن عينيه؟ هل خاف من المهانة؟ أم أشفق على نفسه من عينَي ابنه الشامتتين؟ فبقي عماه سرًّا لم يشاركه فيه سوى الظلام.

الأشياء هي رائحة الأشياء، كان نصري يقول، وحين تذهب الرائحة فهذا يعني أنّ كلّ شيء انتهى.

عاد كريم إلى مدينة فقدت رائحتها حتى رائحة البيت لم تعد تشبه نفسها نسيم طَرَش حيطان البيت وغيّر الستائر، واشترى أثاثًا جديدًا بدل القديم الذي اهترأ، ووضع مرآة كبيرة مستطيلة في غرفة النوم، بدلاً من المرآة نصف المستديرة، التي كان يقف أمامها نصري كلّ صباح قبل أن يغادر المنزل ويتمتّع باستدارة صورته. «ليش غيّرت العفش كلّه»، سأل كريم، الذي كان مقتنعًا بأنّ شقيقه يستخدم البيت العائلي كمكان يلتقي فيه بالنساء.

«غيّرته لأنّه اهترا، وحتى ما إسمع صوت بيّك عم بيرنّ بدينتي وهو عم يدعس على السجّادة ويبصق عليها ويقول «شايف هالسجادة هاي رح تعيش أكتر مني، تفو على هالحياة» غيّرت كلّ شي حتى ما تعيش الأشيا أكتر من الزلمة»

«بس هيدا غلط»، قال كريم وسأل أين وضع شقيقه السجّادة العجميّة التي ورثها نصري عن جدّته.

«بتتذكّر شو عمل أبو سلطان»، قال نسيم، «أنا عملت متله، كلّ شي

راح على المكبّ، حتى ما شوف شي يذكّرني بالموت».

«وإنشاء الله لقيت المصاري بالمخدّة كمان!»

ابتسم نسيم، وروى لشقيقه أنّه لم يفهم على نصري، وكيف غيّره الاقتراب من عتمة الموت. «اكتشفت الإشيا من بعد ما مات وندمت، بس شو بفيد الندم، والفضل كلّه بيرجع لسلمى، هي يلّي خلّتني فتّح عيوني بس كان صار يلّي صار»

هند أضاعت هي الأخرى إمكانيّة أن تكتشف ماذا جرى لزوجها وكيف تغيّرت حياته. في البداية كانت عاجزة عن تصديقه، ثم حين عاد كريم إلى بيروت شعرت بالضياع. عاد إليها الماضي بمراراته، لكنّ شعورًا غريبًا استولى عليها ما حسبته كراهية للطبيب «النسناس»، كما كان يسمّيه شقيقه، واحتقارًا لجبنه الذي دفع به إلى الهرب، تحوّل شعورًا فادحًا بالخسارة، وإحساسًا بضرورة استعادة الكرامة.

قالت لها سلمى، عندما أضنى الفراق ابنتها بعد سفر كريم إلى فرنسا، إنّ هذا الشعور الذي يبدو طبيعيًا ليس سوى وهم. «بعرف يا بنتي، اسأليني أنا، المرا ما فيها تقبل إنّها بطّلت مرغوبة، أو محبوبة. بكفّي تفرجي رغبتها حتى يوقع الرجّال منشان هيك لما بتنرفض ما فيها تستوعب، وبيصير بدها تعمل كلّ شي حتى تسترجع مكانتها، بس هيدا وهم يا بنتي، خلص اشلحيه من إجرك، هيدا كلب وإبن كلب. خلص»

«بس أنا بحبّه، أنا مش عم بحكي عن الرغبة، عم بحكي عن الحبّ»

«بلا حبّ بلا تجليط، الرجال ما بيعرفوا شو يعني الحبّ، خلص»

«وبيّي يلّي كان رح يموت كرمالك؟»

«بيّك غير شي، الله يرحمه بهدلني بأوّلتي وبآخرتي»

«بهدلك!»

«بهدلني لأنّه مات، تركت كلّ شي منشانه ومنشان الحبّ، ولقيت حالي مع الأموات، خلّصيني من سيرة الحبّ، روحي شوفي نصيبك من هالدنيا، إنت بنت حلوة ومتعلّمة ومئة واحد بيتمنّاك»

يومها اقتنعت هند، وخلعت كريم من قلبها وقالت خلص. لكن ما إن رأته ليلة مجيئه إلى بيروت، حين أتى به زوجها إلى البيت، حتى عاد إليها ذلك الشعور بأنّ واديًا عميقًا انحفر في صدرها وصارت عاجزة عن التنفس. رأت كيف حافظ كريم على رشاقته، كأنّه لا يزال في العشرين، بينما اندلقت كرش زوجها من فوق حزامه، وتهدّل وجهه، الذي بدأت ترتسم عليه بقع سوداء من أثر الإفراط في شرب الكحول.

لم يصدّقه أحد، لكنّ نسيم صدّق نفسه اتّخذ قراره بهدوء، اتّصل بشقيقه عارضا عليه فكرة بناء مستشفى قرّر أن يُطلق عليه اسم «مستشفى الشفاء»، على اسم صيدليّة والده، وتكون الصيدليّة التابعة له أهمّ صيدليّة في الشرق الأوسط. بدأ بتقليص تجارته، أنهى موضوع استيراد الأخشاب والحديد، ولم يُبقِ إلّا على تجارة البنزين، التي سوف يختتمها بعمليّة استيراد ضخمة على متن سفينة النقل القبرصيّة «أكروبول»

انسحب بهدوء من دون إثارة أيّ ضجيج، وقرّر أن يحافظ على علاقاته بالميليشيا الكتائبيّة كي يؤمّن حماية المستشفى، رغم يقينه بأنّ أيّام الميليشيات انتهت، وأنّ الميليشيا المسيحيّة صارت على وشك الانهيار بعد فشل الغزو الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢، وأنّ الحرب سوف تنتهي، كما تنبّأ لها نصري، بهزيمة قاتلة لجميع الذين راهنوا على التحالف مع إسرائيل

كان في البيت، نصري ينام قيلولته ونسيم يتحدّث مع أصدقائه من مقاتلي فرقة الـ ب. ج الكتائبيّة. سعيد، الذي سيضربه شلل نصفي إثر

إصابته في بحمدون عام ١٩٨٤، فيما سيعرف باسم «حرب الجبل» التي اندلعت بين المسيحيّين والدروز بعد انسحاب الإسرائيليّين من جبل لبنان الجنوبي، وكانت نتيجتها هزيمة شاملة للميليشيات المسيحيّة، وتدمير حوالى ثمانين قرية وتهجير سكّانها، هذا السعيد كان متحمّسًا للرحلة التي سيقوم بها مع مجموعة مختارة من رفاقه من أجل التدريب في إسرائيل. روى عن الاستعدادات، وقال لنسيم إنّه يتمنى له أن يحظى برحلة مماثلة.

«تدريب حقيقي والله، تساحال فرجة، يمكن هيدا أفضل تدريب بالعالم»

«شو يعني تساحال»؟ سأل نسيم.

«هيدي بالعبراني، يعني جيش الدفاع»

«بتعرف عبراني؟»

«لا، التدريب هونيك كلّه بالعربي، بس لازم الواحد يدرس عبراني، هيدي لغة المستقبل»، قال سعيد، واسترسل في مدح اليهود، «أقلّيّة متلنا بس عرفوا كيف يدعوسوا العرب ويكسرولهم روسهم».

في تلك اللحظة برز نصري في الصالون، كان يلبس بيجامة رماديّة تتهدّل على جسمه النحيل، ويرتجف.

«باك شي يا بيّي»، سأل نسيم.

«كيفك يا عمّ»، قال سعيد.

«الحمد لله، بس كأنّي سمعت أنّكم رايحين تتدرّبوا بإسرائيل، أوعا يا أولاد، هيدي الحركات رح تودّينا في داهية»

«الشباب عم بيطقّوا حنك»، قال نسيم، «فوت كفّي نومتك لأنّه بلا السييستا رح يصير رأسك يوجعك».

روى نسيم لرفاقه أنّ والده منذ دخوله في الأربعين يواظب على النوم ساعة بعد الغداء، لأنّ النوم بعد الظهر هو أفضل طريقة لإراحة الدماغ جرّاء نزول الدم إلى المعدة. «خبّرهم يا بيّي عن السييستا قبل ما ترجع للنوم»

«السييستا ضروريّة لصحّة البدن والروح، ومتل ما قال المتل تغدّا وتمدّى وتعشّى وتمشّى، بس إسرائيل كلّا، إيّاكم»، قال نصري.

هنا انتفض سعيد الذي لم تفارق الابتسامة شفتيه، وهو يرى الرجل المكتهل الذي لبسته البيجاما، يحكي كلامًا غريبًا أتى به من عالم أشباح الماضي. امّحت ابتسامته، قطّب حاجبيه، وقال للرجل الكهل إنّه من الأفضل له أن لا يتدخّل فيما لا يعنيه، «نحن عم نتناقش بأمور كبيرة كتير يا عم بتتعلّق بمصير المسيحيّين بالشرق كلّه ومش بس بلبنان، الأفضل ما توجّع رأسك»

«أنا قلت لأولاد الكلب»، وأشار إلى ابنه نسيم، «واحد عامل شيوعي ولاحق الفلسطينيّين، والتاني عامل فاشستي، إنّهم صاروا متل قايين وهابيل، الأخ رح يقتل خيّه وبعدين يموت. بس مش هيدا المهمّ. المهمّ إنّي فهّمتهم أنّ نحن أقلّيّات بهالشرق، والأقلّيّات لازم تتصرّف بتهذيب واحترام، وما تتخرين على الأكثريّة، لأنّها بكرا رح تدفع وحدها الثمن، ورح يكون الثمن غالي كتير».

«شو هالعقليّة الذمّيّة يا عمّ، نحن بطّلنا أهل ذمّة، وما منقبل نتعامل بهالطريقة» التفت سعيد إلى نسيم وقال له «الهيئة بيّك بعده عايش بالزمن العثماني، العثمانيّين راحوا يا عمّ وانتهوا»

«راحوا، مزبوط»، قال نصري، «بس مش أكيد أنّهم انتهوا، يلّي بيروح بيرجع، ويلّي بينام بيفيق، وين عايشين أنتم، نحن أقلّيّة بهالشرق، ولازم نحافظ على وجودنا بشكل عقلاني، إسرائيل أوعا، التحالف مع عدوّ العرب يعني نهايتنا إلى الأبد، أوعا».

«بلا هالحكي الخرائي يا بيّي بهدلتني قدّام أصحابي، قال نحن أقلّيّة، وقال إنّ العثمانيّين راجعين، هيدا حكي خرفانين يا نصري، أنت ما سمعت بشير الجميّل شو قال: نحن شياطين الشرق وقدّيسيه».

«شياطين ممكن، وقدّيسين بيكون أفضل، بس شياطين وقدّيسين مع بعض ما بيمشي الحال، أنتم مجانين، وزعيمكم رح ياخدكم وياخدنا على الخراب».

«طيّب شوف اليهود، أقلّيّة متلنا وليك شو عملوا وسوّوا وكيف انتصروا على كلّ العرب»

«أقلّيّة مزبوط، وانتصروا كمان مزبوط، بس ما حدًا بيقدر ينتصر كلّ الوقت، الدهر دولاب، منشان هيك لازم يتهذبوا ويفكّوا عن ضهر الفلسطينيّين، ما بيكفي أنّهم سرقوا لهم بلادهم، اشرحولي ليش بعدهم محتلّين الضفّة الغربيّة وغزّة»

«الفلسطينيّين أعداء لبنان»، صرخ سعيد، «أنت عم بتدافع عن أعداء المسيحيّين»

«أعداء لبنان مش أكيد، بس لنفترض أنّه معكم حقّ بهالنقطة، ما فيكم تروحوا محلّ ما أنتم رايحين، هيدا خراب»

«اليهود أقلّيّة وانتصرت، ومن الطبيعي أن تتحالف الأقلّيّات»، قال نسيم، «الله يخلّيك يا بيّي فوت نام، شو رح يقولوا أصحابي عنّك»

برم الشبح الرمادي ظهره وعاد إلى غرفته، وهو يتمتم كلمات غير مفهومة. وفي المساء قال لابنه إنّهم مجانين، وإنّ مصير يهود إسرائيل لن يكون أفضل من مصير مسيحيّي لبنان، «بكرا بتتذكّروني بعد موتي وبتقولوا إنّ نصري كان معه حقّ، مشكلة الإسرائيليّين أنّهم سكرانين بقوّتهم العسكريّة، وبكرا رح يكتشفوا أنّ القوّة ما بتدوم، إذا بدهم يعيشوا بالشرق

لازم يُحسنوا التصرّف، ليك هالعبارة ما أحلاها، أن تُحسن التصرّف، يعني تتواضع وتعرف أنت مين ووين عايش».

لم يذهب نسيم، كالكثير من رفاقه، إلى معسكر التدريب الذي أقامه الجيش الإسرائيلي في أراضي قرية صفوريّة الفلسطينيّة، التي هُجّر أهلها عام ١٩٤٨ وتحوّلت إلى مستعمرة أُطلق عليها اسم تزيبوري. أصابته خلال حرب المئة يوم، في قدمه، التي بقي يعرج عليها حوالى ثلاثة أشهر، شظيّة منعته من الذهاب في الدورة الكبرى التي شارك فيها ثلاثمئة مقاتل كتائبي، كما أنّ موت ميشال حجّي ومنظر جثّته المتخشّبة في برّاد مستشفى الروم، جعله ينأى بنفسه عن القتال ويرسم طريقه الخاصّ في الحياة بعيدًا عن خنادق المقاتلين.

هل كان نصري على حقّ؟

أراد نسيم أن يقول لشقيقه التوأم، إنّ الحقّ الذي نطق به نصري قبل الجميع لا يعني على الإطلاق أنّ كريم كان مُصيبًا في خياراته السياسيّة التي قادته إلى المنفى. «نحن غلط وأنتم غلط، منشان هيك أكلناها تنيناتنا، الفلسطينيّين واليساريّين تبعولك خسروا والكتائب والقوّات تبعولي انهزموا، وإجت سوريّة وقشّت الطاولة»

«النظام السوري مش سوريّة»، قال كريم، «قشّونا بالقاشوش يلّي أعطيتوهم إيّاه، بس شو بيعرّفني يمكن كلّه غلط بغلط، الله يرحم يلّي راحوا»

لم يأتِ كريم إلى المنطقة الشرقيّة من بيروت تائبًا أو نادمًا، فهو لا يعتقد أنّ تاريخ الحرب يمكن أن يُختصر بعبارة «كلّه غلط بغلط»، العبارة يمكن أن تنطبق عليه شخصيًّا، لأنّه لم يستطع أن يحتمل تبعات هزيمة اليسار اللبناني بعد دخول الجيش السوري إلى لبنان، رغم أنّه لم يكن عضوًا في الحزب الشيوعي، مثلما اعتقد والده. لكنّها لا تنطبق على

الحرب، أراد أن يقول لشقيقه إنّ على اللبنانيّين الاعتراف بأخطائهم في الحرب، الجميع أخطأ، لكنّ هناك فرقًا بين الخطأ والخطيئة، وهناك فرقًا أيضًا بين من قاتل من أجل جمهوريّة علمانيّة، وبين من قاتل دفاعًا عن النظام الطائفي. لكن ماذا يقول بعدما فقد القدرة على النطق. خالد النابلسي جعله أشبه بالأخرس، وهو منذ يوم مقتل الرجل شعر بأنّه لم يعد يحقّ له أن يحكي. فمن خاف من إيواء أرملة مع طفلتها بعد اغتيال زوجها، ومن عرف بعد ذلك أنّ المرأة وابنتها ذبحتا بالسكاكين عليه أن يخرس.

لماذا عاد كريم إلى بيروت إذًا؟

لم يعد كي ينسخ تاريخه، ويمحوه، كما لم يعد كي يستأنفه حيث تركه، برناديت كانت على حقّ، فالرجل عاد لأنّ المجرم لا بدّ وأن يعود إلى المكان الذي ارتكب فيه جريمته، مثلما يكتبون في الروايات البوليسيّة.

عندما روت له هند كيف مات والده أُصيب بصداع في الرأس لم يفارقه طوال ما تبقّى له من أيّام في بيروت. سوف يُطلق على هذا الصداع اسم صداع الجريمة. فكّر أنّ مارون بغدادي وحده من بين جميع المخرجين يستطيع أن يصنع فيلمًا يحمل هذا العنوان، ويروي فيه كيف يعود المجرم إلى مكان جريمته لأنّه يُصاب بصداع قاتل يطلع من العينين ويمتدّ كي يستقرّ في وسط الرأس. لكنّ كريم لا علاقة له بمقتل والده. أراد أن يقول لشقيقه إنّه هو المسؤول، وإنّه لولا كراهيته لوالده لما حصلت الجريمة، لكنّه تذكّر أن لا أحد تعامل مع مقتل نصري في وصفه جريمة الفيلم الذي كان من الممكن أن يقترحه على مارون بغدادي يجب أن يكون عن جريمة أخرى اسمها مقتل حياة وابنتها، بعد اغتيال خالد النابلسي. هنا سيتّخذ صُداع الجريمة مبرّره الأخلاقي. وسوف يجد كريم نفسه أمام امتحان العدالة.

كريم لم يَعُد بحثًا عن العدالة، سؤال العدالة داهمه في بيروت متّخذًا

شكل وجع ينخر الرأس، وكلّ ذلك بسبب هند وحكايتها الغامضة عن مقتل والده.

قرّر أن يذهب إلى سلمى كي يسألها عن تفاصيل القصّة، لكن بأيّ عينين سوف يواجه المرأة التي قالت له إنّ الحرب لن تنتهي؟

في ليلته الأولى في بيروت، وبينما كان يأكل الكبّة النيئة التي أعدّتها سلمى، نظرت إليه المرأة المتّشحة بالسواد وسألته عن أحواله في فرنسا وعن زوجته وابنتيه. وقبل أن يجيبها قالت إنّ كلّ إنسان يأخذ نصيبه من هذه الدنيا، «والحمد لله طلعلنا أكتر ما منستاهل، لا تكرهوا شيئًا»

نظر إليها نسيم بعينين غاضبتين كي يسكتها

«عم بحكي عن الحرب يا ابني، مين كان بيقول إنّ الحرب رح تطوّل هالقدّ، سبحان الله نحن رح نخلص قبل ما تخلص الحرب، كأنّها طالعة من جوّاتنا، بعدين مين كان يقول إنّ الإنسان بيقدر يعيش بالحرب ويخلّف ويعمل مصاري، الحمد لله، لا تكرهوا شيئًا»

أقفلت سلمى بكلامها في ليلة العودة الأولى كلّ احتمالات الكلام.

عندما عرفت سلمى بخبر عودة كريم أُصيبت بالذعر، قالت لابنتها إنّ عليها أن تقنع زوجها بأنّ مشروع بناء المستشفى خاطئ من أساسه، «كلّه غلط بغلط يا بنتي، الحمد لله زوجك تاب وصار بيتوتي، وبيخاف الله، بس مش رح تزبط، هيدا خراب بيوت، لازم المشروع يوقف، وإلّا رح تتدمّر حياتك وعيلتك»

كانت سلمى مقتنعة بأنّ فكرة افتتاح فرع لمعالجة مدمني المخدّرات، هي فكرة الطبيب، ورأت في المشروع بأسره محاولة من كريم لاستغلال توبة شقيقه، فيعود إلى بيروت ويتنعّم بثروة جمعها شقيقه بعرق جبينه وكدّه وتعبه، ويركب على ظهره.

«أنا أكيدة إنّه الحكيم النسناس طلع بالفكرة حتى يركب على ضهر أخوه، متل ما كان عامل كلّ عمره. بعدين شو هالحكي يا بنتي، قولي لزوجك إنّه مش هيك الواحد بيتوب، بالأوّل بيع سموم ومخدّرات حتى يطلّع مصاري وبعدين علاج للمدمنين وهيك بيطلّع مصاري أكتر، أنا أكيدة أنّه أخوه استغلّ توبته واستلمه بقصّة علاج المدمنين، هيدا النسناس يلّي عامل حاله قدّيس وآدمي، ليش هو بيعرف يعالج المدمنين، ما هو حكيم سفلس وأمراض جلديّة وتناسليّة، شو علاقته بالقصّة كلّها».

ذهب إلى سلمى لأنّه كان يعرف أنّها هي وحدها من يعرف الحكاية من جميع جوانبها لكن ماذا يعني أن نعرف ماذا جرى بالضبط، وكيف مات نصري أو قُتل؟ نصري مات قبل أن يموت، مات يوم اندلعت الحرب الأهليّة، وصار كشبح ضائع في متاهات ذاكرته الضبابيّة. فجأة تهاوى عالمه، ولم يستطع أن ينقذ شيئًا منه لم يستطع أن يفهم من أين أتى ولداه ورفاقهما بذلك الشغف بالحرب والتدمير كان نصري ينتمي إلى عالم آخر، ذاكرته لا تتعدّى الحرب العالميّة الثانية حيث كان الناس في بيروت يسمعون عن ويلات الحرب، من دون دفع أيّ من أثمانها حتى نكبة فلسطين عام ١٩٤٨ بدت له أشبه بفيلم سينمائي، كان مقتنعًا بأنّ نشوء الدولة العبريّة لن يكون أكثر من ملجأ للأقلّيّة اليهوديّة، وأنّ مصيرها سيكون الذوبان في المنطقة. الحرب لم تخطر في باله يومًا، كان يؤمن بأنّ على أهل هذه البلاد التأقلم مع كلّ جديد يحصل، صحيح أنّه يتذكّر بعض حكايات والده عن زمن المجاعة الرهيب الذي ضرب لبنان وأباد ثلث سكّانه، خلال الحرب العالميّة الأولى، لكنّه لم يكلّف نفسه يومًا عناء التفكير بمصير هذا الوطن الصغير الذي جرى تركيبه على أنقاض إمبراطوريّة كانت تتهاوى هي الإمبراطوريّة العثمانيّة، ومملكة لم تعش إلّا كسراب، هي المملكة العربيّة التي أسّسها الملك فيصل الأوّل في دمشق، وأُريد لها أن تضمّ جميع أرجاء بلاد الشام أي سوريّة ولبنان وفلسطين. فهو كان على

يقين بأن لا علاقة لنا بما جرى ويجري، وأنّ الحياة أقوى من السياسة وصراعاتها لكنّه صار غريبًا في عالم لا يعرفه. كأنّ شياطين الحرب التي كانت نائمة استيقظت فجأة من حيث لا يدري وجرفت ابنيه وأكثريّة أفراد هذا الجيل اللعين. كأنّ الهدوء الذي عاشه لبنان خلال مئة عام، بعد نهاية حربه الأهليّة الأولى في القرن التاسع عشر، كان مجرّد فاصلة، أو هدنة، استيقظت بعدها شياطين العنف والجنون.

لو حكى نصري لقال إنّ إصابته بالعماء كانت جزءًا من قراره بأن لا يرى. فحين لا تفهم لا ترى حتى إذا رأيت، ونصري لم يفهم. كان متأكّدًا من أنّ ابنيه كانا على خطأ، لكنّه لم يكن يعرف ما هو الصواب. صار مثل جحا في الحكاية التي كان يرويها لولديه حين كانا صغيرين ليبرهن لهما أن لا وجود للعدل في عالمنا يصرخ ويناقش ثم حين يُسأل عن رأيه وكيف يمكن إنقاذ لبنان من حروبه، يصمت لأنّه لا يعرف الأجوبة.

صورة نصري بعد اندلاع الحرب ليست هكذا، ذاكرة نسيم أعادت صوغ الصورة من نهايتها، مثلما تفعل الذاكرة في العادة، حين تقوم بتلخيص الأشخاص والأحداث، وتُحجّرهم في لحظة مقفلة. مشكلة الذاكرة أنّها لا تحتمل التناقضات، فترسم صورة جامدة للأشياء، هكذا انتقل نصري بعد موته المأسوي، في ذاكرة نسيم من صورة الوحش إلى صورة القدّيس. ليس صحيحًا أنّ نصري مات لحظة اندلاع الحرب، أو أنّه فقد شهيّته إلى الحياة دفعة واحدة، وتاه في البياض الحليبي الذي ارتسم على عينيه.

قرّر نسيم أن لا يتذكّر من والده سوى صورته الأخيرة التي رسمتها سلمى على فراش موته، كأنّ رجلاً جديدًا وُلد في الذاكرة بعد موت الرجل القديم. من قال إنّ سلمى قالت الحقيقة؟ ثم لنفترض أنّ سلمى روت ما رواه لها نصري، لماذا علينا أن نصدّق رجلاً كذب على جميع الناس طوال حياته؟

لم يقتنع كريم بالصورة المثاليّة التي رسمها شقيقه لوالده، اعترض في البداية على اسم المستشفى، لأنّه لم يكن يريد أن يرث اسم الصيدليّة وحكاياتها، لكنّه سلّم بالأمر لأنّه اعتبر أنّ شقيقه يكفّر عن ذنوبه، غير أنّه رفض في شكل قاطع أن يُطلق على المختبر الملحق بالمستشفى اسم مختبر نصري الشمّاس، «هيدا مرفوض، نحن عم نبدا من جديد، مش عم نورث مستشفى، بعدين يا خيّي ما إنت بتعرف شو عمل بيّك بالعالم، وكيف استعمل اختراعاته»

نظر نسيم إلى شقيقه كأنّه لم يفهم ماذا يقول، كأنّه استبدل ذاكرته بذاكرة جديدة، كأنّه ليس نسيم الذي اكتشف بلاوي والده، وفضح سرّ الخزانة التي وضع نصري في أحد جواريرها صور ضحاياه من النساء

لم يمت نصري عند اندلاع الحرب، مثلما حاول نسيم أن يوحي لشقيقه، مات الرجل تدريجيًّا مثلما يموت جميع الناس. في البداية تعامل مع الحرب في وصفها لعبة سخيفة، رأى فيها تكرارًا للعُظاميّة اللبنانيّة التي حوّلت الكوارث في تاريخ لبنان الحديث إلى ما يشبه النكتة. وكان لحجّته اسمان: سعيد عقل وشارل مالك، الأوّل شاعر كبير لم يتعلّم من المتنبّي سوى الامتلاء بنفسه، فانتهى به الأمر إلى الدعوة إلى تبنّي الحرف اللاتيني بدل الحرف العربي، وإلى الإصابة بجنون عظمة جعلته يعتقد أنّ لبنان أعظم بلد في العالم، وقادته إلى صوغ تلك العبارة العنصريّة المخجلة: «على كلّ لبناني أن يقتل فلسطينيًّا»، والثاني فيلسوف متأمرك انتهى به الأمر إلى السجود أمام كميل شمعون كي لا ينسحب من «الجبهة اللبنانيّة»، وهي التحالف الذي جمع أحزاب اليمين الطائفي المسيحي خلال الحرب، معلنًا أنّ بشير الجميل صنع أوّل جيش مسيحي في الشرق! حدث ذلك بعدما قامت ميليشيات الكتائب بتصفية ميليشيا شمعون في مذبحة دمويّة في «الصفرا مارينا»، فامتلأ حوض السباحة بالجثث التي طفت فوق الماء والدم، وتشكّلت «القوّات اللبنانيّة» كجيش وحيد لليمين المسيحي.

«واحد نافش شعراته وواحد راكع، هيدي هي الحرب تبعكم»، صرخ نصري في وجه نسيم.

«ليش الفلسطينيّين تبع إبنك الشاطر كريم أحسن منّا».

«الله يلعن هيديك الساعة»

«أيّ ساعة»؟ سأل نسيم

«الساعة يلّي خلّفتكم فيها، ما حدا غيري صار فيه هيك، شو هالمزحة السمجة، صارت الحرب بقلب بيتي».

رغم كلامه القاسي ضدّ ولديه، فإنّ نصري لم يقبض الحرب جدّيًّا، كان يعتقد أنّها لن تكون أكثر من لعبة صغيرة سوف تنتهي بعد أشهر، لكنّه ومع مرور الوقت، وبعدما صارت الحرب نمط حياة، بدأ يشعر بأنّ عالمه يموت، وبأنّه فقد مكانه ومكانته. التوأمان انفصلا إلى الأبد، وصيدليّته صارت موحشة. في الحرب ووسط القذائف المنهمرة، اكتشف نصري كيف اكتهلت المدينة. بيروت التي كانت بالنسبة إليه رمزًا للفتوّة والتجدّد، انكمشت على نفسها، وتقشّر جلدها، وبدت مثل امرأة عجوز وعمياء، تلتفّ بنفسها وتمشي منحنية، ظهرها محدودب، ورأسها يسقط على صدرها صارت بيروت تشبه امرأة تُدعى كاترين، كانت تمتّ بصلة قرابة بعيدة إلى أمّه، لكنّه لا يذكر منها سوى حردبّتها وأظافر أصابع قدميها التي لم تكن تستطيع تقليمها، وثيابها السوداء. انبثقت صورة تلك المرأة الكهلة من مكان خفي في ذاكرته. لا يذكر نصري أين رآها، فهي ماتت عندما كان في السادسة من العمر، ولم تتشكّل صورتها، كأغلبيّة صور ذاكرة المراحل الأولى من الطفولة، إلّا من خلال كلام أمّه عنها أو وصفها لها فالأمّ لم تكن تأتي على ذكرها إلّا في العشرين من أيلول حين كانت تُقيم جنّازًا سنويًّا للمتوفين من أفراد عائلتها، وتضيف اسم كاترين إلى اللائحة.

جاءت صورة المرأة الكهلة المحدودبة الظهر لتحتلّ بيروت، فصار

نصري يرى اكتهال المدينة ويشمّ رائحة تعفنها، التي تُشبه رائحة أجساد الكهول.

انحدر نصري إلى النهاية من دون أن يدري، كان يسخر من مدينة تتصرّف كامرأة عجوز. مرّة قال لابنه كريم الذي كان يردّد شعرًا لخليل حاوي يقول فيه إنّ بيروت عاهرة، كي يبرّر ضرورة تدمير المدينة، إنّه لا يحبّ هذا النوع من الأدب الذي يحوّل الكائنات كنايات. فالكناية أبشع أنواع التشبيه، والكلام عن المدينة في وصفها امرأة أو عاهرة هو أدب سخيف، لأنّ على الأدب أن لا يقلّد الواقع، الواقع هو الذي يقلّد الأدب وليس العكس.

لم يعلم بانتحار الشاعر خليل حاوي، خلال الاجتياح الإسرائيلي للمدينة عام ١٩٨٢، إلّا عندما اتّصل به كريم من مونبلييه، وأخبره بصوت حزين بأنّ خليل حاوي انتحر عبر إطلاق النار على رأسه، من بندقيّة صيد، احتجاجًا على الاحتلال الإسرائيلي.

كان نصري على وشك الضحك، وهو يقول لابنه، «شو هالقصّة، مش كان أحسن لو قوّص على الإسرائيليّين بدال ما يقوّص حاله»، لكنّ دموعه انهمرت، وبدأ يتنهنه بالبكاء. كريم أقفل الخطّ في وجه والده، ولم يستمع إلى بكائه. في تلك اللحظة رأى نصري أمامه كاترين، وقد صارت رجلاً يشبهه. استعاد تلك المرأة من ذاكرته جاعلاً منها كناية لبيروت، كي يحجب كهولته عن عينيه، وفهم لماذا يلجأ الأدباء والشعراء إلى الكناية، فالكناية هي كهولة العالم التي لا تشبه الطفولة إلّا في عجزها عن التمييز بين المشاعر، فتدمجها، بحيث يصير الضحك مرادفًا للبكاء.

كاترين صارت رجلاً، والرجل ينحني على بقايا الأعشاب التي تعفّنت في صيدليّة شبه مهجورة، والصيدليّة تقع في مدينة يأكلها الصدأ

«أنا كاترين»، قال نصري لنفسه أمام صورته المنعكسة في المرآة.

وقف أمام تلك المرآة الضخمة التي وضعها في الغرفة الخلفيّة للصيدليّة، حيث كان يحوّل الأعشاب أدوية، ويضاجع نساءه اللواتي امتلأن بحبّ الحياة بسبب شربهن مزيج الأعشاب المقطّر في إنبيقه الصغير هنا أمام المرآة التي عكست صورة غرفته السرّيّة، هنا وقف نصري وحيدًا، ليرى صورة المرأة المحدودبة التي نبتت على جلدها السميك دوائر تشبه دوائر جذوع الأشجار لبسته المرأة وأخذته إلى طعم المرارة الذي كان يشعر به كلّما قلّد إحدى حركات والده، أو بدت منه حركة لا إراديّة تذكّره بأنّه صار عجوزًا

بدأ نصري من حيث لا يريد أن يرى نفسه على صورة والده، وبدأ يكره نفسه. فهو لم يحبّ يومًا والده، وكان يكره رائحته التي هي عبارة عن عطر ياسمين متقادم، امتزجت فيه الكولونيا الرخيصة بعفونة الأزهار.

جاءت كاترين واندثرت رائحة المسك، الذي كان يتعطّر به الرجل، تحت رائحة الياسمين المتعفن، التي تشبه رائحة البول. وبدأت معركة نصري مع رائحة والده التي استوطنته. وكانت معركة مستحيلة لم تنفع معها جميع أنواع الصابون، والعطور

خسر نصري معركته الأولى مع الرائحة، وبعدها بدأت تتوالى الخسائر، التي سوف تصل إلى ذروتها مع انهياره أمام سلمى التي لم تصدّقه إلّا بعد موته.

يقف اليوم مستسلمًا أمام المرآة، فقد كلّ رغباته دفعة واحدة، فقد الشهيّة إلى الطعام وإلى النساء وإلى النبيذ، فقد رغبته في لعب طاولة الزهر، وأحسّ أنّ المدينة كاذبة ومخادعة، أوحت له بموتها، كي تميته وتأخذه إلى النهاية

تمنى لو يستطيع أن يجمع ابنيه مرّة واحدة حول مائدة الإفطار ليقول لهما إنّه لا يريد أن يموت، ولكنّه سيموت رغمًا عنه، وإنّه لا يريد منهما

وعدًا بأيّ شيء، لأنّه يعلم اليوم أنّهما في النهاية سيصيران رجلاً واحدًا، مثلما تمنّى لهما، لكنّ هذا الرجل لن يجد أمامه سوى صورة الأب الكهل كي يتقمّصها، وإنّه لا يريد لهما أن يرياه بعد اليوم، كي لا تتدهور صورتهما المقبلة، وينتهيا، مثلما ينتهي هو اليوم، كارهين لها، ومحتقرين الطبيعة الإنسانيّة.

«كانت أفكار الرجل مشوّشة كثيرًا»، قالت سلمى، «جاء لزيارتي عدّة مرّات، لكنّه لم يكن يبقى سوى دقائق معدودة، ما بعرف شو صار له بالأشهر الأخيرة، لمّن خبّرني أنّه بطّل يشوف، قال إنّه هيدا شي نفسي»

«بطّلت إقدر شوف لأنّي كرهت نفسي، نزل البياض حتى يخلّصني من صورتي، شو هالبشاعة، أنا بشوف بالمراية صورة بيّي وبكره حالي، بتعرفي فكرة قتل الأب سخيفة، إذا قتلته بتكون عم تقتل حالك، وإذا ما قتلته بتكون عم تنتحر، أنا حاولت إشرح لنسيم هالفكرة، بس راسه مسكّر، وقرّر أنّي كنت ناوي أقتله لمّن عملت عمليّة فخده بعدما انصاب، والتاني الذكي مش هون، أنا متأكّد أنّه صار فرنساوي، وقرّر ينسانا وأنا صرت أكره الناس، بشوف حالي بعيونهم، كأنّ عيونهم مرايات، تفو على هالدنيا»

قالت سلمى إنّه في زيارته الأخيرة لها، وكان ذلك قبل موته بأسبوع، اشتكى من صورة والده التي تلاحقه، وقال إن حياة الإنسان لا تساوي قشرة بصلة، وإنّ النهاية تشبه البداية لأنّ الإنسان مجبر على تقليد شخص آخر كي يكون. قالت إنّها لم تجد ما تقوله، فحاولت أن تخفّف عنه، قالت إنّها ستعدّ له كوبًا من الليموناضة بالطريقة التي يحبّها، أي عبر فرك الليمون بالسكّر من دون تقشيره، ثم تضيف إليه الماء وماء الزهر وماء الورد. «تركته قاعد بالصالون، ولمّا رجعت مع الليموناضة، كان فلّ، وكانت هيدي آخر مرّة»

سألها نسيم ماذا فعلت بالليموناضة، فلم تجاوب.

ارتسمت على وجهه ابتسامة بدت أشبه بتكشيرة وهو يمسك بكوب الليموناضة المثلّجة الذي جلبته حماته من المطبخ ويشربه دفعة واحدة.

«متل المرحوم»، قالت سلمى، «بيّك الله يرحمه كان متلك يحبّ الليموناضة كتير، مرّات كان يحطّ فيها كعك قرشلّي ويشيل شقف الكعك بالملعقة وياكل، الله يرحمك يا نصري متت مظلوم»

عندما قال شقيقه للمهندس أحمد الدَكيز إنّه متشوّق لزيارة طرابلس كي يمرّ على البترون ويقف عند مقهى حلمي كي يشرب الليموناضة البترونيّة المفروكة التي اشتاق إلى نكهتها كثيرًا، نظر إليه شقيقه باستغراب، «وإنت كمان بتحبّ الليموناضة»؟ لكن أحمد الدَكيز التقط الكلام ليقول «مين ما بحبّ ليموناضة البترون، أكيد بتعرفوا بيتين الشعر يلّي بيحكي عن الليموناضة وعلاقتها بالحبّ»

«دخيلك أحمد بلا هالحكي»، قالت زوجته منى.

«سمّعنا»، قال نسيم.

«بتزعل المدام»، قال أحمد، «بأمرك يا ستّنا بلاها، بس إذا كان بدّك تروح على الفيحاء ولا بدّ، انس البترون، روح عند أشأش بالمينا، هيدا مقهى صغير قدّام جامع الدكيز، بيعمل ليموناضة على بوظة، شي بياخد العقل، بتحسّ طعمة المراكبي عن حقّ وحقيق»

ابتسم نسيم وهو يروي لشقيقه أنّ الطرابلسيّين يسمّون الليمون الحامض مراكبي، وأنّ لهم طريقة غريبة في الكلام.

«إذا بدّك تسمع كلام غريب فعلاً، لازم تزور أبو أحمد، خبّرهم يا أحمد عن بيّك»، قالت منى.

«بتمنى شوف الوالد»، قال كريم، «صار لي زمان ما رحت على الفيحاء».

«أنا بجي معك»، قال نسيم.

«ممنونك يا خيّي يا حبيبي، بس أنا بدّي روح لوحدي»

كتب أحمد رقم هاتف والده على ورقة صغيرة، وأعطاها لكريم.

«بس الله يساعدك إذا اتّصلت فيه، بيحكي ليوم الحكي، هيدول الختياريّة لمّن بيبلشوا ما بيعودوا يعرفوا يسكتوا»

أمّا بيتا الشعر عن الليموناضة فسترويهما منى للطبيب في الفراش، وهي غارقة في الضحك على صغر عقل الرجال.

«يلّي بيمرق عالبترون

وما بيشرب ليموناضة

متل الحاطط حدّه بنت

وما بيلعب لها بفخادها»

ضحكت منى ثم قالت: «كان أحمد مفكّر أنّه عم بزبّطني، وأنا كنت منهارة، كان ياخدني مشاوير على طرابلس، يطلّعني على قلعة صنجيل ويبرّمني بأسواق المدينة، ومفكّر إنّي هيك رح إنغرم فيه، أنا حبّيته ما فيّي قول لا، وبعدين زهقت من الحكي عن الغرام، وقتها قلت لأحمد تعا نتزوّج، وتزوّجنا، وهلّق رايحين على كندا»

قالت له إنّ الرجال هكذا، يعرفون لكنّهم يتصرّفون كأنّهم لا يعرفون لأنّهم لا يستطيعون مواجهة الحقيقة. انفجرت ضاحكة وهي تقول لكريم إنّها متأكّدة من أنّه لا يختلف عن غيره من الرجال في هذه المسألة، وأنّ هذا عائد إلى جبن لا تفسير له سوى أنّ الرجل يخاف من المرأة لأنّه يعتقد أنّها كائن مليء بالأسرار

هل خاف نسيم من هند ومن أسرارها؟

قالت له إنّها لا تعرفه، «بعد ستّة أعوام من الزواج اكتشفت أنّني لا أعرفك».

قال لها إنّها مخطئة، وإنّها لا تريد أن تصدّق توبته.

لن تستطيع هند أن تنسى ليلة ٢٢ كانون الأوّل ١٩٨٨، جاء نسيم إلى البيت باكرًا وهو يحمل في يده كيسًا كبيرًا، وقنّينة شمبانيا

«شو جايب معك» سألت هند.

«جايب هديّة وشمبانيا»، قال.

قال إنّه جلب هديّة لنفسه، بمناسبة عيد ميلاده.

«بعتذر حبيبي، راح عن بالي أنّ اليوم عيدك»

دائمًا كانت هند تنسى يوم ميلاد زوجها، ودائمًا كانت تعتذر بعد ذلك بأيّام، فيجيبها نسيم أنّه لا يحبّ الاحتفال بعيد ميلاده. لكنّه غيّر العادة هذا العام، وقرّر أن يحتفل بالعيد بطريقة خاصّة.

«طيّب خلّينا نشوف الهديّة»، قالت.

«مش هلّق»، أجاب، «بعد ما يناموا الأولاد منفتح الشمبانيا وبتشوفي شو حلوة الهديّة يلّي جبتها»

وكانت المفاجأة.

فتح نسيم قنّينة الشمبانيا، وأدار شريطًا غنائيًّا على المسجّل لجورج وسّوف يغني فيه «أنساك» لأمّ كلثوم.

قامت هند وخفضت صوت المسجّل، وهما يشربان.

«ليش وطّيتيه»، سأل نسيم.

«حتى إقدر إحكي معك»، قالت.

«الليلة ما في لزوم للحكي بالكلمات، الليلة بدنا نحكي بلغة تانية».
قفز إلى الغرفة وعاد حاملاً الهديّة.

فتح الكيس وأخرج منه علبة كرتونيّة مستطيلة ملفوفة بورق أحمر لامع، وقدّمها إلى زوجته.

«اليوم عيدك، الهديّة لازم تكون إلك مش إلي»، قالت هند وهي تأخذ الهديّة من زوجها

«افتحيها»، قال.

«الهديّة إلي!!».

«إلك وإلي، إنت افتحيها وشوفي شو هالمفاجأة الحلوة يلّي مش ممكن تكون خطرت على بالك».

وكانت المفاجأة!

عندما أخرجت هند بذلة الرقص الشرقي من العلبة أُصيبت بالخرس. أمسكت البذلة، رمتها على الكنباية، أحنت رأسها وسكتت.

وقف نسيم واقترب منها، «هيدي إلك يا حبيبتي، اليوم عيدي وبدّي إيّاكي ترقصي».

«أنا»! قالت بصوت مبحوح، وانفجرت بالبكاء.

بكت من أعماقها، كلّ شيء فيها بكى، كانت ترتجف وتهتزّ يمينًا وشمالاً كامرأة ثكلى، تئنّ ولا يخرج من بين شفتيها سوى الحشرجة

«ليش عم تعملي هيك يا هند، كلّ النسوان بيرقصوا لرجالهم، شو هي الخطيّة يلّي عملتها، أنا ما بدّي إلّا نكون مبسوطين»

تمالكت هند نفسها، أمسكت بذلة الرقص ورمتها في وجهه، «روح كسّ أختك وأخت شراميطك، بدّك تعملني شرموطة».

كانت هذه هي المرّة الوحيدة التي شتمت فيها هند في حياتها كلّها لم يسبق لهذه المرأة السمراء الخجولة أن استخدمت تعابير نابية في كلامها، لكنّها وجدت نفسها فجأة أمام الشتيمة التي خرجت من فمها «يا ربّي تسامحني»، قالت، وذهبت إلى غرفة النوم وأقفلت الباب خلفها

في ليلة عيد ميلاده نام نسيم على الكنباية في الصالون، أخرس صوت المسجّل، أفرغ قنّينة الشمبانيا في جوفه ونام.

لم يرتكب نسيم خطأ كي يعتذر، لكن كان لا بدّ من الاعتذار في مساء اليوم التالي. اعتذر، غير أنّ هند رفضت أن تسامحه. سوف تقول له، عندما أعلن توبته النهائيّة، إنّها غفرت كلّ شيء، لكنّها لا تستطيع أن تسامحه على تلك الحماقة

«بس بدّي إفهم، شو كنت مفكّرني»

«والله يا حبيبتي ما كان قصدي شي، نسوان كلّ أصحابي عندهم بذلات رقص، وبيرقصوا لرجالهم، قلت ليش لا، بركي هيك بتتحسّن علاقتنا الجنسيّة، بس بدال ما أجبرها كسرتها، بعتذر مرّة تانية»

أراد أن يقول لها إنّ من أعطاه الفكرة كان المهندس أحمد الدَكيز، لكنّه لم يقل، كي لا يزيد الأمور تعقيدًا، خصوصًا وأنّ هند كانت تحتقر منى، لأنّها تعتقد أنّ هذه المرأة لا همّ لها سوى إظهار مفاتنها الجنسيّة، كأنّ جسمها كلّه هو عضو جنسي متعدّد الاحتمالات أحمد قال لنسيم إنّه لا مفرّ من تجاوز رتابة الحياة الجنسيّة الزوجيّة ببعض الألعاب، وأنّه اكتشف أنّ الرقص الشرقي في البيت هو أفضل محفز جنسي. ودخلت الفكرة في رأس نسيم لكنّه أساء تفسيرها، فالدَكيز كان يتكلّم عن محفزات له وليس لزوجته، أمّا في حالة نسيم فإنّه كان يشكو من برودة زوجته، وهذه لا يمكن معالجتها بهذه الطريقة.

«أصحابك هيك، يعني بيتعاملوا مع نسوانهم كأنّهم شراميط؟».

«الرقص الشرقي فنّ رفيع مش شرمطة»، قال، «بتعرفي كيف بلّشت رقصة هزّ البطن، بلّشت بمصر أيّام الفراعنة، وكانت تحصل بالمعابد كأحد طقوس العبادة، الرقّاصة كانت تنحني لورا حتى تقدّم سرّتها هديّة للآلهة»

«يعني لمن جبت بذلة الرقص وشرّبتني شمبانيا كان بدّك ياني صلّي! شو إنت مفتكرني مجدوبة؟»

لم تحبّ هند توبة زوجها التي تحوّلت هوسًا دينيًّا، فهي لا علاقة لها بالدين على الإطلاق. لم تطرح على نفسها أسئلة فلسفيّة تتعلّق بوجود الله، لكنّها كانت تعتقد أنّ هذه المسألة لا تعنيها وافقت على مضض على تعميد أولادها في الكنيسة، «لأنّه ما بيصير غير هيك»، كما قال نصري، لكنّ التقاليد والطقوس الدينيّة لم تدخل بيتها، كما أنّ أولادها كانوا بمنأى عن المسألة برمّتها لأنّها أدخلتهم إلى «الليسّيه الفرنسيّة»، وهي مدرسة علمانيّة.

انقلب نسيم رأسًا على عقب بعد موت والده. توقّف عن السهر خارج البيت، وبدأ يذهب لحضور القدّاس في الكنيسة كلّ أحد، ثم بدأ يأخذ أولاده معه إلى الكنيسة، واكتشف أنّ هناك تنظيمًا للرعيّة يتولّى إعطاء دروس دينيّة للأطفال بعد القدّاس، سجّل أولاده في مدرسة الأحد، بل وصلت به الأمور إلى حدّ التطوّع للتدريس فيها، بدأ يقرأ الكتب الدينيّة، ودعا زوجته إلى المجيء معه ومع الأولاد إلى الكنيسة، لكنّها رفضت، وقالت إنّ اللوثة الدينيّة التي أصابته هي جزء من اليأس العامّ الذي جاء نتيجة الحرب الأهليّة الطويلة.

لكنّها لا تدري كيف وافقت على الذهاب معه إلى سهرة يطلقون عليها اسم «السهرانيّة»، حيث يجتمع مجموعة من الرجال والنساء حول راهب بدا وكأنّه يعيش في مغارة في البرّيّة. ثوبه الأسود الفضفاض ينتشر من حوله كأنّ جسده غائب أو مصنوع من مادّة أثيريّة، عيناه كبيرتان لكنّهما ضائعتان

ومطفأتان داخل وجه تفترسه لحية طويلة غير مشذبة. كان هذا الراهب قد عاد من جبل آثوس في اليونان، حيث قضى عشرين عامًا، كي يؤسّس ديرًا في إحدى القرى النائية في عكّار لا تدري هند ماذا أتى به إلى بيروت، ولماذا اجتمعت من حوله هذه المجموعة من الناس، اعتقدت أنّها سوف تستمع إلى تجربته في جبل الرهبان اليوناني. غير أنّ الراهب الذي كانوا ينادونه باسم أبونا فادي، خيّب أملها، ولم يفتح فمه كي يحكي. وبدأت السهرانيّة التي هي عبارة عن تلاوة صلوات وتراتيل لا تنتهي وسط شموع مضاءة ومناخ يشبه مناخات تحضير الأرواح. كان المشاركون في هذا الاحتفال أشبه بالغائبين عن الوعي، وبين وقت وآخر، كانت ربّة المنزل تأتي حاملة مجمرة نحاسيّة يفوح منها البخور، تعطيها للراهب، فيقوم بتحريكها يمنة ويسرة فوق رؤوس الجالسين. شعرت هند بالدوار والنعاس، وبدأ جفناها يسقطان، غير أنّ عينَي الراهب كانتا تلتمعان فجأة وتنظران في عينيها قبل أن ينطفئ فيهما الضوء. بقيت هند حوالى الثلاث ساعات وهي تغالب نعاسها وتقاوم عينَي الراهب، وحوالى الواحدة من بعد منتصف الليل، وعندما رفع الراهب يده معلنًا استراحة قصيرة، ودارت فناجين القصعين على الحاضرين، التفتت إلى زوجها وقالت إنّهما يجب أن يعودا إلى البيت.

في تلك الليلة العابقة بروائح البخور ونكهة القصعين، رأت هند منامًا غريبًا لا تدري من أين جاءها رأت نفسها تقف وسط حلقة المصلّين ببذلة الرقص الشرقي، وترقص كمحترفة، تهز ردفيها، تجثو أرضًا، تقوّس بطنها إلى الأمام، فيسقط رأسها إلى الخلف، وترفع سرّتها إلى الأعلى، حيث كانت عينا الراهب النهمتان في انتظارها

ـ ١١ ـ

قالت إنّ اسمها غزالة.

قالت إنّها من قرية تُدعى شهبا في جبل العرب، أو جبل الدروز، في سورية

قالت إنّها أمّ لطفلين، وإنّها لا تعمل في المنازل، لكنّها قبلت كرمال عيون الخواجة نسيم، «نسيم ومتروك متل الإخوة، متروك ما اشتغل إلّا مع الخواجة نسيم بلبنان، الحقيقة يا حكيم أنّه لولا خيّك ما كنّا بقينا لحظة ببيروت، حدا بيسكن بهالمدينة، أنا لمّا تزوّجني متروك ما كان بدّي إلّا إجي على بيروت، وببيروت صار بدّي إرجع على الضيعة، خفت كتير، وكيف بدّي خبّرك، يعني ليلة يلّي وصلنا كانت الدنيا والعة بالقصف، وأنا كنت عم برجف، وبس بدّي إتخبّا»

قالت إنّها رضيت بالعمل عند الستّ هند، «حتى ساعدها، أنا مش صانعة يا حكيم، ومتروك ما بيقبل إنّي إشتغل خادمة بالبيوت، بس الستّ هند غير شكل، ما كان بقدر إكسر خاطر الخواجة نسيم، قعدت عندها كم شهر، شو هالمرا، جوهرة، كانت لمّا تشوفني عم بشتغل بتنضيف البيت، تفز حتى تساعدني وتشتغل معي، كأنّنا أصحاب، بعدين قالت لي ما بقى إجي إشتغل، وطلبت مني زورها مرّة بالأسبوع، كلّ ما بروح لعندها بتقعد

معي وما بتخلّيني أعمل شي، منشرب قهوة ومنحكي، وبتصير تسألني عن الضيعة، بتحبّ خبّرها قصص، وأكتر قصّة بتنبسط فيها هي قصّة ستّي، بتضلّها تطلب مني خبرها القصّة نفسها، وبعدين بتعطيني هدايا للأولاد، ولا مرّة عطيتني إشيا مستعملة، شو هالستّ، قلبها دهب، وأنا بحسّ إنّها صديقتي ومتل أختي».

قالت إنّها وافقت على طلب زوجها أن تعمل في منزل الحكيم، لأنّه شريك الخواجة بمشروع المستشفى، وإنّها تعتبر عملها خدمة تؤدّيها لصديق، «ما تفهمني غلط يا حكيم، أنا بس بدّي ينجح المستشفى، وساعتها كلّنا منرتاح، متروك بوقّف شغل الفعالة والشوفرة، وبيصير مسؤول عن الإشراف على التنضيفات بالمستشفى، وهيك كلّنا منرتاح»

سألها كريم ما هي أمنيتها، فقالت إنّها تتمنى أن تشتري بيتًا في بيروت، «وصير ستّ متل الستّات، يعني يصير عندي خادمة سيريلانكيّة وإرتاح»

«خادمة!»

«هيك بحلم، بعرف إنّه هيدا حلم صعب يتحقّق، بس هيك بيخطر على بالي، بشوف حالي ستّ محترمة».

قال لها إنّ هند رفضت أن تجلب خادمة سيريلانكيّة.

«بعرف، هي خبّرتني القصّة، هند جوهرة، قلت لك إنّها مرا غير شكل، ما بتقبل يكون عندها خادمة أبدًا، لأنّه رأيها هيك، وأنا بحبّها وبحبّ رأيها، بس إنت سألتني عن تمنياتي وأحلامي، وأنا جاوبتك بصراحة»

كان اللقاء الأوّل غريبًا في السابعة صباحًا، سمع كريم صوت جرس الباب، كأنّه يأتي من مكان بعيد، ثم سمع المفتاح يدور في القفل والباب

ينفتح. انتفض من سريره، هرع إلى الباب، ليجد امرأة واقفة أمام العتبة، تنحني قليلاً إلى الأمام وكأنّها تهمّ بالدخول ولا تدخل، تحمل المفتاح في يدها اليمنى وتبتسم.

«أنا غزالة»، قالت.

«مين؟»

«الخواجة نسيم أعطاني المفتاح، وقال لي إنّك يمكن ما تكون بالبيت، أنا قرّرت إجي بكّير، عفوًا على الإزعاج. قلت هيك بخلّص شغلي وبرجع على البيت قبل ما يجوا الأولاد من المدرسة»

«إنت مين؟» سأل كريم، وهو يفرك النعاس عن عينيه.

«ارجع ونام، هيئتك تعبان، وأنا مش رح أوصل لغرفتك إلّا بعد ساعتين»

التفت كريم، وكان طيف النعاس قد انسحب عن عينيه، وسألها من تكون وماذا أتى بها إليه في الصباح الباكر

قالت إنّها غزالة، وقالت إنّ الخواجة نسيم أرسلها كي تنظّف البيت، وأعطاها المفتاح، وطلب منها أن تتركه مع الطبيب إذا وجدته في المنزل، وإلّا فإنّه سيأخذ المفتاح غدًا من زوجها متروك.

مدّت المفتاح إلى الطبيب فأخذه من يدها

«بتحبّ تشرب قهوة»؟ سألتْ.

«لا مش ضروري، أنا بعمل القهوة، بس نسيم ما قال لي عنك»

«الخواجة هيك»، قالت، «دايمًا بيعمل مفاجآت للناس يلّي بيحبّهم»

دخل كريم إلى المطبخ كي يعدّ قهوته التركيّة الصباحيّة، فلحقت به غزالة، وبدأت في تنظيف المجلى، الذي تكدّست فوقه الصحون المتّسخة.

«كيف بتحبّي قهوتك»؟ سألها كريم.

«يا عيب الشوم منك يا حكيم»، تقدّمت من البوتوغاز كي تعدّ القهوة، فارتطمت ذراعها السمراء بذراعه، سحبت ذراعها بسرعة، ونظرت إليه من عينيها اللتين أسبلتهما دلالة على حياء مصطنع، فشعر كريم أنّه أمام فيلم مصري من الدرجة الثالثة، انسحب من المطبخ إلى غرفته، فسمع صوت غزالة يسأله كيف يحبّ القهوة؟

كان في صوتها ما يشبه الغواية، لكنّها غواية الأفلام الميلودراميّة بالأسود والأبيض، حيث تُغري الخادمة البطل، أو يستغلّ البطل موقعه وسلطته كي يجرّ الخادمة إلى سريره.

قال إنّه يحبّها عثمليّة، سألته ما معنى عثمليّة فأجابها «يعني وسط مع شويّة سكّر زيادة» فكّر أنّ الميلودراما تشبه القهوة التي ينسبها اللبنانيّون إلى العثمانيّين، شيء من دلع السكّر، الذي يتغلغل في رصانة البن، ولا يبقى في قعر الفنجان سوى التفل، الذي يشبه الدموع التي كانت تذرفها الفتيات على الأستاذ وحيد، الذي يتقمّص شخصيّته المطرب السوري المتمصّر فريد الأطرش. لم يجرؤ كريم يومًا على إعلان حبّه لفريد الأطرش، وعشقه أغنيته «عذاب»، التي تلائم صوته المبحوح، فتخرج مشاعر العذاب متكسّرة من حنجرته، ويبقى الحبّ سؤالاً معلّقًا في فضاء مقام حجاز كار، وإيقاعاته التي تتكرّر، وحزنه الكردي. خجله من حبّه لفريد الأطرش لا يشبه سوى خجله من عشقه للأفلام الميلودراميّة، حيث كانت دموع الأستاذ وحيد تبكي ضياع الحبّ في فيلم «رسالة من امرأة مجهولة» في شبابه، وفي مرحلة الصخب اليساري لم يكن يجرؤ على البوح بهذا الجانب من شخصيّته أمام أحد، فالموضة كانت الشيخ إمام وأغانيه الثوريّة، وكريم كان يحبّ هذه الأغاني ويحفظها غيبًا، وخصوصًا أغنية «جيفارا مات»، لكن لا شيء كان يستطيع أن يتغلغل إلى ثنايا قلبه، مثل صوت فريد الأطرش المبحوح الذي يمزج الرغبة المكبوتة بالألم.

ماذا جرى مع غزالة؟ وكيف تطوّرت الأمور؟ ولماذا كان يشعر بأنّ قلبه يكاد ينخلع من مكانه عندما يسمع رنّتي الجرس المتتاليتين إيذانًا بقدومها، وكيف كان يجلس في غرفته في انتظار أن تنتهي من تنظيف المنزل، كي تأتي إليه وتقوده إلى حوض الحمّام، حيث كانت يداها في انتظاره؟

كلّ شيء بدأ حين ارتطم ذراعه بذراعها ذهب إلى غرفته بحسب ما أمرته، جلس في سريره يقرأ الجريدة، أشعل سيجارة، وأغمض عينيه. وفجأة انبثقت رائحة القهوة، وانتشرت كالخدر في مفاصله. دخلت غزالة رافعة شعرها إلى الأعلى، فانهمرت الرائحة، وامتدّت اليدان الأبنوسيّتان بصينيّة عليها ركوة القهوة وكوب ماء تفوح منه رائحة ماء الزهر

سكر كريم بالرائحة، وسألها عنها، قالت إنّها وضعت قليلاً من ماء الزهر في كوب الماء البارد، «ما في شي أطيب من ريحة روح الزهر» قالت إنّها اكتشفت ماء الزهر هنا في بيروت، «بالضيعة ما كان عنّا لا زهر ولا من يحزنون، نحن منزرع زيتون وحنطة وشعير، لو بتشوف الأرض السودا بسهل حوران يا حكيم، شي بيقطّع القلب، الأرض عم تتشقّق من العطش، جلدها مكسّر، وما حدًا بيقدر يعمل شي»

سألته لماذا يسمّي اللبنانيّون روح الزهر ماء، «هيدي روح يا حكيم، لمّن بيتنشّقها الواحد بحسّ أنّ روحه كبرت».

«وين رايحة»، سألها، «اقعدي اشربي معي فنجان قهوة»

«قهوتي بالمطبخ»، قالت، «بعدين أنا ما بحبّ السكّر مع القهوة، السكّر بيكسر هيبة البنّ، وما بعرف ليش أنتم بلبنان بتشربوا القهوة هيك، كأنّكم بتخافوا من طعمة البنّ ومن ريحته»

قرّر أن يحمل فنجانه ويلحق بها إلى المطبخ، رأى كعب قدميها الحافيين المتشقّقين، وشعر بنار الشهوة، لكنّه جمد في مكانه، ولم يجد في

روحه الشجاعة للقيام بذلك، يرميها على أرض المطبخ، ويأخذها هكذا من دون مقدّمات ولا كلام. يرفع قدميها إلى الأعلى، ويدخل بها ارتجفت يد الطبيب اليمنى ولمعت في رأسه فكرة الاغتصاب.

الآن، في بيروت، يسكر كريم بفكرة الاغتصاب التي امتزجت بروح ماء الزهر، وبنكهة البن المحروق. فكّر أنّ غزالة على حقّ، وأنّ عليه أن يشرب القهوة التركيّة بلا سكّر قالت له إنّ البن ينتشر في اللسان ويبطّنه بالمذاق، وإنّ السكّر يُفسد نكهة القهوة.

كلّ شيء بدأ عندما غادرت غرفته حافية، بعدما وضعت ركوة القهوة على الكومودينة قرب السرير، فرأى كعب قدميها المتشقّقين، وشعر برغبة في أن يمسك بهما، يسقطها أرضًا ويرتمي فوقها تخيّل المشهد أمامه، واكتشف أنّ كلّ خليّة من جسده تريد هذه المرأة. لكنّه لم يجرؤ. مرّة أخرى يكتشف كريم أنّ نبله أو ما ادّعاه نبلاً لم يكن سوى غطاء لخوفه.

جلس في سريره، شرب قليلاً من القهوة، سرى التنمّل في جسمه، قرّر النهوض من الفراش مرّات عدّة، لكنّه لم يفعل

رأى نفسه في المطبخ، لا يعلم كيف نهض من السرير، ولا من أين جاءته الشجاعة كي يقف أمام غزالة ويقول إنّه قرّر أن يجرّب قهوتها المُرّة.

شرب القهوة واقفًا في المطبخ، وكانت غزالة تأتي وتذهب، تنظر إليه من طرف عينيها، وتتصرّف كأنّها لا تراه. أحسّ بالطعم المرّ يجتاح لسانه، وسكر برائحة القهوة وطعمها الحارق، وقرّر أن لا يشرب بعد الآن سوى القهوة المُرّة.

انتهت مغامرة الاغتصاب بفنجان من القهوة. وقف ينتظر نظرات غزالة، ولم يستفق من انتظاره إلّا حين سمعها تطلب منه مغادرة المطبخ، لأنّها تريد أن تشطفه بالماء.

لا علاقة لهذا اللقاء الأوّل، بما سيجري لاحقًا فالعلاقة القصيرة العاصفة التي توقّفت بعد شهرين من بدايتها، ثم اتّخذت شكلاً غرائبيًّا، تركت تحت لسان الطبيب المتفرنس مذاق الالتباس

يستطيع كريم أن يقول إنّ غزالة كانت رمزًا لالتباسات بيروت، وبذا يبرّئ نفسه من صفة السذاجة التي ارتسمت على ملامحه، حين روى له متروك الحكاية، بعدما عاش لحظات الرعب، وهو يشرب العرق ويمضغ لحم الفرّوج المشوي. فاللجوء إلى ترميز الأشياء يحرّرنا من المسؤوليّة، ويجعل من التجربة الإنسانيّة أشبه بملعب للمصادفات، بحيث تصير الحياة مجرّد حكاية.

جاء كريم إلى بيروت كي يرمّم مرآته، ويُعيد رسم صورته، فوجد نفسه في واقع لا يحتمل الرمز أو التأويل. تتفوّق الحرب الأهليّة على جميع أنواع الحروب في أنّها لا تحتمل تأويلاً، إنّها الوقوف الكامل في عراء الكلمات والنزوات. لا تستطيع الأفكار أن تصمد إذا لم توضع في وعاء ينسّقها، يضيف إليها ويحذف منها لكنّ الحرب الأهليّة لا وعاء لها، إنّها مجموعة من المرايا المحطّمة التي تتوازى، صانعة من الحطام صورًا تتناسخ لكنّها تبقى عصيّة على الاتّساق.

الفرق بين كريم وشقيقه التوأم أنّ الطبيب حين وجد نفسه عاجزًا عن تنسيق الأشياء هرب إلى فرنسا، وهناك قام بحذف ذاكرته. لم يبق من أيّام الحرب سوى صورة غامضة لشبح قرّرت ذاكرته التي أيقظها السكر الشديد الاحتفاظ بها، جاعلة منها وعاء لبدايات حبّه للمرأة الفرنسيّة.

أمّا شقيقه نسيم فقام بالإضافة بدل الحذف، إذ لم يكتف بذاكرته الشخصيّة، بل مزج بها ذاكرة شقيقه، حين استولى على هند، التي كانت تعيش ما يشبه الانهيار العصبي بعد حادثة اعتقال مينا وطردها من لبنان.

شاركت غزالة سينالكول في حضورها في ذاكرة كريم، على الرّغم من

أنّها لم تحضر إلّا فترة قصيرة، ثم انسحبت وصارت مثل ظلّ لا يمكن الإمساك به. أمّا سينالكول فلم يحضر أبدًا، كان شبحًا منسوجًا من كلمات الناس، وشبّيحًا يمكن رؤية أثره في انصياع الآخرين لأوامره، خوفًا من عبواته الناسفة، التي كانت تقتلع أبواب الدكاكين وتبقر أحشاءها لكنّ هذا الشبح صار إنسانًا حقيقيًّا يستطيع كريم أن يتماهى به، ويروي عنه حكايات تمزج الحقيقي بالخيالي كي يثير فضول زوجته الفرنسيّة وذهولها

لن يجرؤ كريم على إخبار حكاية غزالة لأحد. لذا كانت الحكاية مرشّحة للنسيان، لو لم تأته غزالة قبل مغادرته بيروت بثلاثة أيّام، والابتسامة تحتلّ شفتيها، لتقول له إنّ متروك صالحها بعد تدخّل الخواجة نسيم.

«بتعرف يا حكيم أنا ما بقدر أرفض طلب للخواجة نسيم»

في تلك اللحظة فهم كريم أنّ شقيقه قرّر أن يعلن، وسط الخراب، أنّه قادر على تسجيل النقاط، وأنّ نسيم عرف الحكاية كلّها، وربّما نجح في الاستيلاء على جسد هذه المرأة أيضًا

لكنّ غزالة العائدة من أجل ترتيب البيت ومساعدة كريم على ضبّ أغراضه استعدادًا للرحيل النهائي، لم تعد. المرأة السمراء، المعتدلة القوام، ذات الوركين الملفوفين والفخذين الممتلئتين المسحوبتين إلى قمّة الشهوة، والقدمين الحافيتين المشقّقتين باللذّة والماء. غزالة بشعرها الأسود الطويل الذي تتخلّله تجاعيد تصنع له ظلالاً على الثديين الإجّاصيّين المنحدرين قليلاً والناهدين إلى أعلى الحلمتين المتورّدتين. غزالة بفمها الكبير وشفتيها المكتنزتين وعينيها السوداوين، وعنقها الطويل هذه الغزالة لم تعد حين عادت الخادمة من أجل مساعدته على ضبّ كلّ ما يريده من البيت.

المرأة التي عادت كانت مختلفة في كلّ شيء. قصّت شعرها ولبست

فستانًا واسعًا محا ملامح جسدها، وكانت عيناها مطفأتين، وانحناءة خفيفة تحتلّ كتفيها

قالت إنّها تعتذر منه، وإنّها ورّطته في حكاية لا علاقة له بها، قالت إنّها تشعر بأنّ عليها أن تروي له الحقيقة، فأجابها أنّه لا يريد أن يعرف، لكنّه شرب من قهوتها المُرّة، واستمع إلى حكايتها، وهو يشعر بالسكاكين تمزّق قلبه.

«ما إلك حقّ تزعل مني يا حكيم»، قالت، «إنت كمان كنت مع المدام منى»

«ما تجيبي سيرة منى على لسانك»

قال له نسيم إنّه يستطيع أن يأخذ من البيت ما يشاء، لأنّه قرّر أن يبيع البيت ومبنى المستشفى غير الجاهز والصيدليّة وقطعة الأرض في قرية برمّانا، التي كان نصري يحلم ببناء دارة صيفيّة فيها مؤلّفة من ثلاث طبقات من أجل ولديه وأولادهم. طلب منه توقيع وكالة عامّة تسمح له بالبيع كي يسدّد جزءًا من ديونه. وقّع كريم من دون أن يناقش. وافق لأنّه لم يكن يستطيع شيئًا آخر خرج من مدينته عاريًا من كلّ شيء، وفهم وهو يوقّع أنّه لن يستطيع العودة إلى هذا المكان.

جاءت غزالة من حيث لا يدري.

دارت الغواية في اليوم الأوّل للقائه بغزالة حول البُنّ والقدمين الحافيتين لم يغتصب كريم الخادمة الجميلة التي أتت إلى بيته حاملة معها احتمالات الغواية مرّ الاغتصاب مرورًا غير عابر في ذهنه، وصار مصدرًا لتهويمات خياليّة احتلّت ليله، والليالي الأربع التي قضاها في انتظارها

غادر البيت للقاء متعهّد الآلات الطبّيّة، ثم عاد في الخامسة مساء ليجد كلّ شيء يلتمع في شقّته، لكنّ غزالة لم تكن هناك. التقى أيّوب

تيّان، وهو يمتّ بصلة قرابة بعيدة إلى أمّه، ولم يكن قد رآه منذ خمسة وثلاثين عامًا وعلى أيّ حال لم تكن هناك أيّ صلة بين هذا الرجل وذاك الطفل قال إنّه متعهّد تجهيزات طبّيّة، وإنّه قام بإعادة تجهيز مستشفى الروم بالآلات الحديثة، وإنّه مواظب على حضور القدّاس صباح كلّ يوم أحد، لأنّه أحد مسؤولي الرعيّة في كنيسة مار نقولا لم يفهم كريم العلاقة بين العمل والقداديس، شعر شيئًا غريبًا تجاه هذا الرجل الخمسيني القصير والسمين، والذي يفترس اللحم ملامح وجهه، ويغطّي شعر حاجبيه السميكين عينيه الصغيرتين بحيث لا تستطيع أن تراهما ثم فهم من شقيقه أنّ «اليويو» مثلما كانت تسمّيه أمّه، الطانت روز، كان في قوّات الـ ب ج. وهي القوّات الضاربة الخاصّة التي أنشأها حزب الكتائب خلال الحرب، وكانت وسيلته لتطويع حيّ الأشرفيّة في بيروت.

«الباش، ركّع العالم بقوّات الـ ب ج. قال نسيم.

«مين هو الباش»، سأل كريم.

«الباش هو الشيخ بشير الله يرحمه، بعدك لهلّق ما بتعرف مين هو الباش»

«وشو دخل اليويو بالموضوع؟».

«اليويو كان من أركان الباش، بس الْحقّ على أمّه، أمّه راحت عند المطران وقالت له الحقني يا سيدنا إبنك رح يروح من بين إيدينا، بشير عم يبعتوا على الموت، متل ما بعت كلّ الشباب»

كان الجميع يشكّون في نسب اليويو، فأيّوب كان الابن الوحيد لقسطنطين تيّان، الذي مات في بداية الحرب في ظروف غامضة. إذ قيل إنّه كان يجلس في صالون بيته عندما أُصيب برصاصة طائشة في أعلى فخذه. قيل إنّ الرصاصة أصابته في الشريان الأبهر فنزف دمه خلال دقائق، ومات قبل أن يصل رجال الإسعاف لأخذه إلى المستشفى.

يومها اتّهم الكثيرون المطران بأنّه قتل غريمه. لكن لا شيء مؤكّدًا، فالموت في الحرب كالحياة فيها، وليد المصادفة المحضة. لكنّ هناك إجماعًا على أنّ «اليويو» يشبه المطران أكثر من اللازم، وأنّك إذا سمعت صوته من دون أن تراه تخال نفسك تستمع إلى السيّد صموئيل.

نسيم أصرّ على رأيه بأنّ اليويو هو ابن المطران، وسأل شقيقه إذا كان قد التقى بسيّدنا صموئيل في باريس.

عندما انتهى الاجتماع مع اليويو، الذي شارك فيه نسيم، أصرّ نسيم على اصطحاب شقيقه إلى مطعم «شي سامي» في المعاملتين، ورغم رفض الطبيب وإصراره على العودة إلى البيت، فإنّه وجد نفسه في سيّارة شقيقه في طريقهما إلى المطعم، وهكذا ضاعت إمكانيّة أن يجد كريم غزالة في البيت، كما وعد نفسه.

الاستماع إلى قصّة علاقة المطران بالطانت روز، أو كيف استمرّت علاقة اليويو بالباش بعدما أبلغه بشير أنّ عليه الانتقال من العمل العسكري إلى العمل الاقتصادي، فصار أكبر كوميسينجي في الحوض الخامس من مرفأ بيروت، لم تثر اهتمام كريم. فاليويو مثله مثل الكثير من المقاولين الذين صعدوا فوق جثث الناس كي يجنوا ثروات طائلة، مشكّلين طبقة أغنياء الحرب. كما أنّ الأخبار حول قيام المطران صموئيل بتوريث اليويو أراضيَ شاسعة في جرود بلاد جبيل، لا معنى لها حتى حكايات ترقّق عظام المطران وتفتّتها في آخر أيّامه، بحيث صغر جسمه وتقلّص وصار مثل الكرة، وكيف تخلّت عنه الطانت روز، ورفضت زيارته في المستشفى، لأنّها لا تستطيع أن تراه على هذه الحال، ليست سوى حكاية واقعيّة مبتذلة، يمكن أن نجد مثيلاً لها في المسلسلات التلفزيونيّة الرائجة في هذه الأيّام. لكنّ ما أثار كريم هو الانهيار العصبي الذي أُصيب به الرجل بعدما اكتشف أنّ المرأة الفرنسيّة التي أحبّها تخونه.

قال نسيم إنّ جميع الأصدقاء أحاطوا بالرجل كي يستعيد توازنه النفسي، وإنّ تكليفه مهمّة تجهيزات المستشفى هي جزء من العلاج

قال مرّة لبرناديت زوجته، حين كان الكلام لا يزال قادرًا على الوصول، لأنه كان مضمّخًا بشيء من الرغبة التي تُعطي الكلمات مذاقها، إنّ أكثر ما أخافه هو شعوره بأنّ بيروت صارت مجرّد مرآة. قال لها عن عذاب المرايا، قال إنّه عندما فقد القدرة على التمييز بين صورته والمرآة، قرّر الهرب. «المرآة يا عزيزتي تتألّم، لأنّها تستبدل نفسها بما تعكسه، بحيث إنّها تنسى من تكون، وحين تحاول استعادة نفسها، تكتشف أنّها لم تعد قادرة على التمييز بين ذاتها والآخرين، فتضطرّ أن تنسى نفسها وأن تذوب في الصور التي تعكسها»

قطّبت برناديت حاجبيها، كعادتها عندما تواجه مسألة صعبة الفهم، وقالت إنّها تفهم. لكنّها بعد لحظة انفجرت ضاحكة، وقالت إنّها لم تفهم شيئًا قالت له إن أحلى شيء في علاقتها به أنّها لم تفهم مرّة ماذا يقصد، وإنّ هذا سبب انشدادها إليه.

«غرام غامض سببه كلامك الغامض»

ضحكت وضحك، ولم يحاول أن يشرح لها أكثر، فهو نفسه ليس قادرًا على وضع مشاعره حول المرايا في كلام واضح.

لماذا لم يعد غموضه قادرًا على اكتشاف ظلال الحبّ في عينَي الزوجة؟ والأسوأ من ذلك هو أنّ عجزه عن التعبير، الذي أسمته برناديت غموضًا، بدأ منذ فترة يتحوّل إلى سبب لتبرّمها به، ونقدها لتصرّفاته

حين رجع كريم إلى البيت، ودخل في عتمة الكهرباء المقطوعة، لم يجد غزالة. أضاع غزالة في المطعم حيث استمع إلى قصّة تافهة عن رجل تافه اخترع حكاية حبّ تافهة، كي يخبره إيّاها شقيقه التافه، ويضيّع له يومه في مطعم ممتاز يصلح أن يكون ملتقى للعشّاق، لا مكانًا للسخرية من

حكاية حبّ، حتى وإن كانت سخيفة.

اليويو برهن أنّ قصّته لم تكن سخيفة، لأنّه وجد لها نهاية تراجيديّة تليق بقصص العشّاق، أمّا كريم فقد وجد نفسه ينحدر إلى قعر الميلودراما، حين كان يعتقد أنّه يعيش قصّة غواية جسديّة مع غزالة.

اليويو انتحر، وضع حدًّا لشعوره بالمهانة من سخرية الآخرين، بأن أطلق النار على صدغه.

أمّا كريم فلا

اعتقد كريم أنّ غزالة تستطيع أن تملأ فراغات بيروت، بحبّ لا يشبه الحبّ، لأنّه مجرّد من كلّ المشاعر حبّ بلا كلام عن الحبّ، ورغبة بلا احتراق الروح

غزالة هي جنس محض بلا زوائد لا مبرّر لها هنا ارتمى الطبيب المتفرنس في بحر من الملذّات التقليديّة، حيث المرأة رهن إرادة الرجل. يلعب الرجل دور السيّد بلا منازع، ويتفكّه بالمرأة، يأخذها رطبة بماء الرغبة، ثم حين ينهض من سرير المتعة، يغسلها عن جسده، كأن لم تكن، ويعود إلى حياته

مشكلة كريم أنّه على عكس ما حاول أن يوحي به لنفسه، لم يجد ما يشغله هنا في بيروت. جاء فوجد أنّ المخطّط الهندسي لمبنى المستشفى قد وُضع التقى بأيّوب كي يدرسا سويًّا احتمالات شراء التجهيزات، لكنّ قرار نسيم كان بأنّ على التجهيزات والعقود مع الأطبّاء أن تنتظر قليلاً، لأنّه يتوقّع وصول مبلغ مالي كبير، كما أنّ انتحار أيّوب جاء كإشارة مبكرة إلى تعثّر المشروع اقتصر عمل كريم على الانتظار والذهاب إلى ورشة البناء، حيث كان يستمع إلى شرح متعهّد البناء عن سير التحضيرات للبدء في العمل وحين يعود إلى المنزل، يجلس إلى طاولة المكتب ويرسم مخطّطات كان يعلم في أعماقه أنّها لن تتحقّق، لكنّه قرّر الاستمرار في لعبته.

«أنت شو بهمّك، من لحظة وصولك على بيروت ومعاش مدير المستشفى محطوط بالبنك باسمك، اتّفقنا على خمسة آلاف دولار، والمصريات موجودين، اعتبرها إجازة يا أخي، اشتغل على مهلك، وبس يحضروا المصريّات، منبلّش الورشة».

كان نسيم واضحًا منذ البداية، قال لشقيقه إنّه سيؤمّن جميع التكاليف، والمستشفى يكون شركة مساهمة، يحتفظ نسيم بـ ٥١ بالمئة من الأسهم، وكريم بثلاثين بالمئة، على أن توزّع الأسهم الباقية على الأطبّاء الذين سيعملون معهم

«كلّهم رح يدفعوا حقّ الأسهم يلّي رح يشتروها من عداك أنت، أنت ما بتدفع، لأنّه هيدي رح تكون مقابل حصّتك من ورثة بيّك، يلّي ما ورّثنا إلّا شي لا يذكر، بس مش مهمّ، ومعاشك كمدير ما إله علاقة بمدخولك كطبيب من عملك، يعني يا حبيبي انفتحت أبواب الثروة. أكبر ثروة ممكن واحد يعملها بلبنان هي من الطبّ، الطبّ بلبنان هو بير بترول، الناس بتدفع قد ما منطلب بشرط تكون سمعتنا متل الفلّ، وأنت سمعتك يلّي سبقتك على بيروت إنّك طبيب جلد مشهور بفرنسا، بكرا قبل ما نبلش المستشفى رح نزبطلك مقابلة على التلفزيون عن شغلك بفرنسا، وساعتها بيقول الكريم خود، المصاري يا خيّي هي إشاعة، طلّع إشاعة منيحة عن حالك، وشوف كيف بتكرج المصاري كرج لعندك»

ليس صحيحًا أنّ كريم صدّق احتمالات الثروة التي حدّثه عنها شقيقه، فهو لم يأتِ بحثًا عنها، ولو كان يريدها لذهب إلى الخليج، هناك تنفتح أمام من يريد أبواب المال الذي لا ينضب.

لم يروِ لشقيقه حكاية الشيخة مرجانة، وهي زوجة أحد مشايخ الخليج جاءته إلى العيادة في مونبلييه، بعدما أجرت سلسلة من عمليّات التجميل في جميع أنحائها، كي يعالج بشرتها السميكة التي تتعرّق كثيرًا وصف لها

بعض المراهم، وقال بعدما أرته صورتها القديمة، متباهية بإنجازات طبّ التجميل في فرنسا، إنّه لم يكن في استطاعته أن يتعرّف إليها لأنّها تغيّرت كثيرًا ضحكت عن صفين من الأسنان التي تلتمع بالبياض، وقالت إنّها وُلدت من جديد، لكنّها تريده أن يحلّ لها مشكلة التعرّق. استخدمت عبارات فاضحة وهي تقهقه ضاحكة، كأنّها تركت خجلها في بلادها الحارّة، وصارت امرأة أخرى على يديْ طبيب فرنسي يعرف كيف يُعيد رسم الوجه بطريقة جديدة، فيصغر الأنف وتمتلئ الشفتان ويعلو الجبين، ويرتفع الخدّان.

العبارات الفاضحة التي استخدمتها المرأة الأربعينيّة جعلت كريم يشعر أنّ المرأة تلبس قناعًا سألها إذا كانت تغطّي رأسها بالحجاب في بلادها فقالت إنّها تغطّي وجهها وعنقها أيضًا بمنديل أسود سميك ينحدر من تحت العينين.

تنحنح الطبيب اللبناني وهو يفتّش عن عباراته، لكنّ المرأة سبقته إلى القول إنّها قامت بعمليّات التجميل من أجل نفسها لا من أجل رجل محدّد، أو من أجل الآخرين، قالت إنّها استعادت عبر هذه العمليّة ثقتها بنفسها، وقدرتها على غواية نفسها

قالت إنّ المرأة التي لا تغوي نفسها لا تستطيع غواية أحد، وإنّ جوهر اللعبة يتمّ بين الأنا والأنا

«ولكن بعد هذه العمليّات الجراحيّة لم يعد هناك من حاجة إلى الحجاب، فالوجه الذي نراه اليوم ليس وجهك، وأنت لست أنتِ»

«من قال لك يا حكيم إنّ الناس ليسوا كلّهم هكذا، بعمليّات تجميل ومن دونها، بحجاب أو من دون حجاب، كلّنا نغطّي ونغيّر»

الشيخة مرجانة درست علم النفس في الجامعة الأميركيّة في بيروت، «كنت أخلع الحجاب والعباءة على باب الطائرة لحظة وصولي إلى بيروت.

ألبس بنطلون الجينز، أرفع شعري الأسود الطويل إلى الأعلى، وأستعيد جسدي حين أسلّمه لنظرات الآخرين. لكن كان لا بدّ من العودة إلى الوطن كي أتزوّج من ابن عمّ أبي، وتزوّجت وأنجبت صبيًّا وابنتين، هكذا يدور دولاب الدنيا»

قالت إنّها لم تعد تفهم على اللبنانيّات، «كنّا نهرب من حجابنا إلى سفورهنّ، ماذا جرى لنسائكم، صار نصف نساء لبنان محجّبات ونصفهم الآخر شبه عاريات، فلماذا؟»

لم يجد كريم جوابًا على سؤالها، هل يقول لها إنّ لبنان مرآة أيضًا وماذا يعني هذا الكلام المتفلسف أمام امرأة تأتيك بأسئلة محدّدة وتنتظر أجوبة واضحة.

أعطاها دواء للتعرّق، ووصف لها حمية من المأكولات ووعدها بأنّ كلّ شيء سيكون على ما يرام، أمّا ما تعتقده سماكة في جلدها فهو مجرّد وهم، إذ لا يوجد جلد سميك وجلد رفيع سمارها يوحي لها بذلك، علمًا أنّ الجلد الأسمر أفضل من الجلد الأبيض، لأنّه أكثر قدرة على امتصاص الحرارة.

مسّد زندها وهو يقول لها إنّ جلدها ناعم وجذّاب، ولا يحتاج إلّا إلى بعض أنواع الكريمات كي ينجلي ويشعّ

حتى الآن لا وجود لحكاية تُروى، الحكاية بدأت بعد هذا اللقاء بأربعة أشهر، حين تلقّى كريم شمّاس اتّصالاً هاتفيًّا من الشيخة مرجانة، تشكره على أدويته ونصائحه لأنّها شفيت تمامًا من العرق الذي كان يبلّل جسدها من رأسها إلى قدميها حين يقترب منها الشيخ زيدان قالت إنّها ناقشت مع الشيخ زيدان في أمر دعوته إلى الخليج كي يعمل هنا، وتكلّمت عن أرقام خياليّة لم يحلم بها في حياته.

لم يذهب كريم سوى مرّة واحدة، من أجل أن يعالج مجموعة من

صديقات الشيخة، وهناك اكتشف أنّ عدد أفراد جاليات العاملين في تلك البلاد يفوق كثيرًا عدد سكّانها الذين يطلقون عليهم اسم المواطنين ويلبسون الثياب التقليديّة نساء ورجالاً من أجل أن يتميّزوا عن العاملين الذين يُطلق عليهم اسم الوافدين.

وعندما فاتحه الشيخ زيدان بأمر بقائه في الإمارة الصغيرة كي يعمل هنا، احتار كريم كيف يرفض هذا العرض السخيّ، فتذرّع بزوجته الفرنسيّة وابنتيه. في اللقاء الوحيد الذي جمعه بالشيخ زيدان، استمع كريم إلى أغرب تحليل في حياته عن العلاقة بين نعمتي الإسلام والنفط، اللذين كانت جزيرة العرب مسرحًا لهما روى الشيخ أنّ الإسلام أخرج الناس من جزيرة العرب، كان الإسلام بابًا للفتح والتمدّد والتوسّع، فخرج الناس من هذه الأرض الصحراويّة الحارّة والجرداء غير الصالحة للسكن، واستوطنوا البلدان والأمصار، وعاشوا في نعيم المدن التي تخترقها الأنهار. ولولا فريضة الحجّ لفرغت هذه البلاد من سكّانها، أو من خيرة سكّانها على الأقلّ. وكان على جزيرة العرب أن تنتظر فجرها الجديد الذي بدأ مع اكتشاف النفط. مع النفط جاءت مكيّفات الهواء، وبدل أن نهاجر صرنا أرضًا للمهاجرين الباحثين عن لقمة العيش. الإسلام أعزّنا وأخرجنا من هذه الأرض، والنفط أعادنا إليها جاعلاً منّا أسيادًا للعالم من جديد. النهضة التي بدأت هنا ستشعّ على العالم بأسره، إنّها نتاج هذا اللقاء الذي هو حكمة إلٰهيّة.

«ولكنّكم لا تسمحون بالهجرة إلى بلادكم»

«ويجب أن لا نسمح وإلّا تفتّتنا وذهبت ريحنا»، أجاب الشيخ وهو يدعو الطبيب العجائبي إلى الإقامة في إمارته الصغيرة.

قال إنّ زوجته صارت مهفهفة بالجمال بسبب الدواء السحري الذي أعطاها إيّاه، وإنّه لا يعرف كيف يشكره، وهو لا يريد أن يبدو ناكرًا

للجميل لكنّه يتمنى أن يدخل الطبيب في الإسلام، ويُقيم هنا «وبذا تكتمل أفضال الله علينا»

لم تخطر هذه العلاقة السحريّة بين النفط والإسلام في بال كريم من قبل. مسكين خالد النابلسي ذهب إلى إسلام أصولي من دون نفط كي يكمل الثورة، فتمزّق أشلاء، وتابعت الثورة طريقها من دونه ومن دون أمثاله. الثورات في زمننا صارت في حاجة إلى آبار النفط، المال يزيّت كلّ شيء، والمال زينة الدنيا أمّا كريم فلم يدرِ بماذا يُجيب على عرض الشيخ. الرجل كان لطيفًا، ولم يصرّ، قال للطبيب إنّه من أهل الكتاب، «وأهل الكتاب في ذمّتنا»، وإنّه أراد فقط أن يكرمه بأفضل عرض، لكن «لا إكراه في الدين»

نسيم يعتقد أنّ الطبّ هو بترول لبنان، وأنّه يستطيع، من خلال المستشفى الذي قرّر أن يبنيه، أن يطوي صفحة علاقته بالحرب نهائيًّا ويبدأ حياة جديدة كرجل أعمال محترم لا يشبه في شيء صورة الشبّيح الذي يقامر بحياته مع كلّ قرش يجنيه من ثمار الحرب.

لكنّ المستشفى كان ينتظر صفقة ما كي يكتمل، وعندما حاول كريم أن يستفسر عن مضمون تلك الصفقة أجابه شقيقه أن لا علاقة له بالأمر، عليه الآن أن ينتظر، ويرسم الخطط، ويشرف على عمليّة الإعداد.

وكان الانتظار طويلاً، ستّة أشهر من اللاشيء، ومن إضاعة الوقت، ومن علاقات خائبة لم تترك تحت لسانه إلّا طعم المرارة.

عندما أشرقت غزالة، امتلأ جسد كريم بارتعاشات رغبة لم يكن يدري أنّها كامنة في ظلام روحه بدأ بشهوة الاغتصاب، وانتهى أسيرًا مطلقًا لهذه المرأة الهائلة الجمال. قال لها إن جمالها هائل، لأنّه لم يجد كلمة مناسبة يصفه بها

جاءت في المرّة الأولى صباح الثلاثاء، وقالت إنّها ستأتي مرّتين في

الأسبوع، بحسب التعليمات التي تلقّتها من الخواجة نسيم. لكنّها لم تحدّد الأيّام. وكان على كريم أن ينتظر من دون أن يجرؤ على السؤال.

جاءت يوم الخميس، لكنّها لم تأتِ باكرًا مثلما توقّع. كانت حوالى الحادية عشرة والنصف صباحًا، وكان كريم قد سئم الانتظار ووافق على أن يتغدّى مع المهندس أحمد الدَكيز، كي يناقشا أمور المبنى.

جاءت، وكانت مشرقة، وجهها الأسمر يلتمع فوق عنقها الطويل. شعرها الأسود مربوط خلف عنقها كذيل حصان، تلبس فستانًا يصل إلى تحت الركبتين قليلاً قرعت الجرس وانتظرت، وحين رأت كريم ابتسمت، وقالت إنّها كانت مصمّمة على المجيء في الصباح الباكر، لكنّها تأخّرت، لأنّها اضطرّت إلى زيارة صديقة مريضة.

دخلت وانبثقت من حفيف ثوبها رائحة عطر تشبه المسك، تركته ممسكًا بالباب وذهبت إلى المطبخ.

احتار ماذا يفعل، هل يلحق بها، أم يذهب إلى الصالون، يفتح كتابًا ويدّعي أنّه يقرأ؟ مشى إلى الصالون، واتّصل بالمهندس أحمد كي يعتذر عن تلبية دعوته إلى الغداء، بسبب انشغاله بأمر طارئ. أحسّ أنّها كانت تستمع إلى المكالمة الهاتفيّة، لكنّه لم يكترث. جلس على كنباية، فتح أوّل كتاب وجده أمامه، وادّعى أنّه يقرأ

وفاحت رائحة القهوة، جاءت غزالة بصينيّة القهوة وصبّت فنجانين، أخذ فنجانه بيد مرتجفة، شرب قطرة، وأحسّ بشهقة القهوة المُرّة وهي تنساب على لسانه وفمه أمّا هي فأمسكت بفنجانها وانحنى جذعها إلى الأمام، كأنّها كانت على وشك أن تمضي به إلى المطبخ.

«اقعدي واشربي قهوتك معي»

أزاح كي يوسّع لها مكانًا إلى جانبه على الكنباية، لكنّها انحنت

وجلست متربّعة أرضًا، وشربت شفّة من فنجانها، وحرّكت أصابع يدها كأنّها تحمل سيجارة

أخذ كريم سيجارة وضعها بين شفتيه أشعلها وأعطاها لها

ثم أخذ سيجارة ثانية كي يشعلها لنفسه.

«لا، لا مش ضروري تولّع سيجارة تانية، أنا ما بدخّن بالعادة، بس هلّق ما بعرف ليش طلعت السيجارة على بالي».

دخّنا السيجارة نفسها بصمت، وضعت يدها على الكنباية كي تنهض، فأمسك بيدها، وبدل أن يساعدها على النهوض سقط على الأرض، ووجد نفسه يتمرّغ على جسدها

عندما يتذكّر كريم كيف بدأت الأشياء، يقول إنّها شدّته إلى الأسفل، وإنّه وجد نفسه مستلقيًا على الأرض، من دون أن يقرّر ذلك بشكل مسبق.

لكنّ المسألة ليست حول من بدأ، لأنّ البداية كانت مرتسمة على إيقاع رائحة المسك التي فحّت من أطراف الفستان الخمري الذي غطّى الجسم الممتلئ.

بدأت الحكاية على أرض الصالون، وعلى سجّادة حمراء وُضعت في مكان السجّادة العجميّة التي كان نصري يدوسها ساخطًا وهو يردّد أنّ هذه السجّادة اللعينة سوف تعيش أعوامًا طويلة من بعده.

على السجّادة ذات اللون الأحمر الباهت، اكتشف كريم شمّاس أنّه تلميذ مبتدئ في فنّ الحبّ. هنا تعلّم أن يرتشف المرأة قطرة قطرة، ويذوب بين يديها رأى بعينيه وحواسّه كلّها كيف غطّى الندى جسد غزالة، وكيف دخلت في أحشائه حين دخلها، وكيف تجدّدت الرغبة لحظة نهايتها

تلألأ عري غزالة على الأرض، وبدل أن يأخذها إليه ويدخل فيها، أخذته هي. عندما خلعا ثيابهما، طلب منها أن يذهبا إلى السرير، فقالت لا

بحاجبيها المرفوعين، وشدّته إليها حاول أن يرفع قدميها كي يدخل، فأبعدته عنها، وأمرته بإشارة من إصبعها أن يستلقي على ظهره ويغمض عينيه. أغمض الرجل عينيه مستسلمًا، وبدأ الدبيب ينتشر في كلّ أنحائه. ملحست بشعرها الطويل على جسمه كلّه، باسته، عجنته، لهثت فوقه، غمرته بالماء الذي كان يرشح منها، همهمت وغنت، وعندما تركته يدخل، انساب في داخلها كلحن موسيقي بطيء.

كانت حارّة وحنونة، مشتعلة وهادئة، تعرف أين وكيف وماذا نعومة جلدها غمرته وقوّة رغبتها ذابت في غلالة حزن غطّت عينيها أنينها الخافت دخل في مسامّه، فاختلط أنين اللذّة بتلاشي الإرادة.

لا يستطيع كريم أن يصف تلك المشاعر التي اجتاحته على أرض الصالون، ولا ماذا جرى بالضبط، ولا كيف حين وصل إلى القمّة كانت قمّة أخرى في انتظاره، لأنّه لم يعد مضطرًّا إلى تسلّق القمّة كي يصل، فالقمّة انتشرت من أطراف شعر رأسه إلى رؤوس أنامله.

وجد كريم نفسه في الحمّام، ملأت غزالة المغطس بالمياه الساخنة، وزحطت إلى داخل الماء، ومدّت يديها، انزلق إليها، ووجد نفسه مغمورًا بالماء والصابون.

في حوض الاستحمام، أغمض عينيه وبدأ يتعلّم كيف يقرأ المرأة التي استلقت في مواجهته برؤوس أصابعه تحسّس الجلد الناعم الذي جعل من صدرها مرآة مغطّاة بعبق الحرارة الذي ينبعث من الثديين الإجّاصيّين اللذين يتدلّيان قليلاً في انحناء إلى الأسفل قبل أن تنبثق فيهما زهرة الجلّنار وترفعهما إلى الأعلى. اكتشف العنق والكتفين، ثم هبط إلى الردفين وتحسّس ما بين الفخذين اللامعين بالصابون، وحين وصل إلى كعب القدمين المتشقّقين اشتعل من جديد. حاول أن ينزلق فيها، لكن غزالة نهضت واقفة، فتحت الدوش وبدأت تقهقه ضاحكة.

كان كريم لا يزال مغمض العينين مسحورًا بما اعتقد أنّه لحظة لقاء نادرة بين جسدين، ليفاجأ بقهقهات غزالة التي كان عريها يتمايل تحت الدوش. مدّ يده كي يدعوها إليه من جديد، فسمعها تطلب منه أن ينهض من حوض الاستحمام، لأنّها جائعة.

«شو طالع على بالك تاكل»

قال إنّه ليس جائعًا، وإنّه يريد أن يبقى هنا

قفزت من الحوض، نشّفت جسمها، وذهبت راكضة إلى الصالون، حيث لبست ثيابها، وسمعها تدعوه إلى المائدة.

تململ كريم وسط مياه الحوض الفاترة، وبدأ يستجمع أجزاءه التي تبعثرت في الماء كي ينهض. شعر بلسعة برد، ثم قفز من الحوض، نشّف جسمه، لبس ثيابه على عجل، أشعل سيجارة وجلس في الصالون في انتظارها

سمع صوت الصحون توضع على طاولة الفورمايكا الصغيرة في المطبخ، وشمّ رائحة البيض المقلي ممزوجًا بالتوم والسمّاق.

«تفضّل يا حكيم»

فجأة شعر بالجوع دخل إلى المطبخ، ليرى غزالة جالسة أمام المقلاة، وعلى الطاولة جاط من سلطة البندورة، ورغيف خبز

«بيتك فاضي يا حكيم، منيح يلّي جبت معي كم بيضة وشويّة بندورة»

تكلّمت عن أنواع المآكل التي تحسن طبخها، ضحكت وهي تمسك بلقيمات الخبز بيدها تضع فيها البيض، وتغمسها بمرق التوم والسمّاق، وتمضغ بصوت مرتفع.

كان كريم في حاجة إلى الصمت، أراد أن يستمتع برائحة هذا المزيج

من الثوم والسمّاق، لكنّ غزالة صارت وكأنّ كلّ أعماقها انفتحت.

أكلت وضحكت وحكت، أخبرته عن زوجها متروك الذي يحبّ حساء العدس بعد المضاجعة، قالت إنّها تفهم عندما يطلب منها إعداد الحساء أنّ عليها أن تستعدّ، وأن تغسل جسمها بعطر المسك.

قالت عطر المسك، ثم سكتت، كأنّها أحسّت بأنّها ارتكبت خطأ لم يعد في استطاعتها التراجع عنه.

«يعني الليلة طابخة شوربا»، قال.

لم تجاوب، أكلت بصمت، ثم نهضت بينما كان الطبيب ينظر من النافذة

عندما دخل كريم إلى غرفته، واستلقى على فراشه، وبدأ النعاس يحوم حول عينيه، فهم أنّ أفضل اختراع هو القيلولة. في فرنسا حيث لا قيلولة، بل يستمرّ يوم العمل حتى المساء، كأنّ طعام الغداء ليس فاصلة بين قسمين منفصلين من النهار، كان يحتقر قيلولة اللبنانيّين وكسلهم، يتذكّر كيف كان والده يقفل الصيدليّة ظهرًا، يتغدّى وينام ساعة على الكنباية في الغرفة الخلفيّة في الصيدليّة، كي يستطيع أن يبدأ حياته من جديد. لكن هنا، وبعد أسبوعين من إقامته في بيروت، فهم أن لا مفرّ من القيلولة. رائحة المدينة بعد الغداء تتغيّر، وأصواتها تخبو، والنعاس ينتشر في زواياها

دخل كريم إلى قيلولته وهو يشعر بمرارة سوف يكتشف لاحقًا أن لا مبرّر لها لكنّ مرارته بدل أن تخبو مع أشباح النعاس، صارت تتصاعد. أحسّ أنّ هذه المرأة شيطانيّة، بدلاً من أن يخدعها أو يهيمن عليها مثلما توقّع لعلاقة بين رجل وخادمته، أمسكت هي بالخيوط كلّها، لعبت على وتر الرغبة، ثم انسحبت منه بخفّة وسخرية. ذاب السحر في مقلاة البيض، وانكشفت الرغبة عن عطر المسك الذي اغتسلت به المرأة من أجل زوجها لا من أجله هو.

الغيرة لم تكن واردة، لا لأنّ كريم كان يعلم أنّ الغيرة من زوج العشيقة تثير الضحك ولا مكان لها في إعراب الحبّ، بل أيضًا لأنّه قرّر في تلك اللحظة، والنعاس يتنمّل في أطرافه، أنّ علاقته بهذه المرأة يجب أن لا تتجاوز العلاقة الجسديّة المحضة. صحيح أنّ وضعيّة المغتصب التي قرّرها لنفسه انتهت على السجّادة في الصالون، ثم تلاشت نهائيًّا في حوض الاستحمام، لكنّه يستطيع أن يتخيّل علاقة أخرى تشبه الاغتصاب من دون أن تكونه، علاقة جسد على جسد، تنتهي فور بلوغ الذروة، وتمّحي لحظة الشبع من ممارسة الحبّ.

أغفى كريم، أو يبدو أنّه أغفى من دون أن يدري، لأنّه حين فتح عينيه لم ير سوى العتمة. يبدو أنّه نام ساعات طويلة، نام من دون أن يشعر بدبيب النوم الذي يرافق المنامات، نهض من سريره، وكان البيت غارقًا في الظلام، أضاء الكهرباء وذهب إلى المطبخ

اكتشف على طاولة المطبخ ركوة قهوة باردة مغطّاة بصحن صغير وموضوعة على صينيّة، وإلى جانبها ورقة مطويّة. صبّ القهوة في الفنجان، ارتشف قليلاً منها، وكان طعمها معطّرًا بماء الزهر، فتح الورقة المطويّة، وقرأ الكلمة الوحيدة المكتوبة بخطّ غريب يشبه خطّ الأطفال، قرأ كلمة «شكرًا»، فابتسم، وشعر أنّ رجولته عادت إليه.

هذا الطقس الجنسي سوف يتكرّر مرّتين في الأسبوع، وسيُضاف إليه طعام مطبوخ كانت غزالة تعدّه من أجل أن تكون الجلسة أنيسة، كما كانت تقول. حول المائدة أخبرته الكثير من حكايات ضيعتها، أخبرته عن طفولتها وقصّة جدّتها، عن زواجها من متروك، وعن حبّها لبيروت وخوفها منها ملأت المكان بكلام لا نسق له، لكنّه كان يتداخل بطعم العرق الذي كان كريم يشربه وحيدًا على المائدة، لأنّ غزالة قالت إنّها تخاف على نفسها من شرب العرق، لأنّها شربت منه مرّات قليلة وفي كلّ مرّة كانت تشعر أنّ امرأة أخرى تستيقظ في داخلها، وهي تخاف منها، لذا قرّرت أن لا تشرب أبدًا.

وحين كان كريم يلحّ عليها، كي تشرب قليلاً من كأسه، تأخذ الكأس وتمصّ السائل الأبيض، وتغيم عيناها كأنّها تنتشي من قطرة واحدة.

شهران من متعة اللامبالاة، لم يتخلّلهما نكد واحد. في الأسبوع الثاني كان كريم يضع لغزالة هديّة الأسبوع، مثلما أسماها في صحن في المطبخ، وكانت تأخذها من دون أن تقول شيئًا تأخذ كأنّها لا تأخذ، تمامًا مثلما كانت تأخذ في الفراش كأنّها تعطي. لم يندم كريم على هديّة الأسبوع، فهذا حقّها كخادمة وخليلة، غير أنّ اختفاءها المفاجئ أثار قلقه. فجأة اختفت ولم تتّصل. انتظر كريم أسبوعًا كي يسأل شقيقه عنها، فجاء الجواب أكثر غموضًا، «إنس غزالة، بكرا ببعتلك خادمة أحسن منها، ولا يهمّك»

«ليش شو صار»؟ سأل كريم.

«صار يلّي صار»، أجاب شقيقه، «إنت شو بدّك بهالقصّة، بكرا ببقى ببعتلك واحدة تانية تنضّف البيت».

في البداية خاف كريم من أن تكون غزالة قد علمت أنّه أقام علاقة بمنى. لا بدّ أنّها عرفت، من المؤكّد أنّها صبّت لنفسها نسخة عن المفتاح. فهذه المرأة التي تمزج الدهاء بالسذاجة في شكل غريب، تعرف مصلحتها جيّدًا

العلاقة بمنى تمّت عن طريق المصادفة، وهي علاقة بريئة مقارنة بعلاقته بها الحبّ الذي مارسه مع منى كان مليئًا بالخفر والحياء، فهذه المرأة التي أتته من أجل معالجة جلدها، كانت تصمت في الفراش، يشعر باختلاجاتها الداخليّة من دون أن يصدر عنها أيّ تأوّه، كأنّها بجسدها النحيل نقيض غزالة في كلّ شيء

لماذا إذًا أقام علاقة مع هذه المرأة وسط أمواج الرغبة التي كانت تغزله؟ هل لأنّه أراد أن يطفئ رغبته إلى جسد غزالة، الذي يختزن

استدارات شهوة لا تنضب، في جسد امرأة أخرى مبلّلة بالنعاس، ويستولي عليها الحياء؟

لا يعرف كريم الجواب، بلى يعرفه لكنّه لا يجرؤ على الاعتراف بأنّه كلب ابن كلب. هذا ما قالته سوسن لشقيقه عندما ستر كهولتها وأنقذها من البهدلة والموت. لكن أن يقول إنّه كلب هو كلام بلا معنى، فهو أتى إلى بيروت لا من أجل غزالة أو منى، أتى من أجل امرأة أخرى، لكنّه اكتشف لحظة دخوله إلى بيت شقيقه، أنّ تلك المرأة لم تعد موجودة، لأنّ الرجل الذي أحبّها منذ سنوات طويلة اختفى

«المسألة يا عزيزتي أنّ الغربة تجبرنا على تأليف أنفسنا، يجب أن يخترع الإنسان نفسه في كلّ يوم، وإلّا فقد نفسه»، قال لهند، «أمّا إذا بقي الإنسان في وطنه وبين أفراد عائلته فإنّه ليس مضطرًّا إلى القيام بأيّ شيء، يبقى هو هو من دون أيّ جهد ومن دون محاولة فبركة نفسه»

ابتسمت هند بسخرية، وقالت إن الغربة أنسته كيف يعيش الناس في لبنان. «أنت مغلبط كتير، يمكن المحلّ الوحيد بالعالم يلّي لازم يخترع فيه الإنسان حاله كلّ يوم هو بيروت»

حكت عن بيروت بوصفها مدينة تنزلق، قالت إنّ بيروت قرّرت أن تموت من زمان، لكنّ أهلها يرفضون الاعتراف بهذه الحقيقة، ففي كلّ مرّة ماتت فيها المدينة، قام سكّانها بإنهاضها من الموت رغمًا عن إرادتها، وأصعب شي مش الواحد يموت، أصعب شي الواحد يقوم من الموت، لأنّه ساعتها بيكون مضطرّ يرجع يخترع حاله عن جديد»، قالت إنّها لا تحبّ قصّة ألعازار التي وردت في الإنجيل لهذا السبب، «خيّك ما فهم ليش ما بحبّ آخد الأولاد على الكنيسة بعيد الشعنينة»

«حدًا ما بيحب عيد الشعنينة»؟ قال كريم.

«أنا»، أجابت هند.

«والشموع وأغصان الزيتون وسعف النخيل، معقول هالحكي، أنا رأيي أنّ الشي الوحيد الحلو بالدين هو هالنوع من الاحتفالات»

قالت إنّها تكره عيد الشعانين لأنّهم بدل أن يرتّلوا للمسيح الملك الذي يدخل القدس راكبًا على جحش ابن أتان، كي يُصلب فيها، يرتّلون لقيامة ألعازار هل سأل أحد ألعازار رأيه؟ المسكين لم ينطق كلمة واحدة بعد قيامته، وحده خليل حاوي فهم القصّة فكتب قصيدته «ألعازار عام ٦٢»، وفيها يدعو الحفّار إلى تعميق القبر لأنّه لا يريد أن يقوم، هل قرأت القصيدة؟»

«عمّق الحفرة يا حفّار/ عمّقها لقاع لا قرار»، أنشد كريم.

«والله، والله، هلّق صرت تحبّ الشعر؟ لمّا كنّا سوا كنت تقول إنّ الشعر وأمّ كلثوم سبب هزيمة العرب»

«وصرت حبّ أمّ كلثوم كمان، بس هيدا مش الموضوع، الموضوع إنّي ما بحبّ الرموز، خليل حاوي عمل بألعازار متل ما عمل الإنجيل، حوّلوه من إنسان لرمز، أكيد الشاعر كان معه حقّ لأنّ الرجّال كان طالع على باله يرجع على القبر، بس أسبابه ما إلها علاقة بأسباب الشاعر هو كان بدّه يرجع على القبر لأنّه خاف من الحياة، والشاعر كان بدّه يعمل منه رمز لفشل القوميّة العربيّة، وفشل مشروع الانبعاث. أنا بكره الرموز بالأدب وبالسياسة وبالحياة، لأنّه بالآخر بيضطرّ الشاعر أو الكاتب الرمزي يموت بشكل رمزي، يعني ما بيستطعم بنكهة الموت، هيك صار بغسّان كنفاني وهيك عمل خليل حاوي لمّا انتحر»، قال كريم.

هزّت هند رأسها ولم تجاوب، أحسّت أنّ هذا الرجل الآتي من البعيد الفرنسي لم يعد يعني لها شيئًا، صار مجرّد صورة فرغت من مضمونها، كأنّه جسد بل روح

نصري حدّثها مرّة عن الروح. كانت هند تتبرّم من الانقلاب الروحاني

الذي حصل لزوجها، وكيف لبسه الإيمان فجأة، وصار يصرّ على الذهاب إلى الكنيسة من أجل حضور قدّاس يوم الأحد لم يُكرهها مرّة على الذهاب معه، قال إنّه يحترم رأيها في الدين، لكنّه اكتشف الإيمان، وإنّه سيصطحب الأولاد إلى الكنيسة كلّ أحد. لم تعلّق هند على الموضوع. الحمّى الدينيّة ضربت اللبنانيّين خلال الحرب الأهليّة، وزوجها ليس معصومًا، التعلّق بالدين يبقى أفضل من العمل في حزب فاشي، أو تعاطي المخدّرات والاتّجار بها قالت له إنّه حر، لكن عليه أن يترك حرّيّة الاختيار للأولاد، وأن لا يُمارس عليهم أيّ ضغط، لكنّه أجاب أنّ الأولاد يجب أن يكونوا على دين والدهم، وأنّه يعتقد بأنّ رأيها عن تركه أفيونًا من أجل تعاطي أفيون آخر، ساذج ولا ينتمي إلى زمننا، الذي هو زمن ديني على جميع الأصعدة.

جاء نصري صبيحة الأحد حاملاً معه مناقيش بزعتر ليجد هند وحدها في البيت. وعندما سألها عن نسيم والأولاد، ارتسمت على شفتيها ابتسامة سخرية.

«لا يا بنتي»، قال نصري، «ما لازم تتمسخري على زوجك لأنّه رجع اكتشف علاقته بربّه»

«إذا هيك، ليش ما بتروح على الكنيسة أنت كمان»؟ سألت.

«اقعدي لخبّرك»، قال نصري.

خافت هند من كلامه، بدت كلماته مثيرة للشفقة في البداية، لكن سرعان ما احتلّ الخوف عينَي هند، وانطفأت فيهما السخرية. تكلّم الرجل الكهل من أعماق روحه، جاء صوته خشنًا ودافئًا وملوّنًا بالحزن.

قال إنّه عاش طوال حياته من دون إيمان بشيء، لم أؤمن بالدين كما لم أؤمن بالعقائد العلمانيّة، إيماني الوحيد كان الحياة أؤمن بالحياة رغم كلّ شيء، لأنّ الحياة كريمة، حتى حين تأخذ فإنّها تأخذ كي تُعطي. كنت

متأكّدًا طوال حياتي أنّ جسدي هو روحي، وأنّني وحدة لا تنقسم. الدين يا ابنتي قائم على انقسام الذات الإنسانيّة إلى قسمين، جسد وروح، بعضهم يقول إنّها ثلاثة أقسام، جسد ونفس وروح لم أفهم في حياتي معنى النفس الملتصقة بالجسد والتي تندثر معه، لكنّني فهمت أنّ الروح تستمر على قيد الحياة بعد موتنا، رأيت في ذلك وهمًا كيف ستستمرّ حياة امرأة جميلة من دون جسدها، وما معنى ذلك. هذه خرافات، هكذا كنت أعتقد، وكنت ولا أزال مؤمنًا أنّ الموت هو نهاية كلّ شيء. نعود من حيث أتينا، ونحن أتينا من لا مكان. ولكن.

كلمة لكن تهلكني لأنّها تقول كلّ شيء من دون أن تقول شيئًا، المهمّ يا ابنتي أنّني بدأت أكتشف خطأي، اكتشفت ذلك تدريجيًّا مع الكهولة. الناس يشبّهون الكهولة بالطفولة، وهذا غير صحيح. لا أبدًا، في الطفولة جسمك وروحك يكبران معًا، أمّا في الكهولة فإنّ الجسم يكتهل بينما تبقى الروح كما كانت. والله لا أعرف أنّني كهل سوى من عيون الآخرين أو من أوجاع هذا الجسد التافه هل أنا تافه مثل جسدي؟ مش معقول، ما بقدر صدّق أنّه هيدا جسمي، صرت أقرف منه، بينما روحي بعدها متل ما كانت، منشان هيك بلّشت أقتنع أنّ الإنسان اتنين، جسد وروح، وهيدا يعني أنّ الأرجح وجود حياة للروح مستقلّة عن الجسم.

«ليش ما بتعمل متل إبنك وبتروح على الكنيسة؟»

«هيدا موضوع تاني، الإيمان بوجود الروح ومسألة وجود الله شغلتين ما إلهم علاقة مع بعض. حتى إذا في الله أنا ما بقدر أتصالح معه، لا أنا برضى هالشي على حالي، ولا هو بيرضى، لا مستحيل، بس كنت عم حاول أطلب منك تطوّلي بالك على نسيم، يمكن هو معه حقّ ونحنا الغلطانين»

قالت هند لكريم إنّها منذ لقائها الأوّل به في البيت سمّته ألعازار،

«بيني وبين نفسي صرت إندهلك ألعازار، وصرت شوفك متل واحد قام من القبر وهو مش عارف شي، كأنّه مروبص، بيمشي وبيحكي متل واحد مروبص، لا بيفهم على حدا ولا حدا بيفهم عليه، ليش رجعت؟ مش كان أفضل تبقى ميّت بنظرنا، كنّا منقدر نحكي عنّك ذكريات فيها حلاوة وفيها مرارة، هلّق صار كلّ شي فيك مرّ»

قالت إنّها كرهته، وإنّها كرهت نفسها وكرهت عواطفها، «كأنّي محكومة مؤبّد مع هالعيلة، وبعدين رجعت طلعت قصّة موت نصري يلّي كلّنا قرّرنا ننساها، إنت رجعت ورجّعت معك كلّ الذكريات البشعة. أمّي قالت من أوّل يوم إنّك مش جايي تعمّر مستشفى، إنت جايي تفتّح القبور، وما صدّقتها، بس اكتشفت بعدين أنّه معها حقّ وأنّه ما كان لازم خلّي زوجي يمشي بمشروع المستشفى»

«أمّك بتعرف لأنّها عندها خبرة بالحياة»

«أمّي أشرف امرأة في العالم، إيّاك تغلط وتحكي عن سلمى».

«مش عم بحكي عن الشرف»، قال.

«عن شو عم تحكي»؟ سألت.

«عم بحكي عن الحكي، مش مهمّ، يمكن معك حقّ، الأرجح أنّ معك حقّ، بس هلّق أنا هون، وما بعرف شو لازم أعمل»

اختفت غزالة، ذابت كأنّها لم تكن، وعندما ألحّ على شقيقه في السؤال عن السبب سمع جوابًا غامضًا، عن مشكلة كبرى حصلت بين غزالة وزوجها، وعندما حاول أن يستوضح أجابه شقيقه بأنّه لا يعرف سوى ما أخبره إيّاه متروك، قال نسيم إنّ متروك أخبره أنّه كان على وشك قتلها، لكنّه لم يفعل رأفة بالأولاد.

«ليش كان بده يقتلها؟».

«والله ما بعرف»، أجاب نسيم، «بعدين ليش مهتمّ هالقدّ؟ أوعا تكون أنت كمان مغروم بالخادمة».

«أعوذ بالله، شو هالحكي، بس حبّيت أعرف»

لم يفهم كريم ماذا عنى شقيقه بعبارة «أنت كمان»، هل أقامت علاقة مع نسيم أيضًا، أم أنّ المقصود هو الزوج المخدوع؟

«ليش ما قتلها»؟ سأل كريم.

لم يسمع نسيم أو أنّه تجاهل، قال له إنّه سيرسل له خادمة سيريلانكيّة، سوف تأتيه مرّة في الأسبوع، «وهيك بتنحلّ مشكلتك»

بعد ثلاثة أيّام جاءه اتّصال هاتفي غير متوقّع من متروك، زوج غزالة. كان صوت الرجل مبحوحًا ومتلعثمًا عرّف الرجل عن نفسه في وصفه «زوج غزالة»، «أنت ما بتعرفني يا دكتور، بس أنا حابب مرّ عليك بكرا ونشرب فنجان قهوة» قال الرجل إنّه سيمرّ في الواحدة من بعد الظهر، خلال استراحة الغداء في ورشة المستشفى، وأنّه لا يريد أن يأخذ الكثير من وقت الحكيم، لكنّ المسألة لا تحتمل التأجيل

لم ينم كريم جيّدًا في تلك الليلة، شعر أنّه في ورطة، وأنّه وحيد أمام كارثة محتملة. لماذا يريد الزوج اللقاء به؟ هل قالت له شيئًا؟ هل شكّ في شيء؟ ثم لا يدري ماذا عليه أن يقول، هل يعترف بالحقيقة، أم ينفي؟ وماذا لو اعترفت هي؟ هل سيكون نفيه سوى تأكيد على سوء نيّته؟

قبل أن يذهب إلى سريره، رأى نفسه يتلفن لزوجته، لا يدري ماذا دفعه إلى هذا الاتّصال، هل هو الشعور بالوحدة، أم البحث عن ملاذ؟ بعدما شعر أنّ كلّ شيء يطبق عليه، كأنّه في زنزانة معتمة. سأل عن البنتين وقال إنّه مشتاق، فسمع صوت برناديت يدعوه بحنان إلى العودة إلى مونبلييه لأنّنا اشتقنالك ونادين ولارا كلّ يوم بيسألوا عنك». لماذا لا يعود، وماذا

حلّ به كي يخرّب عمله ووضعه في المستشفى في مونبلييه. قال إنّه سيعود قريبًا، لكنّه لا يستطيع أن يتخلّى الآن عن المشروع، سمع قبلتها على الهاتف وهي تقول إنّهم في انتظاره قبل أن تقفل الخطّ.

نام نومًا متقطّعًا، الحقيقة أنّه لم ينم إلّا مع الفجر، لذا لم يفتح عينيه في الصباح قبل العاشرة والنصف قبل الظهر اتّصل بالمهندس ليطمئنّ على سير العمل، فلم يجده، لبس ثيابه ومشى في الشارع على غير هدى. مشى كي يقتل الوقت، لأنّه لا يحبّ الانتظار.

وصل إلى ساحة ساسين، جلس في المقهى على الرصيف، طلب فنجان قهوة مرّة، شرب شهقة المرّ على طريقة غزالة، وتأمّل النصب التذكاري لبشير الجميل ورفاقه الذين قُتلوا في الأشرفيّة يوم عيد الصليب عام ١٩٨٢ بدا زعيم الميليشيا الكتائبيّة شابًّا مفعمًا بالحياة التي ارتسمت على وجهه على شكل خطوط مصنوعة من الظلال، وفكّر بعبثيّة اللحظة، التي جعلته يجلس، هو المقاتل السابق في القوّات المشتركة الفلسطينيّة ـ اليساريّة، في مواجهة صورة الرجل الذي جسّد في الماضي صورة العدوّ الذي لا يرحم. ابتسم حين خطرت له فكرة أنّ الموتى وحدهم يستطيعون تجسيد فكرة حيويّة الحياة، إذ لو عاش بشير حتى سن الستّين ومات بسبب المرض، فمن المرجّح أن يكون قد ارتكب شناعات إضافيّة لن يشفع شيء في محوها

دخّن ثلاث سجاير، وبدأ يشعر بالجوع. كانت ساعته تشير إلى الثانية عشرة والنصف، فكّر أنّ عليه أن يعود إلى البيت، لأنّ موعده مع متروك اقترب، قرّر أن يشتري سندويش فروج مشوي من دكّان أبو عصام، الذي يقع إلى جانب البيت. مشى في اتّجاه الصوفيل، وصل إلى مستديرة التباريس، انعطف إلى اليمين ودخل في زاروب الحراميّة، وبدأ في النزول باتّجاه الجمّيزة.

غبار كثيف؟ من أين جاء هذا الغبار؟ غبار يغطّي المدينة برياح خمسينيّة، لكنّ كريم كان يشعر بارتعاشة البرد. منذ أن تلقّى ذلك الاتّصال الهاتفي من زوج غزالة، وهو لا يدري هل يشعر بالبرد أم بالقيظ، اختلط كلّ شيء بكلّ شيء، شعر أنّه على وشك أن يسقط مغميًّا عليه، تهدّى بالحائط، فرك عينيه وتابع السير كالأعمى.

وصل إلى أمام دكّان أبو عصام، رأى الفراريج المشويّة تتلوّى على الأسياخ، والنار تحاصرها من كلّ جانب. وبدلاً من أن يطلب سندويشًا كما قرّر في المقهى، طلب فرّوجًا كاملاً شمّ رائحة كأس العرق الذي كان يشربه أبو عصام، ويأكل معه قضامة صفراء، قرّر أن يشرب كأس عرق مع الفرّوج. أخذ الفرّوج المشوي الذي لفّه أبو عصام برغيف خبز أبيض ثم وضعه في كيس نايلون، ووضع معه علبتين صغيرتين من الثوم المطحون والممزوج بزيت الزيتون، فاحت رائحة الثوم، وسال لعاب الرجل الذي حمل الكيس ومضى إلى بيته.

وصل إلى مدخل المبنى، تذكّر أنّ برّاده فارغ، بدلاً من أن يصعد الدرج إلى الطابق الثاني حيث يُقيم، مشى حوالى خمسين مترًا، وصل إلى دكّان إميل بائع الخضار، اشترى كيلو بندورة جبليّة وكيلو خيار نظر إلى ساعته، كانت الواحدة. هرول عائدًا إلى البيت، صعد الدرج راكضًا، وحين وصل إلى أمام باب بيته انتفض كمن أُصيب بلسعة كهرباء رأى رجلاً واقفًا في انتظاره، تراجع إلى الوراء، واعتذر عن تأخّره، لا بدّ وأن يكون هذا الرجل الأسمر الطويل هو زوجها فتح باب البيت وطلب من الرجل أن يدخل، لكنّ الرجل تردّد، وقال «ما بصير، تفضّل أنت يا حكيم» دخلا معًا تقريبًا، ارتطم كتفاهما بعضهما ببعض وهما يدخلان، تراجع الرجل وبرم كريم قليلاً «عفوًا عفوًا» قال الرجل مبتسمًا بانت أسنانه البيضاء ربّت كريم على كتف الرجل وسأله عن أحواله وأحوال غزالة.

دخل الرجل إلى الصالون، بينما ذهب كريم إلى المطبخ، غسل

البندورة والخيار، أعدّ كأسين من العرق، أخرج الفرّوج من الكيس، وضع صحنين وسكّينين وشوكتين على طاولة الفورمايكا في المطبخ، وخرج ليدعو الزائر إلى طعام الغداء.

«ليش عذبت حالك يا حكيم، ما في لزوم للغدا، أنا عايزك بكلمتين صغار»

«ما في شي من قيمتك»، قال كريم، «مرقت من قدّام أبو عصام، واستحليت الفرّوج، قلت منتغدّا سوا مع كاس عرق»

قال الرجل شكرًا، ثم تنشّق الرائحة عميقًا، أرخى شفته السفلى الغليظة، وأغمض عينيه الصغيرتين اللتين بدتا وكأنّهما محفورتان في وجهه، وقال إنّ الثوم يستدعي العرق، «أنا بس شمّ ريحة الثوم بيطلع على بالي العرق» قال إنّه تعلّم أشياء كثيرة عن الثوم من الستّ سلمى حماة الخواجة نسيم، وإنّه كان يرى الستّ دائمًا وهي جالسة في منزل ابنتها تقشّر الثوم وتلتهم حصوصه، لأنّ الثوم مفيد للضغط. «بتاكل توم حاف، مع ماشي، ومنها فهمت فوائد التوم الصحّيّة، الستّ سلمى بتقول إنّ حصّ التوم الصبح بيفتح القلب، متل ما الشمس بتفتح النهار حتى مع البيض المقلي، أطيب شي البيض بتوم، نحن بالجبل مناكل هيك البيض، منقليه مع التوم وبس، ما بعرف من وين تعلّمت غزالة تحطّ معه سمّاق، أنا بفضّل التوم فقط، بذكّرني بنكهة أمّي».

عندما جاء متروك على ذكر البيض والسمّاق، شعر كريم أنّ الرجل دخل في الموضوع، وأدخله منذ البداية في قفص الاتّهام. شرب متروك قليلاً من كأس العرق الذي أمامه، أمسك الفرّوج المشوي، وبدأ بتقطيعه بيديه. نظر إلى الطبيب وقال إنّه يعتذر «بس أنا ما بعرف آكل إلّا بإيدي، غزالة بتضلّها تضحك عليّي، وبتقول إنّي خلقت فلّاح ورح موت فلّاح، بس أنا ما بحسّ بطعمة الأكل إلّا إذا أكلت بإيدي». أمسك فخذ فرّوج ووضعه في صحن الطبيب.

«أنا بفضّل الصدر»، قال كريم.

«السفينة للحزينة»، أجاب متروك.

«الصدر أفضل للصحّة لأنّ ما في دهن»

«متل ما بتريد يا حكيم»، أخذ متروك الفخذ ووضع مكانه قطعة من الصدر، وهو يقول إنّ الطعام لا طعم له من دون الدهن.

شربا وأكلا بصمت. وفجأة نهض متروك، شدّ شيئًا على خصره، وارتسمت على وجهه علامات الانزعاج، ثم سحب المسدّس ووضعه على المائدة وعاد إلى الأكل

غصّ الطبيب بالطعام ولم يعد قادرًا على ابتلاع اللقمة التي علقت في زلعومه، أمسك كأس العرق بيد مرتجفة، شرب كرعة كبيرة، وهو يشعر أنّ الدماء انسحبت من وجهه.

تغيّرت ملامح متروك عندما وضع المسدّس على المائدة قرب صدر الفرّوج الذي لم يأكله الطبيب، الغضب الذي انعقد على حاجبيه، انحلّ إلى ارتخاء في قسمات الوجه، الذي استطال بالحزن. توقّف متروك عن الأكل، نظر إلى الطبيب بعينين غطّاهما الأسى، بحيث لم ير الهلع الذي حوّل مضيفه إلى ما يشبه الخرقة المبلولة.

وكان الصمت الذي سمعا من خلاله أصوات تنفسهما، وفجأة قطع متروك الصمت، تنحنح، شرب جرعة ماء، وقال للطبيب إنّه جاء من أجل استشارته حول قضيّة غزالة. وبدأ يحكي.

قال في البداية إنّه قرّر قتلها «اكتشفت أنّها عم تخوني مع رجّال تاني، ولمّا المرا بتخون زوجها، بصير الدم هو الطريقة الوحيدة لغسل العار»

أشعل متروك سيجارة وقال إنّه غيّر رأيه بعد ذلك، «كيف بقدر أقتلها،

ما هي أمّ أولادي، وأنا بحبّها»

قال إنّه غيّر رأيه، أمسك بالمسدّس وبدأ يتلاعب به ويبرمه، نظر إلى الطبيب فرأى الرعب الذي اجتاحه، «هيئتك بتخاف من السلاح»

لا يدري كريم ماذا جرى، هل خُيّل له أنّ الرجل بكى، أم أنّ دموع متروك سقطت فعلاً على خدّيه، فمسحها بفوطة كانت موضوعة على الطاولة، تمخط طويلاً، قبل أن يقول إنّه قرّر قتل العشيق.

«شو رأيك يا حكيم، قلت بقتل الرجّال وبرتاح، زيّتت الفرد وخرطشته، وقلت بس شوف خلقته بفضي ستّ رصاصات براسه وبرتاح»

هل جاء هذا الرجل كي يعذبه نفسيًّا قبل أن يقتله، لا يدري كريم من أين أتته الشجاعة، أمسك بكأسه، قرّر أن يشربها كلّها دفعة واحدة، قبل أن يقول لمتروك «خلّصني بقى من هالحكي واقتلني، ما في لزوم تبكي عليّي قبل ما تقوّصني، قوّصني وحلّ عني»، لكنّه لم يقل، ففي اللحظة التي بدأ فيها يشرب من كأسه، ضرب متروك يده على الطاولة، وبدأ يرتجف.

وقف، أمسك مسدّسه ووضعه من جديد على خصره، وبدأ يتمشّى في المطبخ، ويحكي فهم كريم أنّه ليس المتّهم الحقيقي، الرجل الذي تحبّه غزالة، وهدّدت زوجها بأنّها ستنتحر إذا مسّه ليس هو، بل شابّ في الخامسة والعشرين، وهو عنصر في ميليشيا حركة أمل، «ولد شرشوح أصغر منها بخمس سنين، ما بعرف شو عجبها فيه، واحد زملّك ما بيسوى قشرة بصلة»

قال إنّه اكتشف خيانتها لأنّه شعر بها، «بستحي خبّرك يا حكيم، كنت شوفها هيك مورّدة ومفرفحة وحليانة، وبس قرّب عليها لاقيها سخنة متل النار، كانت تجي من عنده مسخنة ومورّدة، وبعدين لو بتعرف شو اكتشفت، والله بستحي إحكي يا حكيم، اكتشفت أنّها بتعطيه مصاري وذهب، أنا بشتغل متل الحمار والمصاري بتختفي، ولمّا لقيت خاتم

الذهب ملفوف بقماشة ومدحوش بكعب الجارور بلّشت إفهم، وقرّرت إلحقها لحقتها، ركبت بالباص وراحت على هونيك تخشيبة بالشيّاح، وقبل ما تدقّ على باب بيته أمسكتها من كتفها، قلت لها أنا بعرف لوين رايحة، هاتي المحرمة يلّي ملفوف فيها الخاتم، شلّحتها المحرمة، وسمعت صوت الخاتم عم يوقع على الأرض، نخت ولمّته، وقالت لي هيدا مش من مصريّاتك، إنت ما خصّك»

قال متروك إنّه في تلك اللحظة انفتح باب التخشيبة، وخرج شابّ قصير ونحيل، لحيته السوداء تغطّي وجهه، وهو يحمل في يده رشّاش كلاشينكوف «نظر إليّ بعينين غاضبتين، لوّح برشّاشه، فارتخت يدي التي كانت ممسكة بكتفها، انزلقت من يدي وأحنت رأسها كي تمرّ من تحت رشّاشه وتدخل إلى البيت»

رأى متروك نفسه يعود من حيث أتى، وصل إلى بيته، حطّم الصحون والكبّايات. «رجعت المسا على البيت، أنا افتكرت أنّها مش رح ترجع، رجعت كأن ما صار شي، كأنّها كانت عم تزور أمّي، كان وجهها مورّد، وعيونها نعسانين، فاتت على البيت متل العادة، وركضت على المطبخ حتى تحضّر العشا، ولمّا شافت منظر الصحون المكسورة المرميّة بالأرض بلشت تصرّخ عليّي لأنّي كسّرت الصحون، بدال ما تتصرّف متل واحدة مذنبة، هي المذنبة يا حكيم مش هيك، أنا شو عملت، كان لازم إدبحها على عتبة البيت، متل ما الزلم بتعمل، بلّشت تولول، جمعت علينا الجيران، بتعرف بوطى مار الياس الناس من هبّ ودبّ. سريلانكيّة ومصريّين وحبشيّة وسوريّين متلنا فضحتني المفضوحة، وصاروا الناس يقولوا لي عيب يا متروك، حدًا بهالأيّام بيضرب مرته، حتى أولادها وقفوا بين إجريها وصاروا يسبّوا لي»

قال متروك إنّها بكت وأبكت أولادها، وإنّ الجيران حاولوا أن يصلحوا بين الزوجين، «إجا المطران، أكيد سمعت بالمطران، هو اسمه

الحقيقي رمزي، وما حدا بيرفض له طلب بالوطى، هو درزي متلنا من ضيعة اسمها معاصر الشوف، صار اسمه المطران لأنّه بعد المذبحة يلّي صارت بالضيعة، فات على الكنيسة ولبس تياب خوري وصار يتمشّى بساحة الضيعة، ويغنّي بالسرياني، قال إنّه تعلّم السرياني بمدرسة الراهبات، خبّر إشيا ما بتتخبّر عن الحرب يا حكيم، بس ما بعرف ليش الناس بيحبّوه، المهمّ شرّف المطران، ولمّا وصل كلّ الناس سكتوا، تطلّع بغزالة وقال لها تنضّف البيت بسرعة، ركضت على المطبخ وبلّشت تشتغل، وبعدين تطلع فيّي وقال لي قوم بوس راس مرتك، مرتك امرأة ممتازة»

قال متروك إنّ غزالة، بعدما ساد الهدوء ونام الأولاد، قالت إنّها تريد أن تخبره أنّها لم تسرق منه المال كي تشتري خاتم الذهب لعذاب، «الخاتم هديّة من الدكتور كريم، وإذا مش مصدّقني فيك تسأله»

وعندما أجابها متروك أنّه سيقتل هذا الرجل القصير القبيح الذي اسمه عذاب، أجابت غزالة إنّها ستنتحر، «إذا قتلته برشّ كاز على جسمي وبحرق حالي»

عاد متروك إلى الجلوس على الكرسي، نظر في عينَي الطبيب المذهولتين، وسأله إذا كان كلام غزالة صحيحًا «قل لي إنّ الخاتم من عندك يا حكيم، حتى يرتاح راسي».

لم يدر كريم بماذا يجاوب، شعر بتعاطف مع متروك، فهما يشتركان في كونهما مخدوعين، أراد أن يرفع كأسه ويشرب نخب الخيانة. لكنّ نظرات الرجل الحائرة، وعينيه الزائغتين، جعلته يتراجع عن قراره، اكتفى بأن أشار برأسه بالموافقة.

انفرجت أسارير الرجل، وروى أنّه لم يخبر أحدًا سواه بالحكاية، وطلب منه الكتمان.

«ورح تقتل عذاب»؟ سأل كريم.

«والله ما بعرف»، أجاب متروك، «أنا بحبّها، وهي قالت لي إنّها تابت خلص، وإنّ متل شي جنّ كان راكبها، وهلّق ارتاحت منه، وإنّ عذاب ما عمل شي عاطل، حبّها وبعدين لـمّا شافك معي، ورفع الكلاشينكوف بوجهك حتى يحميني منّك قال لي ارجعي يا مرا على بيتك وعند أولادك»

«شكرًا يا حكيم، طمّنتني»، قال متروك، «بس ما بعرف شو لازم أعمل، بحسّ لـمّا قرّب لنام معها متل سكاكين بقلبي وقطع إزاز بزلاعيمي، شو قولك لازم أعمل»

«اسأل المطران»، قال كريم، وهبّ واقفًا، وبدأ في حمل الصحون إلى المجلى.

«يا عيب الشوم منّك يا حكيم»، قال متروك، وهو يجلي الصحون.

جلس كريم وحيدًا في الصالون بعدما غادره متروك. أغمض عينيه كي يستدعي نعاس القيلولة، شعر أنّه هو المخدوع الحقيقي في هذه الحكاية. كنتُ كالدجاجة التي تبيض ذهبًا من أجل عذاب، وغرام غزالة به، أنا في حال لا تشبه سوى حال اليويو، اليويو انتحر، لأنّ المرأة التي أحبّها جنّنته، أمّا أنا فماذا عليّ أن أفعل؟

كريم لم يحبّ غزالة، حتى لو أحبّها وأخبرها بعضًا من حكاياته، فإنّ الحبّ طار كلّه أمام مسدّس متروك الذي بثّ الرعب في أوصاله.

ولكن كيف ابتلع الزوج الخيانة؟

اعتقد كريم أنّ الذكورة لا تستطيع ابتلاع الخيانة، وأنّ أقلّ ما يجب أن يقوم به متروك هو تطليق زوجته بالطبع فإنّ رجلاً مثل كريم لا يمكن أن يكون مؤيّدًا وبأيّ شكل من الأشكال لقتل الزوجة، أو ما اصطلح على تسميته «جرائم الشرف»، لكنّه، بينه وبين نفسه، كان يتمنى قتل غزالة. الغيرة تستدعي القتل، عندما تخونك المرأة التي تعشقها تزداد هيامًا بها،

وكراهية لها في الآن نفسه، ولا شيء يطفئ النيران التي تستعرّ في الصدر إلّا الموت. وحده موتها يطفئ كلّ شيء، لأنّ الموت هو اللحظة التي تؤسّس فراغ الرضوخ

تعجّب كريم من موقف الزوج المخدوع، ولم يطرح أيّ سؤال على نفسه أو موقفه، اكتفى بأن افترض بأنّه لم يحبّ غزالة، وأنّ علاقته بها كانت علاقة جنسيّة، وأنّ زيارة متروك كانت كفيلة بمحو الحكاية من عالمه العاطفي.

لكنّ ذلك لم يكن صحيحًا، الصحيح أنّ علاقة كريم بمنى كانت محاولة للهرب من أثر غزالة، وأنّه وجد نفسه ينغمس أكثر فأكثر في علاقته مع هذه المرأة التي لم تكن ترغب في أيّ ارتباط، بل أرادت لعلاقتها بكريم أن تكون مثل علاقات المسافرين العابرة. «أنت مسافر هلّق، وأنا رح سافر بعد شويّ، فخلّينا خفاف، الله يخلّيك أنا ما بحبّ الإشيا تتقل» قالت له منى عندما وجد نفسه يهذي بكلام عن الحبّ الذي يجعل الإنسان قادرًا على التحليق في سماء الروح كان في تلك اللحظات يستعيد غزالة، وهي تقفز راكضة إلى المطبخ كأنّها تطير حدّث منى عن التحليق وكان يرى أمامه غزالة، لكنّ المرأة التي سترمي به في أتون سينالكول في أزقّة طرابلس، من دون أن تدري، أعادته إلى ذاكرة الألم، من خلال حكايات والد زوجها

بقيت غزالة سؤالاً، ومنى لم تستطع التحليق، وكان على كريم وحده أن يجد حلًّا كي يتصالح مع شعوره بالمهانة ليس بسبب خيانة غزالة، وهي خيانة منطقيّة، إذ وجدت فيه عاشقًا مستسلمًا لشهوة الحبّ، فجعلت منه إكسسوارًا لعشقها الكبير للفتى الميليشياوي الذي سرق قلبها بفتوّته وشجاعته وعينيه الحزينتين، بل لأنّه خدع نفسه.

قالت إنّ اسمها غزالة.

قالت إنّها من قرية تُدعى شهبا في جبل العرب، أو جبل الدروز في سورية.

قالت إنّها أمّ لطفلين، وإنّها لا تعمل في المنازل، لكنّها قبلت كرمال عيون الخواجة نسيم.

روت له الحكاية عدّة مرّات، كانت بعدما تعلو بها النشوة إلى آفاق الحبّ، تقفز من السرير كأنّها تطير، تفرد يديها كجناحين وتقفز عارية، فيشعّ سمار بشرتها، ويصير فضاء الغرفة مبطّنًا برائحة المسك. تضحك وهي تمسكه من يده كي تجرّه إلى الحمّام.

قالت له إنّه كالنساء، يحبّ أن يبقى في السرير ملتصقًا بصمغ الحبّ، وإنّها، على العكس، تجد أنّ النشوة لا تستمرّ إلّا بالماء، «الماء يطهّر ويجدّد الحبّ، ويغسله بالضوء» سألته إذا كان قادرًا على رؤية ضوء الماء، فابتسم من سذاجتها، قال لها إنّ الماء كالزجاج لا يُضيء، بل يعكس الضوء. قالت إنّها لا تفهم لغة العلماء، لكنّها تعرف من حكايات جدّتها، أنّ الماء قماط الروح، وأنّ الإنسان يولد من الماء ويموت في الماء، ويتقمّص بواسطة الماء

كانت غزالة مفتونة بجسدها، الآن يستطيع كريم أن ينظّم ذاكرته كي يكتشف أنّ تلك المرأة لم تكن تنظر إلى جسمه العاري، كانت تغمض عينيها طوال الوقت، ولا تفتحهما إلّا حين تطير من السرير وتقف عارية أمام المرآة، تتأمّل نهديها المشتعلين بالشهوة، وتبتسم، قبل أن تفتح دوش الماء البارد، وتتراقص متأوّهة تحت دفق الماء الذي يتكسّر فيه الضوء، وينتشر على عيني الرجل الذي يقف مدهوشًا أمام حوض الاستحمام في انتظار إشارة من المرأة، كي تطمره بالماء

قال لها إنّ الماء ليس رملاً كي ينطمر فيه الإنسان.

فأجابت أنّ الإنسان خرج من الماء، ويجب أن يعود إلى الماء.

وروت له أغرب حكاية سمعها في حياته

«أنا سمّوني غزالة على اسم ستّي، بيّي كان يعبد أمّه، ولمّا يحكي عن مرا حلوة كان يقول متل أمّي غزالة، وكانت زوجته، يعني أمّي، تتطلّع فيه كأنّها مش مصدّقة عيونها، أمّي ولا مرة كانت متل أمّي، أنا أمّي ستّي، ومن وقت ما ماتت من خمس سنين مدري شو صار، كأنّ روحها فاتت فيّي وقعدت مع روحي. لمّا كانت عم تموت، قعّدتني حدّها وقالت لي إنّها ما بدها تروح عند حدًا تاني، بدّها تجي لعندي وبس، وبعد ما ماتت مدري شو صار لي، كأنّ روحها فاتت على جسمي».

«يعني أنت عندك روحين»؟ سأل كريم وهو يبتسم.

«كنت أكيدة إنّك مش ممكن تفهم شو قصدي، أكيد أنت ما بتآمن بالتقمّص، ما بعرف ليش عم خبّرك».

كانت غزالة تجلس على طرف السرير، وكريم يدخّن مستلقيًا، ويتأمّل كيف يهبط المساء بلونه الكحلي ويغطّي الغرفة ببقايا الضوء، وهي تروي.

ذاكرة غزالة كانت خالية من تسلسل الأحداث، فالأشياء التي حصلت كانت مدوّرة، لذا كان لا بدّ من لحظة الرعب التي صنعها اللقاء بمتروك حول كأس العرق والفرّوج المشوي، كي تنكسر الدائرة، وتنفرط عناصرها، ولا يعود في استطاعة الذاكرة أن تلتقط سوى البقايا

قالت إنّ جدّتها عاشت أغرب حكاية زواج، لأنّها تزوّجت جدّها! «هل تصدّق يا حكيم، أنّ ستّي لمّا اكتشفت هالحقيقة ما عاد فيها تنام مع زوجها»

قال إنّه لا يصدّق هذه الخرافات، لكنّه يريد أن يستمع إلى بقيّة القصّة.

تقول الحكاية إنّ الجدّة علمت بخبريّة زوجها عندما وضعت ابنها

أنور، في ذلك اليوم، جاء زوجها وقال لها إنّ عليهما مغادرة قريتهما الخربية فورًا ومن دون إبطاء.

قال إنّه في اللحظة التي كان فيها أنور يرى النور، وجد عارف بك العلوان مقتولاً بالرصاص.

«ما بعرف مين قتله، بس يلّي بعرفه أنّ بيت العلوان رح يهجموا علينا ويخطفوا الصبي، مش ممكن يقبلوا أنّه الشيخ يتقمّص عند عيلة فلّاحين فقرا متلنا»

كانت المرأة مطروحة في السرير ولا تستطيع الحراك، وإلى جانبها تجلس أمّها التي رجت الرجل تأجيل الرحيل ليومين، في انتظار أن تستعيد المرأة صحّتها وتفتّق رأس الرجل عن حيلة مدهشة، أعلن أنّ زوجته وضعت فتاة، ورفض استقبال المهنّئين، مغطّيًا وجهه بعبوس حقيقي ناجم عن الخوف

وبعد أسبوع هرب بابنه إلى قرية شهبا

لكنّ الحكاية ليست حكاية أنور، الذي لم يتذكّر شخصيّته القديمة إلّا في شكل عابر، أهله أخرسوا ذاكرته، فعاش طفولته المبكرة تحت هول صدمته بالصمت وبالمنزل الفقير الذي وُلد فيه.

الحكاية هي حكاية الجدّة التي لم تكن مقتنعة بالتقمّص، إلى أن روى لها زوجها أنّه عندما كان في الثالثة من العمر نطق وتذكّر حياته السابقة، لتكتشف أمّه بعد ذلك بعشرين عامًا أنّه يريد أن يتزوّج من حفيدته.

«أنا ما كنت أعرفك لأنّك خلقتِ بعد موتي بخمس سنين، بس أنت بنت بنتي»

«يعني رحت طلبتني من بنتك؟»

«لمّا شفتك وقع قلبي، وما كان في حلّ إلّا إنّي أتزوّجك»

«وكنت عارف إنّي بنت بنتك!»

«أكيد لا، الواحد بينطق هو وعمره سنتين تلاتة وبعدين بينسى، وبيتذكّر إذا أهله خبّروه، وأنا كنت ناسي، ولمّن أمّي خبّرتني كان قلبي وقع وما عاد فيّي أعمل شي، وكان لا بدّ من الزواج، وإلّا كنت بجن، الحبّ بجنّن، وأنت حبّك جنّنّي»

قالت غزالة إنّ جسد جدّتها انكمش على نفسه من هول ما سمعته، وأنّها مرضت بالحمّى أسبوعًا كاملاً، وعندما شفيت لم تعد قادرة على النوم مع زوجها، كانت عندما يقترب منها تشعر بآلام حادّة في بطنها، ويرتعش بدنها كأنّ الارتجافة التي سبّبت الحمّى تختبئ فيه، «ومنشان هيك يا بنتي ضلّ بيّك وحيد، كلّهم قالوا لجدّك يطلّقني لأنّي ما بقى جيب أولاد، وجدّك الله يرحمه ضلّ يحبّني، كان بس يترجّاني أنّه يقرّب مني بالليل، ينام حدّي وما يعمل شي، قال كان يحبّ يسمع نَفَسي لأنّ نَفَسي طيّب»

لا يدري كريم لماذا أخبرته غزالة هذه الحكاية، لكنّه يعرف أنّ السرير الذي يجمع جسدين يستدعي الكلام، فالجنس لا يستوي إلّا بالحكي. ربّما أرادت غزالة، وهي ترى الطبيب منبهرًا بفنون الحبّ التي علّمته إيّاها، أن تبهره بالكلام.

يومها لم ينبهر كريم، أو بدا كأنّه كان يستمع إلى خرافات ساذجة، لكن بعد الرعب الذي عاشه أمام مسدّس متروك، اقتنع أنّ غزالة عاشت فيها روحان، روحها وروح جدّتها، وأُصيب بالهلع وهو يتذكّر كيف وصفت له نهاية العالم.

ـ ١٢ ـ

قرّر كريم أن لا جدوى من بقائه في بيروت. كان العمل في المستشفى بطيئًا، والمهندس أحمد الدَكيز لا همّ له سوى ملاحقة طلب الهجرة إلى كندا، فيما يواصل هذياناته عن بيروت الجديدة.

وكريم يشعر بالوحدة في هذه المدينة المغطّاة بالغبار

بدت له بيروت مدينة رماديّة في عريها، فالباطون المسلّح الذي صنع غابة من الحجارة المتراكبة، بدا كمرض جلدي من كثرة البثور التي نبتت عليه.

كلّ شيء مريض هنا، فكّر الطبيب الآتي من هجرته الفرنسيّة.

وأنا أيضًا مريض، يجب أن أهرب قبل أن ينتشر جُذام المدينة على جلدي وروحي، وأصير ملتصقًا بالمكان، لا أستطيع مغادرته ولا أريد البقاء.

ضحك طويلاً وهو يقرأ مقالاً لروائي لبناني في جريدة «النهار»، قال فيه إن «لحظة الفرح الوحيدة التي يعيشها اللبنانيّون هي في الطيّارة. تشعر في بيروت أنّك تختنق، فتقرّر السفر إلى باريس، ولحظة ركوبك الطيّارة تشعر بسعادة من أطلق سراحه من السجن، لكن بعد أيّام قليلة يستبدّ بك

الحنين إلى بيروت، وتشعر أنّك لم تعد تستطيع الابتعاد عنها، فتكتئب، ولا يزول اكتئابك إلّا في الطيّارة التي تُعيدك إلى لبنان. اللبناني كائن طائر، لا يفرح إلّا في الفضاء».

ضحك كريم لأنّه أحسّ أنه على وشك السقوط في هذه المصيدة اللبنانيّة التي تلغي العلاقة بالمكان، وتحوّل الفرد غريبًا في كلّ الأمكنة. وفهم أنّ غراميّاته مع غزالة ومنى وشغفه الأخرس بهند، هي أعراض هذا المرض الذي يجعله غير قادر على تحديد وجهة عواطفه، كما يجعله عاجزًا عن الكلام.

وأخيرًا جاء هذا المهندس الغريب الأطوار، الذي يتّصل به كلّ يوم، مدّعيًا أنّه يعمل، لكنّه كان يشبّح، ويهيمن على المستمعين إليه بحديثه المتواصل عن إعادة إعمار المدينة القديمة في بيروت بعد تدميرها

كان هذا المهندس الثلاثيني، الذي قالت زوجته إنّه من أصول إفرنجيّة غامضة، مشغوفًا بمشروع سوليدير، وهي الشركة العقاريّة التي أسّسها الميلياردير رفيق الحريري من أجل إعادة إعمار وسط بيروت الذي هشّمته الحرب. هذا بالطبع قبل أن يصير الحريري رئيسًا للوزراء، ثم يدخل تاريخ لبنان باغتياله الوحشي في ١٤ شباط عام ٢٠٠٥.

كان الدكيز رئيس وحدة التدمير، أي المهندس الذي وضع مخطّطات تدمير جميع المباني التي تُحيط بساحة الشهداء، تمهيدًا لشقّ شارع بعرض جادّة الشانزليزيه في باريس، يصل وسط المدينة بناطحتي سحاب تحتلّان الواجهة البحريّة، أطلق عليهما المشروع التوجيهي للمدينة اسم برجي التجارة العالميّة، وذلك تيمّنًا بالبرجين الشهيرين في مدينة نيويورك اللذين سيسقطان في الحادي عشر من أيلول عام ٢٠٠١، بعد العمليّة الانتحاريّة التي نفذتها القاعدة، بواسطة طائرات مدنيّة كان يقود إحداها مهندس مصري يُدعى محمّد عطا.

لن ينسى كريم كيف ارتعش وجه المهندس اللبناني بلذّة الانتصار وهو يصف مخطّط تدمير مبنى سينما ريفولي، الذي كان يحجب مشهد البحر عن وسط المدينة، يومها خطر في باله أن يتلفن لمنى ليقول لها إنّ زوجها مجرم.

منى التي علقت في ذاكرة كريم وهي خارجة من الحمّام، ونقاط الماء تلتمع على كتفيها، بينما لفّت جسدها بمنشفة بيضاء غطّت ثدييها وأعلى فخذيها، هذه المرأة قالت له إنّها سوف تختفي في كندا ولن يعثر عليها أحد. «حتى أهلي سييأسون، لأنّي أريد أن أختفي، كأنّني صورة جرى محوها وخلص»

«أنا ما بحبّ الذكريات والجرجرة، ومشكلتي مع إدواردو إنّي لمّا اقتنعت برأيه، ووقّفت العواطف بعد ما اكتشفت مرته القصّة، أنّه فرط، وبلش هو يجرجر الحبّ ويتجرجر معه»

«دخلك ليش الرجال هيك»، سألته.

«كيف هيك»؟ أجاب

«هيك يعني ضعاف، وبس المرا تتصرّف بقوّة وتقول إنّ ما فرقاني معها بيفرطوا، وبيصيروا ممسحة»

قال لها إنّه ليس من هذا الصنف من الرجال. وأراد أن يروي لها حكاية متروك، لكنّه تراجع في اللحظة الأخيرة، ماذا يقول؟ فهو ومتروك تصرّفا كممسحتين، وحده عذاب كان رجلاً، لكن لماذا علينا أن نصدّق غزالة حين روت أنّ عذاب طلب منها أن تعود إلى زوجها وأولادها لأنّه لا يريد مشاكل؟

عذاب ليس هكذا، أراد أن يقول، لكنّه لم يقل

«إذا عرفت بكرا إنّ مرتك عم تخونك، شو بتعمل؟»

«مرتي ما ممكن تخونني»، قال.

انفجرت منى ضاحكة، «كلّكم بتقولوا هيك، وبعدين بتصيروا متل البسينات».

«ومين هو إدواردو»؟ سألها

«مش مهمّ»، قالت.

أراد أن يخبرها عن والده، وعن الفتوحات الجنسيّة والقسوة وعدم الرحمة، أراد أن يقول لها إن الرجل الحقيقي الوحيد هو نصري، لكن كيف يفتخر بما اعتبره طوال حياته عارًا وبهدلة؟ ثم كيف يسامح هذا الرجل الذي ارتسم في وعيه بوصفه مغتصبًا ونذلاً

سألته منى ما به وهي تضحك، ونقاط الماء تنتثر على كتفيها، مدّت يديها إليه، لكنّه شعر بأنّه فقد الرغبة.

سألها عن إدواردو مرّة ثانية.

جلست على طرف الكنباية، وروت عن علاقة أقامتها برجل إيطالي متزوّج، كان يعمل في وكالة الصحافة الفرنسيّة في بيروت. قالت إنّها لا تدري ماذا جذبها إليه، ربّما شعره الرمادي وكتفاه العريضتان. قالت إنّه كان في الخمسين، «يعني أكبر مني بشي ٢٤ سنة، فيك تقول إنّه كان بعمر بيّي، أنا رحت على الوكالة لأنّي فكّرت بالأوّل إشتغل بالصحافة، قلت ليش لا، أنا بعرف فرنساوي وإنكليزي ومعي ليسانس أدب فرنسي، ما كان بدّي إشتغل معلّمة التقيت فيه بالوكالة، قال إنّه بدّو يدرّبني، وبلّش يحاول، إنت بتعرف كيف الرجال بصيروا يتسعدنوا لمّا بدّهم يزبطوا بنت، أنا وقتها كنت مغرومة بأحمد، وكنّا على زواج، وما بعرف شو صار. الحقيقة ما صار شي، دعاني مرّة على العشا بمطعم أرمني بالأشرفيّة، وبعدين مشينا، وصلنا قدّام بيته، قال إنّه عازمني على كاس غرابا صغير،

ابتسمت وقلت له نو مسيو إدواردو.

ساعتها حكي بالعربي، أنا كنت مفتكرا أنّه ما بيعرف عربي، فجأة انطلق لسانه، قلت يا ربّي شو هالعلقة، «إنت متخلّفة متل كلّ البنات الشرقيّات، يعني شو راح يصير إذا طلعتِ لعندي، مفتكري إنّي رح أغتصبك»

برم ضهره وفات بباب البناية، ما لقيت حالي إلّا ولحقته، وطلعت وشربت غرابا، «وين المدام» سألته، قال إنّها راحت تزور الأولاد بتشينيزيلّو

سألته وين هاي تشينيزيلّو، الحقيقة حسّيت أنّه عم يضحك عليّي، وأنّه بلّش الفيلم.

بالأخير، قلت له إنّه هو المتخلّف، لأنّه لمّا حاول وما خلّيته قعد بزاوية الكنباية كأنّه مقاصص»

«وبعدين؟»

«بعدين ما صار شي، قام ووصّلني على بيتي، ولمّا حاول يبوسني أعطيته خدّي»

قالت إنّه كان يجب أن تنتهي الحكاية هنا، لأنّها بعد أسبوعين تزوّجت أحمد وذهبا لقضاء شهر العسل في إيطاليا، وإنّها اكتشفت هناك أنّ إدواردو لم يكن يفلّم عليها، لأنّها تأكّدت من وجود مدينة صغيرة قرب ميلانو تدعى تشينيزيلّو

قالت إنّها بعد ثلاثة أشهر عادت إلى وكالة الصحافة الفرنسيّة والتقت إدواردو. تصرّف معها كأنّ شيئًا لم يكن، وبدأت محاولاتها لغوايته.

«ما بعرف شو صار لي، بس شافني حكي معي بالعربي وقال لي كيفك يا عمّو».

قالت إنّها شعرت بالإهانة، وقرّرت. «ولمّا تقرّر المرأة بيصير مثل ما بتريد»

قال لها كريم إنّ قصّتها سخيفة، ولا معنى لها

«ضحك عليكِ مرّتين، أوّل مرّة بالغرابا، وتاني مرّة بعمّو، بس إنت شو كان بدّك فيه، متزوّجة جديد، وبلّشت شغلك بالتعليم، ليش إنت ما كنت تحبّي أحمد؟»

«أكيد كنت حبّه، وبعدني بحبّه، بس الحرب»

«شو خصّ الحرب؟»

«هيك الحرب»، قالت.

«وشو صار؟»

«صار متل ما خبّرتك، لمّا اقتنعت معه أنّه القصّة مش جدّيّة، وإنّه خلص لازم يروق ويوقّف حركات الغرام، فرط وصار يلحقني من مطرح لمطرح»

«وأحمد؟»

«أحمد عرف، بس تصرّف كأنّه مش عارف أو كأنّه ما بيريد يعرف»

«وبعدين؟»

«خلصت القصّة»

«وأنا؟»

«إنت شو خصّك؟».

«عرف أحمد شي عن علاقتنا؟»

«أكيد لا، ليش شو في بيناتنا؟».

ضحكت وارتمت على السرير

رنت ضحكة منى في أذنيه وهو يستمع إلى المهندس أحمد الدَكيز يصف مشروع إعادة الإعمار وضع المهندس على طاولة في مكتبه مجسّمًا لمشروع شركة سوليدير لإعادة الإعمار مثلما رسمه المهندس هنري إدّه، قبل أن يجري الاستغناء عن خدماته بسبب خلافات نشبت بينه وبين الحريري. بدت المدينة في هذا المجسّم أشبه بخلطة عجيبة تجمع الظهران وهيوستن إلى باريس وبعض مدن الشاطئ الإيطالي. وفي وسط البحر على مرمى عشرات الأمتار من برجي التجارة العالميّة، تقع جزيرة اصطناعيّة لن يقدّر لها أن تبصر النور بسبب منحدر مائي عميق يطلق عليه أهل بيروت اسم جورة الكلاب.

تكلّم الدَكيز عن المشروع بسرعة، ثم قاد ضيفه إلى الكومبيوتر الذي وضع فيه برنامجًا يشبه الألعاب الإلكترونيّة. أدار المهندس الكومبيوتر فظهرت بيروت بالأعشاب والشجيرات التي نبتت في شقوق حيطانها، كمدينة أشباح، أو ديكورات اصطناعيّة تصلح كي تكون مدينة لسينما الحروب في العالم.

قال مارون بغدادي إنّ المخرج الألماني فولكر شلوندورف اكتشف في فيلمه Circle of Deceit القيمة التعبيريّة الهائلة لديكور الخراب البيروتي، لكنّ اللبنانيّين بهدلوه عبر عشرات الأفلام التي حوّلته من مكان يختزن وحشيّة الإنسان إلى كليشيهات بصريّة مبتذلة.

قال كريم إنّ هذا المشهد يصلح ديكورًا للحظة القيامة ونهاية العالم. وكان يفكّر بالوصف المروّع الذي قدمته غزالة للنهاية كما تخيّلتها جدّتها غزالة الأخرى، لكنّ الدَكيز بدا وكأنّه لم يسمع، إذ كان مشغولاً بتزبيط عناصر برنامجه الإلكتروني قبل أن يبدأ لعبته التي سيصفها كريم لشقيقه بعبارة: تدمير المدمّر

«انظر ماذا سأفعل»، قال الدَكيز

وفجأة بدأت الأبنية تتهاوى واحدة بعد أخرى. يغيب المبنى خلف كتلة من الغبار قبل أن يسقط وقد تفتّت في كومة من الحصى والرمال. أخذ المهندس في تدمير المباني في شكل منهجي، بدأ من ساحة الدبّاس فدمّر مقهى لاروندا، وسينما دنيا، ثم انعطف إلى سينما المتروبول، وتوغّل إلى اليمين فدمّر مبنى الشرطة الذي كان يُسمّى في الماضي السرايا الصغير، ثم دخل في شارع المتنبّي، هناك رأى كريم لافتة النيون على شرفة الطابق الثاني من مبنى بدا وكأنّ الحرب لم تمسّه، وقرأ اسم ماريكا مكتوبًا بالحروف اللاتينيّة، «لا أوعا تدمّر بيت ماريكا»، قال كريم، لكنّ المهندس لم يسمح له بمتابعة عبارته، إذ تهاوى المبنى العثماني الجميل على الشاشة.

«شو هالجنون»، قال كريم، حدًّا بدمّر ذاكرته؟»

«استنَّ شويّ»، قال الدكيز، «سينما ريڤولي بدها تركع، ليش الكومبيوتر عم يعمل هيك، مع إنّي حطّيت كمّيّة متفجّرات بتنزّل مدينة. هالسينما متل الشلكّة مسكّرا البحر كأنّها ما بدّها توقع»

«بيكفّي»، قال كريم.

«وادي أبو جميل»

«رح تدمّروا الوادي كمان؟»

«رح ينزل على الأرض».

«وسوق الطويلة؟»

«قال سوق الطويلة قال، شو هالأسواق التافهة يلّي صارت خراب وزبالة، كلّه انمحى، وبدنا نعمّر مدينة حديثة، مولز، متل بالسعوديّة ودبي وأميركا»

«والذكريات؟».

«قال ذكريات قال، هيدي بلاد بلا ذاكرة، لشو الذاكرة، ذاكرة القرف والجرب c'est fini، المهندس عدنان قال هلّق وقت هندسة المتفجّرات والتدمير، وأنا مُكلّف بهالمهمّة، ولمّا تفرّج عدنان على المشروع اندوخ، قال كان لازم نفرجيه لراشد الله يرحمه، كانوا زقّوا عقلاته من الفرح»

فهم كريم من أحمد الدَكيز أنّ المهندسين عدنان وراشد كانا مسؤولين عسكريّين خلال الحرب. عدنان صار مقاولاً نجحت شركة سوليدير في استقطابه للعمل معها، وراشد مات في معركة الفنادق عام ١٩٧٦ قاتل الدَكيز حين كان في التاسعة عشرة مع منظّمة العمل الشيوعي، ثم ترك المنظّمة كي يلتحق بمجموعة ماويّة كانت ترى في الحرب الأهليّة وسيلة لإحداث تغيير جذري في لبنان والمنطقة، وهو يشرف اليوم على تدمير ما عجزت الحرب عن تدميره.

«هيدا جنون»، قال كريم.

«لا يا حكيم، هيدا يلّي شفته بعيونك اسمه illusion d'optique، يعني خدعة بصريّة، اليوم صار كلّ شي هيك، مجرّد خدعة بصريّة، ما هو لبنان كلّه على بعضه مش أكتر من خدعة بصريّة، ونحن شو عم نعمل فكرك؟ عم نعمل هلّق يلّي ما قدرنا نعمله بالحرب»

«بس أنت شيوعي؟»

«طبعًا شيوعي»

«وعم تشتغل عند مشروع رأسمالي»

«الله يخلّيك بلا هالحكي التفنيص، أنا بدّي أعمل قرشين وهاجر على كندا، وأنسى»

قال إنّه يريد أن ينسى، فلم يجد كريم ما يُجيب به، معه حقّ أن ينسى، كلّنا نريد أن ننسى، لكنّ كريم كان مقتنعًا أنّ شرط النسيان هو

حماية الذاكرة، يجب أن تحفظ الذاكرة في مكان ما، كي نستطيع أن ننساها ونفتح صفحة جديدة. أمّا حين ندمّر الذاكرة بهذه الطريقة الوحشيّة، فهذا يعني أنّنا نريد للذاكرة أن تعشّش في لاوعينا، وهكذا سوف تتجدّد الحرب كلّما اعتقدنا أنّها انتهت.

لم يقل كريم شيئًا، فهو أيضًا هرب من بيروت كي ينسى، ترك ذاكرته معلّقة على حيطان روحه المهدّمة ومضى. والآن يدّعي أنّه فوجئ بالمهندس الذي يتابع الحرب على طريقته، يدمّر ما لم يستطع تدميره، كي يبني ما سيصير عرضة للدمار من جديد.

لكن لماذا عاد إلى هنا؟

عندما سألته منى لماذا رجع، وهل هناك من عاقل يعود إلى بلاد مصابة بلعنة الحروب، لم يعرف بماذا يُجيب.

قالت منى إنّها اقتنعت منه بفكرته عن الحرب التي لن تنتهي، وسألته لماذا لا يكتب هذه الفكرة، قالت، وهي ترشف آخر قطرات القهوة من فنجانها ثم تمدّ إصبعها لتلتقط التفل من كعب الفنجان وتلحسه.

قالت إنّها ترى في عودته مجرّد نزوة، تعبيرًا عن أزمة منتصف العمر، وانطلقت في تحليل نفسي لأزمة منتصف العمر كما سمّتها، وكريم يشعر بالنعاس يتسلّل إلى عينيه.

قال لها إنّها تحكي مثل معلّمات المدارس، وإنّ هذا النوع من الكلام يتحوّل إلى ما يشبه وسادة من النعاس.

قال عن النعاس وشعر أنّه يقلّد شقيقه نسيم. قال له نسيم إنّ أصوات الأساتذة تدغدغ عينيه، «ما بعرف ليش بس أسمع الأستاذ عم يحكي، بيبلشوا عيوني يغمضوا، كأنّه كلامهم بيغطّيني بغيمة رماديّة، وما بعود إفهم ولا كلمة، وبسرح»

كان كريم يحاول تفادي قرار نصري بأن يتقدّم إلى شهادة البكالوريا نيابة عن أخيه. قرّر أن يدرس مع شقيقه، لعلّ ذلك يدفعه إلى أن «يحطّ عقله برأسه»، وينقذ كريم من تلك المخاطرة المُكره على ركوبها

لكنّ نسيم لم يستطع، أغلب الظنّ أنّه أقفل رأسه لأنّه كان متيقّنًا من أنّ شهادة البكالوريا صارت في جيبه، وما على شقيقه سوى أن يذهب إلى الامتحان ويعود بها إلى البيت.

لم يصدّق نصري أنّ كريم خاف يومها من الرسوب. لكنّ خوف الفتى كان حقيقيًّا قبل ثلاثة أيّام من موعد الامتحان بدأ يشعر بدوار خفيف وغثيان. فقد شهيّته إلى الطعام، وأحسّ أنّ فمه ناشف كحطبة. قال لوالده إنّه يشعر بالمرض، لكنّ الصيدلي الذي كان يريد بأيّ ثمن لابنه الثاني دخول الجامعة قال لكريم إنّها مجرّد أعراض نفسيّة. «من شو خايف يا ابني» قال كريم إنّه لم يحضّر بما فيه الكفاية، وإنّه نسي مادّة الفلسفة العربيّة، ولا يدري ماذا سيفعل في الامتحان.

«شو بدها، فلفش الكتاب وبتتذكّر كلّ شي»

لم يجرؤ أن يقول لوالده إنّه حين يمسك الكتاب يشعر بالنعاس، وإنّه ما إن قرّر أن ينتحل شخصيّة نسيم حتى لبسته هذه الشخصيّة

قال إنّه سيحاول.

حاول ونجح.

لكنّه لم يروِ لأبيه أنّ الغثيان اشتدّ في ساعات الصباح الأولى حين كان في قاعة الامتحان إلى درجة أنّه اضطرّ إلى استئذان المُدرّسة التي كانت تراقبه في الذهاب إلى الحمّام لأنّه يشعر أنّه سيتقيّأ، وأنّ المُدرّسة أشفقت عليه وجلبت له فنجان شاي، وطلبت منه أن يتماسك لأنّها لا تستطيع أن تأذن له بمغادرة قاعة الامتحان.

قال لمنى إنّ أزمته ليس منتصف العمر، بل هذا المزيج الغرائبي من الحبّ والكراهية للمدينة. وإنّ ما رواه لها عن نظريّة الحرب التي لا تنتهي هو ملخّص لكرّاس نشرته مجموعة إسلاميّة في طرابلس.

«الإسلاميّين بيحكوا هيك، غريب، على كلّ حال صار لازم إرجع على البيت. بتعرف صار أحمد يزهّقني، ما بيلحق يوصل على البيت وياكل لقمة، حتى يفز على الكومبيوتر ويبلّش يلعب بالتدمير، وبحسّه عم يلتذ، كأنّه ما بعرف كيف بدّي قول، بس كأنّي ما بعرفه».

لم يكذب كريم على منى حين روى أنّه قرأ ذلك النصّ في كرّاس أصدرته منظّمة صغيرة أطلقت على نفسها اسم «منظّمة الصلاح والدعوة»، وهي منظّمة أنشأها خالد النابلسي في المرحلة الأخيرة من حياته، لتحلّ مكان منظّمة «المقاومة والغضب»

لكنّه لم يقل كلّ الحقيقة، فالنصّ بدأ داني في كتابته باللغة الفرنسيّة، ثم طلب من كريم أن يساعده في ترجمته إلى العربيّة. وانتهى الأمر بأن أعاد الصديقان كتابة نصّ طويل بعنوان «السلاح والتوازنات اللبنانيّة» نشراه تحت اسم مستعار في مجلّة «الثقافة الجديدة»، وهي مجلّة شهريّة كانت تصدر في شكل متقطّع، ويحرّرها شاعر ترك الحزب الشيوعي متأثّرًا بأفكار اليسار الجديد، قبل أن ينزوي في قريته في بلاد جبيل، وتتوقّف مجلّته عن الصدور بعدما اكتشف عبثيّة الكتابة في زمن الحرب.

أمّا حكاية التحوّل الذي أصاب هذا النصّ الماركسي، الذي يشدّد على دور الطبقة العاملة في الحرب الأهليّة، وعلى استحالة أن يتوقّف الانفجار اللبناني قبل حلّ المشكلة الفلسطينيّة، فتلك حكاية تستحقّ أن تُكتب بالإبر على مآقي البصر، كما علّمتنا شهرزاد.

بعدما غادرت منى، لمعت في رأس كريم ذاكرة الكرّاس الأزرق الذي وضعه في الملفّ الذي أرسله له خالد، وطلب منه أن يحتفظ به، قال إنّه

يتضمّن النصوص التي كتبها يحيى قبل مقتله، وهي نصوص ثمينة جدًّا، وهو خائف من أن يقوم الجيش السوري بمصادرته، لذلك يريده أن يبقى في مكان آمن.

لا يذكر كريم ماذا فعل بتلك النصوص، أخذ معه إلى فرنسا نصًّا واحدًا هو مذكّرات جمال، لم يستطع أن يحرق كرّاسات بطلة العمليّة الانتحاريّة، مثلما فعل بجميع أوراقه قبل أن يغادر إلى مونبلييه، لكن ماذا فعل بأوراق خالد؟ هل أحرقها؟ مستحيل، فخالد يحتلّ مكانة خاصّة في ذاكرته، ولا يمكن أن يكون قد قام بإحراق أوراق ثمينة وضعها الرجل في عهدته.

يذكر أنّه قرأ الأوراق بسرعة، وكانت عبارة عن نصوص كتبها يحيى، عمّ خالد، الذي قضى في السجن عام ١٩٧٤ بعد اعتقاله بستّة أشهر وكانت تهمة يحيى التي لم ينفها على الإطلاق هي قيادته لانتفاضة مسلّحة قام بها الفلّاحون ضدّ الإقطاعيّين في عكّار

عندما قرأ كريم تلك الأوراق التي كُتبت بخطّ رديء، فكّر بسلمى. قال لهند إنّ عائلة عبد الكريم اضطرّت، تحت ضغط الفلّاحين المتمرّدين، إلى إخلاء قرية خربة الراهب، والهرب إلى حمص، في سورية.

قال إنّ يحيى كتب عن أولاد عبد الكريم الثلاثة قائلاً إنّهم كانوا يتميّزون بشراسة معاملتهم للفلّاحين، وبتفننهم في قهرهم، وإنّ شرارة الثورة انطلقت من أراضيهم، حيث قام الفلّاحون بإحراق بيوتهم ونهبها، ممّا اضطرّ الإخوة الثلاثة إلى الجلاء بشكل نهائي عن القرية.

«غريب»، قال كريم، «مع أنّ إخوتك أمّهم فلّاحة، غريب كيف لمّا الواحد بيتنكّر لأصله بيصير متوحّش»

سألها عن رأيها في الموضوع، فقالت إنّ المسألة لا تعنيها.

«هيدول أولاد أمّي، مش إخوتي، على كلّ حال الله لا يردّهم».

«قولي لأمّك إنّه هلّق صار فيها تشوف أولادها الصبيان، زوج أمّك انقتل، وأراضيه احترقت، وهلّق صار فيها تسترجع أولادها»

بدل أن تفرح هند أصابها الوجوم، وبدل أن تسارع إلى تبشير أمّها طلبت من كريم أن لا يخبر سلمى.

«إذا خبّرتها بتفتّق لها جروحاتها وبتذكّرها بشي قرّرت تنساه»

«بس هيدول أولادها، حدًا بيقدر يعيش من دون أولاده؟»

الغريب أنّ هند نفسها سوف تطلب بعد ذلك بسنوات من زوجها نسيم أن يساعدها في العثور على إخوتها الثلاثة غير الأشقّاء، وأنّ نسيم عثر عليهم في حمص حيث كانوا يديرون محلًّا لصناعة الحلويات العربيّة.

يذكر كريم أنّه لم يحتفظ من كلّ ذاكرة الحرب إلّا بنصّين، مذكّرات جمال، التي رافقته إلى فرنسا، والنصوص التي ورثها خالد عن عمّه يحيى، الذي كان يطلق على نفسه اسم «أبو ربيع»، ومات في السجن ، نتيجة التعذيب. لكنّ بلاغًا رسميًّا صادرًا عن إدارة السجن، ادّعى أنّ «أبو ربيع» مات بسبب انفجار زائدته الدوديّة.

كان أبو ربيع أسطورة حقيقيّة، التقى به داني في جرود عكّار، حين كان الرجل يجمع الشباب استعدادًا للقيام بانتفاضة مسلّحة ضدّ الإقطاعيّين من آل عبد الكريم والمرعبي والعلي

«عكّار هي خزّان الثورة»، قال أبو ربيع لداني، وهو يشرح له نظريّته الغيفاريّة عن البؤرة الثوريّة، وضرورة القيام بثورة في الثورة. أغلب الظنّ أنّ هذا الفرّان، الذي عمل طوال حياته في فرن والده في حيّ القبّة في طرابلس، قبل أن يرث الفرن، ويحوّله إلى خليّة يلتقي فيها شبّان الحيّ شبه العاطلين عن العمل، ويخطّطون لبناء الخليّة الثوريّة التي ستبدأ الكفاح

المسلّح، كان متأثّرًا بالتجربة الغيفاريّة، ويسعى إلى تطبيقها في لبنان.

رأى داني في أبو ربيع قماشة ثوريّة تحتاج إلى صقل. فالرجل لم يكن مثقّفًا، قراءاته اقتصرت على «البيان الشيوعي» وكتاب ريجيس دوبريه «ثورة في الثورة» لم يحبّ داني كتاب دوبريه ولا تنظيراته النابعة من عقليّة بورجوازيّة صغيرة، ومن إرادويّة كان يرى فيها نقيضًا لضرورة التنظيم الثوري الطليعي الذي من دونه لا تستطيع الثورة أن تنتصر لكنّه تعامل مع يحيى بإيجابيّة، إذ رأى في مشروع انطلاقة انتفاضة فلّاحيّة في عكّار، احتمالاً بأن تكون هذه هي الشرارة التي ستشعل السهل اللبناني برمّته.

عندما انطلقت الثورة، كان داني خارج الموضوع. فأبو ربيع كان مقتنعًا بأنّ من لا يعرف أن يعمل بيديه لا يستطيع أن يكون ثوريًّا حقيقيًّا روى خالد عن عمّه الذي كان يحتقر المثقّفين مشبّهًا إيّاهم بالكهنة في كونهم يتعيّشون من جهد الآخرين، إنّ أفضل وصف للمثقّف هو هذه العبارة التي قرأها في كتاب عن الكهنة، «اسمعوا أقوالهم ولا تفعلوا أفعالهم»

كان أبو ربيع يستمتع بكلام داني وبتحليله للوضع الدولي، ويقرأ نصوص ماو التي كان يجلبها داني لخليّة طرابلس، لكن عندما وصلت الأمور إلى الجدّ، اتّخذ أبو ربيع قراره، ولم يكلّف نفسه عناء تبليغ قائده الثوري المفترض.

فوجئ داني بالانتفاضة، وأبدى امتعاضه من حماقة أبو ربيع وتسرّعه. لكنّ هذا لم يمنعه من كتابة مقال في مجلّة «الحرّيّة»، يمجّد فيها الانتفاضة بعد انهيارها أمام ضربات الجيش اللبناني.

لا أحد يذكر اليوم انتفاضة فلّاحي عكار، فكّر كريم، فهذه بلاد النسيان والذاكرة المفقودة. ربّما كان أحمد الدَكيز على حقّ، فالتدمير هو امتداد لثقافة النسيان التي بُني عليها وطن ناقص، حتى الحرب الأهليّة الطويلة عجزت عن سدّ نقصانه، كأنّه وطن لن يكتمل إلّا بالموت.

يستطيع داني اليوم أن ينسب هذه الثورة المنسيّة إلى نفسه، أو أن ينساها وحين التقى كريم بداني لم يتحدّثا عن أبو ربيع، ولم يستعيدا حكاية جان بيار حين رفض داني بطريقة مواربة أن يعطي أوراق أبو ربيع لهذا الباحث الفرنسي.

فجأة ظهر داني أمام الباب وبرفقته رجل فرنسي. قال داني إنّه أتى مع رفيق فرنسي وعالم اجتماع، يعدّ بحثًا أكاديميًا عن الحركات الأصوليّة في الشمال اللبناني وفي مدن الداخل السوري. وإنّ الرجل الذي يُدعى جان بيار كان صديقًا لخالد، وإنّ خالد أخبره أنّ أوراق شقيقه هي في عهدة الدكتور كريم شمّاس.

«خالد خبّرك؟ غريب»! قال كريم.

طلب داني من كريم إعطاء الأوراق إلى الرفيق الفرنسي.

«لكنّ خالد طلب مني الاحتفاظ بهذه الأوراق، وأن لا أعطيها إلّا لزوجته»، قال كريم.

«خالد مات الآن»، قال داني، «من الأفضل أن نعطيها للرفيق جان بيار، كي يستخدمها في دراسته عن الحركات الأصوليّة»

«لكنّ أبو ربيع لم يكن إسلاميًا، أبو ربيع مات ماركسيًا»

«خالد كان أحد قادة الإسلاميّين، كما تعلم»، أجاب داني، «وهو وريث التنظيم الذي أسّسه عمّه»

في تلك اللحظة تدخّل جان بيار، قال إنّه يعرف بأنّ أبو ربيع كان ماركسيًا، وهذا زاد من اهتمامه بالموضوع، «خالد أيضًا لم يكن إسلاميًا، لكنّه اعتنق الإسلام بعد ذلك»، قال الفرنسي، «وأنا أعتقد أنّ هذا هو خطّ التطوّر المقبل في الحركة الثوريّة، الإسلام هو مستقبل الثورة»

لا يدري كريم ماذا حلّ بداني عندما سمع كلام جان بيار، غضب

وقال merde، نظر إلى الفرنسي وقال إنّه لا يحبّ هذا الكلام الاستشراقي الذي يذكّره بهوس بعض الغربيّين بالشرق وبالإسلام، «على كلّ حال هيدا الهوس كان غطا للاستعمار، شوف شو عمل لورنس، بالآخر كان قائد الثورة العربيّة جاسوس إنكليزي»

قال جان بيار إنّه ليس مستشرقًا، «أنا انولدت بتونس، وقرّرت صير عربي يوم قصف الجيش الفرنسي بينزرت، يوميّتها شفت بعيوني الظلم وقرّرت إنّي صير عربي، فهمت شلون»

كان جان بيار يتكلّم بلهجة دمشقيّة واضحة، من المؤكّد أنّه درس العربيّة في المعهد الفرنسي في دمشق، فكّر كريم، وهو يشعر بتعاطف مع هذا الرجل الذي اختار أن يصير عربيًّا كريم أيضًا لم يكن موافقًا على أنّ الاتّجاه الغالب سوف يصير الإسلام، ولم ير في إسلام خالد سوى تعبير عن أزمة تضرب اليسار، لا بدّ وأن تنتهي قريبًا كي تستعيد الأمور مساراتها الطبيعيّة. لكنّه شعر بتعاطف مع هذا الفرنسي، الذي تكلّم عن خالد بحنان، وقال إنّه يعتبر خالد النابلسي علامة كبرى في تطوّره الشخصي على المستويين الفكري والنفسي. قال إنّه تعلّم من خالد معنى كلمة الشعب، «قبل أن ألتقي به وبرفاقه في حيّ القبّة، لم أكن أعرف معنى الفقر والبؤس والألم، معهم تعلّمت، وأنا أريد أن أكتب نصًّا علميًّا أضع فيه الظاهرة التي مثّلها خالد في مكانها الطبيعي، في وصفها علامة المستقبل»

وعندما لم يسمع الرجل جوابًا ارتفع صوته بالغضب.

«أنتم تشكون من النظام السوري»، قال جان بيار، «من برأيك سيغيّر الأوضاع هناك؟ أنتم! والله هذا مستحيل، هناك قوّة وحيدة، وأنا سأكون أوّل من يكتب عنها».

فوجئ كريم بداني يقول لصديقه الفرنسي إنّه يستطيع أن يتفهّم رفض كريم إعطاء نصوص أبو ربيع، «هيدي وديعة، خلّينا نأجّل الموضوع هلّق»،

قال وهو يمسك بذراع الفرنسي ويخرجان معًا

كان كريم على وشك الموافقة على تصوير نسخة من الأوراق من أجل إعطائها للفرنسي، لكنّه فوجئ بتصرّف داني ولم يقل شيئًا

تابع كريم وسائل الإعلام الفرنسيّة التي تحدّثت عن عالم الاجتماع جان بيار جيرو الذي خطفه الإسلاميّون في بيروت، ودخل في سجلّات الرهائن الذين صارت بيروت مسرحًا لمأساتهم بعد الاجتياح الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢ الآن، هنا في فرنسا، فهم كريم أنّ تدمير الوجود الفلسطيني وتحطّم قوى اليسار اللبناني، أفسحا في المجال كي يستولي الإسلاميّون على الثورة مثلما تنبّأ جان بيار في مقال نشرته جريدة «لو موند» الفرنسيّة قبل اختطافه، بأربعة أشهر

وعندما أعلن نبأ موت جان بيار، حيث وجدت بقاياه في منطقة تُدعى «حرج القتيل»، في ضاحية بيروت، أُصيب كريم بالاكتئاب، وقال لزوجته الفرنسيّة إنّه لا يفهم.

«قتلوه لأنّه فرنسي»، قالت برناديت، «هؤلاء همجيّون وبلا رحمة، أنت تعرف ذلك أكثر منّي».

استغرب كيف لفظت كلمة همجيّين وهي تنظر إليه، كأنّها تتّهمه بقتل إنسان لم يصر فرنسيًّا إلّا رغمًا عنه، وبسبب موته. حاول أن يروي لها القصّة، لكنّه اكتشف أنّه لا يستطيع أن يحكي، ليس بسبب اضطراره إلى التكلّم بالفرنسيّة مع زوجته، بل لأن لا كلام يستطيع أن يشرح مأساة الرجل.

لم يلتقِ كريم بجان بيار إلّا في تلك المرّة اليتيمة حين زاره طالبًا أوراق أبو ربيع، لكنّه تعرّف إلى الرجل بعد موته، بسبب اهتمام الإعلام الفرنسي به، حتى إنّه عثر على النصّ الذي كتبه جان بيار عن الحركات الإسلاميّة، وكان هذا النصّ هو السبب الحقيقي لمقتله مريضًا باليرقان في

زنزانة تحت الأرض في ضاحية بيروت الجنوبيّة.

الرجل الذي قرّر التخلّي عن هويّته الفرنسيّة، وأقام في دمشق، وتزوّج امرأة شاميّة، وأنجب منها ثلاثة أطفال، ثم انتقل إلى بيروت كي يعمل في الـ CERMOC، وجد نفسه أسير الأفكار التي اعتنقها وضحيّتها في آن معًا

قال كريم لزوجته التي بدت متبرّمة بالكلام وكأنّها مُكرهة على الاستماع إليه، إنّ مأساة جان بيار هي جزء من مأساة بيروت، وإنّه ليس متأكّدًا من أنّ الإسلاميّين قتلوه. ففي تلك الأيّام، حين حطّم الاحتلال الإسرائيلي بيروت، وحوّلها إلى مزق، كانت العتمة تلفّ المدينة بالصمت والخوف. يومها بدأت المجموعات الإسلاميّة تنبت كالفطر، واختلط الجميع بالجميع، يساريّون أسلموا، ويساريّون انهاروا، وإسلاميّون انتقلوا من موقع إلى آخر، وشعب فقد الأمل وهو يرى أنّ حصاد حلمه صار كابوسًا يومها خُطف جان بيار على حاجز طيّار أُقيم على طريق مطار بيروت، وتبادلته مجموعات الخاطفين، إلى أن استقرّ به الأمر في يد أحد أجهزة المخابرات.

قال كريم إنّه لا يدري من قتل جان بيار أو تركه يموت بتلك الطريقة الوحشيّة، وهو يتلوّى بالمرض واليأس، لكنّه قرأ حكاية زيارته إلى منزله الكائن في منطقة رأس النبع، كما روتها زوجته السوريّة التي أتت مع أولادها لتُقيم في باريس بعد يأسها من إمكانيّة إطلاق سراحه.

قال لبرناديت إنّ الكلمات كانت كالإبر تنخزه في عينيه. قال إنّ دموعه سقطت ليس شفقة أو تعاطفًا، بل بسبب الألم الذي أصاب عينيه. قال إنّ ما لا يستطيع أن يفهمه هو لماذا سمحوا له بتلك الزيارة اليتيمة إلى بيته

قالت زوجته في حوار أجرته معها مجلّة «لو نوفيل أوبسرفاتوار» الفرنسيّة، إنّه بعد اختطاف زوجها بحوالى شهرين، سمعت قرعًا خفيفًا على الباب، ثم دار المفتاح في القفل. كانت الساعة حوالى الحادية عشرة ليلاً،

والمدينة تسبح في ظلام هلامي، وحرّ تمّوز يلتصق بالأجساد، «شعرت بالخوف، نهضت من سريري شبه عارية، وبدلاً من أن أركض لأرى مصدر الصوت، ركضت إلى غرفة الأولاد، أشعلت ضوء البطّاريّة ووقفت بباب الغرفة كي أحميهم بجسدي، وفجأة عرفت أنّه هو، شممت رائحة عرقه، وسمعت لهاث تنفّسه، صرخت جان بيار، فجاءني صوته مختلطًا بما يشبه الحشرجة، طلب مني أن أخفض صوتي كي لا يستيقظ الأولاد، مشيت إلى الصالون ورأيته. كان يقف إلى جانب ذلك الرجل الطويل القامة، الذي ابتسم لي، ركضت في اتّجاهه وحضنته، وبدل أن يأخذني بين ذراعيه، دفعني قليلاً إلى الوراء. لم أفهم ماذا يفعل الرجل الغريب مع زوجي الذي عاد بعد غيبة طويلة دامت شهرين كاملين.

قال لي جان بيار موشوشًا إنّه جاء إلى البيت كي يأخذ «مقدّمة ابن خلدون» ويعود.

«تعود! إلى أين؟»

«أعود إلى المكان»

لم أفهم، قلت إنّني لا أفهم، شرح لي الرجل الذي يرافقه إنّهم سمحوا لجان بيار بزيارة خاطفة إلى منزله كي يأخذ بعض الكتب، قبل أن يعيدوه إلى هناك.

«وين هونيك»؟ سألت.

ابتسم الرجل، وطلب مني أن لا ينشغل بالي، وأن أتوقّف عن إثارة الضجيج حول اختطاف زوجي.

«زوجك في أيدٍ صديقة»، قال، «وقريبًا سيعود إلى بيته معزّزًا مكرّمًا، لا تقلقي يا مدام»

«وليش ما يبقى هلّق بالبيت؟»

أمسكت بجان بيار وهززته، لحظتها اكتشفت كم نحل جسمه، ورأيت الاصفرار ينتشر على وجهه.

كان منحنيًا على كتبه، يبحث في العتمة عن ابن خلدون، لحظتها اكتشفت أنّني لم أشعل المصباح الغازي الذي صار بديلاً من كهرباء بيروت التي اختفت. أشعلت المصباح، وامتلأ البيت بالضوء أقفل جان بيار عينيه، كأنّه اعتاد على العتمة، وسمعته يطلب من الرجل الآخر أن يساعده لأنّه لم يعثر على الكتاب، وعرفت أنّ اسم ذلك الآخر هو عبّاس

انحنى عبّاس، والتقط الكتاب وأعطاه لزوجي.

«طفّي الضو يا مدام»، قال عبّاس بصوت منخفض.

«وبدلاً من أن أصرخ كي يجتمع الناس حولي وينقذوا زوجي من براثن هذا العبّاس، صرت كالمنوّمة مغناطيسيًّا سمعت في صوته سلطة لا تُقاوم، فأطفأت الضوء، ورأيت زوجي يقف كأنّه شبح في انتظار إشارة من الرجل الغريب.

تقدّمت منه كي أعانقه، فأحسست به بعيدًا، كأنّه ليس زوجي، كأنّه صار ظلًّا صغيرًا لذلك الرجل، الذي حمل في يده «مقدّمة ابن خلدون»، ومشى، فمشى زوجي وراءه، فتح الباب واختفيا في ظلمة الدرج

ما يحيّرني هو لماذا لم يلتفت زوجي إلى الوراء كي يودّعني؟ لماذا لم ير الأولاد النائمين؟ ولماذا أعادوه؟ ما هذه الكلبيّة المتوحّشة التي جعلتهم يُعيدونه إلى بيته للحظات، ثم لماذا ابن خلدون؟ ماذا سينفعه ابن خلدون في الزنزانة المعتمة التي ألقوه فيها؟

أنا أعتقد أنّه أُصيب باليرقان بعد زيارته لنا أنا متأكّدة من ذلك. العتمة توحي باللون الأصفر، لا لم يكن لونه أصفر، أنا أتذكّره كذلك الآن لأنّني عرفت بعد موته أنّه أُصيب باليرقان، وأنّه تألّم كثيرًا، وأنّهم لم يفعلوا

شيئًا لإنقاذه. تركوه يموت كالكلب لأنّه آمن بما آمنوا به، أنا قلت له أن لا يكتب عن التيّارات الإسلاميّة، لكنّه كان مقتنعًا بأنّها المستقبل، نحن لا دخل لنا، هو فرنسي وأنا روم أرثودوكس من دمشق، ونحن علمانيّون.

قالت إنّها تعتقد أنّ زوجها قُتل في لعبة مخابرات معقّدة، أنا لست متأكّدة من أنّ الإسلاميّين قتلوه، بلى هم كانوا أداة لقتله، لكنّه غباء المخابرات الفرنسيّة التقليدي في لعبتها مع المخابرات الإيرانيّة أو السوريّة»

الآن في بيروت، وبعدما أخبر منى عن ذلك النصّ الشهير الذي تحوّل إلى الكتاب النظري لمجموعة خالد النابلسي التي قرّرت أن تستمرّ في العمل السياسي لأنّها لا تملك خيارًا آخر، الآن يحاول كريم أن يتذكّر أين خبّأ أوراق أبو ربيع التي لم يعطها لجان بيار. غريب كيف امّحت ذاكرة هذه الأوراق، ولم تخطر في باله حين كان يستعدّ للعودة إلى بيروت. كان قد قرّر أنّ أوّل ما سيقوم به هو زيارة قبر خالد وقبر حياة وابنتها نبيلة، والاعتذار إليهم. لكنّه أضاع وقته في بيروت بين ذكريات العائلة وغراميّات مليئة بالطيش، ومشروع بناء للمستشفى لم ير منه سوى أوهام بصريّة على كومبيوتر مهندس لا همّ له سوى تدمير المباني واقتلاعها من جذورها

حين دخل إلى غرفته لينام بعد عشاء الليلة الأولى الذي أعدّته سلمى، انتبه أنّ الغرفة بقيت على حالها مثلما تركها حين سافر إلى فرنسا لكنّه لم ينتبه إلى الكومودينة البنّيّة التي إلى جانب السرير، أو لم ير فيها نافذة على ذكريات تركها وراءه وقرّر أن يدفنها في النسيان. نصري قال له مرّة على التلفون أن لا شيء سوف يتغيّر «غرفتك رح تبقى غرفتك حتى لو ما استعملتها، وغرفة خيّك كمان، الخادمة بتنضّف الغرفتين مرّة بالشهر، وممنوع تشيل شي من مطرحه، هيدي غرفكم يا ابني، ووقت بتحبّوا ترجعوا على البيت، بتلاقوا البيت ناطركم»

«بس أنا تزوّجت يا بيّي وعندي بنتين، شو بدّي بالأوضة، استعملها إنت متل ما بدّك»

«وخيّك تزوّج كمان، وهيدا ما بغيّر شي بالنسبة إلي، بس الله يعطيني عمر حتى شوف كيف رح يرجعوا أضلاع الثالوث ويلتحموا مع بعض».

عندما هرع كريم إلى الغرفة التي ينام فيها، فوجئ بالكومودينة وبالدُرجين. لماذا لم يلاحظ ذلك قبل الآن؟ ولماذا لم ير ما لا تستطيع العين أن تخطئه؟ ينام على شراشفه نفسها، ويضع رأسه على الوسادة المحشوّة بريش النعام نفسها، التي أهداه إيّاها والده حين نجح في امتحان البكالوريا. الستائر الشفّافة نفسها، والثريّا النحاسيّة الصغيرة ذات الأربعة مصابيح، والكومودينة الخشبيّة البُنِّيّة ذات الدُرجين وفوقها راديو الترانزيستور الصغير، الذي كان يستمع من خلاله إلى نشرة منتصف الليل من إذاعة مونت كارلو. أشعل الراديو فخرجت منه خشخشة، ثم انطفأ الصوت فجأة. لا بدّ من تغيير البطّاريّات، فكّر كريم. انحنى صوب الكومودينة، وفتح الجارور الأوّل، وأُصيب بصاعقة الذاكرة. كان الدُرج الأوّل مخصّصًا لهند: صورها بالمايوه، صورته إلى جانبها وهما واقفان يدًا بيد أمام شاطئ مسبح «السان سيمون»، رسائل من هند إليه، ورسائله، فيض من العواطف التي تسيل بالحبر الناشف على الأوراق.

لماذا كانت هند تحبّ كتابة الرسائل؟

الآن يتذكّر، كانت هند، في نهاية لقائهما اليومي، تعطيه رسالة في مغلّف مقفل وتطلب منه أن لا يفتحها قبل وصوله إلى البيت، وأن يُجيبها في اليوم التالي خطّيًّا. لم يكن كريم يجد سببًا للكتابة، يقرأ في رسائلها ما سبق أن سمعه منها في اليوم نفسه، وعليه أن يجاوب بما سيقوله لها في اليوم التالي. كانت هذه العلاقة التراسليّة ترهقه، «دراسة الطبّ متعبة»، قال لها، «وهي لا تترك لي وقتًا للكتابة». لكنّ هند كانت ترفض الأعذار،

فيضطرّ كلّ ليلة وهو يغالب النعاس أن يكتب لها بضعة سطور هكذا صار حبّهما تطبيقًا للرسائل، وصارت قراءة رسائلها بالنسبة له تمرينًا لذاكرته. ولكنّ الذاكرة تتعب. توقّف كريم عن قراءة الرسائل، يفتحها ثم يُلقي عليها نظرة قبل أن يرميها في الجارور، ويبدأ في المعاناة أمام الورقة البيضاء. وكانت مفاجأته كبيرة حين وجد رسائل لم يفتحها أمسك بإحداها ومزّق المغلّف، فارتسمت على شفتيه ابتسامة بلهاء قرأ عن يديه، كانت هند تتغزّل بأصابع يديه الطويلة، وإبهامه الرفيع، وتقول إنّها لا تحبّ الإبهام المستدير المنتفخ، لأنّه يشير إلى أنّ صاحبه لئيم. تابع القراءة ليكتشف أنّها تريد تقبيل يديه، «أرجوك حين تضع الكولونيا على ذقنك بعد الحلاقة اغسل يديك جيّدًا بالماء والصابون، لأنّني أريد أن أشمَّ رائحتهما وليس رائحة الكولونيا حين أقبّلهما غدًا» حاول أن يتذكّر ماذا جرى في ذلك الغد وماذا قالت هند حين قبّلت يديه لتجد أنّه لم ينفذ تعليماتها، لكنّه لم يتذكّر

عادت به مناخات الرسائل إلى ذلك المساء حين أعطته هند رسالتها الأخيرة، وقالت إنّها حزينة لأنّها ستتوقّف عن كتابة الرسائل لأنّه لم يعد يجاوب. حاول أن يشرح لها أنّه يحبّها من دون الحاجة إلى كتابة رسالة يوميّة، فهما يلتقيان في كلّ يوم.

«ما بعرف أنت كيف»، قالت، «بس أنا رأيي أنّ الحبّ بلا كلام مش حبّ»

«ما نحن عم نلتقي كلّ يوم، ومنحكي عن كلّ شي»، أجابها

«لا، لا، الحكي متل الهوا، ما في شي بيبقى إلّا يلّي بينكتب»، قالت، «بس متل ما بدّك»

لم يحاول كريم أن يخفي فرحه بانتهاء عذاب الرسائل، وهو يضع رسالة هند الأخيرة في جيب بنطلونه الخلفي. طلب كأسين من البيرة كي يشربا نخب الحبّ.

«أنا أكيدة أنّك رميت كلّ مكاتيبي»، قالت

«أبدًا كلّهم عندي بالجارور بغرفتي»

«أوعا حدًا يقراهم»

«الجارور مقفل، والمفتاح معي»، أجابها

لكنّه لم يقل الحقيقة، فالجارور لم يكن مقفلاً ولا وجود لمفتاح. لا يدري إذا كان نصري قد قرأ الرسائل، وضحك من سذاجة غراميّات ابنه، لكن من المرجّح أنّ نسيم اكتشف مكانها، ولا بدّ أن يكون قد قرأ جزءًا منها فنسيم الذي اكتشف أسرار والده، ثم أعاد كلّ شيء إلى مكانه الأصلي، لا يمكن إلّا أن يكون فضوله قد قاده إلى هنا

لكن لماذا لم يمزّقها؟ ألم يشتعل قلبه بالغيرة من شقيقه؟ أم أنّ الغيرة لها مفعول آخر، وهذا ما شعر به كريم حين كان يستمع إلى متروك. ففي اللحظة التي انزاح فيها خوفه من المسدّس الذي وضعه الزوج المخدوع على طاولة الطعام قرب كأس العرق، اشتعل قلبه غيرة ورغبة. غار من عذاب وأحسّ بشوق وحشي إلى غزالة. وفهم أنّ غرام متروك بزوجته اشتعل في اللحظة التي رآها فيها تنحني تحت بندقيّة عذاب وتدخل إلى بيته.

غريبة أمور القلب، فهي عصيّة على الفهم. حتى العاشق السابق لا يستطيع أن يتذكّر حماقات قلبه من دون شعور بالخجل أو الارتباك. لذا يمحو العشّاق السابقون حكايات حبّهم الذي انتهى، لأنّهم لا يجرؤون على تذكّرها خصوصًا الغيرة التي لا تجرح القلب فقط، بل تجعله أسيرًا في شكل مضاعف.

مرّة واحدة تحدّث نصري مع ولديه عن هذا الموضوع. كان كريم يضبّ أغراضه كي يعود إلى بيته في شارع عبد العزيز، قرب الجامعة

الأميركيّة، حيث يدرس الطبّ، ونسيم عاجز عن تفسير سبب رسوبه في امتحانات السنة الأولى في كلّيّة الصيدلة للمرّة الثانية، ما يعني أنّه بات عليه مغادرة مقاعد الدراسة، والبدء في العمل مع والده كصيدلي مساعد. في ذلك اليوم الذي اعتبره نصري يوم وداع الثالوث، شرب الصيدلي العجوز كمّيّة لا تحصى من النبيذ، وبدا حزينًا ومتعبًا يومها نظر إلى كريم وقال له «إيّاك من الغرام بشرموطة»

«شو؟»

«بعرف أنّ الحمرا والزيتونة مليانين بارات، وإنّك شابّ وهيدا حقّك من الدنيا، وأنا ما عندي مانع، بس إيّاك يا ابني تنغرم بشرموطة، لأنّه هيدا غرام بلا كعب، هي بتخونك وإنت بتولع أكتر، هي ما فيها ما تنام مع رجال تانيين لأنّ هيدي شغلتها، وأنت ما فيك ما تتعذّب لأنّك بتحبّها»

ثم نظر إلى نسيم وسأله عن رأيه في الموضوع.

«أنت أخبر»، قال نسيم ضاحكًا

«وأنت كمان خبرتك مش قليلة»، أجابه والده.

نهض نسيم عن طاولة الطعام ومضى، وساد الصمت الذي قطعه نصري حين وقف وقال إنّ رأسه يؤلمه، وإنّه سيدخل إلى غرفته كي ينام.

عندما كان كريم يستمع إلى حكاية غزالة، فهم معنى احتراق الإنسان بالغيرة. في البداية، حين رأى المسدّس ووجه متروك المحتقن، شعر أنّ الحبّ ينسحب من أطراف أنامله، وأنّ علاقته بغزالة لم تكن سوى علاقة لا معنى لها لكن عندما بدأ متروك يخبر حكاية الفتى الميليشوي الذي أحبّته غزالة، وبذلت في سبيله كلّ الهدايا التي قدّمها لها كريم، شعر بالغيرة تضطرم في قلبه، وأحسّ بتلك النار التي حدّثه عنها نصري. فكريم لن ينسى ليالي الأرق التي عاشها بعد ذلك، كأنّه انغرم بغزالة لحظة اكتشافه

لخيانتها كان يريدها أن تأتي إليه مرّة واحدة وأخيرة، كي يُطفئ ذلك العطش الذي اشتعل في داخله، لكنّها حين أتت كانت امرأة مختلفة ولم تثر في قلبه سوى الندم.

لا شكّ أنّ نسيم انتابته مشاعر مشابهة عندما قرأ رسائل هند لشقيقه، لكن لماذا لم يُتلف الصور أو الرسائل؟

بينما كان كريم غارقًا في ذكريات حبّه لهند التي انتصبت أمامه كسيل من الصور، رنّ جرس التلفون.

رفع كريم سمّاعة الهاتف ليكتشف أنّ من يتحدّث معه يدّعي أنّه الشيخ رضوان وأنّه يكلّمه من طرابلس.

«مين»؟ سأل كريم.

«رضوان، أنا رضوان، داني خبّرني أنّك رجعت على بيروت، وأنا حابب شوفك، شو رأيك تجي تقضي عندي يومين بالفيحاء، وكمان في إلك مفاجأة»

«رضوان صاحب خالد»؟ سأل كريم، وهو يتذكّر شابًّا ربعًا مستديرًا أبيض الوجه، عيناه جاحظتان وحاجباه شبه حليقين، كان يرافق خالد كأنّه ظلّه.

«أنت رضوان ما غيره»؟ سأل كريم.

«طبعًا طبعًا»، أجاب الصوت، الذي قال إنّه تمشيخ بعد مقتل خالد، وإنّه يدرّس الفقه في الجامعة الإسلاميّة في المدينة، وإنّه يريد رؤيته، لأنّ هناك مفاجأة.

قال كريم إنّه لا يستطيع لأنّه مضطرّ للعودة إلى فرنسا.

«بس هو حابب يشوفك».

«مين هو»؟ سأل كريم، وهو يشعر بارتعاشة في جسده، لأنّ كلمة «هو»، في الزمن القديم، كانت تعني شخصًا واحدًا هو خالد.

«سينالكون. سينالكون حابب يشوفك»، قال الشيخ رضوان ضاحكًا

«سينالكول! ليش هو بيعرفني؟»

«تعا وشوف، مفاجأة كبرى»

كان كريم متأكّدًا من أنّ سينالكول مات، من أين جاءه الشيخ رضوان بهذه الحكاية؟

خالد قرّر قتله، وداني كان متحمّسًا، وكريم هزّ رأسه معترضًا، رغم أنّه لم يكن لا في العير ولا في النفير مثلما يقولون، لكنّه حضر اللقاء في طرابلس الذي جرى في أيّار عام ١٩٧٦، وفيه تقرّر تنفيذ حكم الإعدام باللصّ الذي يُسيء إلى سمعة الثورة في المدينة

لكنّ سينالكول اختفى، يبدو أنّه وجد طريقه من جديد إلى أحياء المدينة المملوكيّة القديمة، التي أعلنت نفسها جمهوريّة المطلوبين عام ١٩٧٣، فاقتحمها الجيش ودمّر تلك الجمهوريّة الغرائبيّة التي جمعت لصوصًا ومجرمين ومتعطّلين بزعامة رجل كان يُدعى أحمد القدّور

عندما اقتحم الجيش المدينة لم يفلت سوى سينالكول، وزعيم المجموعة أحمد القدّور، ورجل غريب الأطوار التحق بجمهوريّة المطلوبين يُدعى ألبير حلو تسلّل الثلاثة في نفق في الأسواق وخرجوا في مجرى نهر أبو علي، ومن هناك صعدوا إلى عكّار، ووصلوا إلى وادي جهنم، لكنّهم جاعوا في الوادي الذي لم تطأه أقدام رجال الأمن، بسبب وعورته واستحالة السيطرة على مسالكه المتعدّدة. الجوع أعاد الثلاثة إلى طرابلس، فاعتقل القدّور وألبير، أمّا سينالكول فقد وجد طريقة للتواري.

وخلال العامين الأوّلين من الحرب الأهليّة، ظهر سينالكول من جديد، لكن لم يره أحد، لأنّه أعلن نفسه شبحًا في المدينة، وصار حكاية لفن جديد من اللصوصيّة قائم على الاختفاء وعدم الظهور.

كان سينالكول رجلاً لا مرئيًا، حتى اسمه الحقيقي امّحى. خالد كان متأكّدًا من أنّ إبراهيم الطرطوسي، وهو أحد رجال جمهوريّة المطلوبين، انتحل اسم سينالكول كي يمارس اللصوصيّة. لكن كيف يكون هذا صحيحًا عندما يعرف الجميع أنّ جثّة الطرطوسي شُيّعت في طرابلس يوم الأربعاء ١٧ تشرين الثاني ١٩٧٣، ودُفن في مقبرة الغرباء وسط نحيب أمّه المرتفع، في يوم ممطر وبارد.

قال رضوان إنّه سينتظر كريم في محلّات حلويات الحلّاب، يوم الجمعة المقبل، «ألتقيك بعد الصلاة، مناكل شميسة وبعدين منزور قبر خالد، ثم نلتقي سينالكول إذا شئت، على كلّ حال في إشيا كتير لازم نحكيها، وبفتكر حضورك ضروري حتى أقدر نظّم الإشيا بذاكرتي بشكل واضح، أنا عاوزك بكم سؤال بخصوص مذكّراتي يلّي عم بكتبها»

«أنتَ عم تكتب مذكّراتك»! قال كريم متعجّبًا

«نعم يا دكتور، إجا وقت يلّي الفقرا بيكتبوا فيه مذكّراتهم، وهذا بفضل ربّ العالمين الذي هدانا، مش متل على أيّامكم كنّا نحسّ حالنا خرس قدّامكم وقدّام الكتب يلّي بتقروها بالفرنساوي، الإسلام نور يا دكتور، الله يهديك لنور الإسلام، أنا ناطرك بطرابلس»

أقفل الشيخ رضوان الخطّ قبل أن يستمع إلى جواب كريم، كأنّ المكالمة الهاتفيّة كانت أشبه بأمر عسكري، ولم تكن طلبًا لموعد.

قرّر كريم أن يؤجّل قراره حول الذهاب إلى طرابلس، لكنّ تلفون رضوان أعاده من ذاكرة حبّه لهند إلى السبب الحقيقي الذي من أجله فتح درج الكومودينة.

أقفل الدرج الأوّل بعدما أعاد الصور والرسائل إلى أماكنها، وفتح الدرج الثاني.

وهنا صعقته المفاجأة. رأى ملفًّا بني اللون في الجارور وعادت إليه الذاكرة. وضع كريم أوراق يحيى النابلسي التي أرسلها إليه ابن شقيقه خالد في هذا الملفّ، وأقفله بشريط أزرق. يذكر كريم أنّه فلفش الأوراق، وقرأ جزءًا منها، لكنّه لسبب ما لم يجد في نفسه حافزًا كافيًا لقراءتها بشكل متأنٍّ. لن يسأل أحد كريم لماذا أهمل النصوص ونسيها، ولم يكلّف نفسه حتى عناء قراءتها الوحيدان اللذان يعرفان بوجود هذه النصوص هما الفرنسي جان بيار الذي مات، وداني الذي يريد أن ينسى.

اقتنع كريم أنّه أخطأ، كان يجب أن يُعطي هذه النصوص لجان بيار، فالمستعرب الفرنسي كان سيقوم بترجمتها إلى الفرنسيّة، ونشرها هكذا كانت ستجد طريقها إلى الحفظ، أمّا الآن، فإنّها مجرّد أوراق لا تعني أحدًا في لبنان. من سيهتمّ لثورة مغدورة كان بطلها مجرّد فرّان شبه أُمّي، تعلّم القراءة والكتابة على نفسه، ثم اكتشف الماركسيّة وتشي غيفارا، وقرّر أن يكون غيفارا لبنان!

داني كان صارمًا في تقييمه لتجربة يحيى النابلسي، ومنظّمته التي عُرفت باسم منظّمة «التحدّي»، التي انتهت بموت البطل في شكل مأساوي، وهو على سريره في مستشفى المقاصد في بيروت. «هذه أفكار رثّة، تحملها طبقات رثّة، lumpen، كما كان يسمّيها

«هذه طفوليّة يساريّة ينقصها الثقافة والإيمان بالتنظيم» بالطبع لم يخطر في بال أحد، ولا حتى في بال خالد أن يجيبه بأنّ يحيى ورفاقه كانوا من العمّال، وأنّ كلّ فكرة الماركسيّة هي أن يكون العمّال طليعة التغيير

لماذا لم يخطر في بال كريم أن يُجيبه يومها بأنّ غيفارا لم يكن عاملاً، وأنّ لينين وكلّ القادة الثوريّين كانوا جميعهم مثقّفين، اعتقدوا أنّهم

يجلبون الوعي إلى العمّال. وكانت نتيجة الوعي الطبقي الذي تبنّاه خالد في شكل صارم ومنضبط، هي التحوّل إلى الإسلام. أي نقيض ما درّبناه عليه.

يذكر كريم ذلك الرفيق الذي أُصيب بلوثة التديّن في المرحلة الإسلاميّة التي عمّت بعد انتصار الثورة الإيرانيّة، بحيث صار يواظب على الصلوات الخمس. كان يُدعى عبد المسيح، لكنّه أطلق على نفسه اسم بلال. كان بلال هذا أستاذًا في كلّيّة الطبّ في الجامعة الأميركيّة في بيروت، وكان نموذجًا للتواضع والعمل الصامت. لا أحد لا يحبّ الدكتور بلال، الذي تنقَّل فترة بين قواعد الفدائيّين في الجنوب اللبناني، وعند اندلاع الحرب الأهليّة، كرّس وقته كلّه للعمل على فتح مستوصفات في الأحياء الفقيرة في ضواحي بيروت، من دون أن يتوقّف عن متابعة عمله كأستاذ وجرّاح

عندما سأل كريم عن بلال، أجاب داني أنّ عبد المسيح هاجر إلى أميركا

«أميركا، مش معقول، وشو عمل بقناعاته الجديدة؟»

«يبدو أنّه أخذها معه»، قال داني.

عندما أعلن بلال إسلامه، أُصيب جميع رفاقه بالذهول. صحيح أنّ الدخول في الإسلام كان وسيلة المسيحيّين الكاثوليك الوحيدة لتطليق زوجاتهم، لكنّ بلال قبضها جدًّا في البداية اعتقد أصدقاؤه أنّه يريد التخلّص من زوجته، تمهيدًا للزواج من فاطمة، وهي طالبة في قسم الرياضيّات في الجامعة اللبنانيّة كانت تصغره بخمس عشرة سنة.

حين أُصيب بلال بطلقة في بطنه خلال زيارته لمواقع المقاتلين في منطقة عاليه، وجد نفسه وحيدًا، زوجته رفضت أن تغادر جلّ الديب في المنطقة الشرقيّة من بيروت، فلم يهتمّ به سوى فاطمة شعيب، وهي طالبة

رياضيّات في الجامعة، التحقت بتنظيم فتح، ووجدت نفسها تمرّض الدكتور بلال.

أشهر بلال إسلامه على يد السيّد هادي الطاهر، الذي صار، منذ اندلاع الثورة الإسلاميّة في إيران، أحد المنظّرين لفكرة ولاية الفقيه التي أطلقتها الثورة الخمينيّة. فاطمة أخذته إلى هذا الشيخ الذي يلبس عمامة سوداء، علامة على أنّه سيّدٌ ينتمي إلى آل البيت. ومنذ لقاء بلال به، نشأت علاقة خاصّة بين الأستاذ الجامعي والشيخ الشيعي الذي درس في النجف الأشرف على يد الإمام محمّد باقر الصدر، ثم عاد إلى لبنان، ليعمل في إطار حزب الدعوة الإسلامي العراقي المنشأ، قبل أن ينحاز إلى الفكر الخميني، ويصير أحد مؤسّسي ما سيُعرف بعد ذلك باسم حزب الله.

موقف بلال من خالد ورفاقه كان غريبًا، قال إنّه لا يعترف بإسلاميّتهم، لأنّهم يتبعون الفقه السني. تكلّم لغة فقهيّة لم يفهمها كريم جيّدًا، كأنّ بلال لم يكن مسيحيًّا أو ماركسيًّا اعتنق الإسلام منذ أشهر قليلة، بل وُلد مسلمًا

عبد المسيح هاجر إلى أميركا، كي يعمل في أحد مستشفيات مدينة هيوستن. قال كريم لداني إنّ خالد كان محقًّا، حتى بلال أو عبد المسيح، وجد لنفسه مخرجًا من العلقة اللبنانيّة التي لا تنتهي، لسبب وحيد هو أنّه كان مثقّفًا وبورجوازيًّا، بينما بقي خالد وحيدًا في مواجهة الموت.

قال داني إنّ عبد المسيح طلّق فاطمة، وتخلّى عن ابنه حسن، وعاد إلى زوجته الأولى، كي يسافرا مع أولادهما إلى تكساس.

فتح كريم الملفّ الذي أمامه، بأوراقه الصفراء، وكلماته التي امّحى بعضها وصار من الصعب قراءته، ورأى المصائر اللبنانيّة وهي تتّخذ شكل حكايات تتقاطع وتفترق عند بوّابة الموت

افتراض خالد حول قدرة المثقّفين على الهرب من أقدارهم لم يكن

صحيحًا بشكل مطلق. وإلّا كيف نقرأ حكايات عشرات الطلّاب الذين قضوا وهم يقاتلون في صفوف الحركة الوطنيّة والمقاومة الفلسطينيّة؟ وهل هناك ما هو أكثر بؤسًا من مصير ملاك ملاك الذي اختفى خلف قناع الموت من دون أن يموت، فمات حيًّا

صديقته لم ترو لأحد، ماذا فعل ملاك حين هربت منه ومن صورته الجديدة بعد عمليّات التجميل أو التشويه التي أُجريت له في ألمانيا الشرقيّة. روت أنّها تركته واقفًا في شارع الحمرا، وفرّت راكضة، لكنّ الجزء الأهمّ من الحكاية، الجزء الذي لم يستطع ملاك أن يرويه لأحد، بقي مجهولاً، وسيبقى كذلك إلى الأبد. الرجل حكم على نفسه بالصمت. هل يعيش ملاك ملاك اليوم في إيطاليا، مثلما روى الطالب اللبناني الذي يدعى طلال؟ أم أنّه اختفى وامّحت آثاره، مثلما يجب أن تقول الحكاية؟ قال طلال إنّ شقيقه يعرف ملاك جيّدًا، لأنّه كان زميله في الجامعة الأميركيّة، ويعرف أنّه متزوّج من امرأة سردينيّة، ويعمل في تجارة زيت الزيتون الإيطالي.

اقترح طلال على مارون بغدادي أن يبدأ فيلمه بعودة ملاك ملاك إلى بيروت وشعوره بالغربة في مدينته ووسط أصدقائه القدامى. «يبدأ الفيلم من لحظة العودة، ثم يتحوّل إلى فلاش باك لذاكرة مشوّشة عن جريمة الجامعة الأميركيّة، وعن حرب لا يمكن روايتها داخل سياق واضح» تردّد مارون قليلاً أمام الفكرة، قبل أن يقول لا فهذه الحكاية تروي قصّة حقيقيّة، وهو لا يحبّ الحقيقة في السينما، كما أنّها تستعيد العنف اللبناني، وتقوم بتظهيره بوصفه بطولة، وهو يبحث عن قصّة واضحة تمجّد التسامح، وتزدري العنف.

يومها لم يقل كريم إنّه يعرف ملاك، شعر أنّه لا يستطيع أن يحكي، وأنّه هو أيضًا أُصيب بنوع من الخرس، وأنّ خرسه قد يكون أشدّ إيلامًا من خرس ملاك. فهو انتحل لنفسه شخصيّة أخرى، من دون أن يغيّر شكله أو اسمه.

«حتى أنا لم أعد، حين عدت»، قال كريم في سرّه وهو يقرأ تلك الأوراق التي تروي بدايات قصّة موت خالد النابلسي كبطل تراجيدي، في حرب تحمل جميع سمات الميلودراما

كان يُدعى يحيى، ولقبه أبو الربيع متزوّج من حياة الصالح، ولم ينجب أولادًا مات في الثامنة والعشرين من العمر في السجن الذي قضى فيه ثلاثة أعوام. أُعيدت جثّته إلى أهله في الخامسة والنصف من صباح ذلك اليوم، ١٦ حزيران ١٩٧٤، بعد أربع وعشرين ساعة على إعلان الوفاة، في مستشفى المقاصد في بيروت. أنزل رجال الأمن جثّة ملفوفة بقماش أبيض يُشبه الكفن من سيّارة الإسعاف، وقرعوا باب البيت. فتحت حياة الباب، وبدأت تولول صارخة. وضع رجال الأمن الجثمان في المنزل، قالوا إنّ الدفن يجب أن يتمّ في هذا الصباح ومن دون أيّ تأخير، وإنّهم لا يريدون ضجيجًا ومظاهرات. قالوا للزوجة إنّهم يحمّلونها مسؤوليّة أيّ عمل طائش يُرتكب في القبّة وباب التبّانة وبقيّة أحياء طرابلس والميناء، ركبوا سيّارة الإسعاف وغادروا بسرعة. هرع الجيران، ورأوا

قال خالد إنّه كان يوم الدموع.

«لازم نغسله»، قالت الأمّ.

«يحيى شهيد»، قال خالد.

«غسلناه بدموعنا»، قالت حياة وهي تشهق.

لكنّهم حين عرّوه من ثيابه تمهيدًا لغسله، أفقدتهم الحقيقة صوابهم. رأت أمّه جرحًا طويلاً في أسفل بطنه. مدّ خالد يده إلى الجرح ليكتشف أنّ القُطَب ظاهرة، أمسك الخيط، وانفتح البطن، وهنا اكتشفوا حقيقة مرعبة، كانت أحشاء يحيى قد سُحبت كلّها، لم يعثروا على شيء، لا معدة ولا رئتين ولا مصران.

«لا إله إلّا الله»، قالت الأمّ.

ركض خالد إلى التلفون واتّصل بالدكتور بلال في بيروت، قال بلال إنّ المسألة غريبة، فتشريح الجثّة لمعرفة سبب الوفاة، لا يتطلّب سوى أخذ عيّنات من الأعضاء، استنتج بلال أنّ سحب الأحشاء عمل مقصود كي لا يستطيع الأهل تشريح الجثّة، وهذا يعني أنّ يحيى قُتل ولم يمت بسبب إصابته باختناق في المجاري الهوائيّة بعد انفجار زائدته الدوديّة، مثلما ادّعى التقرير الصادر عن وزارة الصحّة اللبنانيّة.

حملوا يحيى من دون أحشائه، ومشى في جنازته خمسة آلاف رجل وامرأة، وكان الحزن والهلع

«أوّل شي عملته بعد موته أنّي تزوّجت حياة»، قال خالد، «كنت تعبان، قبل موت أبو الربيع بأسبوع، شاركت بأوّل عمليّة فدائيّة بحياتي، كنت مع مجموعة من الجبهة الشعبيّة بالجنوب، كنّا متمركزين ببساتين العديسة، تسلّلنا على مسكاف عام، وكانت بالنسبة إليّ معموديّة النار والدم» روى خالد أنّه شعر فجأة بأنّ كلّ الهالة التي كان يملكها الجيش الإسرائيلي تلاشت، وأنّه سمع الجنود يصرخون ذعرًا عندما فتح الفدائيّون النار، وأنّه لولا تدخّل سلاح المروحيّات الإسرائيلي لعاد جميع أفراد المجموعة سالمين. «رجعت وحدي من دون إصابة وكنت حامل على كتفي شابّ اسمه أبو الفدا كان منصاب بإجريه الاتنين، بقيّة أفراد المجموعة وكان عددهم ستّة ما رجع ولا واحد منهم، الأرجح أنّهم استشهدوا رجعت من الموت لشوف الموت ببيتي، وكان شي فظيع، إنّك تشوف جثّة فاضية، بلا روح وبلا أعضاء داخليّة، كأنّ يحيى مات مرّتين»

بعد المأتم، جلس خالد إلى جانب حياة، قال إنّه رأى الحقد في عيون والدها وإخوتها قال إنّه في تلك اللحظة اتّخذ قراره بأن لا يسمح لأهل أرملة عمّه ببيع ابنتهم من جديد، وتزوّجها بعد نهاية فترة العدّة.

كان زواج خالد من حياة نقطة التحوّل الكبرى في حياته، خاض مع أهلها معركة مشابهة للمعركة التي خاضها يحيى معهم، ولكنّه لم يكن يملك هيبة عمّه، لذا اضطرّ إلى الزواج منها سرًّا، ثم ذهب إلى أهلها حاملاً بندقيّة كلاشينكوف، وأجبر والدها وأشقّاءها الأربعة على الإذعان للأمر الواقع.

زواج يحيى من حياة يشبه الحكايات الخرافيّة. كان ذلك عام ١٩٦٩، بعد خروج يحيى من سجنه الأوّل بثلاثة أشهر قضى يحيى عام السجن، بُعيد اعتقاله وهو عائد من عكّار، في القراءة، قرأ ريجيس دوبريه و«البيان الشيوعي» وهوشي مينه واعتنق الماركسيّة

حين أطلق سراحه، بدأ يكتب المقالات ويرسلها إلى جريدة «السفير» في بيروت، عن أوضاع الفلّاحين في عكّار، وعلى الرّغم من أنّ الصحيفة اليساريّة اللبنانيّة لم تنشر له سوى ثلاثة مقالات، فقد كان هذا كافيًا كي يغيّر من وضعيّة يحيى في طرابلس، فهو لم يعد في نظر الناس، وفي نظر نفسه، الفرّان الذي يُثير القلاقل ويقود عصابة من العاطلين عن العمل، بل صار مثقّفًا وصحافيًّا يمكن أن يقرأ الناس اسمه يذيّل مقالات طويلة تحلّل وتستخدم تعابير غامضة كالديالكتيك والصراع الطبقي. هذه الوضعيّة سمحت ليحيى بإعادة التفكير في وضع مجموعة الشباب التي كان يقودها، وفي تحويلها إلى تنظيم أطلق عليه اسم «التجمّع الشعبي الاشتراكي»، كما أهّلته لأن يعمل صحافيًّا لفترة قصيرة في جريدة «صدى الشمال»، وهي جريدة مناطقيّة كانت تصدر في طرابلس.

تقول الحكاية إنّه في أحد الصباحات، وبينما كان يحيى على باب الجريدة، استوقفته فتاة لا يعرفها، وقالت إنّها آتية إليه كي يساعدها على حلّ مشكلتها

كانت الفتاة تمسك في يدها سمونة بالجبنة. لفّت السندويش ووضعته في كيس ورقي، ومشت خلف يحيى.

«كفّي السندويش وبعدين منحكي».

طلب كوبين من الشاي، وجلس خلف مكتبه الحديدي وهو يراقب الفتاة الحنطيّة ذات الشعر الأسود الطويل، التي تلبس بنطلون جينز وقميصًا برتقاليًّا يكشف عنقها الطويل شربت الفتاة الشاي، وهي تسترق النظر إلى الرجل الجالس في مواجهتها

«بدّي خبّرك القصّة»، قالت.

«خلّصي السندويش وبعدين منحكي»

تشاغل بالنظر إلى أوراق كانت موضوعة أمامه، أمسك قلمه، وبدأ في تشطيب بعض العبارات، وإضافة الهوامش، حين فوجئ بالفتاة تقف أمامه، وتعطيه قطعة من السندويش.

ابتسم وهو يأكل الجبنة العكّاويّة الممزوجة بالبندورة.

«سندويشتك طيّبة»، قال، «خبّريني شو القصّة»

«أنا في عرضك»، قالت الفتاة، وروت حكايتها مع والدها الذي يصرّ على تزويجها

«نحن بنتين وأربع شباب، أختي الكبيرة دبّروا لها عريس ما بعرف كيف جابوه، رجّال سعودي عمره شي ستّين سنة، إجا بيّي وقال إنّه رايح معها على السعوديّة حتى يكتبوا الكتاب، أختي مسكينة ما قالت شي، وهونيك تفاجأت بالرجّال، كان أكبر من بيّي بالعمر، باعوها، وما بقدر خبّرك يا أستاذ يحيى كيف عايشة، داقت زوم الزيتون، وهلّق بيّي ناوي يبيعني أنا كمان. ما بعرف قدّيش رَح يقبض حقّي، بس قال إنّه اتّفق مع الشيخ مزيود، وإنّي لازم حضّر حالي للسفر على راس الخيمة، دخيلك خلّصني، أنا ما إلي حدا، إخوتي متّفقين مع بيّي، وعم فكّر بالانتحار، قلت قبل ما إنتحر بجي لعندك».

«الله يرضى عليك ما تقولي أستاذ، أنا يحيى وبس، وإذا بدّك فيكِ تسمّيني أبو ربيع»

«أنت متزوّج»! سألت.

«لا، هيدا إسمي الحركي»، قال.

قال لها إنّه يأمرها بأن لا تنتحر، «يلّي بيجي عند أبو ربيع لازم يكون مستعدّ ينفّذ، أنتِ مستعدّة»؟ سألها

هزّت رأسها إيجابًا، فتساقطت خصلة شعر على عينيها، مسحت عينيها ورفعت رأسها

«ما بعرف شكلوي بيّك، بس أنا بحلّها، المهمّ ممنوع تنتحري، وهلّق تسهّلي»

مضت الفتاة، وبقي يحيى مع طيفها الذي رفض أن يغادره.

في المساء قال يحيى لأمّه إنّه يريد هذه الفتاة زوجة له.

«خلّينا نسأل عنها وعن أخلاقها وعن أهلها بالأوّل»، قالت الأمّ.

«قلبي بيقول إنّها هي، بدّي تطلبيها بكرا، قبل ما يزوّجوها حدا تاني»

تردّدت الأمّ ونظرت إلى ابنها باستغراب، فقال إنّه يحبّ هذه الفتاة.

«أنت بتعرفها من قبل ومخبّا علينا»

لم يقل يحيى لأمّه إنّه التقى بها منذ ساعات قليلة، بل اكتفى بأن أوحى أنّه عاش معها حكاية حبّ سرّيّة.

شعر، بعدما عادت حياة من حيث أتت، أنّ عينيها تغلغلتا في قلبه وأنّه لا يستطيع أن لا يتزوّجها سوف يقول لها بعد الزواج، وهما يشربان

العرق في مطعم نبع مار سركيس في إهدن، إنّها حين غادرت مكتبه، شعر أنّ قلبه هوى. «ساعتها فهمت أغنية محمّد عبد الوهّاب، يلّي بقول فيها أنا هويت وانتهيت، هويت يعني عشقت ويعني وقعت، وأنا أيضًا، عشقت ووقعت، وكان لازم تصيري إلي».

«أنت شهم ونبيل»، قالت حياة، «من هلّق ورايح رح سمّيك نبيل بدل يحيى»

«أنا ما اتزوّجتك إلّا لأنّي حبّيتك»، قال.

«حبّيتني!»

«أوّل ما شفتك حبّيتك»

«مستحيل، مبلى، بتعرف ليش حبّيتني، يمكن أنت ما حبّيتني، أنت حبّيت حبّي إلك»

«ليش أنت كنت تحبّيني؟»

«أنا جيت لعندك لأنّي بحبّك، قلت يا أنت يا الانتحار»

عندما ذهبت أمّ يحيى في اليوم التالي لزيارة أهل حياة، أبدى والدها تعجّبه من هذه الزيارة المفاجئة. بالطبع كان نوري الصالح، وهذا هو اسم الوالد، يعرف أمّ يحيى من الفرن، وكان يعرف المرحوم زوجها، لكنّه لم يتوقّع أن يكون مرادها ابنته.

«خلّينا نفكّر بالموضوع»

«فكّر يا أبو طارق زيّ ما بدّك، بس أنت بتعرف يحيى، يحيى بيحبّ البنت، وإذا ما أخدها الله يستر».

«نحن بناتنا ما بتعرف الحبّ وما عنّا هالحركات»، أجابها

«اللهمّ اشهد أنّني بلّغت، ونحن في الانتظار»، قالت وهي تهمّ بالنهوض.

«عم بتهدّدينا يا جارة؟ نحن ما منعطي بنتنا لواحد عواطلي، وخرّيج سجون»، قال.

«أنا رح بلّغ يحيى الجواب، والله يستر»، قالت ومشت من دون أن تلتفت إلى الوراء.

قبل أن يتسنى للأمّ إبلاغ ابنها بقرار الرفض، جاءت أمّ طارق والدة حياة إلى منزل يحيى، لم تدخل، بقيت واقفة أمام الباب، وهي تلهث، وقالت إنّهم حدّدوا موعد كتب كتاب يحيى على حياة بعد ثلاثة أيّام.

لا تدري أمّ يحيى ماذا جرى كي يغيّروا رأيهم في أقلّ من ساعتين، لكنّ المرأة ذهبت إلى جريدة «صدى الشمال»، كي تخبر ابنها النبأ السعيد.

«عرفت»، قال، «حضّري حالك يا أمّ العريس»

حكاية خالد كانت مختلفة في كلّ شيء، فهو طفل يتيم، مات والده عندما كان في الثالثة من العمر، تربّى في منزل جدّته، وصار بمثابة الأخ الأصغر لعمّه يحيى. كما أنّه لم ينتم يومًا إلى التنظيم الذي أسّسه عمّه. ذهب إلى الجنوب والتحق بالجبهة الشعبيّة، وهناك اطّلع على الفكر الماركسي وتعلّم أهمّيّة بناء الحزب الطليعي، وخضع لدورة عسكريّة جدّيّة في حرج القمّوعة في أعالي عكّار. خالد لم يعمل في الفرن إلّا بعد وفاة عمّه، قال لجدّته: أنتِ خلص شغل، وأنا سأهتمّ ومن الفرن، الذي أطلقوا عليه اسم «فرن الشعب» سوف تبدأ حكاية موت جديدة، أكثر تراجيديّة من الحكاية الأولى.

هل كان خالد يعرف أنّه، بقرار زواجه من حياة، حكم على نفسه بالمصير الذي سيلاقيه.

جدّته قالت لا يجوز، «عمّك ما عنده أولاد حتى تكون مجبور بمرته، بلاها يا ابني، المرا أكبر منّك وما بيصير هيك»

لكنّ خالد أصرّ، واضطرّ إلى استخدام السلاح من أجل أن يفرض على أهلها القبول به زوجًا

وعندما سكنا تحت سقف واحد بدأ العذاب. قالت له حياة إنّها تحترم قراره ونبله، لكنّها لا تستطيع أن تكون لأيّ رجل آخر

«أنا بعدني بحبّ نبيل»، قالت، «وما بقدر»

«مين هو نبيل سألها؟».

عندها روت له حكايتها كلّها، وقالت إنّها كانت مغرومة بعمّه يحيى الذي أطلقت عليه اسم نبيل، لأنّه كان نبيلاً

«يعني قصّة الزواج من الشيخ كانت من تأليفك، وما إلها أساس من الصحّة»

ابتسمت حياة، ولم تقل شيئًا

«يعني كذبت على عمّي؟»

«لا ما كذبت، قصّة أختي صحيحة، وكنت حاسّة أنّ دوري رح يجي ويكون مصيري متلها، وبعدين كنت حبّ نبيل»

«ما تسمّيه نبيل، اسمه يحيى»

«أنت سمّيه متل ما بدّك، بس بالنسبة إلي هو النبيل»

قالت إنّها تحلّه من التزامه نحوها، لكنّها متأكّدة من أنّه إذا طلّقها فإنّ أهلها سيبيعونها بعدما أصبحت أرملة ومطلّقة، لكنّه يستطيع أن يطلّقها، ولن تعتب عليه.

في البداية اعتقد خالد أنّه بزواجه من أرملة عمّه يقوم بواجبه الأخلاقي تجاه ذكرى العمّ الذي لم يتعرّف إليه بالفعل إلّا بعد موته لكنّه وجد نفسه يتحوّل تدريجيًا إلى ظلّ للرجل الميّت. أمّ يحيى كانت أوّل من

تنبّه إلى الموضوع، لكنّها لم تقل شيئًا، كانت ترى حفيدها الصغير يتحوّل تدريجيًّا إلى شخص مختلف، حتى صوته بدأ يتّخذ إيقاعًا جديدًا قالت له مرّة وهي خارجة من المطبخ، إنّها سمعت صوت يحيى، «بسم الله الرحمن الرحيم، كأنّك هو، استهدِ بالله يا ابني، بيكفّينا شهيد واحد بهالبيت»

صبر خالد مع حياة كما لم يصبر رجل، نامت إلى جانبه في السرير سنتين كاملتين من دون أن يمسّها، كان حبّه لها يشتعل في قلبه، يحاول فتصدّه مخترعة شتّى أنواع الحجج، لكن، بعد تلك الليلة حين قالت له إنّها لا تستطيع، قرّر أن لا يمسّها كانت تطبخ وتنظّف البيت، وتتصرّف أمام الناس كأيّ زوجة تقليديّة، لكن عندما يحلّ الليل، تلبس بيجامة تحت قميص النوم وتنزوي في طرف السرير، تغطّي كلّ جسمها، وتضع المخدّة على وجهها وتنام. استبدل خالد ممارسة الجنس مع هذه المرأة الغريبة الأطوار بالمنامات. كان ليله حارًّا ورطبًا بماء الحياة الذي تدفّق منه. يستيقظ من مناماته ويركض إلى الحمّام يغتسل قبل أن يعود إلى النوم. لا يدري خالد إذا كانت حياة تشعر بما يجري له، فهي لم تكن تتحرّك، ينهض من السرير، ينظر صوبها فيراها غافية على جنبها الأيمن، وشعرها الطويل ينتشر على الوسادة التي سقطت عن وجهها، يعود من الحمّام، فيرى المشهد نفسه، كأنّ المرأة لم تشعر بقفزته من السرير، ولم تستمع إلى تدفّق الماء في الحمّام.

سنتان، قضاهما خالد بين ليل المنامات ونهار الفرن. يبدأ نهاره في الثالثة صباحًا، حيث ينهض من النوم على إيقاع صوت المنبّه، يأخذ دوشًا باردًا، يعدّ فنجان القهوة، الذي يضع فيه قليلاً من ماء الزهر، يدخّن سيجارته الأولى أمام شبّاك الصالون المفتوح، لأنّ حياة تنزعج من رائحة الدخان، ثم يمضي، ولا يعود إلّا في السادسة مساء، يتعشّى مع حياة وهو يروي لها قصص الزبائن، ثم يجلس في زاويته في الصالون، يقرأ قليلاً، قبل أن يغادر البيت من جديد ليذهب إلى لقاءاته مع الشباب، وحين يعود

في العاشرة ليلاً، تكون حياة قد لبست بيجامتها وقميص نومها، وهي في انتظاره. تعدّ كوبين من اليانسون، يشربان بصمت، ثم يذهبان إلى الفراش.

في هاتين السنتين اللتين عبر فيهما خالد صحراء القلب، أعاد تنظيم صفوف الشباب الذين كانوا متحلّقين حول عمّه، أجبرهم على حضور الاجتماعات الأسبوعيّة بانتظام، ووجد في رضوان العلي، الطالب في قسم الأدب العربي في الجامعة اللبنانيّة، مثقّفًا يمكن الاعتماد عليه.

رضوان هو الذي اقترح على خالد الالتقاء بالدكتور عثمان. كان هذا الطبيب المصري الشيوعي الذي التحق بحركة فتح في الأردن، وشارك في معارك أيلول ١٩٧٠، التي عُرفت تحت اسم أيلول الأسود، قد وصل إلى لبنان، وبدأ العمل في صفوف الشباب اليساريّين اللبنانيّين التوّاقين إلى المشاركة في الكفاح الفلسطيني المسلّح.

التقى خالد بالدكتور عثمان في الفرن ثلاث مرّات. وقد أثار هذا الرجل الأربعيني، الذي يضع نظّارات طبّيّة، ويدخّن سجائر كليوباطرا المصريّة، فضول خالد وإعجابه. كان يحكي كمن امتلك اللغة وضوح في الرؤية، بساطة تنمّ عن ثقافة عميقة، ورؤية تُشير إلى أنّ الرجل يختزن تجارب إنسانيّة وسياسيّة عميقة.

الدكتور عثمان هو الذي أدخل داني على الخطّ من جديد، قال لخالد ورضوان في لقائه الثالث بهما، إنّه سينظّم لهما لقاء بمسؤول حركة فتح في طرابلس، وإنّ الأخ داني، الذي كان على علاقة وثيقة بالشهيد أبو ربيع سيتولّى مهمّة متابعة العمل معهما

هكذا، وعبر إشراف مباشر ويومي من داني تمّت إعادة تأسيس «التجمّع الشعبي الاشتراكي» في طرابلس، الذي سيتحوّل إلى تنظيم سياسي متماسك يملك جناحًا عسكريًّا، وسيشمل نفوذه، إضافة إلى القبّة، مناطق باب التبّانة والمدينة القديمة والميناء، وستلعب هذه المجموعة دورًا كبيرًا

في الحرب الأهليّة التي اشتعلت عام ١٩٧٥، وسيتحوّل خالد إلى قائد سياسي في منطقة الشمال بأسرها

كان هاجس خالد ورضوان أن لا تتكرّر الأخطاء التي صاحبت تجربة يحيى ومنظّمة «التحدّي» عملا كثيرًا على تثقيف الشباب شبه العاطلين عن العمل الذين التحقوا بالتنظيم، بالفكر الاشتراكي العلمي، وساعدا الكثيرين منهم على إيجاد أعمال دائمة. «نحن تنظيم الطبقة العاملة، مش تنظيم العواطليّة»، قال لهم خالد.

أخذ العمل كلّ وقت خالد، لكنّه رفض عرض داني التفرّغ في حركة فتح، وقرّر الاستمرار في العمل في الفرن. فهو مثل شقيقه، لم يكن يحبّ فوضى فتح، وكتلها المرتبطة بالأبوات المؤسّسين، بل هو أكثر تطرّفًا في موقفه هذا، لأنّه تربّى في الجبهة الشعبيّة، وتعلّم من تلامذة الحكيم جورج حبش ضرورة الانضباط الحديدي. لكنّه وجد في كلام الدكتور عثمان، ثم في ثقافة داني، غواية لا تقاوم، فقرّر الانضمام بتنظيمه إلى هذه المجموعة الفتحاويّة، من دون أن يدري أنّها كانت مرتبطة بشكل وثيق بأبو جهاد، بل كانت ذراعه اليساريّة، وسط غابة الأذرع الأيديولوجيّة المختلفة التي عرف هذا القائد كيف يوظّفها، ويخلق تناغمًا مذهلاً من تناقضاتها الأيديولوجيّة.

لم يحاول خالد تحطيم أسطورة عمّه الشهيد. كان يملك مآخذ على العفويّة والفوضويّة التي قاد بها بطل حيّ القبّة شبابه، وكان نقديًا في شكل خاصّ تجاه انتفاضة ١٥ تشرين الأوّل ضدّ غلاء سعر الكهرباء، التي قادت عمّه إلى السجن ثم إلى الموت، وهي انتفاضة تدلّ على إيمان ساذج بعفويّة الجماهير إذ بينما كان يحيى يقود، من مخبئه في أحد بيوت القبّة، مجموعات الشباب التي رمت المتفجّرات في الشوارع وأمام مقرّ شركة قاديشا للكهرباء، كان ينتظر أن تهبّ الناس وتستولي على السلطة في المدينة. لكن الناس بدل أن تنزل إلى الشوارع، أُصيبت بالرعب من المتفجّرات واختبأت في بيوتها، ليجد يحيى نفسه محاصرًا في مخبئه.

حاول فتح ثغرة بالنيران للهرب، لكنّه أُصيب في بطنه، وسقط أسيرًا، وحُكم عليه بالإعدام، ثم خُفض الحكم إلى عشر سنوات، ومات في السجن بعد ثلاثة أعوام من اعتقاله.

أراد أبو الربيع أن يجعل من ١٥ تشرين الأوّل ١٩٧١ يومًا مفصليًا في تاريخ المدينة. ثورة فلّاحي عكّار تلاشت بعد تدخّل منظّمة الصاعقة التابعة للنظام السوري، بحيث بدا وكأنّ صراع الفلّاحين مع رجال الإقطاع يمكن أن يتّخذ شكلاً طائفيًا، كصراع بين السنّة والعلويّين، ممّا أجبر يحيى على الانسحاب من المنطقة التي اعتقد أنّه يؤسّس فيها بؤرة ثوريّة غيفاريّة. عاد إلى حيّ القبّة حيث نجح في استعادة صورته كبطل شعبي عندما حلّ وباء الكوليرا في المدينة. وزارة الصحّة التي كان من واجبها إجراء تلقيح مجّاني لجميع السكّان، قامت بتوزيع اللقاح على زبائن الوزير وأنصاره، الذين باعوها في السوق السوداء. وأمام تردّي الحال، قام أبو الربيع مع مجموعة من الشباب باقتحام الصيدليّات ومقرّ وزارة الصحّة بالسلاح، ووزّعوا اللقاح مجّانًا على المستوصفات، وحوّل أبو الربيع الفرن الذي ورثه عن والده إلى مركز للتلقيح تدفّق إليه الناس.

بعد هذه التجربة، قام يحيى باستعراض سياسي في المدينة، مستغلًّا مهرجانًا أُقيم في ذكرى وفاة الرئيس المصري جمال عبد الناصر، إذ دخل إلى المهرجان بالجرّافات الزراعيّة التي ركِبها أنصاره من فلّاحي عكّار وهم يهتفون ضدّ الرأسماليّة والإقطاع، ويتوعّدون بالتحدّي وبثورة العمّال والفلّاحين.

بعد هاتين التجربتين، اقتنع يحيى بأنّ الظروف أصبحت ملائمة لإعلان الثورة. كتب في مذكّراته عن «ضرورة اعتماد مبدأ البؤرة الغيفاريّة وربطها بنضال عمّال المصانع»، من خلال «التجمّع الشعبي الاشتراكي» فهم يحيى أنّ الإضراب ضدّ شركة كهرباء قاديشا سيجعل من عمل البؤرة الثوريّة ممكنًا في المدينة، لذا اتّخذ قراره بإعلان الانتفاضة الشعبيّة.

غير أنّ الأمور سارت بشكل معاكس، «لا تستطيع إسقاط السلطة إلّا عبر بناء سلطة موازية، هكذا علّمنا لينين، وهذا هو سبب فشل الانتفاضة»، قال داني.

لم يسأل خالد كيف تُبنى سلطة موازية ومن سيبنيها، وهل ستكون هذه السلطة أقل قمعيّة من السلطة السابقة. كان خالد يكتفي بالاستماع إلى داني وهو ينظّر ويرسم المهمّات، لكنّه كان يرفض بشدّة أيّ تدخّل تنظيمي من أحد.

«إنّه مثل عمّه»، كتب داني في تقرير رفعه إلى الدكتور عثمان، «لكنّه أكثر وعيًا وانضباطًا، ومن المرجّح أن يلاقي النهاية نفسها»

عندما دخل يحيى إلى السجن مُصابًا بطلق ناري في بطنه، كان يعتقد أنّ سجنه سيكون مناسبة كي يخلد إلى الراحة. لذا فإنّ فرحه كان لا يوصف بلقاء الدكتور صادق جلال العظم، وهو مثقّف ماركسي سوري يعيش في لبنان، أُدخل إلى السجن بسبب كتابه «نقد الفكر الديني»

كتب يحيى في رسالة إلى زوجته حياة:

«أمس، وبعد نقلي إلى حبس الرمل في بيروت، التقيت الدكتور صادق العظم في مستوصف السجن ودار بيني وبينه هذا الحوار

ـ أنت الدكتور صادق العظم، مؤلّف كتاب «النقد الذاتي بعد الهزيمة»، مش هيك؟

ـ نعم، أنا صادق العظم، شلون عرفتني؟

ـ قريت كتابك؟

ـ أنت قريت كتابي؟ أنت شو اسمك؟

ـ أنا يحيى النابلسي من طرابلس، قائد انتفاضة القبّة؟

أدهشني أنّه يعرف عنّي أشياء كثيرة، وأنّه متعاطف مع حركتنا، لكنّه قال إنّ علينا أن نلتحق بحزب ثوري، يقود نضالنا

قلت له إنّه لا وجود لأحزاب ثوريّة في لبنان والمنطقة. هزّ رأسه ثم طلب مني أن أقرأ تجربة سوفياتات العمّال والفلّاحين التي أسّستها الجبهة الديموقراطيّة في مدينة إربد في الأردن، عام ١٩٧٠

قلت إنّها تجربة فاشلة، فوافق معي ثم سألني إذا كنت قرأت كتابه، ولمّا قلت له إنّني قرأته ثلاث مرّات، لأنّه أهمّ كتاب صدر بعد هزيمة حزيران، شعرت أنّه أحسّ بالسعادة. ثم سألته ماذا أتى به إلى السجن، فقال إنّه مُتّهم بمهاجمة الدين وإثارة النعرات الطائفيّة بسبب كتابه عن نقد الفكر الديني.

كان لقائي به يا حياة شي مش معقول، شو هالرجل العظيم، مثقّف يدخل الحبس من أجل أفكاره، قلت له إنّني عندما سأخرج من السجن أريد أن أدعوه لزيارتنا في القبّة. سألني عن مدّة محكوميّتي فقلت إنّها عشر سنوات، لكنّي سأخرج قبل ذلك. سألته عن محكوميّته فقال إنّهم لم يحيلوه إلى المحكمة بعد، لكنّه يتوقّع حكمًا لا يقلّ عن مدّة محكوميّتي.

ردّدت بيني وبين نفسي، ما هذا العالم؟ ما قيمة الفكر في هذا المجتمع؟ لا شيء. ماذا يعني أن يسجن صادق العظم بسبب نشر كتابه «نقد الفكر الديني»؟ كفر؟ إلحاد؟ إنّ الثورة الآتية لن تغفر للرجعيّين مستغلّي النفوس البريئة باسم الدين»

في تلك الأيّام أثار كتاب العظم ضجّة كبرى في بيروت، وتركّز الهجوم على الكاتب السوري بسبب دراسة في الكتاب بعنوان «مأساة إبليس»، اعتبر فيها استنادًا إلى تأويله للنصوص الدينيّة، أنّ إبليس في معصيته أمر الله بالسجود لآدم كان ينفذ الإرادة الخفيّة لله، وأنّه من شدّة طاعته رضي أن يكون العاصي ويتحمّل وزر ذلك. اعتبر رجال الدين

المسلمون الأمر سخرية وتهكّمًا، كما أنّ رجال الدين المسيحيّين انضمّوا إلى الحملة ضدّه بسبب دراسة أخرى في الكتاب نفسه يسخر فيها من ظهور العذراء في مصر، معتبرًا إيّاها تعويضًا نفسيًّا ساذجًا عن هزيمة حزيران ١٩٦٧

وأشعل «ملحق النهار»، النار في الهشيم حين وضع على غلافه صورة العظم وتحتها عبارة «الدمشقي الكافر»

دخل العظم إلى حبس الرمل أيّامًا معدودة، وبعدها حوكم وثبتت براءته. قيل يومها إنّ وراء البراءة الضغط الذي مارسه كمال جنبلاط، زعيم الحزب التقدّمي الاشتراكي على السلطة.

لم يتسن ليحيى أن يلتقي بالمفكّر السوري مرّة أخرى. جرى نقله من سجن إلى آخر، وعومل، وهو الجريح الذي لم تندمل جروح إصابته، بوحشيّة. كان يقضي معظم أوقاته في زنزانة انفراديّة، وصار لا يأكل سوى اللوز والعسل اللذين كانت تجلبهما له حياة مرّة في الأسبوع، وتضطرّ إلى رشوة ضابط السجن كي تتأكّد من وصولهما إلى زوجها الذي كان يُعاني آلامًا مبرّحة في معدته.

ووصل الأمر بسجّانيه، إلى وضع أفعى في زنزانته.

لن ينسى سجناء حبس رومية الصراخ الذي انطلق من زنزانة يحيى في ذلك الصباح الباكر استيقظ الرجل على حركة غريبة ليجد ثعبانًا جالسًا على طرف سريره. كان يحيى يعلم من خبرته في قرى عكّار أنّ عليك أن لا تستفز الثعبان. لذا خرج من البرش الذي ينام عليه تسلّلاً، وقف أمام قضبان الحديد وصرخ أنّ هناك حيّة في سريره. «حطّولي حيّة لأنّهم بدهم يقتلوني»، قال بصوت مرتفع. هنا ارتفع الصراخ من جميع الزنازين، وسمع السجناء صيحة «هزّوا الحديد»، وبدأت قضبان الحديد تهتزّ بشدّة، وعمّ الهرج والمرج. ركض ضابط المناوبة مستطلعًا، فأمره يحيى بفتح باب

الزنزانة وإلّا فإنّه سيحمّله مسؤوليّة قتله بسمّ الحيّة.

انتهت المواجهة بفتح زنزانة يحيى التي دخلها عنصران من قوى الأمن، أرديا الثعبان بالرصاص.

كان يحيى مقتنعًا أنّهم يريدون قتله، كتب إلى زوجته أنّه يشعر بدنوّ الأجل، وقال إنّه نادم لأنّه لم ينجب منها ولدًا قرّر أن يكون اسمه نبيل.

في المأتم، وبينما كان النعش محمولاً على الراحات، ارتفع الهتاف «هزّوا الحديد». نسي الناس كلّ الشعارات السياسيّة، وبدا خمسة آلاف رجل وامرأة ساروا خلف النعش، وكأنّهم سجناء يهزّون حديد حرّيّتهم المسلوبة.

انتهى المأتم ليجد خالد نفسه وارثًا لحكاية لم يكن طرفًا فيها إلّا من البعيد. من المؤكّد أنّ خالد كان معجبًا بعمّه وبالهالة التي نجح يحيى في رسمها حول نفسه. لكنّ إعجابه كان مشوبًا برفضه للطريقة التي ذهب بها الرجل إلى حتفه، وكأنّه صنع موته بملء إرادته. لا يستطيع خالد، الذي وصل إلى صفّ البكالوريا في ثانويّة القبّة الرسميّة للبنين قبل أن يقرّر أنّه آن الأوان للالتحاق بالعمل الفدائي الفلسطيني، أن يلوم عمّه في شيء، فيحيى ابن الفرّان الفقير الذي اضطرّ إلى ترك المدرسة في الصفّ الخامس الابتدائي، وخرج إلى العمل في الفرن بعد وفاة والده، كان ابن تلك المرحلة من الهيجان اليساري الشعبوي الذي أعقب هزيمة الخامس من حزيران. لا يستطيع خالد أن يفهم كيف تعامل عمّه مع أحمد القدّور ورجاله، وهم ليسوا سوى مجموعة من القتلة والحراميّة الذين لا همّ لهم سوى التشبيح والنهب. لكنّ المفارقة الكبرى التي واجهها خالد كانت تكمن في شابّ التصق به اسم «هوّيلو»، إلى درجة أنّ الناس نسيت اسمه الحقيقي. كان هوّيلو شابًّا في الرابعة والعشرين من العمر، يحرص على طلاء شعره بالبريانتين، ويقوم بجميع الأعمال القذرة التي لا تخطر في بال

أحد. أغلب الظنّ أنّ لقب هوّيلو جاء من عمل هذا الشابّ في ملحمة أبو رياض، حيث كانت مهمّته شيّ أسياخ اللحم. أي أنّ وظيفته كانت أن يهوّي بمروحة من الريش على الفحم المشتعل.

غير أنّ مهارات هوّيلو بدأت تتجلّى حين عمل مع سينالكول على طاولات القمار التي كان يديرها القدّور في طرابلس. كانت ألعاب الثلاث ورقات وفرنكك ربع والكشاتبين وسفن الفنّ، تنظّم على طاولات صغيرة تنتشر في الأحياء الداخليّة، وهي تحتاج إلى الخفّة والزعرنة. الخفّة من أجل خداع الزبائن، والزعرنة من أجل منع الرابح من التوقّف عن اللعب، عليك أن تواصل اللعب حتى تخسر كلّ ما ربحته وإلّا فإنّ هوّيلو سيضربك حتى ينفر الدم من وجهك وتضع كلّ ما تملك على طاولته استطاع هوّيلو أن يبرز في إطار إدارة هذه الألعاب إلى درجة أنّه تمرّد على القدّور، وانشقّ عنه، وصار يمتلك طاولاته وصبيانه، من دون أن يتخلّى عن عمله الأصلي في ملحمة أبو رياض، لأنّه كان يحبّ تنشّق رائحة اللحم المشوي، ويتمتّع بالتفرّج على شفاه الزبائن وهي تتحلّب في انتظار الأسياخ الساخنة التي يقدّمها لهم.

عندما بدأ خالد في إعادة بناء مجموعة عمّه التي تفكّكت، فوجئ بهوّيلو يأتي إلى الفرن، معلنًا أنّه كان الساعد الأيمن ليحيى، وأنّه يريد متابعة النضال. كان رأي رضوان أنّه يجب عدم معاداة هوّيلو وأمثاله، وأنّ على خالد استنباط طريقة لاستيعابهم. لكنّ خالد لم يتمالك نفسه، فأبلغ هوّيلّو أنّه لا يستطيع أن يضمّ مقامرين إلى صفوف تنظيمه.

«لازم نعطي المثل الصالح للجماهير، وأنت قمرجي، شو بدّك الناس تقول عنّا، بطّل القمار وارجع»

رفض هوّيلو أن يتوقّف عن إدارة مقمرته الصغيرة، لكنّه واظب على الاتّصال بالشباب، ومشاركتهم في الكمائن التي نصبوها في الحرب

الأهليّة. وحين قُتل خالد، ركع هوّيلو أمام الجثّة المبقّعة بالدم، غمس إصبعه بدم الشهيد، ثم رسم دائرة من الدم حول عنقه، قبل أن يختفي.

قال الشيخ رضوان لكريم، إنّ هوّيلو هاجر إلى ألمانيا، مع مجموعات لا تحصى من الشباب اللبنانيّين والفلسطينيّين الذين طلبوا اللجوء السياسي في ألمانيا الغربيّة. قال إنّه يعتقد أنّ هوّيلو كان يتعامل مع المخابرات السوريّة كي يحمي نفسه لكنّه لم يشِ بالشباب أو يتآمر عليهم.

وأخيرًا وجد هوّيلو طريقه إلى العمل مع شباب خالد، بعد إسلامهم، لأنّه انضمّ إلى مجموعة إسلاميّة في الميناء كان أميرها هو الشيخ سليم المؤذن، وكان الشيخ المذكور على علاقة بالمخابرات هو أيضًا، لكنّه ادّعى الإسلام الأصولي وصار شريكًا لخالد ورفاقه في قيادة العمل الإسلامي في طرابلس.

نظّف خالد التنظيم من العاطلين عن العمل واللصوص، وبدأ مسيرته الخاصّة كمدافع عن فقراء حيّ القبّة والأحياء المجاورة، وكمناضل ماركسي في التيّار اليساري في حركة فتح

لكنّ الأيّام انقلبت بالجميع، دخل الجيش السوري إلى لبنان عام ١٩٧٦، وأحكم قبضته على طرابلس في شكل خاصّ، بينما تراجع الوجود الفلسطيني، الذي فهم، خصوصًا بعد اغتيال زعيم الحركة الوطنيّة اللبنانيّة كمال جنبلاط، وانهيار اليسار اللبناني، أنّ هدف الوجود السوري هو تطويعه وإخضاعه.

لذا تبلورت استراتيجيّة فلسطينيّة جديدة شعارها الانسحاب من الحرب الأهليّة اللبنانيّة، والتمركز في الجنوب، وإشعال الجبهة مع إسرائيل، وقد بلغت هذه الاستراتيجيّة ذروتها في العمليّة الانتحاريّة التي قادتها جمال، وأدّت إلى اجتياح الجنوب اللبناني.

لم يكن خالد مقتنعًا بالاستراتيجيّة الجديدة. فهم من انسحاب داني

التدريجي، أنّ داني لم يكن موافقًا أيضًا، لكنّه عندما ذهب إلى زيارة داني في بيروت، وجد أنّ المسؤول الفتحاوي لا يملك أجوبة على تساؤلات خالد، وأنّه انكفأ عن العمل السياسي، وقرّر أن يعمل مسؤولاً عن الأرشيف في جريدة «النهار».

حاول خالد التأقلم مع الوضع الجديد، التحق مع مجموعة من رفاقه الطرابلسيّين بكتيبة «شهداء القدس»، التي تمركزت في قلعة الشقيف في الجنوب، لكنّه شعر بغربة فظيعة. لم يستطع أن يحتمِلَ الابتعاد عن حيّ القبّة، وعن رائحة زهر الليمون في طرابلس. لم يفهم كيف أنّ الثورة تستطيع أن تعيش في قواعد عسكريّة بعيدة عن مائها الجماهيري. ما لم يقله خالد قاله رضوان. قال رضوان إنّه يشعر بنفسه غريبًا هنا، معلنًا دعوته إلى الانسحاب من قلعة الشقيف والعودة إلى الفيحاء. فوجئ خالد بأنّ جميع الرفاق، وكانوا أربعين شابًّا، وافقوا رضوان وقالوا لخالد إنّهم يرون ما رآه رضوان، لكنّهم يتركون القرار له.

كان خالد مُتعبًا، صحيح أنّه اشتاق إلى مدينته، لكنّه وجد في التمركز في قلعة الشقيف بابًا للهرب من المنزل. كان قلبه ينكسر كلّ ليلة وهو يرى حياة تتدثّر ببيجامتها وتهرب إلى جسدها سنتان في العطش وفي ألم الحبّ. لم يكن خالد يعتقد أنّه يستطيع أن يحبّ كالعذريّين، وأن يكتفي من الحبيب بحضوره الغائب، وبوعده الذي لا يعد. كان في الكثير من المرّات، عندما يقفز من سريره برطوبة المنام الذي كان ينتشر تحت أجفانه، يتّخذ قراره بالزواج من امرأة ثانية. سوف يقول لها إنّه لم يعد يستطيع، وإنّه مستعدّ أن يبقيها على ذمّته، إذا كانت تفضّل ذلك على مواجهة أهلها، لكن لا بدّ له من الزواج لكنّه حين يعود في المساء مرهقًا من العمل في الفرن، كان يكتفي منها بابتسامة حنان صغيرة، تحمل ما يوحي بوعد غامض، كي ينسى قراره، ويشعر أنّ مجرّد الجلوس إلى مائدة العشاء مع هذه المرأة يعادل امتلاك الدنيا

عندما قال لها إنّه ذاهب مع الشباب إلى الجنوب لأنّ الأحوال السياسيّة تفرض ذلك، أسبلت عينيها بحزن شفيف، وقالت «متل ما بتريد، بس الله يخلّيك انتبه على حالك وما تموت، كرمالي ما تموت»

ابتسمت وقالت إنّها ستشتاق إليه، «بس ما تهتمّ، رح إنزل على الفرن حتى ساعد أمّ يحيى»

قال إنّه يفضّل إقفال الفرن أثناء غيابه.

«ونحن كيف منعيش»؟ سألت.

«ببعتلكم مصاري من الجنوب»

«لا يا نبيل، نحن ما منقبض من الثورة، نحن منعطي الثورة»

عضّت على شفتها السفلى وقالت إنّها تعتذر لأنّها أخطأت في اسمه.

قال إنّها معها حقّ، وإنّ الفرن يجب أن لا يتوقّف عن العمل، وإنّه لن يقبض قرشًا من أحد.

«أنا متّكل عليكِ»، قال.

أخذ خالد معه في رحلته إلى الجنوب ابتسامة حياة، وصوتها المرتجف وهي تخطئ في اسمه، وتستخدم الاسم الذي كانت تطلقه على عمّه، وقرارها بأن تتابع العمل في الفرن خلال غيابه

في قلعة الشقيف وأمام الهاوية الصخريّة الشاهقة، حيث تتلاعب الريح بأجساد الرجال المنتشرين في الممرّات الحجريّة والدهاليز، هناك حيث يشعر الإنسان أنّه وحده أمام آلهة الحرب والموت، وأنّه مجرّد حجر في متوالية الحروب التي كانت هذه القلعة شاهدًا عليها منذ الأزل، هناك شعر خالد بحرّيّة غامضة ممزوجة بوجع في القلب. أحسّ أنّه تحرّر من حياة ومن ليلها الأزرق المليء بأرق الشوق، وتوتّر الرغبة المدفونة في

أعماق الروح. توقّفت مناماته القلقة، التي كانت حياة محورها لم يحلم خالد بزوجته عارية أبدًا، رغم أنّ نهديها المشدودين إلى الأعلى كانا يتلألآن من تحت قميص النوم، وينشران في عينيه ألوان الغيوم البعيدة. كان نومه أزرق وأرقه أزرق، لم يحلم سوى أنّه يقترب منها ويتأمّل وجهها كان يراه إمّا مغطّى بشعرها الذي ينتشر على المخدّة، أو جانبيًّا حيث تتلامس الشفتان بأطراف الغطاء. يقترب منه، وما إن يشعر بتنفسها يلفح وجهه، حتى يجد نفسه منتفضًا في الركن البعيد من السرير، ينهض كمن لسعته شهوته التي تنبثق منه، فيقفز من سريره. لم يقترب منها في مناماته أبدًا، ولم يلمس جسدها المدرّع ببنطلون البيجاما، وبالكلسات التي تغطّي أسفل قدميها، والتي لم تكن تخلعها صيفًا وشتاءً.

هنا، أمام الريح التي تزغرد في الوديان وترتطم بجدران هذه القلعة التي تشبه قبّة السماء، هنا، اختفت حياة من مناماته، لتظهر في أحلام يقظته. يجلس خلف المتراس، يحرس النجوم، ويراها كان يحتضن وجهها بيديه، ويقبّلها لم يسبق لخالد أن قبّل حياة قبل ذلك. بلى، احتضنها وقبّلها على خدّيها عند وفاة عمّه، لكنّها لم تكن يومها حياته هو، بل كانت أرملة الشهيد، عدا أنّه لا يذكر ملمس خدّيها على شفتيه، ما يذكره هو بلل الدموع. قال لروحه إنّه لم يقبّلها بل قبّل دموعها ثم في لحظة الوداع، عندما ابتسمت وهي تمسح دمعة علقت على أطراف أهدابها، اقتربت منه وقبّلته على خدّه، لكنّ المفاجأة سربلته، بحيث لم يشعر بالقبلة إلّا بعدما غادر البيت. لكنّه هنا، في وحدته، أمام آلهة الليل التي تنشر ظلالها فوق جبل عامل والجولان وبحيرة طبريّا، اكتشف القبلة وتلاوين نكهاتها المختلفة. احتلّته حياة بشفتيها المنفرجتين عن أسنانها البيضاء، ورضابها وحلاوة لسانها قبّلها على شفتيها المقفلتين وعلى شفتها العليا وعلى السفلى، قبّلها بسرعة وحنان، وبشهوة جعلته يمتدّ إلى كلّ نكهات لسانها قبّلها على عينيها وعلى ابتسامتها، باس عنقها وانحدر إلى

كتفيها قبلات سريعة صغيرة، وبوسات عميقة متأمّلة، عضّ شفتها، وأحسّ بأسنانها تعضّ شفته السفلى، سمع تأوّه البوسة، وانتشى بالشفتين. كان وحده مع ليل أزرق وفم يخبّئ أسرار العالم، وشفتين تلتهبان بكلام الحبّ، الذي صار إحساسًا صاغته منمنمات الليل.

هنا شعر خالد بمتعة الحبّ الممزوجة بوجع في القلب. يومها فهم أنّ الشوق اسم آخر للألم الذي يستوطن الروح. وكان ألمه كبيرًا، لكنّه أخرس. لمن يشتكي وماذا يقول؟ حتى رضوان الذي رافقه كظلّه لن يعرف الحكاية. كيف سيبرّر له أنّه لم يلمس المرأة التي استوطنت قلبه وبيته وسريره؟ ومن سيصدّق؟ حتى هي، حتى حياة لن تصدّق حكاية حبّه لها، وكيف اتّخذت شكل الألم، الذي صار مرادفًا للانتظار.

الإقامة في قلعة الشقيف التي أطلق عليها الفرنجة اسم «بو فور» أو القلعة الجميلة «bel fort» أو «beau fort» كانت لحظة تأمّل ومشروع استعادة للحبّ. فالقلعة تختزن في جدرانها الصخريّة المعنى الخفي لعبثيّة الحاضر فحين يكون الحاضر شاهدًا بهذه الطريقة العجائبيّة على طبقات الماضي وأساطيره، فإنّه هو أيضًا يصير مهدّدًا بالتحوّل إلى جزء من حكاية المكان. لفظة الشقيف كلمة سريانيّة تعني الصخر الشاهق. تقع القلعة على بعد خمسة كيلومترات من مدينة النبطيّة، وتنكشف أمامها قلاع هونين وتبنين وبانياس، ومرتفعات لبنان وجبل عامل وجبل حرمون وأعالي الجولان وهضاب صفد ووادي الأردن والساحل السوري حتى بيروت في الشمال وعكّا في الجنوب. وتُعرَف أيضًا باسم قلعة أرنون، نسبة إلى القرية اللبنانيّة الواقعة على سفحها أساسات القلعة محفورة كلّها في الصخر ولا يعلم أحد تاريخ بنائها يعتقد بعض المؤرّخين أنّ أرنون تصحيف لاسم أرنولد، صاحب صيدا الصليبي، وكانت القلعة تابعة لمنطقة حكمه، وهو المسمّى عند مؤرّخي العرب بإرناط.

لكنّ الإقامة في القلعة كانت مجرّد حراسات، فبعد الغزو الإسرائيلي

للجنوب، ومجيء قوّات حفظ السلام التابعة للأمم المتّحدة، قرّرت القيادة الفلسطينيّة الالتزام بوقف إطلاق النار.

قال رضوان، في الاجتماع العامّ للتنظيم، إنّه لا يجد أيّ داعٍ للبقاء هنا، «نحن غرباء ولا نقاتل، نحرس الفراغ، ونتعامل مع بيئة لا نعرفها، من الأفضل أن نعود إلى القبّة، ونستأنف نضالنا هناك»

لم يجد خالد جوابًا مقنعًا، كان هو أيضًا يريد العودة ويتمنّاها، لكنّه كان يعرف الصعوبات، ويعرف أنّ العودة ستعرّضهم لمواجهة آلة القمع الكبيرة التي يمتلكها النظام السوري في المدينة، عبر تحالفه مع زعمائها التقليديّين، وبنائه جهازًا كبيرًا من العملاء ينتمي معظمهم إلى قبضايات الأحياء، الذين خضعوا في الماضي لسطوة منظّمة التحرير وقوى اليسار اللبناني

لكنّه وافق معهم، وعادوا

عندما دخل خالد إلى بيته في السادسة من مساء الثلاثاء ١٨ كانون الأوّل ١٩٧٧، في محلّة القبّة، متعبًا من السفر الطويل، والمشي في الوديان والأحراج تلافيًا للحواجز الأمنيّة التي كانت منتشرة على الطرقات، وجدها في انتظاره. كانت تقف أمام الباب بشعرها الطويل الأسود المنسدل على عنقها، الذي تفوح منه رائحة الصابون المعطّر بالغار، والضوء يبتسم على عينيها تلبس قميص النوم الأزرق السماوي إيّاه، وكانت قدماها، للمرّة الأولى، حرّتين وعاريتين.

«كنت عارفة إنّك جايي اليوم، الميّ سخنة، فوت تحمّم، حضّرت أطيب عشا»

وعندما خلع ثيابه المليئة بالوحل وحاول وضعها في سبت الغسيل، أخذتها منه وقالت «أعطني ياهم، كلّهم على المزبلة، كلّ شي الصبّاط والكلسات والكنزة والبنطلون والثياب الداخليّة، كلّه على المزبلة».

أخذت كلّ شيء منه من خلف باب الحمّام نصف المغلق، وتركته وحيدًا وعاريًا أمام الماء الساخن والصابون. سوف يذكر خالد تلك اللحظة بوصفها لحظة ولادته، وعندما خرج من الحمّام، لابسًا بيجامة صفراء نظيفة، قال لها إنّه فهم الآن ماذا تعني المعموديّة عند إخواننا النصارى، شعور بأنّك ولدت من جديد، حرًّا ومتحرّرًا

ابتسمت وقادته إلى طاولة الطعام، كانت الطاولة عامرة بالمازات الشهيّة، كبّة نيّة، وسمبوسك، وورق عنب بالزيت، وبليلة، وبوريك بالجبن، ولبنة بالثوم، وبابا غنوج، وشنكليش، وفي الوسط يتلألأ العرق البلدي الممزوج بالماء في إناء زجاجي، وضع في وعاء مغطّى بمكّعبات الثلج

«إيمتى طبخت كلّ هيدا»؟ سألها

قالت إنّها أحسّت أنّه سيأتي اليوم. عندما فتحت عينيها في الصباح، استولى عليها شعور غامض بأنّه سيعود في هذه الليلة، «منشان هيك شي رجعت من الفرن الساعة تلاتة بعد الضهر بلّشت حضّر، ولمّا خلص الطبخ تحمّمت ونطرت. وقبل ما أسمع دعساتك على الدرج كنت واقفة قدّام الباب ناطرتك، اشتقنا»

سكبت كأسين من العرق، رفعت كأسها وقالت «كاسك يا بطل»، ثم شربت، امتصّت العرق وهي مغمضة العينين.

لم يسبق لخالد أن شرب الخمر في البيت، ولم يجرؤ على دعوتها إلى مجلس شراب، كان حين يشرب في المساء مع رفاقه، يعود إلى البيت بشعور بالخجل، يأخذ فنجان اليانسون من يدها، يبتلعه بسرعة وهو يشعر بحريق الماء الساخن، ثم ينهض إلى الفراش.

نظر إليها، كانت لا تشبه زوجته التي أقام معها مدّة سنتين، بل تشبه امرأة قلعة الشقيف، امرأة التخيّلات والقبل التي كان كلّما ارتشفها ازداد

عطشًا إليها مدّت يدها إلى الكبّة النيئة، صنعت لقمة مغمّسة بزيت الزيتون، وضعت فوقها عرق نعناع وقطعة بصل أبيض، ومدّتها إليه. مدّ يده كي يأخذها منها، لكنّها رفضت أن تعطيه إيّاها، «غمّض عينيك وافتح تمّك»، أغمض عينيه، وضعت اللقمة في فمه وذاق طعم أصابعها

«أنا سكرت»، قال.

«سكرت! بعدك لا شربت ولا أكلت»، قالت وهي تمضغ الكبّة النيئة، وتقول إنّها لم تتذوّق هذا الطبق من زمان.

شرب ولم يأكل سوى القليل.

«الهيئة ما عجبتك المازة»، قالت.

«بالعكس أكلك طيّب كتير، بس أنا

«أنت تعبان بعد هالمشوار الطويل، بعرف، بس لازم تاكل»

«أنا مش تعبان، أنا

«أنت شو؟»

«أنا بحبّك».

اقتربت منه، وضعت يدها على كتفه، رأى كيف يتلألأ عري زندها في عينيه، اقتربت أكثر، نظر في عينيها، ثم انكسرت عيناه، وأحسّ أنّه يريد أن يبكي، تمالك نفسه، شعر بالاختناق، تراجع قليلاً إلى الوراء كي يعبّ الهواء في رئتيه، وسمعها تقول تلك الجملة التي جعلته يشعر أنّ تلك الليلة هي ليلة التجلّي. في قلعة الشقيف، حين كان وحيدًا في حضرة الليل، شعر أنّه يرى الله، أو يلمس وجوده، لكنّه عندما سمعها تقول «أنا حلالك»، انفتح الأفق، واشتعل الكون بمصابيح التجلّي.

«أنا حلالك»، قالت.

في تلك الليلة، شرب شفتيها وامتصّهما وسكر على حافّة العنق الطويل، باسها مثلما حلم، إلى درجة أنّه كان يتوقّف في منتصف القبلة، يتراجع إلى الوراء، يغلق عينيه ويفتحهما كي يتأكّد أنّ ما يعيشه ليس خيالاً أو وهمًا

وعندما استفاقت ذكورته على إيقاع أنوثتها، وانتشرت رائحة الرغبة، شعر أنّه سيّد هذه المرأة وعبدها، وبدل أن ينطلق لسانه بالكلام، عاد به الحبّ إلى طفولة اللغة، فصار يصدر أصواتًا وغمغمات، ويحكي بكلمات ناقصة.

بعد سنتين من الانتظار وجدها، وبعد سنتين من الحزن والشعور بالذنب وجدته، وصارا كأنّهما اكتشفا سرًّا لا يستطيعان البوح به لأحد، يسمّيه الناس الحبّ، لكنّه عصيّ على كلّ الأسماء

في علاقتهما الجديدة التي امتدّت ثمانية عشر شهرًا، كانا لا يتكلّمان إلّا نادرًا، يتفاهمان بأقلّ الكلمات، ويعيشان بأقصى ما تعطيه الحياة من احتمالات. حتى ذلك التحوّل الغريب الذي قاد حياة إلى لبس الحجاب، مرّ بهدوء ومن دون مناقشات طويلة، كتلك التي ضجّت بها أوساط اليساريّين اللبنانيّين والفلسطينيّين بعد النجاح المذهل الذي حقّقته الثورة الإيرانيّة.

حين استدار بطنها، وانتشرت حول عينيها فراشات الفرح، اختلفا على اسم المولود. كانا متأكّدين من أنّه سيكون صبيًّا، رغم أنّ خالد تمنى في سرّه ابنة تشبه أمّها، غير أنّه لم يجرؤ على إعلان رغبته أو توقّعاته، أمام إصرارها وإصرار جدّته أنّ المولود سيكون صبيًّا

قالت له إنّ حماتها متأكّدة من أنّ اسم المولود يجب أن يكون يحيى، «لم تناقشني في الأمر، نظرت إلى بطني المستدير ونادته يحيى، وأنت شو رأيك؟».

كانت هذه هي المرّة الأولى، منذ زواجه بحياة، التي يُلفظ فيها اسم الشهيد في البيت.

قال لها إنّ اقتراح جدّته منطقي، وهو أيضًا لا يستطيع إلّا أن يكون من هذا الرأي.

«بس أنا بدّي سمّيه نبيل»، قالت، «نبيل هو الاسم، والصبي لازم يكون نبيل، شو رأيك؟».

«متل ما بدّك بصير يا أمّ نبيل»

ابتسمت، وطلبت منه أن يبلّغ جدّته، «أنا ما إلي قلب أكسر لها قلبها، أنت خبّرها الله يخلّيك»

لا تدري حياة ماذا قال خالد لجدّته، لكنّها لاحظت تغيّرًا في تصرّفات المرأة التي اكتهلت فجأة. لم تعد أمّ يحيى تنحني على البطن الذي يتكوّر بالحياة الجديدة، لتغنج الطفل وتناديه «يا يحيى يا حياة ستّك» امتلكها حزن دفين، ارتسم على غضون الكهولة التي تشكّلت من حول عينيها منذ موت ابنها لكنّها لم تعترض، فهي امرأة وتعرف قوّة سلطة النساء، وترى كيف تحوّل خالد إلى رجلين متناقضين في آن واحد. فهو في العمل ومع شباب الحيّ زعيم لا يُردّ له طلب، وهو في بيته عاشق يتحرّك بحسب عينيْ زوجته التي فتنت لبّه.

لم تسأل أمّ يحيى ماذا جرى، كانت في الماضي حين تسأل خالد عن زوجته، أو تلمّح إلى أنّها تعبت من انتظار الطفل الذي لا يأتي، ترى حاجبي خالد الكثيفين ينعقدان، ووجهه يتجهّم، وتعرف أنّه لن يجيب على أسئلتها أمّا بعد عودته من القلعة الصليبيّة في الجنوب اللبناني، فإنّ اسم حياة صار على لسانه دائمًا، وكان هو من بشّرها بحمل زوجته لكنّها لاحظت أنّ اسم أبو الربيع اختفى عن لسانه وعن لسان رفاقه الذين كانوا

يأتون إلى الفرن، ويعقدون الاجتماعات واللقاءات، بينما وقع عبء العمل كلّه على كتفي زوجته.

«مرتك حامل ولازم ترتاح بالبيت، وما تتعب حالها بأشغال الفرن، إذا بدّك أنا بقدر إنزل على الشغل بدالها».

«أنتِ!»

«أيوه أنا، ما أنا كنت شايلة الفرن على كتافي أيّام جدّك وعمّك، إنشا الله مفكّر أنّه الشغل بلّش مع بنت نوري الصالح»

«أنتِ على راسي من فوق، بس هي ما بدها توقّف شغل»

«قال ما بدّها قال، من إيمتى النسوان إلها كلمة، المرا بتطيع زوجها، الرجال قوّامون على النساء».

«قوّامون، صحيح، بس مش على حياة، حياة يا ستّي غير شكل»

«قال غير شكل قال، ما على بنا أسلمت والله هداك، وهيّاها مرتك تحجّبت ما شاء الله، بالإسلام ما في حدًا غير شكل».

«إيمتي بدّك تتحجّبي يا ستّي، ويطلع لي ثواب لأنّي هديتك إلى الصراط المستقيم»

«مش ناقص إلّا إتعلّم الإسلام من واحد شيوعي ملحد، أنا مسلمة قبل ما تطلعوا بهالحركات»

«بس الحجاب سُنّة يا أمّ يحيى»

«الحجاب هو نور النبي الحبيب يلّي بغطّي الروح، مش قماشة منحطّها على راسنا، روح يا ابني الله يهديك ويهدي مرتك وابنك يلّي بضلّ أنسى إسمه الجديد، معقولة، حدًا بسمّي الولد وبيرجع بغيّرله اسمه قبل ما يخلق؟».

بعد عودته إلى طرابلس، أعاد خالد بناء التنظيم وحده. عرف أنّ الفدائيّين الفلسطينيّين الذين اهتزّت سيطرتهم على مخيّمي نهر البارد والبدّاوي لن يكونوا عونًا له في المواجهة الصعبة في مدينته التي صارت تحت القبضة العسكريّة السوريّة بشكل مطلق. عاش في مناخات تمزج العمل العلني بالعمل السرّي، وصار تنقّله في أحياء طرابلس الداخليّة بالغ الصعوبة، لأنّه كان معرّضًا للاعتقال في أيّ لحظة. العلاقة بداني انقطعت، فداني توقّف عن زيارة الشمال، وانكفأ على نفسه في عمله الجديد، وأبلغ الدكتور عثمان أنّه يريد إجازة طويلة من العمل التنظيمي كي يتفرّغ لكتابة بحث طويل عن الحرب الأهليّة اللبنانيّة، هدفه إثبات خطأ مقولة الطائفة ـ الطبقة التي سادت في بعض الأوساط اليساريّة، كي تبرّر اللغة الطائفيّة التي هيمنت على الحرب الأهليّة، على اعتبار أنّ الشيعة هم الطائفة ـ الطبقة المحرومة.

«هذا النوع من الماركسيّة صار أفيون اليسار اللبناني»، قال داني.

الدكتور عثمان الذي كان أكثر المبشّرين بهذه المقولة بلاغة أُصيب بالدهشة

«إزّاي بتتكلّم كده، ما هي النظريّة دي من إنتاجنا إحنا، وأنت كنت موافق عليها، الله، هو إحنا كنّا منهزّر؟».

قال داني إنّه بصدد كتابة نقد ذاتي يمهّد لنقض هذه الفكرة، وإنّه يعتقد أنّ «هناك خطأ أصليًّا في مسيرتنا»

لم يفهم الدكتور عثمان معنى الخطأ الأصلي، فالرجل كان مهتمًّا بتركيز العمل في الجنوب، وكان يرى في مقولة الطبقة ـ الطائفة مدخلاً لبناء علاقة مع رجال الميليشيا الشيعيّة التي بدأت تقوى في الجنوب، بفضل الدعم السوري الذي كان يهيّئها كي تكون بديلاً للوجود الفلسطيني المسلّح

انقطع داني عن العالم، وفقد كريم صلته بالخلايا الطلّابيّة لحركة فتح تجنّبًا للانقسامات الأيديولوجيّة الحادّة التي كانت تعصف بها الصلة الوحيدة التي ظلّت تربط كريم بالعمل السياسي كانت يوميّات جمال، التي كان من المفترض به تحويلها إلى كرّاس أدبي ـ سياسي، لكنّها أغرقته في أسئلة كبرى عن معنى الحياة والحبّ، وغيّرت طعم علاقته بهند.

في وحدته، ووسط انسداد الأفق، فكّر خالد بالتوقّف عن العمل السياسي، والتفرّغ لشؤون قلبه، والاهتمام أكثر بالفرن.

لكنّه وجد نفسه أمام المأزق بعد اغتيال أربعة من رفاقه، قرب حاجز أمني، وشيوع مناخات الملاحقة والحصار، التي كان هدفها تفتيت المجموعة وتصفيتها

اكتشف خالد أنّه لا يستطيع التراجع، دم رفاقه في الأرض، ومصير شباب حيّ القبّة في المجهول، وهو وحيد لا سند له سوى رضوان، الذي بدأت تظهر علامات التغيّر في حياته وسلوكه.

توقّف رضوان في البداية عن شرب الخمر، قال إنّ معدته تؤلمه، ثم صار يستشهد في كلامه بالآيات القرآنيّة والأحاديث النبويّة، ويعزو ذلك إلى دراسته الأدب العربي على يد الشيخ صبحي الصالح، الذي اغتيل في بيروت في ظروف غامضة، وكان علّامة في فقه اللغة والأدب.

بدأت تهبّ رياح جديدة، وامتلأت حيطان المدينة بشعار «الإسلام هو الحلّ»، وسرت، بتأثير مجموعات من الشبّان السوريّين من أعضاء جماعة الإخوان المسلمين الذين لجأوا إلى المدينة هربًا من القمع، لغة إسلاميّة نضاليّة، بدأت تستولي على عقول شباب الأحياء. وفجأة أعلن الشيخ رمضان العيسوي نفسه أميرًا للمدينة، وعيّن الشيخ سليم المؤذّن أميرًا للميناء، كما أعلن أنّه في صدد تعيين أمراء على جميع أحياء طرابلس، طالبًا من المسلمين إعلان الطاعة لهم.

لا يدري خالد كيف اتّخذت الأمور شكل المواجهة المسلّحة في حيّ القبّة. كانت الثانية عشرة ظهرًا، وكان كعادته يعمل في الفرن، حين بدأ الشباب يتدفّقون بأسلحتهم، معلنين أنّهم لن يسمحوا للجيش بدخول منطقتهم. أخذ خالد رشّاشه، ووضع مسدّسه على خصره وخرج من الفرن تتبعه مجموعات الشباب الذين فاق عددهم الستّين، وأمام مستديرة القبّة شاهد العربات المجنزرة وهي تدخل في زواريب المنطقة، فأطلق النار في الهواء تحذيرًا، فردّوا عليه بالنار، أُصيب رضوان في فخذه منذ اللحظة الأولى. أعطى خالد أوامره بنقل رضوان إلى المستوصف، وزّع مجموعاته على مفارق الطرق، وابتدأ الاشتباك، الذي انتهى بانسحاب الآليّات العسكريّة من المنطقة.

تنبّه خالد إلى أنّ صيحة الله أكبر كانت تخرج بعفويّة من أفواه الشباب مع قذائف الـ ب ٧ التي كانوا يطلقونها، ووجد نفسه يصرخ معهم، منتشيًا بانتصاره الحقيقي الأوّل في مدينته وبين أهله

سبقت الاشتباك مناقشات صاخبة كانت تجري في الفرن عن الإسلام، وعن الأمراء الذين باتوا ينبتون في أحياء المدينة، لكنّ المناقشات اتّخذت شكلاً جدّيًا بعد المعركة، حين أعلن خالد أنّه لا بدّ من التحالف مع الإسلاميّين.

«ما نحن كلّنا مسلمين»، قال رضوان.

«صحيح ولكن.   قال خالد.

خرجت ولكن من فمه متردّدة ومتلعثمة، كان يشعر أنّه لا مفرّ، فالالتحاق بالحركة الإسلاميّة الصاعدة كان المخرج الوحيد من أجل بقاء التنظيم، والمحافظة على الروح القتاليّة عند الشباب.

في صباح اليوم التالي جاءه موفد من قبل الشيخ رمضان العيسوي كي يبلغه قرار تعيينه أميرًا على القبّة، ويطلب منه الحضور للقائه في الجامع

ذهب خالد كي يعترض على اللقب الجديد.

«أنا لا أحبّ لقب الأمير»، قال، «فأنا ناضلت طوال حياتي ضدّ الأمراء والإقطاعيّين». نظر الشيخ في عينيه وأفهمه أنّ لقب أمير لا يعني الانتماء إلى سلالة نبيلة، «الأمير في الإسلام تعود إلى الإمرة، فأنت تمتلك الإمرة على القبّة الآن، لكن كما تريد نستطيع أن ندعوك ما تشاء»، قال الشيخ

«إسمي أبو نبيل»، قال خالد، «وشبابي يسيطرون على القبّة وباب التبّانة»

عاد خالد من لقاء الشيخ في العاشرة ليلاً، وكان جميع الشباب في انتظاره في الفرن. أبلغهم بما تمّ الاتّفاق عليه، وقال إنّه لا شيء سوف يتغيّر، التنظيم هو التنظيم، والعمل هو العمل نفسه، كنّا جيش الفقراء وسنبقى كذلك، وإنّها لثورة حتى النصر، هذا كان شعارنا في فتح وسيبقى شعارنا حتى الموت.

«بلى في شي واحد تغيّر»، قال رضوان، «توضّوا يا شباب حتى نصلّي»

«بس أنا ما بعرف صلّي»، قال خالد.

«أكيد بتعرف، الإسلام دين الفطرة»، قال رضوان.

انتظم الشباب خلف رضوان الذي أمّ الصلاة، ورأى خالد نفسه معهم، يصلّي كما يصلّون ويؤمن بما يؤمنون.

وقف رضوان بعد نهاية الصلاة، التفت إلى خالد وقال بصوت مرتفع سمعه الجميع، «أنت الآن أميرنا وأنا أبايعك»، مدّ يده، سلّم على خالد، وقبّله على كتفه وكان الشباب يقفون صفًّا واحدًا خلف رضوان، في انتظار دور كلّ واحد منهم كي يطلب من خالد أن يمدّ يده ويتلقّى بيعته.

وصل خالد إلى بيته في منتصف الليل، كانت حياة في انتظاره، ربّت على بطنها المتكوّر بالحمل، وقال إنّه تعبان.

شربا فنجاني يانسون، تنحنح خالد وقال إنّه يريد أن يقول شيئًا

«قبل ما تقول، أنا بدّي قول، أنا قرّرت ألبس الحجاب، بكرا رح صير مرا تانية».

جاء خالد لزيارة كريم مرّتين قبل موته. في المرّة الأولى قال إنّه ذهب إلى منزل داني في تلّة الخيّاط، لكنّه لم يجده، فجاء إلى كريم، وفي المرّة الثانية جاءه بخبر الموت.

كانت السادسة مساء، فتح كريم الباب مرحّبًا مستغربًا، فهذه هي المرّة الأولى التي يزوره فيها خالد في بيته.

دخل خالد حاملاً ثلاث علب تحتوي أشكالاً مختلفة من الحلويات التي اختصّت مدينة طرابلس بصناعتها

«يعني هيدول لداني مش إلي، أنا بوصّلهم، ما تهتمّ»، قال كريم.

«لا، هيدول إلك ولداني»، قال خالد.

«شو بتشرب»؟ سأل كريم، «عندي قنّينة عرق بلدي وصلتني مبارح من الدوّار، شي بيشرح القلب، منعمل واحد صغير؟».

«بعدك ما بتحكي إلّا زعرنة؟»

«تلاميذك يا ريّس، هيدي تعلّمناها منك»

قال إنّه يفضّل شرب كاسة شاي.

أعدّ كريم الشاي في المطبخ، حمله إلى الصالون، ليجد خالد مُطرقًا في شرود عميق وهو يدخّن بنهم، إلى درجة لم يشعر معها بدخول مضيفه.

جلس كريم، صبّ الشاي، أشعل لفافة، ونظر إلى صديقه. لكنّ خالد لم يرفع رأسه أو يمدّ يده إلى الشاي.

تنحنح كريم وقال «أهلاً وسهلاً».

رفع خالد رأسه، حرّك وجهه كأنّه يستفيق، وسأل كريم عن أخبار داني.

«صار لي زمان ما شفته»، قال كريم، «يبدو أنّه مشغول بتنظيم أرشيف الجريدة، آخر مرّة التقيته فيها، وكان ذلك من حوالى ثلاثة أسابيع، قال إنّه ينظّم أرشيف الحرب الأهليّة، وهو في صدد إعداد كتاب يُقيّم فيه التجربة»

«بس الحرب ما خلصت»، قال خالد.

«كبّر عقلك»، أجاب كريم، «خلص، السوريّين أخدوا البلد، والشباب بفتح قرّروا يرجعوا لنظريّة كلّ البنادق نحو العدوّ وطلعوا على الجنوب، والمسألة انتهت»

«ونحن»؟ سأل خالد.

«أنتم ونحن، وكلّ الناس، لازم نعيد النظر، ونشوف شو بدنا نعمل»

«بس نحن بعدنا عم منقاتل»، قال خالد وروى تفاصيل معركة القبّة، التي خاضها مع الشباب، وأخبر عن تململات في كلّ مكان، من طرابلس إلى حمص وحماه، وقال إنّ الثورة بدأت تتّخذ شكلاً جديدًا

أجابه كريم أنّه ليس متأكّدًا من أنّ هذا النوع من التململات يصنع ثورة، ثم إنّه تعبان من الثورات، وروى له عن مشروع كتابه عن جمال.

«يعني أنت والرفيق داني عم بتألّفوا كتب، وتاركيننا نموت متل الكلاب، لا يا كريم، نحن ما انتهينا ولا رح ننتهي حتى تزبط الكتب معكم»

ابتسم خالد ثم قال: «بس الحقيقة كتاباتكم مفيدة».

أخرج خالد من جيبه كرّاسين أزرقين، وقال إنّه جاء خصّيصًا من طرابلس، رغم كلّ الأخطار، كي يعطيهما لمؤلّفيهما، «أنت وداني»

فلفش كريم الكرّاس، ثم عاد إلى الغلاف الأزرق، وقرأ عبارة «منظّمة الصلاح والدعوة» وقرأ العنوان: «السلاح والتوازنات اللبنانيّة».

«نحن ألّفنا كتاب صادر عن الدعوة الإسلاميّة؟ مش معقول»

«داني كان يقول كلّ شي معقول وممكن بهالحرب».

«بس نحن ملحدين، والناس بيعتبرونا مسيحيّين!»

أخذ خالد الكتاب من يد كريم، وفتح إحدى الصفحات، وقال إنّه استبدل عبارتي الطبقة العاملة والاشتراكيّة أينما وردتا بكلمة الإسلام، «ومشي الحال»

«شو! إسلام! أنت كمان يا خالد؟ وشو بتعمل بذكرى يحيى يلّي مات ماركسي ومناضل من أجل الاشتراكيّة؟»

«ما تجيب سيرة يحيى، أنا بعرف رأيك ورأي داني فيه، كنتم تعتبروه شعبوي وعفوي، وكان داني يستعمل هيديك الكلمة بالفرنساوي يلّي كلّ ما أسمعها بيقشعر بدني، شو هي لومن، مبلى لومن»

«lumpen»، قال كريم.

«لومن لومبن، يعني زبالة، كان رأيكم بيحيى سيّئ جدًّا، فالله يرضى عليك ما تسألني عن رأيه، لو عمّي بعده طيّب كان عمل متل ما عم نعمل نحن هلّق»

ساد الصمت، ولم تعد تُسمع سوى رشفات الشاي.

«أنتم يا رفاق بتقدروا تبطّلوا، بس أنا لا، شو بعمل بالشباب، بتركهم

يفرطوا ويرجعوا زعران بالحيّ ويشتغلوا بالمخابرات ويتعاطوا مخدّرات. نحن فقرا، عايشين بأحياء شعبيّة، وما عنّا بيوت بالحمرا وتلّة الخيّاط متل غيرنا، ومن دون فكرة تجمعنا منفرط، من دون الإسلام كلّ شي بيتفكّك»

أراد كريم أن يقول إنّ خيارات خالد الجديدة خاطئة، لكنّه لم يقل، ماذا يقول؟ صحيح أنّ الحرب لم تنتهِ، وربّما لن تنتهي، لكنّ المرحلة انتهت. عندما يبدأ المناضلون في كتابة مذكّراتهم، فهذا يعني أنّهم خلص، وعليهم أن ينسحبوا

ساد صمت عميق، قطعه خالد بأن نهض وبدأ يفتح علب حلويات الحلّاب التي جلبها معه.

«أكيد جبت فيصليّة»، قال كريم.

«والله ما خطرت الفيصليّة على بالي، بعدين شو هالأكلة التافهة، برما مثلثة اخترعها أهل طرابلس منشان يضحكوا على الملك فيصل الأوّل، يلّي كان مستزلم لجاسوس إنكليزي اسمه لورانس، وأوّل ما لعلع الرصاص في ميسلون ولّى هاربًا شو بدّك بالفيصليّة، شوف شو جايب»

فتح خالد العلب الثلاث، وقال إنّ هذا أطيب حلو بالعالم، طرابلس ما بتنتج إلّا حلو وثوّار

«وبناتها حلوين كمان، وما تنسى ريحة زهر النارنج»، قال كريم.

شرح خالد لمضيفه عن أنواع الحلوى الثلاثة التي حملت أسماء غريبة.

«هيدول شلكّات، وهيدول بيضات الملائكة، وهيدي خرية الدبّ»

«شفت إنّك بعدك أزعر»، قال كريم، «وجايي عند هالمسا تعطيني دروس بالأخلاق؟».

«لا والله، هيدي أساميها الحقيقيّة»، وأراه الأسماء مكتوبة على الأوراق الملوّنة التي كانت تغطّي العلب الثلاث.

ضحك الصديقان وهما يأكلان النمّورة، التي يسمّيها الطرابلسيّون خرية الدبّ، والشميسة التي يسمّونها بيضات الملائكة، والبصمة المحشوّة فستقًا حلبيًّا التي يسمّونها شلكّات، سأل كريم عن مصدر الأسماء، فهز خالد كتفيه إلى الأعلى لا مباليًا، «شو بيعرّفني يا أخ كريم، هيدي أسماء شعبيّة طرابلسيّة، هلّق لازم تكون فهمت ليش ما بقدر بطّل، يعني معقول الواحد يترك هالشلكّات الطيبين، ويجي على بيروت حتى يصير عاطل عن العمل؟»

طلب خالد خبزًا، كي يأكل به الحلوى، وشرح لكريم أنّه منذ طفولته لا يأكل الحلوى إلّا ملفوفة بالخبز الساخن الذي كان يجلبه عمّه من الفرن، «كنت مفتكر أنّ هيدا بسبب الفقر، بس بعدين اكتشفت أنّ الفقرا معهم حقّ، هيك أطيب وبيشبّع»

أكلا الحلوى بالخبز، وهما يشربان الشاي، وروى خالد لكريم أنّه ينتظر مولودًا، وأنّ حياة هي أعظم امرأة في العالم، لأنّها فهمت عليه من دون أن يحكي.

روى عن تجربته في قلعة الشقيف، وقال إنّه هناك لم يستطع أن ينسى طرابلس وقلعة صنجيل الصليبيّة التي تشرف على المدينة وتعلو منحدر نهر أبو علي، وقال إنّه لم يجد أمامه سوى العودة.

«بعرف أنّ يلّي عملته بمقالاتكم مش مزبوط، بس والله يا حكيم، زبطت، ما هي الأفكار حتى تلزّق على بعضها لازملها صمغ، شلنا الصمغ الماركسي وحطّينا صمغ جديد، وركبت، يمكن الإسلام أحسن، لأنّه أقوى. وهيك ارتحت وارتاحوا الشباب، ولو بتشوف أهل القبّة شو انبسطوا، الناس ما عادت معجبة فينا لأنّا بس قبضايات ومندافع عن

حقوقها، الناس صارت تشعر أنّا جزء منها، هلّق صرنا متل السمك بالميّ».

«بس يا خالد»

«قول إنّك كنت معنا ورح تبقى معنا، ما هيدا كتابكم يلّي هو دليل العمل الإسلامي»

«بس أنا ما فيّي صير مسلم متلكم».

«ليش، هيّاه عبد المسيح أسلم وتشيّع، مرته النصرانيّة رفضت أن يطلّقها قال لها مش مهمّ، خلّيك على دمتي، وتزوّج حبيبته، وصار عنده اتنين»

«وأنت، رح تتزوّج على حياة؟»

«أعوذ بالله، واحدة، وإن خفتم أن لا تعدلوا فواحدة»

قال كريم إنّ عبد المسيح أخطأ، وإنّه اعتقد أنّ الرجل أسلم كي يستطيع أن يعيش مع المرأة التي أحبّها، وهذا لا غبار عليه، لكنّه قبضها جدًّا، وهنا المشكلة. ما معنى أن يسلم مثقّف نصراني في هذه الأيّام؟ أنّها دعوة مبطّنة إلى قتل المسيحيّين، وهذا جنون، خصوصًا في مجتمع متعدّد الطوائف كالمجتمع اللبناني.

«أعوذ بالله»، أجاب خالد، «أنتم في ذمّة المسلمين».

افترس الكلام الليل من دون أن يشعرا، كانت الساعة قد قاربت الواحدة صباحًا عندما قال كريم إنّ عليه أن ينام الآن، لأنّ مناوبته في المستشفى تبدأ في السادسة من صباح الغد.

«أنت فوت نام بالأوضة، وأنا بنام هون بالصالون، عبكرة بكّير رح سخن الميّ، هيدا إذا في كهربا، ما تنسى تطفيها قبل ما تروح وإلّا بيحترق الموتور».

«بكرا ما رح يكون في كهربا، ما ينشغل بالك، بعدين إنت نام بأوضتك وأنا بنام هون»

فرش كريم شرشفًا على كنباية الصالون ووضع مخدّة وغطاء، وذهب إلى غرفته، لكنّه عاد لابسًا بيجامته، ليرى خالد بثيابه الداخليّة يستعدّ للدخول في فراشه.

«في شي»؟ سأل خالد.

«أبدًا، جيت قلّك تصبح على خير، وإنّك أنت الليلة بذمّتي».

«نحن دايمًا بذمّة الأوادم»، أجاب خالد ضاحكًا، وأطفأ الضوء.

الآن فهم كريم لماذا قالت المرأة المحجّبة التي جاءت لزيارته بعد أسبوع من مقتل خالد، إنّها في ذمّته.

جاءت حياة لابسة تشادورًا طويلاً أسود يغطّيها من رأسها إلى قدميها، وتحمل على زندها طفلتها نبيلة، التي كانت في شهرها الرابع

عندما فتح الباب، قالت إنّها حياة زوجة خالد.

«تفضّلي يا أختي، البيت بيتك».

دخلت لكنّها بقيت واقفة. قالت إنّ خالد أوصاها بالذهاب إلى داني، قال لي إذا صار شي، روحي عند داني، داني متل أخي وأكتر، وهو مزوّج وعنده بنت صغيرة، بتتونسي مع مرته، عبال ما تتدبّر رحت عند داني وضلّيت ثلاث ساعات واقفة قدّام الباب، دقّيت الجرس، وسمعت حركة، وحسّيت أنّ حدًا شافني من العين تبع الباب، بس ما فتح، قلت يمكن ما عرفني لأنّي لابسة تشادور، أنا ما بلبس هيك، نحن حجابنا غير شكل، بس قلت هيك ما حدا بيعرفني، الخطر علينا كبير، نزّلت التشادور عن راسي، ودقّيت الجرس وقلت أنا حياة زوجة خالد، سمعت الحركة نفسها، وحسّيت العين نفسها، بس ما حدا فتح رجعت لبست على راسي، وقلت

كبّري عقلك يا بنت، ما في حدا جوّا، لأنّه مش ممكن داني ما يفتح، داني نام عنّا بالبيت شي عشر مرّات، مش ممكن يكون نسانا، قعدت ونطرته على الدرج، ومن يأسي جيت لعندك، حسبي الله ونعم الوكيل، بتعرف وين داني؟»

كانت هذه هي المرّة الأولى التي يلتقي فيها كريم بحياة، كانت بالفعل امرأة الضوء، مثلما سمّاها داني. جمال خفر يتقاطع عند عينين لوزيّتين عسليّتين، خدّان مرتفعان قليلاً، وحاجبان كأنّهما رُسما بقلم دقيق كي ينحنيا فوق العينين ويحتضنا الضوء الذي يشعّ منهما

قال كريم إنّه لا يعرف أين داني.

«أنا بذمّتك يا أخ كريم، صار لي ساعة بدوّر على بيتك، خالد، الله يرحمه، وصف لي وين البيت، وما استرجيت إسأل حدا، حتى ما أُثير الشبهات، لازم لاقي داني اليوم»

قدّر كريم أنّ داني لم يفتح الباب لأنّه لا يريد أن يرى أحدًا فالرجل اعتزل الناس، ولم يعد يردّ حتى على المكالمات الهاتفيّة، منذ أن عرف بخبر قرار زوجته عدم العودة إليه. لكنّه وجد في الأمر مفارقة غريبة، حياة تقول إنّ حياتها مهدّدة وقرّرت مغادرة طرابلس، وداني يعرف ذلك، لماذا لم يفتح الباب إذًا؟

شعر كريم بالارتباك، المرأة تقف متردّدة. قال لها إنّه لا يعرف شيئًا عن داني، لكنّه يستطيع أن يترك لها الشقّة ويمضي. هذا هو الحلّ الوحيد.

انتبهت حياة إلى الرعب الذي سيطر على كريم، كانت يداه ترتعشان، والكلمات تخرج متقطّعة من بين شفتيه كأنّه يتأتئ، وفهمت أنّ دعوته ليست من قلبه، عدا أنّها لا تبحث عن بيت يُؤيها، بل جاءت بحثًا عن حماية نفسيّة ومعنويّة.

«يعني مش رح نقدر نلاقي داني اليوم»

«رأيي تنطريني لحظة وأنا بترك البيت، إذا بدّك».

«شو فيني أعمل هلّق»، سألت.

«ما بعرف»، أجابها كريم.

برمت المرأة ظهرها، وخرجت من البيت، من دون أن تقول شيئًا

حصلت زيارة خالد الثانية إلى منزل كريم بعد زيارته السابقة بستّة أشهر كانت أخبار الإسلاميّين في طرابلس تحتلّ أعمدة الصحف اللبنانيّة، وصار اسم خالد يتردّد كأحد زعماء المدينة. جاء خالد كعادته من دون موعد، كان مرهقًا وأشعث الشعر، ووجهه مليء بعلامات الكآبة والقلق.

قال خالد إنّه عائد من زيارة إلى الشام حيث ذهب برفقة الشيخ سليم، ومجموعة من قادة الحركة الإسلاميّة بهدف التوصّل إلى اتّفاق يخفّف من التوتّر الذي تعاني منه المدينة، بسبب الاشتباكات المسلّحة التي تشتعل فيها كلّ ليلة.

قال خالد إنّه التقى بالجنرال، «لن أقول لك اسمه، لأنّ ذلك سوف يشكّل خطرًا على حياتك». روى عن المناقشات التي دارت بين الفريقين، وعن صوت الجنرال الخفيض، الذي عليك أن تنحني كي تسمعه. «بس النقاش مش مهمّ»، قال خالد، «المهمّ، أنّي شفت موتي بعيونه».

قال عن الموت الذي رآه في العينين وسكت.

لم يسأله كريم ماذا رأى، حين رأى موته، ولا كيف يتشكّل الموت في عينَي القاتل أمام ضحيّته.

طلب خالد كوب ماء بارد. «بتعرف الموت بينشّف الريق، منشان هيك كلّ يلّي بيموتوا بيموتوا عطشانين»

شرب الرجل كوب الماء دفعة واحدة، وقال إنّه لم يفهم ماذا جرى له هناك، قال إنّه شعر بعطش لا يرتوي مثل مرضى السكّري، ثم انتبه إلى أنّ الجنرال كان يركّز نظراته عليه، وعندما رفع القتيل عينيه كي تلتقيا بالعينين اللتين تحدّقان به، أحسّ بالموت. «مثل شرر نار طلع من عيونه، وبعدين بلّش بياض العينين يختفي، ما بعرف كيف بدّي خبّرك، صاروا عيونه من دون بياض، وحسّيت بالموت وفهمت ليش أنا عطشان»

في المرّة الأولى قال خالد إنّ بياض العينين اختفى، وفي المرّة الثانية قال إنّ البياض احتلّ العينين، تلعثم وهو يروي، لكنّه قال إنّه ليس خائفًا من الموت، «بالنهاية كنت عارف أنّ الطريق يلّي اخترتها بتوصّلني لهون، بس ما كنت عارف أنّي رح أوصل بهالسرعة»

اقترح عليه كريم عدم العودة إلى الفيحاء، «خلّيك ببيروت»

«متل بعضها»، أجاب خالد، «يلّي بيقدر يقتلك بطرابلس بيقتلك ببيروت».

«ليش ما بتسافر؟ كتير من الشباب عم بيروحوا تهريب على برلين الغربيّة، وعم ياخدوا لجوء سياسي»

«أنا صير لاجئ سياسي بمعسكرات التلج بألمانيا»! مستحيل

قال خالد إنّه سيرسل له غدًا مع رضوان أوراق أبو الربيع، هيدي أمانة، ما في محلّ بقدر خبّيها إلّا عندك، بالأوّل فكّرت بداني، بس داني مشوّش كتير، رجاء، بس تهدا العاصفة أنا بسترجعهم إذا ما متت، وإلّا اعطيهم لحياة، مش لحدًا تاني»

الأوراق هنا، وكريم بدل أن يقرأ غرق في ذاكرة الجريمة. رأى خالد وهم يطلقون النار عليه، كان يقود سيّارته، وبعدما تخطّى الحاجز بحوالى عشرين مترًا، انهمر الرصاص. ستّون رصاصة مزّقت جسده، وتركته ميّتًا

ووحيدًا لم يجرؤ أحد على الاقتراب من جثّة الزعيم الشعبي. وعندما حملت حياة أشلاءه الممزّقة بين ذراعيها، بدت مثل أمّ تحتضن طفلها، وتمشي وسط صحراء الوجوه والصمت.

بعد مقتل خالد بأسبوعين جاءت حياة إلى بيروت، وعادت إلى منزلها في اليوم نفسه، قرّرت أن تعود إلى العمل في الفرن، كانت تترك طفلتها الرضيعة مع جدّتها، وتذهب للعمل وحدها في فرن خلا من جميع الشباب، الذين فرّ بعضهم إلى مخيّم عين الحلوة في الجنوب، بينما اعتقل بعضهم الآخر رضوان قاد عمليّة الفرار إلى عين الحلوة، اختفى هناك تسعة أعوام، وعندما عاد إلى طرابلس ظهر على هيئة شيخ معمّم.

ليلة ٩ حزيران ١٩٨٠، وكان قد مضى على مقتل خالد ستّة أشهر، وُجدت حياة وابنتها نبيلة مذبوحتين بالسكاكين في منزلهما في حيّ القبّة في طرابلس.

منذ أن سمع كريم صوت رضوان على الهاتف يدعوه إلى طرابلس وهو يشعر بدبيب الخوف كأنّ ذاكرة ذلك الخوف التي جعلته يرتجف أمام حياة حين جاءته بالتشادور، عادت إليه فجأة. الخوف لا ذاكرة له، مثله مثل الروائح التي لا نستطيع استعادتها إلّا حين نشمّها من جديد.

تذكّر كريم أنّ رضوان هو من جلب له أوراق يحيى.

باستثناء داني، رضوان هو الرجل الوحيد الحيّ الذي يعرف بوجود هذه الأوراق.

قرّر كريم أن لا يلبّي الدعوة، ويصرف النظر عن الذهاب إلى طرابلس من أجل لقاء الشيخ رضوان.

خلع ثيابه وتحمّم، ودخل في فراشه وأغمض عينيه.

ـ ١٣ ـ

لم ير سلمى حزينة مثلما رآها في ذلك اليوم. ذهب إلى منزل شقيقه من أجل الاحتفال بعيد ميلاد نسيم الذي بلغ التاسعة والثلاثين، ليكتشف أنّ نسيم استعاد جميع طقوس والده، ودمجها بعيد ميلاده. لكنّ نسيم أضاف إلى طقس يوم الأحد تقليد الذهاب إلى كنيسة السيّدة في شارع الغزاليّة في منطقة السيوفي، حيث يأخذ أولاده الثلاثة في التاسعة صباحًا لحضور القدّاس. وبعدها يذهبون إلى جلّ الديب، من أجل شراء صدر كنافة بالجبن، قبل العودة إلى البيت.

رفضت هند أن تذهب مع زوجها إلى الكنيسة، أمّا سلمى، فكانت طرفًا محايدًا في الصراع حول الدين بين الزوجين، لأنّها كانت تشعر أنّها مهما قالت، فكلامها لن يؤثّر، إذ لا يحقّ لها أن تحكي، فهي من عائلة مسلمة، ورغم أنّها تزوّجت للمرّة الثانية في الكنيسة، وتقبّلت سرّ المعموديّة، فقد بقيت في نظر صهرها «من إخواننا المسلمين»، وكلامها حول الموضوع سيكون ثقيلاً على أذني نسيم، الذي قرّر أن لا يقدّم أيّ تنازل لزوجته، حول معتقداته الدينيّة المستجدّة، وضرورة أن يتربّى الأولاد على دين آبائهم وأجدادهم.

في ذلك اليوم، وبينما كان نسيم يعدّ الشواء ويجبل التبّولة، ويكسر

العرق بالماء، كانت سلمى تجلس صامتة على طرف الكنباية، كأنّها ضيف غير مرغوب فيه، ولا تتفاعل مع مداعبات الأولاد الذين كانوا يعتبرون زياراتها إلى منزلهم أو زياراتهم لها عيدًا

«شو بكِ يا أمّي قاعدة ومبوّمة وما بتردّي على الأولاد، ما على بنا أنت بتعبديهم»، سألتها هند وهي تدخل وتخرج، حاملة الطعام الذي كان يعدّه زوجها في المطبخ.

الحديث بين المرأتين كان يتطاير في الهواء ويتشكّل في جمل ناقصة تتبع إيقاع حركة دخول هند إلى المطبخ وخروجها منه، لذا لم يفهم كريم شيئًا، كلّ ما علق في ذهنه كان اسم «الثلاثة أقمار» فاعتقد أنّ المرأتين تتكلّمان عن المدرسة التي تحمل الاسم نفسه، وتقع في نزلة العكّاوي، وهي مدرسة شبه مجّانيّة أسّستها مطرانيّة الروم الأرثوذكس في بيروت، من أجل أبناء الطائفة الفقراء وخمّن أنّ هند قرّرت نقل أولادها من مدرسة الليسيه إلى هذه المدرسة.

«ليش الثلاثة أقمار بطلت ثكنة لل «أس. كا أس» (الشرطة العسكريّة الكتائبيّة).

شرحت هند أنّ المطرانيّة استعادت المدرسة من حزب الكتائب، وعيّنت لها مديرا جديدًا تخرّج حديثًا من كلّيّة اللاهوت في دير البلمند، اسمه أبونا إيليّا، «بس نحن ما عم نحكي عن المدرسة، عم نحكي عن شي تاني».

تذكّر كريم حكاية أبناء سلمى الثلاثة من زواجها الأوّل في منطقة عكّار، الذين كانت هند تدعوهم «الثلاثة أقمار»، وأراد أن يسأل هند لماذا رفضت أن تخبر والدتها أنّ إخوتها الثلاثة هربوا من قريتهم، بعدما قام الفلّاحون بإحراق بيوتهم خلال ثورتهم التي قادها يحيى النابلسي، لكنّه فكّر أنّ هذا الموضوع حسّاس وسوف يلقي بظلّه على المائدة التي يعدّها

شقيقه، فقرّر أن يتجاهل الأمر تحدّث عن مشكلة التلاميذ مع المدارس، وقال إنّ حالة نصري، وهو الابن الثاني لشقيقه، وكان في السابعة، يمكن إيجاد حلّ لها، فالولد ليس أسوأ من أبيه، ومشكلة عدم قدرته على الكتابة بسيطة خصوصًا مع تطوّر الوسائل التربويّة الحديثة، وإنّه لا لزوم لتخريب مستقبل الأولاد ونقلهم من مدرستهم، إلى مدرسة مستواها أقلّ من المتوسّط.

نظر إلى سلمى وقال، «أكيد الستّ سلمى بتوافق معي»

لكنّ سلمى لم تردّ، نظرت إليه بعينين فارغتين، وقالت إنّها تعتذر لأنّها لم تنتبه إلى ما قاله.

غادر كريم غرفة الطعام هربًا من هذا الجوّ الخانق، مفضّلاً الذهاب إلى المطبخ لمساعدة شقيقه.

وفي المطبخ رأى العجب؛ كان نسيم مشمّرًا عن ساعديه، يشكّ قطع اللحم في الأسياخ، يصدر الأوامر القاطعة لزوجته، يفرم البقدونس، ثم يكتشف أنّه نسي البرغل، يصرخ طالبًا وعاء، ثم يبدأ في تقطيع الباذنجان، تمهيدًا لشكّه في الأسياخ إلى جانب اللحم، يزعق ثم يضحك ثم يصبّ لنفسه كأس عرق، يأخذ شفّة منه، ينتبه إلى وجود شقيقه في المطبخ «شو باك واقف مش عم تعمل شي، صبّ كاس عرق، وتعا ساعدني»

«شو هال bordel»، قال كريم.

«بورديل وأكتر من بورديل»، قالت هند، «الله وكيلك كلّ أحد بيرجع من الكنيسة مهيّج، وليك شو بيعمل، قال هو الشيف، بيجوي الدنيا، بيشرشر برغل وبقدونس على الأرض، والمجلى بيزنخ من اللحمة والليّة، وبعدين قومي يا هند ونضّفي»

«لو كنت مهيّج متل عم بتقولي، كنت فوتّك على التخت يا مدام»

«ميّة مرّة قلت لك إنّي ما بحبّ هالحكي أبدًا، وخصوصًا قدّام الناس».

«ليش وين في ناس؟ هلّق صار خيّي ناس!».

نظر نسيم إلى شقيقه، وقال إنّ امرأته خوتا، «ترجّيناها نجيب صانعة عملت مشكلة ما إلها ربّ، قال إنّها ما فيها تستغلّ الناس. إجت غزالة، قلت لها هيدي زوجة متروك، ومتروك صاحبي، خلّيها تجي تساعدك بالبيت، صارت لمّا تجي غزالة تقعد معها بالصالون، وتستّتها، ويشربوا قهوة، وبالآخر تعطيها مصاري، وهلّق جايي تنقّ على شغل البيت. أنا يوم الأحد هو لذّتي الوحيدة، بلتذ أطبخ، وأسكر مع عيلتي، وكل أحد الله وكيلك هيك، حتى بيوم عيد ميلادي بدها تنزع مزاجي، بس بوجود العرق، المزاج لفوق، كاسك»

اقترب كريم من الطاولة وبدأ يشكّ اللحم مع أخيه، وارتفعت ضحكات الطفولة التي استعيدت على شكل رجلين يشربان العرق وهما يعدّان الطعام.

«يا حرام يا نصري»، قال كريم.

«شو جاب المرحوم على بالك بهالحشرة»؟ سأل نسيم.

قال كريم إنّه منذ عودته إلى بيروت وهو يشعر بشوقٍ غريب إلى هذا الرجل، «بتعرف نحن ظلمناه، وكتير قهقرناه بآخر حياته، المسكين ما كان شايف من هالدنيا إلّا الثالوث، ولمّا التقينا من جديد، وبلّشنا الشغل كان هو مات، يا لطيف الحياة شو قاسية، بس لو كان معنا بمشروع المستشفى، كانت هيدي رح تكون أسعد لحظة بحياته»

وافق نسيم بهزّة من رأسه، وقال إنّه اكتشف أنّه مع العمر صار يشبه والده، «حتى طقوسه التي كنت أكرهها، صرت أمارسها بشكل لا إرادي

مع أولادي، غريب كيف بيتغيّر الإنسان».

كانا التوأمين اللذين أراد لهما نصري الشمّاس أن يُكمل أحدُهما الآخر، كي يصيراه. «لازم أخلطكم ببعض حتى تصيروا متلي، أكيد صار في غلطة تقنيّة، وبدال ما تلتحم العناصر الوراثيّة ببيضة واحدة وتطلعوا صبي واحد، انقسمت ببيضتين، وصرتوا تنين، واحد نصفي الذكي والتاني نصفي البندوق، الحقّ على المرحومة أمّكم، ما قدر جسمها يلتقط قوّة الدفع، فقسمت الجينات الوراثيّة قسمين، الله يرحمها، ما هي كانت مريضة وكان جسمها ضعيف».

هذا الكلام كان يجعل الصبيّين الصغيرين يقشعرّان خوفًا، ويشعران بالنقصان الدائم.

«بس هو الله يرحمه كان تقيل علينا كتير، وما تركلنا فسحة للتنفس»، قال نسيم.

«بس المسكين عاش طول حياته بالوحدة، نحن منعناه يتزوّج مرّتين. كان يقول إنّ إجر واحد من أولادي، بتساوي كلّ نسوان العالم»، قال كريم.

«ما تنسى أنّه ما خلّى تعريصة تعتب عليه، لشو الزواج طالما كلّ النسوان على حسابه، أكيد بيّي كان أعرص منّا، كان «ماتشو» كلّ الوقت، وضلّت عينه بيضا حتى مات»، أجاب نسيم.

في هذا الحوار، الذي جرى وسط قرقعة الطناجر والصحون، كان الذي لا يُقال أكثر أهمّيّة من الذي قيل. كان بودّ نسيم أن يقول لشقيقه إنّ تعاطفه مع والده الآن ناجم من واقع أنّه لم يعش معه، هرب إلى فرنسا وترك الحمل كلّه على شقيقه، ثم إنّه كان الولد المدلّل بينما وقع وزر القمع كلّه على شقيقه الصغير أمّا كريم فكان يتمنى أن يقول إنّ كلّ المصائب بدأت عندما هرب شقيقه من البيت، يومها تغيّر نصري في شكل جذري،

وصار لئيمًا وامتلأ بالمرارة، كان يريد أن يسأل شقيقه إذا شعر مرّة بضرورة أن يعتذر من والده ويعترف بأخطائه.

نسيم من جهته لم يفهم تصرّفات شقيقه في بيروت، حدا بيعمل هالعمايل مع الصانعة، العمى شو مكبوت. جايي من فرنسا، بلد الحرّيّة الجنسيّة، حتى يفضحنا، ولو ما الله ستر، وطلع متروك أهبل، كان صار جريمة بالبيت، وبعدين ليش كلّ ما يشوف مني يزوغلوا عيونه، مش عارف أنّها زوجة صاحبي، بس أكيد ما طلع له شي معها، لو كان بدها كانت إجت لعندي، بس كريم مجدوب، بيّي كان مفتكر أنّ ابنه الكبير ذكي، يا لطيف شو كان غلطان.

لم يقل نسيم، فهو كان غارقًا في لذّة إعداد المائدة، مثل والده، الذي كان يعتقد أنّ إعداد مائدة يوم الأحد أكثر لذّة ومتعة من الأكل نفسه. كان الوالد يسكب لنفسه كأس عرق ويدخل إلى المطبخ وحده، لأنّه لا يريد أيّ مساعدة. يخرج حاملاً الأطباق وهو يترنح سكرًا، يضع أغنية لعبد الوهّاب أو أمّ كلثوم، جاعلاً من مائدته لحظة متعة عائليّة، كان يعتقد أنّها المتعة الكبرى في الحياة.

كانا يشربان ويعملان في المطبخ، كأنّهما رجل واحد انقسم إلى نصفين، ويستمعان إلى صوت هند وهي تصرخ بأمّها أن تغيّر الموضوع

فتح نسيم باب المطبخ وصرخ: «على الأكل»

جاءت هند وحملت الأطباق، بينما جلس الصبيان في أماكنهم على الطاولة، جلست سلمى على رأس الطاولة، وبدأت تُسمع دندنات أغنية أمّ كلثوم: «أنت عمري» تخرج من حنجرة نسيم، وهو يضع اللمسات الأخيرة على المائدة.

فجأة صرخت هند: لا، أغلقت باب المطبخ وبدأت تأمر زوجها بصوت منخفض أنّه لا يجوز، «مبارح خبّرتها للمرا، وهلّق حالتها بالويل،

مش ضروري نحطّ حلاوة الجبن يلّي جبتها من حمص على الطاولة، أمّي بتفقع».

أجابها أنّ عقلها صغير، وحلاوة الجبن إمّا أن تؤكل اليوم، أو تُرمى، «لأنّها ما بتضاين»

قال إنّه لم يجلب صدر الكنافة اليوم، لأن لا شيء يعلو على حلاوة الجبن التي تُصنع في حمص، وأنّها بدلاً من أن تشكره لأنّه ذهب إلى سورية، وهذه مغامرة كبرى، تبهدله كالعادة، «لأنّه ما في شي بيعجب المدام».

«الله يخلّيك، أنت وحدك فيك تقنعه»، قالت لكريم.

«بس أنا مش فهمان شي»، قال كريم.

«قل له بلا حلاوة الجبن، كرمال معزّتي عندك»

«بلاها يا نسيم، خلّينا نأجّلها»

«بأمرك يا مدام»

صبّ نسيم أربع كؤوس عرق، ثم صبّ ثلاث كؤوس كان يسمّيها عرق الشباب ووزّعها على أولاده، رفع كأسه وشرب نخب الحياة.

رفعت سلمى كأسها لتشرب نخب برناديت ونادين ولارا، «صار لازم أولادكم يلتقوا مع بعض، وتجتمع العائلة كلّها الله يعطيهم أيّام أحسن من أيّامنا»

مضت الأمور بهدوء، لم يتوقّف نسيم عن رواية النكات، وعن توزيع اللقيمات على أولاده، وسؤال الجميع إذا أعجبتهم الكبّة النيئة التي أعدّها بيديه.

قالت سلمى إن الأيّام تغيّرت كثيرًا، «في الماضي كنّا ندقّ اللحمة في

الجرن حتى تصير ناعمة وتاخد على بعضها، هون الشطارة، شطارة كيف بيدخل البصل بنسيج اللحمة قبل ما نجبلها بالبرغل. هالأيّام صارت الكبّة مش كبّة، بيفرمها اللحّام مع البصل بمكنة المولينكس، فما بتاخد من بعضها، بس ماشي الحال، كلّنا صرنا نعملها هيك وتعوّدنا عليها».

قال نسيم إنّه هو من كان يدقّ الكبّة في البيت، وإنّه لا يزال إلى اليوم يشعر صباح كلّ أحد بشلل في يده اليمنى.

«أنا كنت دقّ الكبّة»، قال كريم، «أنت كنت تضلّك بالتخت، وتعمل حالك مريض»

«أنا! ليك على هالحكي، أنا ما بتذكّر حالي إلّا عم دقّ الكبّة، وأنت واقف حد بيّك وعم تعطوني أوامر»

«بلّش الكذب»، قال كريم مخاطبًا الأولاد، «بيّكم هيك، ما بيعرف يقول ولا كلمة مزبوطة»

«وحياة العدرا، مش عم بكذب، أنت الكذّاب»

تدخّلت هنا هند كي تُلقي عليهم محاضرة حول الذاكرة، قالت إنّ أطرف شيء هو أن يروي شخصان حضرا حادثة مرّ عليها الزمن ذكرياتهما، «كلّ واحد بيتذكّر شكل، هيدا ما بيعني أنّهم عم بيكذّبوا، هيدا بيدلّ على حدود الذاكرة وعلى أنّها دايمًا مخلوطة بالخيال»

«يعني مين معه حقّ هلّق»؟ سأل نسيم.

«تنيناتكم معكم حقّ»، قالت هند.

«يعني الذاكرة illusion»، قال كريم.

«وهم عمّو، illusion يعني وهم بالعربي»، قال نديم، الابن الأكبر لنسيم، «كتير مرّات بسمعك عم تحكي فرنساوي، كأنّك ما بتعرف عربي؟».

«وبفرنسا بحكي عربي، لأنّ الذاكرة وهم متل ما قالت أمّك»

فجأة تكهرب الجوّ، قفز نسيم إلى المطبخ وهو يترنح سكرًا، فلحقت به زوجته، وسمع الجميع شجارهما، ثم عاد نسيم حاملاً كرتونة مربّعة مغطّاة بورق أخضر لامع، كتب عليه اسم «حلويات الراهب ـ حمص». فتح العلبة، وقال إنّه جلب لهم أطيب حلوى في العالم، ففي حمص يصنعون أفضل حلاوة بالجبن، وإنّه حين ذاقها، اكتشف أنّ سرّ الحلوى العربيّة حمصي مئة بالمئة.

نظرت إليه سلمى كمن لا يصدّق عينيه، ارتجفت شفتها السفلى، وبدأ العرق البارد يغطّي جبينها

أمسكت هند الحلوى وقالت إنّها سترميها في المزبلة.

«أنتِ اسكتي واقعدي مطرحك»، قالت سلمى التي نظرت صوب نسيم وسألت بصوت مرتجف، «هيدا شغل الأولاد مش هيك؟»

هزّ نسيم رأسه، «مختار كان وحده بالمحلّ أوّل ما فتت، رحّب فيّي كتير، وحسّيت قدّيش هالشابّ حنون، ورفض ياخد مصاري، ومتل ما قلت لك يا مرت عمّي قال لي إنّه كتير متشوّق يتعرّف على الوالدة، وبعدين مدري كيف انقلب الجوّ، وصلوا رجّالين، فهمت أنّ اسم واحد منهم دياب»

«هيدا الكبير»، قالت سلمى

«لمّا شافني دياب وسمع أوّل كلامي، رفع إيده ومدّها صوب الباب، وقال برّا، نحن ما عنّا أمّ»

بدأ وجه سلمى يحتقن بالاحمرار، وارتسمت الظلال على عينيها.

«خبّرني أكتر»، قالت.

«ما مبارح خبّرك يا أمّي، يقطع هالسيرة وساعتها»، قالت هند.

ازداد الاحتقان في وجه سلمى، التي حاولت النهوض عن الكرسي، تهدّت بالطاولة لكنّها سقطت جالسة، وقالت إنّها تشعر بالدوار.

ركضت هند إلى المطبخ، وعادت بكوز كبير من الثوم. قفز نديم، جلب سكّينًا، وبدأ يقشّر الثوم بسرعة، ويعطي حصص الثوم النيئ إلى جدّته التي التهمتها بينما ارتسمت على وجهها تكشيرة قرف.

«شو هيدا»، سأل كريم.

«طلع ضغط المرا»، أجاب نسيم، «ضغطها صار يخوّف لأنّه بيطلع بسرعة»

«ولشو التوم، ما عندكم دوا، أحسن شي هو الـ Adizem، فز يا نديم عالفرمشيّة واشتري لستّك دوا، بدال هالحركات يلّي ما إلها طعمة»

«أنا ما بحبّ الأدوية»، قالت سلمى وهي تلهث، وتلحس شفتيها بلسانها الذي كان يحترق عطشًا

قالت هند إنّ أفضل دواء للضغط هو الثوم النيء، وإنّ والدتها تعلّمت ذلك من المرحوم نصري، «وعلى كلّ حال هيدا توم من دون كيماويات، منشتريه من جلال الترمس»

«بلا ترمس بلا توم، شو هالمسخرة، أنا حكيم يا ستّ سلمى، بهالعمر ما بيقدر الواحد ما ياخد دوا للضغط».

واصلت هند إعطاء ابنها حصوص الثوم، فيما كان الولد يقشّرها ويطعمها لجدّته، وفاحت الرائحة. اختلطت رائحة الثوم برائحة القطر، وبدا المشهد غرائبيًّا أحسّ كريم بأنّه على وشك أن ينفجر ضاحكًا أمام هذا المشهد الهزلي، قام إلى الحمّام، حيث غارت ضحكته في نصف ابتسامة، غسل يديه ووجهه، وعندما عاد كان وجه سلمى قد بدأ يهدأ، توقّفت عن

أكل الثوم، وقالت إنّ عليها أن تعود. نهضت هند وقالت إنّها ستوصل أمّها إلى بيتها بالسيّارة، خرجت المرأتان، واختفى الأولاد في الصالون أمام شاشة التلفزيون.

صار الشقيقان وحيدين أمام مائدة حلاوة الجبن، التي امتزجت فيها روائح العرق والقطر والثوم، كأنّهما بطلا مسرحيّة هزليّة مصنوعة في مناخ تراجيدي يبدو مُفتعلاً

نظر كريم إلى شقيقه وقال إنّ الحقّ عليه.

«مرتك قالت لك بلا الحلو، ليش حطّيته على الطاولة»؟ سأل كريم.

«الله يلعن الشرب»، قال نسيم، «العمى كانت راحت المرا من بين أيدينا، وتعا خلّص من الستّ هند يلّي رح تتّهمني إنّي قتلت أمّها»

روى نسيم أنّ الحكاية بدأت منذ ثمانية أشهر، طلبت منه هند أن يعثر على إخوتها غير الأشقّاء، قالت إنّها متأكّدة من أنّهم في حمص، وإنّك من أخبرها قصّة هربهم من خربة الراهب، خلال انتفاضة فلّاحي عكار، وإنّهم هاجروا إلى المدينة السوريّة الأقرب إلى قريتهم.

هند تناست الحكاية التي رواها لها كريم من زمان، فهي كانت تعتقد أنّ ظهور الإخوة الثلاثة لن يُثير في أمّها سوى المواجع لكنّها، منذ بدأت أعراض ضغط الدم تظهر على أمّها المصابة بداء السكّري، شعرت أنّه لا يحقّ لها أن لا تخبرها الحقيقة قبل موتها هند لم تكن تعرف من الحكاية سوى ما رواه لها كريم، نقلاً عن مذكّرات يحيى النابلسي التي كتبها في السجن قبل موته. وكريم مسافر وهي لا تريد الاتّصال به لأنّها قرّرت أن تنساه. تعتقد هند أنّ النسيان قرار ضروري من أجل أن تستمرّ الحياة. وعندما استمعت إلى شذرات من النقاش الصاخب الذي دار بين كريم وأحمد الدَكيز، عن ذاكرة بيروت، أرادت أن تقول إنّ هذا النقاش بلا معنى، فكي نستطيع أن نعيش يجب أن ننسى، هذه عظمة بيروت، إنّها

عكس كلّ مدن البلاد الشاميّة، لأنّها بُنيت على فكرة النسيان، من هنا جاءت حيويّتها أمّا كلام كريم عن أنّ النسيان هو سبب تكرار الحرب الأهليّة مرّات عديدة خلال قرن واحد، فهو بلا معنى. الحرب تتكرّر لأنّنا شعب صغير مُحاط بالطامعين، نحن نقطة تقاطع المنطقة، والمنطقة مضطربة وعاجزة عن حلّ مشاكلها، هذا هو سبب الحرب وليس الذاكرة.

عندما عاد كريم إلى بيروت، وسأل سلمى عن صحّتها، وألحّ في السؤال، قال لهند إنّه لاحظ كطبيب أنّ المرأة في حاجة إلى الخضوع لفحص طبّي شامل، لأنّ احتقان وجهها والعمش على عينيها يشيران إلى وجود مشكلة.

يومها أرادت هند أن تسأله عن معلوماته عن الأقمار الثلاثة، وإذا كان في استطاعته مساعدتها في العثور عليهم، لكنّها لم تسأل، فهي متأكّدة من أنّ كريم أيضًا قرّر أن ينسى، وأنّه بعد هجرته الفرنسيّة الطويلة لم يعد يريد الحديث عن الماضي، وإلّا كيف تفسّر موافقته على العودة للعمل في مستشفى سوف يُبنى في المنطقة الشرقيّة من بيروت، المعقل الكتائبي، الذي قاتل ضدّه خلال الحرب.

قالت هند لزوجها، إنّها لا تريد أن يتدخّل كريم في الموضوع، «أنت بتعرف كلّ الناس، وفيك تدبّرها»

«بس المشوار على سورية صعب بالنسبة لواحد متلي، بتعرفي أنا كنت بالقوّات اللبنانيّة، والسوريّين ما بيحبّونا»

«بعرف، بس أنا أكيدة إنّك بتقدر إذا بدّك»

عاد من حمص قبل يومين من غداء ذلك الأحد اللعين، أخبر زوجته أنّ الإخوة لا يريدون لقاء أمّهم، وروى لها ماذا جرى عندما التقى بهم. في المساء رجته الزوجة أن يذهب معها لزيارة والدتها لأنّ سلمى تريد أن تسمع القصّة منه شخصيًا، ذهب وأخبرها ملخّصًا يتألّف من جملة واحدة،

«الشباب ما بدهم يشوفوك يا مرت عمّي» لم تسأل سلمى أيّ سؤال، سعلت كثيرًا، وانهمرت دموعها، وتقوقعت حول نفسها، وردّدت عبارة واحدة، «أشهد أن لا إلٰه إلّا الله، وأشهد أنّ محمّدًا رسول الله». ردّدتها خمس مرّات، كانت تشرب الماء من كوب موضوع إلى جانبها، وتردّد الشهادتين، ما جعل نسيم يعتقد أنّ سلمى تريد أن تموت.

قال نسيم لزوجته، وهما عائدان إلى البيت، إنّهم يجب أن يجدوا حلًّا من الآن، حتى لا يفاجئهم موت المرأة، ويتلبّكوا في البحث عن طريقة لدفنها في مقبرة إسلاميّة.

«فال الله ولا فالك، شو هالحكي، هلّق مش وقتها، المسكينة ما قدرت تسأل ولا سؤال، لمّا أنا خبّرتها الصبح هلكتني بالأسئلة عن شكلهم، وصحّتهم، وإذا كانوا مزوّجين، وشو عندهم أولاد، ولمّا جيت أنت حتى تخبّرها خرست وصار كأنّها ما بدّها لا تسأل ولا تعرف»

قال نسيم لشقيقه، وهو يسكب كأسين جديدتين من العرق، إنّه لا يفهم لماذا تصرّفت سلمى كأنّها فوجئت، «ما هي عارفة القصّة من يومين»، وروى أنّه تعب كثيرًا كي يدبّر مسألة زيارته إلى حمص، «وبعدين طلعنا بسواد الوجه، كان لازم آخدك معي حتى تشوف نتائج عمايلكم أنتم وشباب طرابلس، وكيف هلّق صاروا أولاد الإقطاعي بيشبهوا الأبطال يلّي أخدوا الفلّاحين على ثورة بلا طعمة، وبعدين صاروا الطرفين مسلمين متعصّبين، ونسوانهم محجّبات، وأنتم طلعتوا على الفاشوش»

نسيم لم يقل كلّ الحقيقة كالعادة، فهو لم يتبهدل كي يذهب إلى حمص، كلّ ما في الأمر أنّه دبّرها مع مصطفى نجّار، ومصطفى هذا كان من قادة حزب البعث السوري في لبنان، وأغلب الظنّ أنّه يعمل الآن مع المخابرات السوريّة، وهو زميل قديم لنسيم في تهريب المخدّرات، لكنّه مثل زميله، تاب عن عمله القديم، لينصرف إلى إدارة مكتبه لاستيراد

الخادمات السريلانكيّات والحبشيّات.

اتّصل نسيم بصديقه القديم، الذي دبّرها وجد في انتظاره أمام نقطة الحدود السوريّة ـ اللبنانيّة، الرجل الذي أرسله مصطفى. ركب الرجل إلى جانبه في السيّارة، وقطعا الحدود على الطريق العسكريّة، التي يسلكها في العادة رجال المخابرات، ولا تخضع لأيّ تفتيش، وبقي معه حتى وصلا إلى أمام فندق «السفير»، في حمص.

نزل الرجل معه، وجلب له مفتاح الغرفة رقم ٨٧٧، من دون أن يضطرّ نسيم إلى إبراز جواز سفره، كي يتمّ تسجيله في مكتب الاستقبال. قال له الرجل إنّه سوف ينتظره غدًا في الرابعة بعد الظهر، في بهو الفندق كي يُعيده إلى بيروت، وأعطاه رقمًا هاتفيًّا، وقال له إنّه إذا احتاج إلى شيء، فليطلب أبو أحمد، وسيكون عنده خلال دقائق.

فهم نسيم أنّ عليه أن لا يتعاطى مع إدارة الفندق، لأنّ الحساب دُفع سلفًا، وأنّه يستطيع أن يتجوّل في حمص كما يريد.

لم يستطع مصطفى أن يدبّر لنسيم عناوين منازل الأشقّاء الثلاثة أو أرقام هواتفهم، لكنّه زوّده بعنوان محلّ حلويات الراهب، الكائن في شارع شكري القوتلي، «مين ما سألت عن شارع شكري القوتلي بحمص، بيدلّك، بس أهمّ شي بالمدينة تلات شغلات، مطعم ديك الجنّ على نهر العاصي، وقبر خالد بن الوليد، وجامع النوري»

«شو أنا رايح أعمل سياحة؟»

«ما بدّك تاكل، روح كول على العاصي، أطيب تبّولة بالعالم، وبعدين بعرف إنّك بتحبّ الكنايس، في كنيستين لازم ينزاروا، كنيسة أمّ الزنّار، وكنيسة مار إليان»

وصل نسيم إلى فندق «السفير» في حمص، في الثانية عشرة ظهرًا،

وقرّر أن لا يضيّع وقته، أخذ تاكسي من أمام الفندق، وطلب منه الذهاب إلى شارع القوتلي. أوقف السيّارة في مدخل الشارع المزدحم، وقرّر أن يمشي. أكل ساندويش شاورما اشتراه من أحد المطاعم الشعبيّة المنتشرة في الشارع، ومشى. أدهشته المدينة القديمة، مزيج مملوكي وعثماني وحديث، وروائح محلّات العطّارين، التي تملأ الفضاء. مشى متمهّلاً، وهو يقرأ أسماء المحلّات المنتشرة على جانبي الطريق. وفجأة قرأ اسم حلويات الراهب فوق باب خشبي منخفض، أحنى رأسه، ودخل، ليجد نفسه في قاعة يلتمع فيها الحجران الأسود والأبيض، اللذان تتميّز بهما عمارة حمص. الأرض بيضاء رخاميّة، ورائحة ماء الزهر، ورطوبة مائيّة تنشرها بحرة صغيرة في وسط المكان.

كان المحلّ مكتظًّا بالزبائن، ومجموعة من الرجال الذين يغطّون رؤوسهم بقبّعات بيضاء، يقفون خلف صدور الحلوى، يلبّون الطلبات. لم يدر ماذا يفعل. تقدّم ووقف مع الواقفين، وطلب صحن حلاوة بالجبن، وجلس على إحدى الطاولات.

بعد لحظات، جاء رجل طويل القامة، أبيض الملامح، ذو عينين رماديّتين، وشعر كستنائي، حاملاً صينيّة صغيرة، عليها صحن حلاوة الجبن، وكوب ماء، وقارورة فضّيّة مليئة بماء الزهر

وضع الرجل الصينيّة أمام نسيم، وقال له «الأخ لبناني، مو هيك»

«كيف عرفت»؟ سأل نسيم، الذي لاحظ أنّ الرجل لا يضع قبّعة بيضاء على رأسه مثل بقيّة العاملين، وأنّ الشيب غزا فوديه.

«الشباب خبّروني، أهلاً بلبنان وبريحة لبنان»

أمسك نسيم الملعقة كي يأكل، لكنّه لاحظ أنّ هناك كلامًا في عينَي الرجل.

«بقدر أسألك سؤال»، قال نسيم.

«أهلاً وسهلاً»، أجاب الرجل.

«الحقيقة أنا جيت من لبنان خصوصي، لأنّي حامل رسالة لأصحاب المحلّ»

«اللهمّ اجعله خير»، قال الرجل، وجلس.

روى نسيم أنّه يحمل رسالة إلى الأشقّاء الثلاثة من والدتهم في بيروت. قال إنّه متزوّج من ابنتها هند، وإنّ المرأة صارت على حافّة قبرها، وإنّ أمنيتها الأخيرة قبل أن تموت هي أن ترى أولادها الذين تسمّيهم الأقمار الثلاثة، وتضمّهم إلى صدرها

«سلمى»! قال الرجل.

قال نسيم إنّه يتفهّم موقفهم وموقف والدهم، «بس المسامح كريم، وسلمى أمّ انحرمت من أولادها»

وقف الرجل، ثم جلس من جديد، أشعل سيجارة، بينما انشغل نسيم بالتهام الحلوى التي أمامه.

«شو هالحلاوة الجبن هاي، شي مفتخر»، قال نسيم، وقال إنّه سيشتري كيلويين كي يأخذهما معه إلى بيروت.

أشار الرجل إلى أحد العاملين، وبعد لحظات رأى نسيم أمامه مائدة عليها ثلاثة أصناف من الحلوى لم يرها من قبل.

«هيدي بشمينة»، قال الرجل، «رقائق من الطحين المحمّص بالسمن العربي، نضع بينها مخلوط القطر والناطف وهي لا تُصنع إلّا في حمص، وهذه خبزيّة، وهذه سمسميّة، كول واشكر ربّ العالمين متل ما بيقولوا أهل بيروت، تعا يا شكري، حضّرلي تلات كيلو حلاوة جبنيّة للأستاذ، حطّ

القشطة لوحدها بوعا بيحفظ البرودة، لأنّ الأستاذ مسافر على لبنان، وبدنا علبة بشمينة كمان»

أسند الرجل رأسه بيده، نظر إلى نسيم طويلاً، تنهّد وقال إنّه مختار، الابن الثالث لسلمى. قال إنّه لا يعرف أمّه، لأنّها تركته عندما كان طفلاً، وإنّه تربّى على الحقد عليها وكراهيّتها، وإنّه لم يتزوّج حتى الآن، لأنّه كره النساء بسببها، لكنّه كان أيضًا ينتظر هذه اللحظة. قال إنّه لم ير صورة لسلمى، لذا فهو لا يعرفها، لكنّه كان يراها في مناماته، وإنّه متأكّد من أنّ الشبح الذي زاره طويلاً في مناماته يشبهها، وإنّه حين سيراها سيعرفها من دون أن يدلّه أحد عليها، «حلوة كتير أمّي وكربوجة، أنا بعرف»

حكاية الأشقّاء الثلاثة في هجرتهم لا تثير سوى الأسى. عاشوا طفولتهم من دون أمّ، مع جدّهم لأبيهم القاسي، الذي كان يحتقر ابنه قاسم، لأنّه أبو قرون، ومع أب مُصاب بالاكتئاب، ولا يتوقّف عن شرب الخمرة. وعندما مات الجدّ، وآلت الإمرة إلى الوالد السكّير، صار يتصرّف كالإقطاعيّين في الزمن المملوكي. قسوته ووحشيّة تصرّفاته مع الفلّاحين صارت على كلّ لسان. لم ير فلّاحو خربة الراهب والقرى السبع ظلمًا يشبه ظلم هذا الرجل كأنّه صار رجلاً آخر، بدل التيه والسكر والاكتئاب، تحوّل إلى رجل شرس، يفرض السخرة على الفلّاحين، يتجوّل بين المزارع مع مجموعة من حرسه الذين يحملون البنادق. سوطه يفرقع في الفضاء معلنًا قدومه، فيستعيذ الناس من الشيطان، حتى إنّه أراد أن يستعيد تقليدًا قديمًا لم يعد شائعًا هو تقليد المفاخذة. وكانت شهوته إلى الطعام والنساء لا حدود لها

لا يستطيع أهالي خربة الراهب أن ينسوا بأيّة وحشيّة تعامل فيها مع أبو صلاح، والد سلمى. في الماضي، فرض الشيخ دياب عبد الكريم على والد سلمى عدم مغادرة أرضه، ومنعه من التجوّل في القرية، أمّا عندما ورث قاسم والده، فإنّه استولى على الأرض التي كان يزرعها أبو صلاح،

وطرده من بيته سمح لبناته باستقبال أمّهم، أمّا أبو صلاح فيجب أن يبقى وحيدًا بلا مأوى أو عمل. مات أبو صلاح مشرّدًا، قال لزوجته أن تذهب إلى ابنتها الكبيرة دعد، وبقي وحيدًا في العراء، ثم اختفى، من المرجّح أنّه مات، لكن لم يعثر أحد على جثّته كي يتمّ غسلها ودفنها

قال مختار إنّ ثورة الفلّاحين الذين أحرقوا منزلهم، وقتلوا والدهم كانت آخر فصول مأساة حياتهم مع هذا الأب المتوحّش. «بس ما كان في لزوم يسحلوا جثّة الوالد بشوارع الضيعة، هادا عيب وقلّة حيا»، وروى أنّ شقيقه الكبير دياب خبّأ الليرات الذهبيّة في كمر بنطلونه، واتّخذ قرار الهجرة إلى حمص.

«وليش ما رجعتوا بعد ما هديت الأحوال»

«فكّرنا نرجع، بس الحرب الأهليّة بلّشت، قلنا وين نروح، الأرض صارت بور، وهون عنّا محلّ الحلو يلّي ماشي والحمد لله، وبعدين دياب وأحمد تزوّجوا تنين خوات من بيت الأتاسي، وهادي عائلة حمصيّة محترمة جدًّا، وأنا هلّق على زواج من بنت من طرطوس، والحمد لله مستورة»

قال مختار إنّه يريد من نسيم أن يسلّم على الوالدة وعلى هند، وإنّه لا يعتقد أنّه يستطيع تدبير لقاء لسلمى مع أولادها، «هيدا دياب الله يستر، متل أبوه، متسلّط وما عنده جنس الحنّيّة، أكيد مش رح يوافق أنّ سلمى تجي هون، بس الحمد لله، الله هداه، من ثلاث سنين بطّل شرب العرق، وزوجته تحجّبت، حتى بنته الكبيرة سلوى يلّي عمرها ١٥ سنة تحجّبت. والسنة رايحين نحن التلاتة على الحجّ، انشالله بحجّتك يا صهري»

«بنته الكبيرة اسمها سلمى»؟ سأل نسيم.

«سلوى مو سلمى، بعدين سامحني، أنت من إخواننا المسيحيّين مو هيك».

«أيوه»، قال نسيم.

«مو مشكلة، انشالله بحجّتك، لأنّ الله يهدي من يشاء»

ضحك مختار، لكنّ ضحكته انقطعت مختنقة في حلقه، تجهّم وجهه وتململ في جلسته ثم نهض باتّجاه رجلين دخلا إلى المحلّ.

تكلّم معهما بصوت منخفض وهو يشير إلى نسيم. تقدّم منه الرجلان اللذان تظهر على جبينيهما زبيبة الصلاة.

«أنا دياب»، قال الرجل، الذي بدا من الشيب الذي يغطّي شعره أنّه كبيرهم.

وقف نسيم، ومدّ يده مرحّبًا، لكنّ يد الرجل لم تمتدّ صوبه، فسحب نسيم يده وقال، متلعثمًا، إنّه يحمل رسالة إلى دياب وأحمد ومختار من بيروت.

«بس نحن ما عنّا حدًا ببيروت»، قال أحمد.

«الرسالة من الوالدة سلمى، أنا زوج بنتها هند، وهي بتريد قبل ما تموت تطلب السماح من أولادها، وتشوفهم»

عندما سمع دياب أوّل الكلام، رفع يده ومدّها صوب الباب، وقال «برّا، نحن ما عنّا أمّ»

نهض نسيم، وبدأ يتراجع إلى الوراء، كأنّه شعر أنّه لا يستطيع أن يدير ظهره ويمضي، رأى مختار يقترب منه حاملاً في يده علبتي الحلوى.

«اتركها هون»، صرخ دياب، «نحن ما بدنا نبيع»

«الزلمة دفع، وهيدا حقّه»، قال مختار، وهو يعطي نسيم الحلوى.

أراد نسيم أن يقول إنّه لم يدفع، وهو لا يريد شيئًا، لكنّه رأى في عينَيْ مختار ما يشبه التوسّل، كأنّه كان يرجوه أن يأخذ الحلوى إلى أمّه،

ويقول لها هذه من ابنك الصغير مختار.

هند قالت له إنّ أمّها مصابة بالسكّري، وما في لزوم نعطيها الحلو، «بتعرفها، بعدها لهلّق لمّا تشوف الأولاد عم ياكلوا شوكولا، مدري شو بصير فيها، قال ما فيها تقاوم الحلو، لأنّ يلّي معه سكّري بتصير نفسه دنيّة»

قال كريم إنّ الحكاية كئيبة، وإنّه لا يعرف ما الذي أتى به إلى هذا المكان، «ما في شي أكبر من هالألم، شو هالعيشة، بس يمكن الحقّ عليها، هلّق عم تدفع ثمن الغلطة يلّي ارتكبتها»

«أنت عم تسمّي الحبّ غلطة! إذا كان الحبّ غلط شو هو الصحّ»؟ أجاب نسيم.

«كلّ شي غلط»، فكّر كريم، وهو يجلس في المقعد الخلفي في سيّارة «الڤولڤو»، التي يقودها أحمد الدَكيز، وإلى جانبه تجلس زوجته منى. كريم واثق من أنّ منى رتّبت الأمور، كان قد أخبرها عندما اتّصلت به هاتفيًّا أنّه متردّد في أمر الذهاب إلى طرابلس قال إنّه يجب أن يذهب صباح يوم الجمعة من أجل زيارة أحد أصدقائه القدامى، لكنّه لا يدري، فهو متعب من قلّة العمل «فعندما لا يشتغل الإنسان يمتلئ رأسه بالشياطين»

كان قد قرّر أن لا يذهب، لأنّه شعر أنّ رضوان يضمر شيئًا، فلهجته الآمرة، والإشارة إلى اسمه السرّي سينالكول في كلام يمزج الابتزاز بالمزاح، جعلاه يقرّر أنّه في حلّ من تنفيذ وعده بزيارة قبر خالد.

لكنّ منى جعلته ينزلق. فبعد زيارتها الوداعيّة له، اتّصلت به كي تقول إن السفر إلى كندا تأجّل، بسبب إجراءات الهجرة المعقّدة. وعندما طلب منها أن يراها رفضت، قالت له إنّ علاقتهما انتهت في بيته، عندما مارسا الحبّ وهي لا تزال مبتلّة بالماء. قالت إنّها لا تستطيع أن تكرّر مشهد الوداع، لكنّها تحبّ أن تتكلّم معه هاتفيًّا إذا كان لا يمانع «ليش بدّي

مانع، بس والله ما عدت أفهم على حدًا، ولا عاد حدًا يفهم عليّي»، قال. ثم روى لها عن مشروعه الطرابلسي المؤجّل.

فوجئ كريم باتّصال من المهندس أحمد الدَكيز يدعوه فيه إلى طرابلس. «منى خبّرتني أنّك اختصاصي بالفرنج والصليبيّين، وأنا عازمك حتى تشوف شي ما بيتصدّق»

كيف عرفت منى عن مقاله القديم عن الإفرنج، وعن اهتمامه بقلاعهم ومصائرهم؟ هو لا يذكر أنّه أخبرها، عدا أنّه لم يدّعِ يومًا أنّه اختصاصي في تاريخ الصليبيّين، كلّ ما في الأمر أنّه عندما كان شابًا كتب مقالاً تنقصه الدقّة التاريخيّة عن الموضوع، وأنّ هذا المقال أعجب الأخ أبو جهاد، وإلى آخره

لا يذكر أنّه أخبر منى عن الموضوع، المرأة الوحيدة التي أخبرها كانت زوجته برناديت في بداية علاقتهما، وهو على كلّ حال لم يخبرها الكثير، لأنّه لا يعرف الكثير ربّما أخبر منى في السرير من دون أن ينتبه، أو ربّما اختلطت عليه الأمور هنا في بيروت مثلما اختلطت عليه هناك في مونبلييه، لكنّه متأكّد من أنّه لم يرتكب هنا الغلطة التي ارتكبها في فرنسا حين أطلق على نفسه اسم سينالكول.

قال أحمد إنّه سيذهب مع زوجته لوداع الوالد، قبل الهجرة إلى كندا، «أنا بقترح عليك تجي معنا، منتغدّا ومنرجع بالنهار نفسه، رح تشوف شي ما بيتصدّق، مش رح نفرجيك قلعة وحجارة وآثارات، رح تلتقي بالصليبيّين بلحمهم ودمهم».

ترتّبت الرحلة، وقرّر أحمد أنّهم سيوصلون كريم إلى موعده ظهرًا، ويكونون في انتظاره في الثانية والنصف من بعد الظهر في مطعم الشاطئ الفضّي في الميناء، وأنّه هناك سيتعرّف إلى الوالد.

اتّصل كريم برضوان وأبلغه أنّه سيأتي في الغد إلى طرابلس.

«بكون ناطرك عند الحلّاب، بعد صلاة الضهر»

قرّر أحمد الدَكيز أن يأخذ طريق طرابلس القديمة متجنّبًا الأوتوستراد الذي يمتلئ بالشاحنات والتلوّث، وستكون مناسبة كي يتفرّج الحكيم على جمال الشاطئ اللبناني. لكنّ الحكيم لم ير شيئًا، لا البحر الذي يعانق الجبل، ولا الامتداد الساحر للأزرق الذي يتموّج بالبياض.

وجد كريم الحلّ الأفضل، فالذهاب برفقة أحمد ومنى أعطاه شعورًا وهميًّا بالأمان، رغم أنّه لم يكن راغبًا في الاستماع إلى قصص أبو أحمد، الذي نعتته منى بالخرفان والمهضوم. شعر كريم أنّ قلبه صار مثل إناء امتلأ قصصًا وحكايات، وأنّه لم يعد قادرًا على الاستماع إلى المزيد. وللمرّة الأولى فكّر بمونبلييه بحنان. هناك سوف يغمض عينيه ويطرد الضجيج اللبناني من أذنيه، ويرمي بكلّ هذه القصص التي استعادته إليها في النسيان كي يبدأ حياته من جديد. يعود إلى ابنتيه اللتين كاد أن ينسى وجودهما، ويستعيد علاقته ببرناديت.

بدل أن يرى شاطئ لبنان الذي يمتدّ إلى ما وراء الأفق، تراءى له شاطئ بالافاس، برماله الصلبة، والهواء الذي يعصف به، ورأى نفسه حاملاً نادين ولارا، وهو يطير بهما، وبرناديت تركض وراءهم وتتعثّر بتنّورتها المنتفخة بالهواء.

اشتاق إلى هدوء المنزل، وإلى فنجان القهوة بالحليب في مقهى Grand Café في الكوميدي، وإلى الأفلام في سينما Diagonale وإلى شاربي المسيو روجيه، الملوّثين بالتبغ وهو يمرّ به في المستشفى، كي يطلب منه ثمن زجاجة نبيذ، مذكّرًا إيّاه بأيّام صداقتهما، حين كان طالب الطبّ اللبناني يقيم في فوايبه Le Ponant، في جادّة بالافاس البعيدة عن الجامعة، لأنّه لم يجد في عامه الأوّل مكانًا في السكن الجامعي. وكان المسيو روجيه، بوّاب الفوايبه، دليله إلى أسرار المدينة الصغيرة وحكايات نسائها.

بدلاً من أن يرسم مخطّطًا دقيقًا لزيارته لطرابلس وما يريد أن يراه، وماذا سيفعل في مدينة الألف مكتبة، تقوقع في المقعد الخلفي من السيّارة، تاركًا لخياله أن يستعيد مدينته الفرنسيّة بوصفها جنّة مفقودة.

أحسّ بالحنان يسيل ويغطّي الوجه الصغير المنمنم للزوجة الفرنسيّة، واستيقظ فيه الحبّ الذي اختبأ في مكان سرّيّ، ورأى نفسه محاطًا بابتسامة الحبّ المرتسمة على شفتي المرأة البيضاء. فهم أنّه كان على وشك أن يضيّع قصّة حبّه الكبير للمرأة التي قال لها عندما عرض عليها الزواج إنّها امرأة حياته. هل يستطيع أن يصنع حياته من جديد مع هذه المرأة التي كانت ملجأه في أيّامه الصعبة؟ جرفته مشاعر الأبوّة نحو ابنتيه الفرنسيّتين، فسحب محفظته كي يتأمّل الصورة التي تجمعهما بأمّهما

اعتقد أحمد وزوجته أنّ كريم نائم في المقعد الخلفي، لذا لم يزعجاه، وقرّرا غضّ النظر عن التوقّف أمام باتيسري حلمي في البترون كي يشربوا الليموناضة البترونيّة المفروكة.

عندما وصلوا إلى ساحة عبد الحميد كرامي، في مدخل المدينة، التي صار اسمها ساحة الله، لأنّ الإسلاميّين استبدلوا تمثال كرامي بنصب حجري مصنوع من كلمات اسم الجلالة، التفتت منى إلى الوراء، وهزّت كتف كريم كي توقظه، فسقطت الصورة على أرضيّة السيّارة.

«فرجيني الصورة»، قالت منى، التي ما إن رأت الصورة حتى قالت إنّ زوجته جميلة والابنتين بياخدوا العقل.

«ولا مرّة خبّرتنا شو اسم مرتك وبناتك»، قالت منى.

أعاد الصورة إلى محفظته، ونزل من السيّارة، ومشى متثاقلاً إلى محلّات الحلّاب، وسمع صوت أحمد يقول له، «بتاخد تاكسي على مطعم «الشاطئ الفضّي» بالمينا، ما تتأخّر»

على باب المحلّ وجد شابًّا في انتظاره، «حضرتك الدكتور كريم»؟ سأل. هزّ كريم رأسه إيجابًا، «تفضّل» قال الشابّ، «مولانا في انتظارك فوق في الطابق الثاني» مشى الشابّ، ومشى كريم خلفه، صعدا درجًا يفضي إلى قاعة طعام ثانية، أجال كريم بصره بين الحضور، لكنّ الشابّ تابع المشي، فتبعه كريم، خرجا من القاعة الكبيرة ليجدا نفسيهما أمام باب مغلق، نقر الشابّ على الباب ثلاث دقّات، ودخلا

«أهلاً أهلاً بالدكتور»، قال الشيخ الذي هبّ واقفًا وفاتحًا ذراعيه.

خرج الشابّ من الغرفة وأغلق الباب وراءه. تقدّم كريم من الرجل الذي يلبس جبّة رماديّة لا تخفي كرشه، ويعتمر عمامة بيضاء كبيرة، تعانقا، وسط دهشة الشيخ من أنّ كريم لم يتغيّر أبدًا

«الهيئة فرنسا ملايمتك يا أخ سينالكول، ما شاء الله بعدك زيّ ما أنت، لا كرش ولا شعر شايب، مش متلنا، نحن الله يساعدنا»

بدأ الكلام في المكان الغلط، لكنّ كريم لم يعلّق على سلْكَنَته، ابتلع الاسم وتصرّف كأنّه لم يسمع شيئًا

وبعد لحظات، جاء النادل بأطباق اللحم بعجين والخروف المحشوّ والسلطات، فشمّر الشيخ رضوان عن ساعديه، وخلع عمامته، فظهر رأسه الأصلع، بسمل مادًّا يده إلى الطعام، داعيًا كريم إلى مشاركته. عاد النادل، حاملاً إبريقًا مثلّجًا من اللبن العيران، صبّ الشيخ كوبين، ثم رفع كوبه وقال لكريم «كاسك»

خجل كريم من أن يقول إنّه لا يستطيع أن يأكل، لأنّه مدعوّ إلى الغداء في مطعم الشاطئ الفضّي، فمدّ يده، أكل لُقيمات قليلة، وهو يشرب اللبن، ويستمع إلى طلبات الشيخ.

كان الشيخ رضوان يريد من كريم أوراق يحيى. قال إنّه يذكر جيّدًا أنّ

خالد أرسله بالأوراق إليه، وأنّه لا يريد منه شيئًا، «أنت هلّق ابتعدت عن البلد وعن النضال، وأنا بحاجة لهذه الأوراق لسببين: أوّلاً من أجل مذكّراتي، فالحركة الثوريّة التي صنعناها هنا يجب أن تؤرّخ، وأنا في صدد القيام بهذا العمل، والسبب الثاني، هو أنّني أفكّر بنشرها كملحق لكتابي، حتى يكتشف الناس كيف اهتدينا إلى دين الله من خلال التزامنا الدفاع عن الفقراء»

فوجئ كريم بالفصحى التي يتكلّمها الشيخ رضوان، متخلّيًا عن جماليّات لهجة أهل طرابلس والشمال التي تحوّل الألف واوًا استمع إلى الشيخ وهو يروي كيف قرّر أن يلبس العمامة خلال إقامته الطويلة في مخيّم عين الحلوة، وعمله مع الإخوة المجاهدين الفلسطينيّين، وأنّه عاد الآن إلى طرابلس، لأنّه بات مقتنعًا أنّ التربية وبناء الكوادر يجب أن يسبقا الجهاد وحمل السلاح

هزّ كريم رأسه، وقال للشيخ إنّه يحترم خياراته، وإنّه أحبّ خالد واحترم خياراته أيضًا، رغم أنّه لم يكن مقتنعًا بها صحيح أنّ الماركسيّة لم تعد تستهويه، وأنّ فضائح القمع خلال الثورة الثقافيّة الصينيّة جعلته يُعيد النظر في كلّ شيء، لكنّه لا يزال علمانيًّا ومؤمنًا بالاشتراكيّة، ويعتقد أنّ النضال من أجل فلسطين هو أقصر الطرق للوصول إلى تحرّر الإنسان العربي.

تنحنح الشيخ قبل أن يقول: «إنّك لا تهدي من أحببت، فإنّ الله يهدي من يشاء»

تركّزت أسئلة الشيخ على الجاليات العربيّة والإسلاميّة في فرنسا، وخصوصًا في مرسيليا، والنهضة الكبرى التي تعيشها هذه الجاليات، متنبّئًا بأنّ دورها سوف يكون كبيرًا في المستقبل.

دار الحديث في هذا الإطار، لم يعد الشيخ رضوان إلى السؤال عن

أوراق يحيى، كما أنّ كريم تجاهل المسألة، وتحدّث عن الغربة، وقال إنّه يتفهّم عطش أبناء الجيلين الثاني والثالث من المهاجرين إلى الهويّة، وحكى عن تجاربه مع بعض مرضاه من أبناء هذه الجاليات المغربيّة، المُصابين بمرض الهويّة، الذي جاء كي يستبدل مرض الحنين الذي كان متفشّيًا في أبناء الجيل الأوّل.

قال كريم إنّه يعتقد أنّ موت الحنين إلى الأوطان، والشعور بأنّ العودة باتت مستحيلة، هما سبب هذا الهيجان الهويّاتي الذي تغذّيه العنصريّة الأوروبيّة التي بدأت تكبر ضدّ المسلمين، «كأنّ المسلمين والعرب صاروا اليوم يهود أوروبا، شي غريب كيف بني آدم مركّب، كأنّ المجتمعات الرأسماليّة بحاجة للّاساميّة حتى تنفس احتقاناتها الداخليّة، العرب والمسلمين عم بيصيروا يهود أوروبا، والفلسطينيّين صاروا يهود اليهود، شي بيحيّر»

قال الشيخ رضوان إنّه لم يفاجأ بهذه التطوّرات، «فالأوروبيّون لا يزالون صليبيّين في أعماقهم، وكراهيّتهم للمسلمين سوف تكبر مع تنامي ضعفهم، وانهيارهم، بإذن الله»

«شو هالحكي يا مولانا، أوّلاً العرب سمّوهم إفرنج مش صليبيّين، وبعدين عن أيّ صليبيّين عم تحكي، الصليبيّين خلصوا من زمان، الاستعمار الحديث لا يمتّ بصلة إلى الزمن الصليبي، شو نسيت شو قال لينين: الاستعمار أعلى مراحل الرأسماليّة»

«لينين أيضًا كان صليبيًّا»

«شو، الهيئة ما بقى فينا نحكي مع بعض يا رضوان».

«حكي فينا نحكي بقدر ما تريد، لكن الهيلمة علينا بهذه الثقافة المستوردة لم يعد ممكنًا، انتهى زمن الثقافة السينالكونيّة، يا أخ سينالكون».

ابتلع كريم الإهانة، وساد الصمت.

«ليش مش عم تاكل، هلّق واصلة الكنافة بقشطة وأشياء أخرى»، قال الشيخ.

نظر كريم إلى ساعته، فرأى أنّ عقاربها تشير إلى الثانية إلّا ربعًا، قال لرضوان إنّه مستعجل، لأنّ عنده موعدًا مع بعض الأصدقاء في الميناء، وإنّه يشكره على هذا اللقاء.

جاءت صحون الحلوى، أكل كريم الكنافة بقشطة، التي كانت صحنه المفضّل عندما كان يأتي إلى هنا برفقة داني، شرب من كوب الماء الموضوع أمامه وقال إنّه سيغادر الآن.

«متى سترسل لي الأوراق»؟ سأل رضوان.

قال كريم إنّه يعتذر، لكنّها أمانة، «أنت يلّي جبت الأوراق على بيتي ببيروت، وأكيد إنّك بتتذكّر رسالة خالد أنّ هيدي الأوراق لازم أعطيها لشخص واحد هو حياة»

قال الشيخ إنّ حياة صارت في ذمّة الله عزّ وجلّ، وإنّه أفتى بحلّ كريم من وعده لخالد، فهذا الوعد لم يعد قائمًا، وإنّ على كريم أن يعطيه الأوراق، لأنّه كان أقرب الناس إلى الشهيد.

احتار كريم ماذا يجاوب، شعر أنّه لا يستطيع إعطاء الأوراق لأحد، وخصوصًا لرضوان، فهو متأكّد من أن رضوان سيقوم بحذف بعض المقاطع، وإضافة كلمات معيّنة، وهذا ما سبق لخالد ورضوان أن فعلاه بالنصّ الذي تحوّل إلى كتابهم الأزرق.

«بعدكم عم تستخدموا الكتاب الأزرق»؟ سأل كريم.

أجاب الشيخ بلهجة حازمة أنّ هذا الكتاب لم يعد له لزوم، فالأفكار العلمانيّة التي تضمّنها لم تعد صالحة، وليس من الجائز أن نلصق عليها

مقتربنا الإسلامي، «نحن الآن نتثقّف بكتب الفقهاء وخصوصًا بمؤلّفات ابن تيميّة»

نهض كريم كي يمضي، لكنّ الشيخ أمسكه من ذراعه فارضًا عليه الجلوس من جديد.

قال الشيخ، إنّه يريد الأوراق بناء على رغبة جدّة خالد، «أمّ يحيى تريد هذه الأوراق، وأعتقد أنّ هذا من حقّها، بوصفها الوريثة الشرعيّة الوحيدة للشهيدين، وهي تريدني أن أنشرها، كي لا تضيع ذكراهما»

نهض كريم واقفًا، وهو يقلب شفته السفلى كأنّه لم يقبض هذا الكلام.

«وين رايح؟ شو الهيئة ما بدك تشوف سينالكون»، قال الشيخ.

«سينالكول! على علمي أنّه مات»، قال كريم.

«صحيح، ولكن من قال إنّنا لا نستطيع أن نرى الموتى»؟ أجاب رضوان، «أسهل شي يا حبّوب إنّك تلتقي بسمّيك هونيك بجهنم، إيّاك أن تعتقد أنّك تستطيع أن لا تعطيني الأوراق، بدّي ياها يعني رح آخدها سواء رضيت أم لم ترض»

رفع الشيخ رضوان سبّابته مهدّدًا، لكنّ كريم الذي شعر بالخطر بدأ يراوغ، جلس من جديد وقال لرضوان أن لا يستخدم معه لغة التهديد، «عم بتهدّدني بالقتل، وأنت بتعرف "أنّ من قتل نفسًا واحدة. فقد قتل الناس جميعًا"»

«ما شاء الله تحفظ القرآن الكريم»، قال الشيخ.

«إذا كانت أمّ يحيى هي يلّي طلبت، أنا على استعداد أعطيها الأوراق، بس لازم أسمع هالكلام منها، مش لأنّي ما صدّقتك، والعياذ بالله، بس لأنّ هيدي أمانة، وأنا حريص عليها، فهمت شو قصدي»

انتهى اللقاء بورطة. قال الشيخ رضوان إنّ هذا حقّ، وإنّه سيرسل له سيّارة في الخامسة والنصف مساء إلى مطعم «الشاطئ الفضّي»، كي يزورا سويًا أمّ يحيى في منزلها في القبّة، وهناك سيستمع كريم إلى طلبها بأذنيه.

وصل كريم إلى المطعم في الثالثة ليجد مائدة السمك مفروشة في انتظاره، تتوسّطها سمكة لقّز مشويّة على الطريقة الطرابلسيّة، يطلقون عليها اسم السمكة الحَرَّة. نهض أحمد مستقبلاً، وهو يقول إنّ بالهم انشغل عليه، لأنّه تأخّر، وإنّه يعتذر لأنّهم بدأوا في الأكل قبل وصوله

وفي المطعم سمع كريم أغرب حكاية

كان في البداية متجهّمًا وغير قادر على التجاوب مع مناخ المرح الذي فرضه والد أحمد بحضوره الطاغي، وطريقته في شرب العرق صِرفًا من دون مزجه بالماء، ونظريّته عن نقاوة العرق التي يفسدها الماء ذكّره عبد الملك الدكيز بوالده، في حركاته وهيمنته على المائدة، ونظريّاته عن الطعام. رجل في الخامسة والسبعين، شعر أبيض كالثلج لا تتخلّله أيّ شعرة سوداء، قامة منتصبة لا انحناءة فيها، وابتسامة لا تفارق الشفتين الرفيعتين، ووجه أسمر نحيل وأنف طويل. كانت يدا أبو أحمد تحتلّان المائدة، بنقاط الكهولة السوداء التي تبقّعهما، تسكبان العرق، وتوزعان اللقيمات على الجالسين ورطة اللقاء مع أمّ يحيى في الخامسة والنصف مساء، جعلت كريم عاجزًا عن الاندماج في الجوّ لكنّ منى التقطت الكلام من الرجل الكهل لتقول له إنّ الدكتور كريم كتب دراسة عن الصليبيّين وهو مهتمّ بتتبّع مصائر أحفادهم في لبنان، «خبّرنا عمّو أبو أحمد عن أصول عيلتكم الصليبي»

«عيلتنا يا منى! هيدي عيلتك أنت كمان»، أجابها

«ليش أنت مسيحي يا أبو أحمد»؟ سأل كريم

«أنا مسلم والحمد لله»، أجاب، ثم أشار بيده إلى مئذنة الجامع التي بدت من نافذة المطعم المغطّاة بنقاط المطر، «هيدا جامع الدَكيز، جدّي

لمّا رجع من الحجّ، باع كتير من أملاك العيلة حتى يعمّر الجامع، وبعدين بتسألني إذا نحن مسيحيّين؟»

«خبّرنا يا عمّي قصّة الباسبور الفرنساوي»، قالت منى

اعتدل الرجل في جلسته، أخذ جرعة من كأسه وقال إنّه يكره العقليّة الكولونياليّة الفرنسيّة. «تخيّلوا همّ القنصل الوحيد كان يتأكّد من أنّي فرنكوفوني، قلت له إنّي بعرف فرنساوي بس je suis arabophone، ولفظت حرف الـ A بالعين متل ما نحن منحكي، بس الرجال ما عجبه هالكلام، يمكن مصدّق خرافة الـ bilinguisme، يلّي اخترعها خوري يسوعي، بس مش مهمّ. المهمّ يا دكتور كريم، نحن بالأصل من بيت De Guise، منلفظها بالعربي دَكيز تسهيلاً للأمور، وأنا عندي مراسلات مع أفراد من عيلتنا بفرنسا، وبالتحديد مع الكونت برنار دوكيز، يلّي كتب لي إنّه بيشرّفهم يتعرّفوا على أولاد أعمامهم من أبناء سلالة الفرسان يلّي احتلّوا الشرق وحرّروا القدس، بس شو بدّه الواحد يحكي ليحكي».

روى عبد الملك الدَكيز أنّه، في بداية الحرب، وبناء على إصرار منى التي لم تكن تحلم إلّا بالهجرة، ذهب إلى القنصليّة الفرنسيّة في طرابلس، حيث اجتمع بالقنصل المسيو جيرار، وهناك شرح له عن أصوله العائليّة، وطلب استعادة جنسيّته الفرنسيّة. نظر إليه القنصل الفرنسي وكأنّه غير مصدّق، فأبرز عبد الملك الدَكيز مراسلاته مع الفرع الفرنسي من العائلة، مشدّدًا على أنّ عائلته هي العائلة الوحيدة ذات الأصول الإفرنجيّة الصليبيّة الثابتة علميًّا، وربّما تشترك معهم في ذلك عائلة بردويل، لأنّ المصادر التاريخيّة العربيّة كانت تطلق على الملك بودوان اسم البردويل.

شعر القنصل الفرنسي أنّه أمام رجل معتوه، لكن وأمام إصرار عبد الملك الدَكيز على حقّه بالجنسيّة الفرنسيّة، أجابه أنّ الأمر ليس بيده، فالقرار يجب أن يأتي مباشرة من وزارة الخارجيّة الفرنسيّة، وأعطى الرجل

الصليبي طلب استرداد جنسيّة كي يقوم بتعبئته.

«شي بيهلك، أوراق لا تنتهي»، قال عبد الملك، «ووثائق وصكوك ملكيّة وشهادات ميلاد لي ولوالدي وأمّي وجدّي وجدّتي، المهمّ يا سيدنا وحتى ما نطوّل عليك، رجعنا على القنصليّة، وسلّمناها للقنصل. بس هالمرّة ما عجبتني تصرّفاته، كان عم بيعاملني كأنّي مجنون هربان من العصفوريّة، ما فرقت معي، الحقيقة واضحة متل عين الشمس، وأكيد الجنسيّة الفرنسيّة صارت بجيبتي»

قال إنّه انتظر ثلاثة أشهر طويلة قبل أن يعاود الاتّصال، فأعطوه موعدًا بعد ثلاثة أسابيع.

«سألني ليش بدّي الجنسيّة الفرنسيّة، جاوبت بسبب الحرب، قال إنّه يتفهّم دوافعي، بس هو بيتأسّف يخبّرني أن طلبي انرفض»

«ليش؟»

«وهنا يا سادة يا كرام قال الرجل ما لا يصدّقه عقل أو يقبله منطق، قال إنّ عائلتي ربّما تنتمي إلى أصول إفرنجيّة، لكنّ الإفرنج ليسوا فرنسيّين، des francs pas des français، ليك ليك شو هالحكي الزبالة، قال إنّ دولة فرنسا لم تكن موجودة خلال الحروب الصليبيّة، وهيك بيكونوا الفرنج صليبيّين بس مش فرنسيّين. فقعت بالضحك وسألته إذا كان في يدبّر لي باسبور صليبي؟»

عندما استمع عبد الملك إلى التبرير الذي قدّمه القنصل الفرنسي، ضحك في البداية، كأنّه يستمع إلى نكتة، لكنّه استشاط غضبًا، قال إذا كان الأمر كذلك فلماذا وقف الجنرال الفرنسي غورو أمام قبر صلاح الدين في الجامع الأموي في دمشق ليقول للقائد العربي: «يا صلاح الدين، ها قد عدنا؟»

«لا لا قال القنصل، هذا خطأ تاريخي شائع، الجنرال غورو لا علاقة

له بالأمر، فمؤسّس دولة لبنان الكبير لم يكن مهتمًّا بالماضي، هذا الكلام قاله الجنرال غوبيه، قائد الحملة على سورية وممثّل غورو. والحقّ معك، ما كان يجب لمثل هذا الكلام أن يُقال، لكن أنت تعرف عقليّة المحاربين وجنون العظمة الذي يركبهم»

«وليش قال الجنرال الإنكليزي أللنبي: «اليوم انتهت الحروب الصليبيّة»، في يوم الاحتلال الإنكليزي للقدس ٩ كانون الأوّل سنة ١٩١٧»

«هيئتك ضليع بالتاريخ يا مسيو دوكيز»، قال القنصل.

خرج الدَكيز من القنصليّة الفرنسيّة لاعنًا الساعة التي ورّطته فيها منى بهذا المشروع العبثي، «العمى، الفرنساويّة والإنكليز بيقدروا يدّعوا وقت يلّي بدهم أنّهم صليبيّين، أمّا الصليبيّين الأصليّين فلازم ياكلوا هوا ويموتوا بالحرب الأهليّة»

قال عبد الملك إنّه غضب إلى درجة أنّه اتّصل بابنه الوحيد أحمد وطلب منه أن يطلّق زوجته، لأنّها فتنة في الأرض

«أنا فتنة في الأرض يا عمّي»؟ سألت منى ضاحكة.

«الله يلعن الباسبورات وساعتها، هيّاكي أنت وزوجك وولادك رح تاخدوا باسبورات كنديّة، مع أنّ كندا ما كانت موجودة عالخريطة بأيّام الحروب الصليبيّة»

شعر كريم أنّه انتقل إلى عالم غير حقيقي، فهذا الرجل يعتقد فعلاً أنّه من سلالة الصليبيّين، وهو طرابلسي أبًا عن جدّ، ومسلم سني، وعائلته بنت مسجدًا في المدينة! وما لفت نظره هو إعجاب أحمد بكلام والده، فالجماعة صادقون في ادّعائهم أو يصدّقونه، وأبو أحمد يدّعي أنّه لا يزال يتكلّم لغة أجداده الصليبيّين، وأنّه يأسف لأنّ ابنه رفض أن يتعلّمها، ولا

يوجد اليوم من يعرف النطق بها سوى ابنة عمّ والده، وهي امرأة في السابعة والثمانين، تعيش وحيدة في بيتها المواجه للجامع

عندما سمع كريم حكاية اللغة الصليبيّة، انزلق هو أيضًا ودخل في العالم الخيالي الذي كانت تصنعه كلمات أبو أحمد، إذ لم يدر في خلده أنّ الصليبيّين كانوا يتكلّمون لغة خاصّة بهم تختلف عن لغات البلاد التي أتوا منها

سأل عن اللغة، ليسمع جواب منى الذي بدّد السؤال، «هيدي اسمها لينغوا فرانكا يا عمّي، مش اللغة الصليبيّة، وهيدي ما كانت لغة، كانت مزيج لهجات متعدّدة، ومن ضمنها العربي»

«كلّ اللغات مزيج»، قال أحمد.

«طيّب ليش صرتوا مسلمين؟» سأل كريم.

«أجدادنا قصّتهم قصّة»، قال عبد الملك، «الناس حواليهم كلّهم مسلمين، أنت بتعرف عن المدبحة الفظيعة يلّي عملها قلاوون المملوكي لمّا احتلّ الفيحاء؟»

«بعرف»، أجاب كريم، «بس كمان بعرف عن المدبحة الوحشيّة يلّي عملوها الصليبيّين لمّا احتلّوا المدينة»

«تاريخ كلّه مدابح»، قال أبو أحمد، «بس هيدا مش مهمّ، أجدادنا دخلوا في الإسلام، لأنّه ما كان عندهم خيار آخر، إذا جيت لعندي على البيت بفرجيك شجرة العيلة، وكيف اختلطنا بالمسلمين من زمان وتزوّجنا منهم قبل الفتح المملوكي للمدينة بكتير، استنتاجي أنّ أجدادنا أسلموا بهدف التأقلم مع المحيط، بس أنا لا، أنا مسلم عن قناعة، أنا درست بالجامعة فلسفة، واشتغلت أستاذ فلسفة بمدرسة مار الياس، وبحثت المسألة بعمق، وفكّرت إنّي أرجع مسيحي متل أجدادي، وخصوصًا إنّي

بحبّ التراتيل البيزنطيّة، إذا بتسمع ديمتري كوتيّا عم بيرتّل، بتقول صوت بيفتح أبواب السما، بس اكتشفت أنّ محمّد هو النبي الحقيقي»

روى الرجل نظريّته في الأديان، قال إنّ محمّدًا هو النبي الوحيد في الديانات السماويّة الثلاث، الذي مات على دينه، لأنّه أشرف بنفسه عليه. موسى لم يكن يهوديًا، وعيسى لم يكن مسيحيًا، لأنّ الديانتين اليهوديّة والمسيحيّة تبلورتا بعدهما بزمن طويل، وليس من المؤكّد أنّهما كانا سيتعرّفان على نفسيهما فيها وحده محمّد مات مسلمًا على الدين الذي حمل رسالته، هكذا أظهر الله الإسلام على الدين كلّه. لذا اختار أبو أحمد الدكيز الإسلام دينًا، لكنّه تبنى أيضًا نظريّة المتصوّف ابن عربي، فصار مسلمًا على مقام عيسى بن مريم.

كانت الساعة تشير إلى الخامسة، نظر أحمد إلى زوجته وقال «لازم نمشي»

«ناموا عندي الليلة»، قال أبو أحمد.

«يا ريت»، أجاب أحمد، «بس الوضع مش ولا بدّ، البلد جوّها عاطل، وكلّ الناس خايفين ترجع تعلق»

سأل كريم إذا كان يستطيع أن يجد سيّارة تاكسي في السابعة أو السابعة والنصف مساء، قدّر أنّ اللقاء بأمّ يحيى، سوف يطول، وأنّه سيستغلّ مناسبة ذهابه إليها في سيّارة رضوان كي يزور قبر خالد.

قال أحمد إنّه يشكّ في ذلك، فالجوّ ملبّد باحتمالات الحرب.

«هلّق بشوف شو بدّي أعمل»؟ قال كريم.

«ليش أنت مش نازل معنا»؟ سألت منى.

روى لهم أنّ صديقه سيرسل له سيّارة في الخامسة والنصف، كي يذهبا سويًا لزيارة والدة أحد أصدقائهما الذي توفّي.

«منطرك عند عمّو عبد الملك»، قالت منى.

انتبه كريم إلى نظرات أحمد المتردّدة، فقال إنّه لا لزوم لانتظاره، لأنّه سيدبّر حاله.

«عندي، بتنام عندي»، قال أبو أحمد، «بيتي بوجه الجامع، على كلّ حال هونيك في قهوة أشأش، بتلاقيني قاعد عم أركل وناطرك»

«فكرة»، قال أحمد معتذرًا بأنّهم مضطرّون للعودة، لأنّ الخادمة الفليبينيّة لا تستطيع أن تبقى مع الأولاد إلى ما بعد السابعة.

«ليش لا»، قال كريم وهو يفكّر أنّ المبيت في منزل أبو أحمد سوف يعطيه مزيدًا من الوقت، كي يجد طريقة للتحايل على طلب الشيخ رضوان.

كانت ليلة طرابلسيّة غريبة، اكتشف فيها كريم العلاقة بين انحلال الذاكرة وتحلّل الحاضر امرأتان، وكهل يتصابى على الماضي، ومدينة يعلوها قوس من الباطون، لم يعد أحد يذكر معناه أو سبب بنائه.

ركب كريم في السيّارة التي أرسلها له الشيخ رضوان. في الخامسة والنصف، وصل شابّ يلبس بنطلون جينز وقميصًا أسود ويغطّي عينيه بنظّارات شمسيّة سميكة، أشار إلى كريم من بعيد، نهض الطبيب وودّع مضيفيه وتواعد مع أبو أحمد على اللقاء في مقهى أشأش.

وصلت سيّارة المرسيدس السوداء إلى منطقة المعرض، نظر الشابّ إلى الخلف وقال معتذرًا، «لحظة، بس حتى أطلع جيب مولانا». فهم كريم أنّ مولانا انتقل من القبّة كي يُقيم في منطقة المعرض، وهي منطقة سكنيّة جديدة، أُقيمت في مواجهة الأرض التي خصّصت لمنشآت معرض طرابلس الدولي، والتي يتوسّطها قوس باطوني بناه المهندس المعماري البرازيلي أوسكار نيميير، كي يعطي المدينة التي تعلوها قلعة صنجيل الصليبيّة رمزًا حديثًا يتصادى مع رمزها القديم.

جلس الشيخ رضوان إلى جانب السائق، ومشت السيّارة وسط صمت رجلين لم يعودا يملكان ما يُقال. استغرقت الرحلة من المعرض إلى القبّة حوالى ٤٠ دقيقة، بسبب الازدحام. سوف يتذكّر كريم هذه الرحلة بوصفها رحلة العطش، شعر بفمه ناشفًا، وبرغبة لا تقاوم إلى شرب الماء، إلى درجة أنّه طلب من السائق أن يتوقّف لحظة كي يتسنّى له أن يشتري زجاجة ماء معدنيّة. لكن يبدو وكأنّ السائق لم يسمع، أو أنّ الحفاظ على أمن الشيخ يمنعه من تلبية طلب كريم.

من المفترض أنّ سيناريو ماذا سيجري في منزل أمّ يحيى معروف بالنسبة لجميع أبطال هذه الحكاية. سوف يتنحنح الشيخ قبل أن يقرع الباب. سوف تفتح أمّ يحيى المتّشحة بالسواد الباب لتجد أمامها كريم وهو ينحني كي يقبّل يدها وعيناه مغرورقتان بالدموع سوف تسحب المرأة يدها وهي تقول أعوذ بالله. الشيخ رضوان سوف يقول إنّ كريم صديق قديم، وإنّه حفظ أمانة أوراق المرحوم يحيى مشكورًا سوف تهز المرأة رأسها وتقول الله يرضى عليكم، أنتم متل أولادي. وفي النهاية سوف يقول كريم إنّ الأوراق سوف تصل إلى الشيخ رضوان بناء على طلب أمّ يحيى.

من المرجّح أن تعدّ أمّ يحيى لهما الشاي، وتقدّم لهما فطائرها الشهيرة باللوز والسكّر، التي كانت أحد عناوين نجاح فرن الشعب الذي أدارته.

غير أنّ عنصرًا غير متوقّع سوف يدخل في السيناريو، ويقلب المعاني ويخربط المعادلة الدقيقة التي رسمها الشيخ رضوان لهذا اللقاء الذي خطّط له أن يكون قصيرًا جدًّا، «لأنّ المرأة تعبانة وصارت كبيرة بالعمر، وهي تقضي وقتها في الصلاة ولا تستقبل الزوّار»

نزلا من السيّارة في شارع مزدحم، وكان الشيخ يلتفت يمينًا وشمالاً محيّيًا، بينما التصق به المرافق. وصلا إلى أمام البيت الذي يقع في الطابق

الأرضي من مبنى قديم يتألّف من أربع طبقات، تراجع الشابّ إلى الوراء، أشار الشيخ إلى كريم كي يتقدمّ، وقفا أمام الباب، تنحنح الشيخ قبل أن يقرع وهو يقول بصوت مرتفع «افتحي يا أمّ يحيى أنا الشيخ رضوان».

لم يفتح أحد، سمع كريم ما يشبه صوت دعسات الأقدام على الأرض، «المرا كبرت»، قال الشيخ، «وسمعها خفّ» قرع على الباب من جديد، وعندما لم يفتح أحد، دفش الشيخ الباب بكتفه، وقال «دستور»، ودخل مشيرًا إلى كريم بالدخول خلفه، لكنّه سرعان ما تراجع إلى الوراء، فارتطم بكريم.

كانت أمّ يحيى تقف أمام الباب، ظهرها ينحني على سنوات عمرها، رأسها مغطّى بمنديل أبيض، وتبدو مثل شبح يتمايل في العتمة.

«ليش ما بتضوّي الضوّ»، قال رضوان وهو يتململ في وقفته لأنّ المرأة كانت تسدّ المدخل

«ما أنا عميا يا ابني، وبعدين الكهربا مقطوعة دايمًا بهالبلد»، قالت بصوت خفيض مرتجف، «هون ما في شي يا ابني حتى تسرقوا، نحن جماعة فقرا»

«أنا الشيخ رضوان يا حاجّة، ومعي الدكتور كريم، صديق المرحوم خالد»

«مين خالد»؟ سألت.

«خالد حفيدك يا أمّ يحيى، وأنا رضوان»

«مين؟»

«أنا الشيخ، مرقت عليك بعد الضهر، وحكينا عن أوراق يحيى»

«والله يا ابني أنا فقيرة، وما عندي شي حتى أعطيكم، روحوا من هون الله يعطيكم»

نظر رضوان إلى كريم وقال إنّها تعتقدنا شحّاذين، «يا لطيف، ألطف»

«شو نسيتيني يا حاجّة؟».

قالت إنّها لا تعرف الشيخ رضوان ولا غيره من المشايخ، ظهر ظلّ ابتسامة خفيفة على شفتيها قبل أن تغلق الباب، ويسمع الرجلان صوت المفتاح يدور في القفل.

«أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، لعن الله النساء وكيدهن، جيت لعندها الساعة تلاتة بعد الضهر، وكانت أوعى مني ومنّك، وقالت لي إنّها ناطرتنا الساعة ستّة المسا بالبيت، أعوذ بالله، يا لطيف على بني آدم، بتوعا وبتغيب، وما بقى تتذكّر أولادها، فكيف بدها تتذكّرني أو تتذكّرك، خلّينا نمشي»، قال رضوان، «بس متل ما اتّفقنا يا دكتور كريم».

«على شو اتّفقنا»؟ سأل كريم.

«اتّفقنا على الأوراق، إيمتى رح تعطينا إيّاهم»

«نحن ما اتّفقنا هيك، اتّفقنا إنّي رح أعطيهم بناء على طلب أمّ يحيى، وأنت شفت»، قال كريم.

وضع الشيخ رضوان يده على كتف كريم، «ما تلعب معي يا سينالكون، أنا مش عم بمزح»

«وأنا مش عم أمزح»، أجاب كريم، لكنّه عندما رأى كيف احتقن وجه الشيخ رضوان بالغضب استدرك قائلاً «أنت بتأمر يا مولانا، بس الحقيقة ما بعرف وين الأوراق، لازم فتّش عليهم، بس ما تخاف، أنا مصدّقك والأوراق بيوصلوك»

«متى؟».

«هيك ما بعرف».

«لازم تعرف».

«خلّينا نقول يوم الجمعة الجايي، أنا بجي على طرابلس، متل اليوم، منلتقي عند الحلّاب الضهر، وبعدين منروح سوا منزور قبر خالد».

«أنت ابن أصل يا حكيم، بارك الله فيك».

برم كريم ظهره كي يمشي، فاستوقفه الشيخ رضوان وقال له إنّ مرافقه سيوصله إلى ساحة التلّ حيث يجد تاكسيّات بيروت، فأوضح له كريم أنّه سيبيت ليلته في طرابلس في منزل أحد الأصدقاء

«إذا نايم بطرابلس بتبيت عندي على الرحب والسعة»

شرح له كريم أنّه وعد عبد الملك الدَكيز أن ينام عنده، وأنّ الرجل ينتظره في المقهى في الميناء.

اقترح الشيخ أن يوصله بسيّارته إلى هناك، وفي الطريق حذره من أبو أحمد، «هذا رجل معتوه، والله لولاي لقتله الشباب. في أيّام الحرب كان يصعد صباح العيد إلى قلعة صنجيل ويغسل قبور العسكر الصليبي، ويطلب لهم الرحمة، قال هؤلاء أجداده، مئة مرّة قلت له إنّهم مشركون وهذا لا يجوز، فكان يجاوبني أنّهم ليسوا كفّارًا بل من إخواننا النصارى، وأنّه يقوم بواجبه تجاه أرواح أجداده»

حاول كريم أن يشرح له أنّ رأي أبو أحمد يمكن أن يكون صحيحًا، لأنّ اسم عائلة الدَكيز يدلّ على أنّها قد تكون من أصول صليبيّة، وأنّ الرجل يقوم بما يمليه عليه ضميره، «لكنّهم كفّار»، قال رضوان، ثم استدرك قائلاً إنّه يعتذر إذا كان هذا الكلام يزعج كريم لأنّه من إخواننا المسيحيّين. «الحقّ على خالد، لمّا احتلّينا القلعة، أنا كان من رأيي أنّه يجب إزالة هذه القبور، لكنّ خالد رفض، قال إنّنا لا نعتدي على قبور أهل

الكتاب، الله يرحمك يا خالد شو كنت نبيل، بس هلّق طبعًا ما عاد في قبور، ما بعرف مين شالها، بتعرف ما ضلّ حدًا ما احتلّ القلعة، هلّق إخواننا السوريّين قاعدين فوق»

روى الشيخ رضوان أنّ عبد الملك أُصيب بنوبة غضب جنونيّة عندما رأى ماذا حلّ بقبور القلعة، وشتم الإسلام والمسلمين في صحن جامع الدَكيز، «ولولا تدخّلي، لَقَتله الشباب ضربًا بالأحذية»

قال له الشيخ إنّه يستطيع أن يتّصل به في أيّة ساعة من الليل، إذا شعر بأيّ إزعاج من أبو أحمد، وأنّه على استعداد أن يُرسل له سيّارته متى يشاء، كي ينقذه من هذه الورطة التي وقع فيها

كان الشيخ رضوان على حقّ، فليلة الدَكيز كانت أكثر من ورطة، لكن لم يكن هناك أيّ داع للخوف فالرجل الكهل مسالم ولطيف، كلّ ما في الأمر أنّ عليك أن تستمع إلى القصص نفسها إلى ما لا نهاية، وأن تتحمّل نظريّاته حول أصل الدين وفصله، وحول معنى الحياة ولامعنى التاريخ

كان عبد الملك الدَكيز فيلسوفًا، هكذا قدّم الرجل نفسه، أنجز مؤلّفًا ضخمًا في ثلاثة أجزاء عن الحروب الصليبيّة، لكنّه لم يجد ناشرًا قيل له إن أمين معلوف سبقه إلى كتابة حكاية هذه الحروب، وإنّه بعد كتاب «الحروب الصليبيّة كما رآها العرب»، لن يجد من يهتمّ بمؤلّفه. لكنّ عبد الملك كان مقتنعًا بأنّ هناك مؤامرة خفيّة منعت نشر كتابه. وعندما طلب من ابنه أحمد أن يؤمّن له موعدًا مع رفيق الحريري كي يطلب منه منحة ماليّة من أجل المساعدة على نشر الكتاب، تهرّب ابنه مختلقًا شتّى الأعذار، «أفظع شي لمّا الواحد يحسّ أنّه ابنه بيستحي فيه»، قال أبو أحمد، وهو يشرح لكريم أنّ كتابه يختلف عن كلّ الكتب الأخرى، فهو لا يحكي عن التاريخ إلّا كي يجعله مدخلاً للحديث عن الحياة، وأنّه اكتشف من دراسة تاريخ عائلته أنّ هناك تناقضًا بين الحياة والتاريخ، الحياة اليوميّة مليئة بالمعاني

النبيلة، أمّا التاريخ فعبث وتكرار ودم وجنون.

وصل كريم إلى مقهى أشأش ليجد الرجل الكهل جالسًا في انتظاره وهو يدخّن النارجيلة. فكّر كريم أنّه أخطأ في مراوغاته مع الشيخ رضوان، كان من الأجدى أن يوافقه منذ البداية، ويتجنب زيارة أمّ يحيى، والألم الذي شعر به وهو يرى المرأة الكهلة على تلك الحال. أحسّ كريم أنّ كلّ أعضائه تؤلمه، وأنّ ألم الذاكرة لا يُطاق. لماذا يأتي لقضاء الليل هنا في منزل هذا الرجل المعتوه الذي لا يعرفه؟ وهل تتّسع روحه لمزيد من الحكايات؟

لكنّه، في المقابل، شعر بإصرار لا مبرّر له على رفض إعطاء الأوراق للشيخ رضوان، فهذه الأوراق، مثلها مثل أوراق جمال، صارت ذاكرته الشخصيّة، ولم يعد لها أيّ معنى عامّ، فلماذا يسمح لرضوان بتشويهها أوراق جمال بقيت معه، صحيح أنّ أحدًا لم يطلبها بسبب التفكّك الذي أصاب منظّمة فتح بعد اغتيال أبو جهاد، لكن لنفترض أنّها طُلبت منه اليوم كي تُنشر ويتمّ تعديلها والتلاعب بمضمونها، حيث سيتمّ وضع صورة جمال على غلافها، وقد غطّوا شعرها بالحجاب، هذا الشعر الذي لا يزال يتطاير في الهواء، مثلما رآه للمرّة الأخيرة على ملصقها، سوف يختفي، ويحلّ العبوس في مكان العينين الضاحكتين.

هل يعطيها لهم، أم ماذا؟

ولكن ماذا سيفعل بهذه الأوراق؟ هل يتركها تصفرّ وتتلاشى في جارورها؟ أليس من حقّ الإسلاميّين وقد صاروا قوّة صاعدة أن يستولوا على هذا الماضي، مثلما استولى اليساريّون في زمنهم عليه، جاعلين من شيخ معمّم ومجاهد كعزّ الدين القسّام، رمزًا للصراع الطبقي!

كريم يشعر بالخوف كأنّه سارق مع أنّه لم يسرق شيئًا وضع خالد أمانته عند من لا يستحقّها، هذا صحيح، لكنّه خطأ خالد وليس خطأ كريم،

وهو اليوم لن يعطي الأوراق لرضوان مهما كان الثمن، حتى لو قتلوه، فهو لن يعطيهم شيئًا، سيحتفظ بها ويتركها تتلاشى، وتدخل بصمت في عبثيّة التاريخ ولامعناه، التي تكلّم عنها أبو أحمد.

اتّخذ كريم قراره وهو يجلس في المقهى، يشرب الليموناضة ويدخّن النارجيلة إلى جانب هذا الرجل الكهل الذي لم يتوقّف عن رواية حكايات لم يسمع منها كريم شيئًا

قراره هو الادّعاء بأنّه لم يجد الأوراق، سوف يتلفن للشيخ رضوان صباح الخميس ويطلب تأجيل الموعد لأنّه لم يعثر عليها، وليكن ما يكون.

هذا هو القرار.

انتبه كريم إلى عبد الملك الدَكيز يهزّه من كتفه، كأنّه يوقظه من سباته، وهو يقول إنّ غلوريا في انتظارهما

«مين غلوريا»؟ سأل كريم.

«صار لي ساعة عم خبّرك عنها، شو كنت نايم، هيدي بنت عم بيّي تبع اللغة الصليبيّة، منمرق عليها ربع ساعة، وبعدين منروح لعندي على البيت، طلبت شويّة مشاوي، منشان الكاس»

«أنا متخوم ما فيّي آكل».

«قوم يا زلمي، مفتاح البطن لقمة متل ما بيقولوا، المرا ناطرتنا».

لم يخطر في بال كريم أنّ ليلته الطرابلسيّة سوف تكون بين امرأتين كهلتين، الأولى خرفانة أو ادّعت الخرف هربًا من رضوان وطلباته، والثانية مجنونة تعتقد أنّها الحارس الأخير للغة لم تنوجد قطّ.

«أنا تعبان يا عمّ، خلّينا نأجّل غلوريا لبكرا»

أفهمه عبد الملك أنّ المرأة في انتظارهما، وأنّها اتّصلت من دقائق

بتلفون المقهى لتقول إنّ الشاي ساخن، وأنّه وعدها

نهض كريم متثاقلاً، وذهب إلى زيارة ذلك البيت الذي تفوح منه رائحة البيوت المقفلة فالمرأة لا تفتح الشبابيك والستائر الخضراء السميكة قطّ، لأنّها تكره الشمس. روت لكريم أنّ جسمها كان دائمًا لا يطيق الشمس، وعلى الرّغم من أنّها لبست طوال حياتها فساتين طويلة ومقفلة على العنق، وذات أكمام تغطّي الذراعين، فإنّ الشمس كانت تحرقها، وتترك بقعها الحمراء على جلدها «وهلّق انتقلت الحساسيّة لعيوني، ما بقدر شوف ضوّ النهار أبدًا، وما بضوّي ببيتي إلّا نويصات صغيرة»

شرح لها عبد الملك أنّ ضيفه اختصاصي بالمرحلة الصليبيّة، وأنّه مهتمّ بمعرفة لغة الصليبيّين.

غلوريا الحريصة على لقب مدموزيل، سكبت الشاي، وهي تقول إنّ ذاكرتها لم تعد تسعفها، نظرت إلى أبو أحمد وقالت إنّه المسؤول عن ضياع اللغة، لأنّه وعدها مرّات عديدة بأنّه سيأتي كي يسجّل كلّ ما تعرفه من كلمات، وينشره في ملحق خاصّ في كتابه عن الصليبيّين الذي لن يصدر، «أنت يا أبو أحمد مصاب بمرض العيلة يلّي اسمه الكسل»

نظر إليها أبو أحمد وقال: «كاندو مي انتراتِه في بيت بِتاخ أبوش، فالصو»

cando mi intrate fi beit betach abusch, falso.

فجاوبته مدموزيل غلوريا ضاحكة: «إي برّا فوور كازا ميّو».

i barra fuor casa mio.

فقال: «غرامرزي، كتِر على كيريش»

gramerze cater ala cairech.

«فهمت شو عم نحكي»؟ سأله أبو أحمد.

«فهمت كم كلمة، يبدو هيدي لاتيني وإسبانيولي وطلياني»، قال كريم.

«وعربي، أهمّ شي العربي، هيدي لغة أجدادنا، أنا بحكي كم كلمة، بس غلوريا بلبل، ضيعانها هالمرا، عندها موهبة باللغات، لازم أرجع على شغلي بالكتاب، لأنّه من دوني هي ماماموشي. والله يا ابني، ما بعرف كيف بدّي إتشكّرك، خلّيتني روحن لأنّك مهتمّ بالثقافة، كان لازم إنت تكون ابني مش أحمد، أحمد لا يلوي على شيء، ما بدّه إلّا يهاجر حتى يجمّع مصاري»

في منزله أعدّ أبو أحمد كأسين من العرق البلدي، قال إنّ هذا العرق هو أفضل بكثير من العرق التجاري الذي شربوه في المطعم، «هيدا عرق بيتي مثلّث»

لم يمدّ كريم يده إلى الطعام، كان يشعر بألم طفيف في معدته، لكنّه لم يستطع أن لا يشارك في شرب العرق، لأنّه لم يكن يريد أن يزعّل أبو أحمد.

وساد الصمت، كأنّ الرجل الكهل أفرغ كلّ ما في جعبته في المجهود الذي بذله وهو يحاول أن يتكلّم تلك اللغة الغريبة، التي خمّن كريم أنّها ليست لغة حقيقيّة، لكنّها بقايا لهجات محكيّة كانت وسيلة اتّصال بدائيّة بين أفواج المحاربين الإفرنج الآتين من مناطق شتّى، وبين العرب من سكّان البلاد الأصليّين.

أراد كريم أن يملأ الصمت، فسأل أبو أحمد عن حقيقة ما رواه له رضوان حول حكاية زيارته للقبور في قلعة صنجيل، وغسلها، ووضع الزهور عليها.

«هيدا كلام مزبوط ومش مزبوط»، أجاب أبو أحمد. روى أنّ الحكاية بدأت على سبيل الفضول، وأنّه زار المقابر بحثًا عن أسماء القتلى، وكي يتأكّد من فرضيّة أنّ عائلته هي عائلة صليبيّة حقيقة، لكنّه لم يعثر على مبتغاه، فالأسماء كانت ممحوّة في شكل كامل، حتى القبور نفسها كانت شبه مندثرة. بعد ثلاثة أيّام من البحث رأى أبو أحمد ما بدا له شبيهًا بحروف اسم عائلته. قال إنّه ليس متأكّدًا من الموضوع، «لكن شُبّه لي»، فتأثّر كثيرًا، وفي صباح عيد الفطر، وبعدما زار أضرحة جدّه ووالده ووالدته صعد إلى القلعة. «أنا ما غسلت كلّ القبور، غسلت قبر جدّي فقط، وطلبت لنفسه الرحمة من ربّ العالمين، والمغفرة له ولذرّيّته»

«بس هيدول مسيحيّين يا أبو أحمد، وهيدا لا يجوز شرعًا»، قال كريم مستعيرًا منطق رضوان.

«وإذا كانوا مسيحيّين، ما أنا كمان مسيحي»

«أنت مسيحي! من شويّ قلت لي إنّك مسلم، وبعدين المسيحيّين بآمنوا أنّ المسيح هو ابن الله»

«وأنا كمان»

«شو!»

«عيسى من روح الله»، كما ورد في الكتاب العزيز

«بس المسيحيّين بيقولوا إنّه انصلب، بينما أنتم المسلمين بتقولوا "وما صلبوه وما قتلوه، لكن شُبّه لهم

«صحيح».

«شو هو الصحيح؟ ضيّعتني»

«شُبّه لهم، يعني كانوا ناويين يصلبوه، ويلّي صلبوه هو متله بالضبط،

لدرجة أنّ أمّه، ستّنا مريم، افتكرت أنّ المصلوب هو ابنها، برأيك في أمّ بتغلبط بإبنها، يعني فهمت»

«فهمت وما فهمت»، قال كريم.

«بس شو أهمّيّة أنّ الواحد يعرف إذا كانوا أجداده صليبيّين أو عرب أو تركمان، ما كلّه زيّ بعضه»، قال كريم.

«صحيح»، قال أبو أحمد، «لكن أن يكون الواحد حفيد لجحافل الصليبيّين يلّي احتلّوا هالبلاد ميتين سنة، وما تركوا وراهم إلّا كم قلعة، وشويّة أحفاد أسلم أغلبهم، فهذه عبرة. أنا يا ابني الشاهد الأخير، اللامعنى محفور على جبيني، لازم كلّ الناس يقروا جبيني حتى يفهموا قدّيش هالتاريخ مجرم وتافه»

في تلك اللحظة، رفع أبو أحمد كأسه، وبدأ يقول ما يشبه الشعر

O la Zerbitana retica!
il parlar ch'ella mi dicia!:
Per tutto lo mondo fendoto
e barra fuor casa mia.
O i Zerbitana retica
come ti voler parlare?
se per li capelli prendoto
come ti voler conciare!
cadalzi e pugne moscoto
quanti ti voler donare!
e cosi voler conciare
tutte le votre ginoie.

«شو هيدا»؟ سأل كريم.

«تازير، تازير»، أجاب أبو أحمد. «تازير يعني اسكت، هيدا شعر،

ما تسألني شو معنى هالقصيدة، لأنّي ما بعرف، أولغا بتعرف. بيّي الله يرحمه كان يرندحها لمّا يشرب، وحفظني ياها كلّها».

قال أبو أحمد إنّه في العادة ينهض باكرًا في الصباح، ويريد أن يأخذ كريم في جولة صباحيّة في قلعة صنجيل، «حتى تشمّ ريحة تاريخ بلادك»

كان نوم كريم شبيهًا بالأرق، ليلة قلقة تقاطعت فيها المنامات برؤى اليقظة السوداء. اشتدّ ألم معدته لكنّه لم ينهض من فراشه كي يعدّ فنجان قهوة بيضاء، اقترحه عليه أبو أحمد قبل ذهابه إلى غرفته، لكنّه رفضه خوفًا من أن يعلق من جديد في حبائل الكلام. حلم بماء الزهر الذي يُمزج بالماء الساخن، والذي يُطلق عليه اللبنانيّون اسم القهوة البيضاء، ويشربون رائحته التي تشقّ القلب بقي كريم مستلقيًا على سرير النعاس والأرق، يستمع إلى أصوات قدمَيْ أبو أحمد، التي قرعت في رأسه طوال الليل.

امتزجت صورة أم يحيى التي تغطّيها العتمة، بأشباح الضوء التي كانت تظلّل وجه غلوريا، وهي تستقبلهم في بيتها امرأتان تعيشان في العتمة، الأولى عمياء والثانية تخاف من الضوء، تجسّدان ذاكرة النسيان التي بناها الزمن. امرأتان احتلّتا ليله، يحلم كأنّه مستيقظ ويستيقظ كأنّه يحلم.

ألم المعدة اختلط بألم الروح، وكانت حياة هنا رآها محجّبة، تحمل ابنتها وتقف ببابه وشبح الموت يتشكّل هالات فوق رأسها، ورآها سافرة، تنشر الحبّ من حولها، وشعرها الأسود الطويل يتطاير في الهواء. رأى شعر حياة على عيني جمال، وكانت هند تشدّه من يده كي يمضي معها

يفتح عينيه، فيستمع إلى أصوات دعسات قدمَي الرجل، يغمضهما فيرى عينين صغيرتين حادّتين تحدّقان في وجه خالد. عينان تخترقان عتمة الموت في بياضهما المائل إلى الاصفرار، رأى الموت يخرج من العينين الصغيرتين كخيط شاحب من الضوء الذي يتلاشى، وسمع إطلاق النار،

وكان خالد يرتجف مع ارتعاشات الروح التي كانت تغادر جسده الممزّق.

لا يدري كريم ماذا حلم وماذا تراءى له، لكنّه استيقظ في السادسة صباحًا على رائحة القهوة التي انتشرت في غرفته. فتح عينيه، فشعر بأسياخ الضوء التي اخترقت النعاس، ورأى أبو أحمد واقفًا أمامه، حاملاً ركوة القهوة.

أغمض عينيه من جديد، لكنّ صوت أبو أحمد دعاه إلى النهوض، لأنّ الساعة صارت السادسة صباحًا، ولأنّ عليهما أن يذهبا إلى القلعة قبل أن يتسهّل إلى بيروت.

بدأ ينهض من فراشه، حين رأى أبو أحمد يجلس على طرف السرير ويسكب فنجاني قهوة، ويقول، «أحلى شي الواحد يشرب القهوة الصبح بالتخت»

قال كريم إنّه زار القلعة مرّات عدّة، ولا لزوم للصعود في هذا الصباح، لأنّ عليه العودة إلى بيروت، لكنّ أبو أحمد أصرّ، «ما بتاخد أكتر من ساعتين زمان، بفرجيك القبور، وبعدين مننزل سوا على حيّ المهاترة، وبفرجيك طرابلس المملوكيّة، تحفة معماريّة، بس الناس بيسمّوها طرابلس القديمة، وهذا خطأ، طرابلس القديمة هي الميناء، هونيك كانت مدينة بني عمّار والمدينة الصليبيّة، وبعدين منتروّق فول عند عكر وبوصّلك على التلّ».

«الله يخلّيك ما تجيب سيرة الأكل»، قال كريم وهو يتحسّس معدته التي تؤلمه.

وفى أبو أحمد بوعده، لم تأخذ الرحلة إلى قلعة صنجيل أكثر من ساعتين، صعدا في السابعة صباحًا، وتصافحا مودّعين في التلّ أمام سيّارات السرفيس التي تذهب إلى بيروت في التاسعة والربع. لكنّ الرجل تكلّم طوال الوقت، حتى وهما يتروّقان الفول، وجد أبو أحمد وسيلة

تسمح له بأن يتكلّم وهو يمضغ الطعام. كان كلام الرجل مليئًا بطنين التاريخ، حكى عن عبقريّة ريمون دو سان جيل، الذي بنى القلعة كتمهيد لفتح المدينة، وهو بذلك وحيد زمانه، لأنّ القلاع تُبنى في العادة للدفاع، أمّا هذه القلعة فبنيت للهجوم، تحدّث عن القبور الدارسة، والسجون التي بناها العثمانيّون، أشار إلى الكنيسة التي تحوّلت في الزمن المملوكي إلى مسجد. يعرف القلعة شبرًا شبرًا كأنّه وُلد هنا، ويعرف كيف بنى الصليبيّون الحيّ السكني الوحيد المحيط بها قال إنّ طرابلس كانت في الميناء، وإنّ جنود القلعة بنوا حيّ المهاترة من أجل خدمهم. «إيّاك تصدّق يلّي بيقولوا إنّهم من أصل صليبي وبيتهم هون، هيدول بيكونوا خدم من العرب أو التركمان، وإذا كان عندهم دماء صليبيّة، فهيدا بسبب المفاخذة. آل الدَكيز هي العائلة الصليبيّة الوحيدة في طرابلس، لأنّنا بعد المذبحة هربنا على الحقول المحيطة، وسكنّا بالبحصاص قبل ما نرجع على المينا، ورفضنا نسكن بالمدينة المملوكيّة يلّي كانت مجرّد توسيع لحيّ الخدم»

قال إنّ الترميم الذي أجرى الألمان جزءًا منه، في خان الخيّاطين وسوق الحراج، ثم قام المهندس اللبناني جاد تابت باستكماله في سوق البازركان، أعاد المدينة المملوكيّة جوهرة، لكنّ الطرابلسيّين لا يحبّون مدينتهم. قال إنّه لا يجد ما هو أجمل من جامع السيّد عبد الواحد، الذي أنشأه عبد الواحد المكناسي سنة ١٣٠٥ وكان خانًا إفرنجيًا قبل أن يتحوّل إلى مسجد على يد بانيه أو المدرسة العجميّة، التي تأسّست عام ١٣٦٥ «مدينة رائعة» قال أبو أحمد، «كلّ أحيائها، وليس حيّ المهاترة وحده، تشهد على جماليّات العمارة المملوكيّة وسحرها، وخصوصًا الجامع العمري الكبير»

جلسا في المقهى في سوق حراج حيث تناولا طعام الفطور، ثم تابعا سيرهما في المدينة القديمة التي بدأ الترميم يتقشّر عن حيطانها البيضاء، إلى أن وصلا إلى جامع طينال ومقبرة الرمل دخلا إلى المقبرة، مضى أبو

أحمد إلى أحد القبور، جلب ماء وغسله، بينما بحث كريم عن قبر خالد من دون أن يعثر عليه

«ممنونك يا أبو أحمد، على هالمشوار الحلو»، قال كريم مودّعًا

«ولا بَزْمة»، قال أبو أحمد.

احتار كريم في تفسير هذه الإهانة، لكن أبو أحمد سرعان ما بدّد حيرته، «هيدي la cerise sur le gateau، متل ما بقولوا الفرنساويّة، كنت تارك هالعبارة من اللغة الصليبيّة للآخر، هيدي أصلها pas un mot، هيك ما رح فيك بحياتك تنسى لغتنا»

وبينما كان كريم يهمّ بركوب سيّارة التاكسي، أحسّ يدًا تمتدّ إلى كتفه، التفت إلى الوراء ليجد مرافق الشيخ رضوان الذي قال إنّه كان مارًّا من هنا بالصدفة، وسأله إذا كان في حاجة إلى شيء.

«ممنونك»، قال كريم، «وسلّم لي على الشيخ رضوان»

«نحن ناطرينك يوم الجمعة إن شاء الله»، قال الشابّ وهو يغادر

ركب كريم في المقعد الأمامي إلى جانب السائق، ثقلت عيناه بالنعاس، وبدأ يستسلم لسلطان النوم، عندما انتفض، كأنّ شيئًا لسعه. استولت عليه تلك الفكرة الغريبة بأنّ مرافق الشيخ يتبعه، وأنّه وقع في المصيدة.

وكان كلّما تراءت له سيّارة سوداء تسير خلف التاكسي يزحّط جسمه إلى الأمام، كأنّه يريد أن يختفي عن الأنظار

سوف ترافق هذه الفكرة الشيطانيّة كريم في الأسبوع الأخير من إقامته البيروتيّة، وسوف يجد نفسه أسير خوف غامض، دائم التلفّت إلى يمينه ويساره، ينظر خلفه بعينين مذعورتين، ثم يتابع سيره بأقصى ما يستطيع من سرعة.

الأسبوع الأخير الذي قضاه كريم في بيروت كان يشبه الدوّامة، عاد يوم السبت ٣٠ كانون الأوّل ١٩٨٩ من طرابلس مرهقًا، ليجد أنّ شقيقه يدعوه إلى قضاء ليلة رأس السنة معه في منزله. تهرّب كريم من الذهاب، وقال إنّه مدعوّ إلى سهرة في منزل أحد أصدقائه القدماء من أيّام الجامعة.

وكان كريم كاذبًا، وشعر بالندم لأنّه قضى تلك الليلة وحيدًا في منزله، حاول أن يتّصل بزوجته في مونبلييه مثلما فعل ليلة الميلاد، لكنّ الخطوط الهاتفيّة كانت مستحيلة. ركبته أشباح طرابلس التي أعادته إلى خوفه القديم. يجب أن يجد مخرجًا من ورطته مع الشيخ رضوان، كما يجب أن يتّخذ قراره النهائي بخصوص عائلته، عليه أن يقنع برناديت بجدوى مشروع المستشفى، ويجد طريقة للتغيّب عن عمله في فرنسا ستّة أشهر في السنة.

صباح الإثنين في الأوّل من كانون الثاني ١٩٩٠، وبينما كانت أصوات القذائف المتقطّعة تصفر في سماء المدينة، جاء شقيقه وزوجته حاملين فطور رأس السنة التقليدي، كنافة بجبن، ومناقيش بزعتر هذا هو العيد الديني الوحيد الذي كان نصري يحتفل به، وكان احتفاله يقتصر على إفطار صباحي باكر لا يتضمّن سوى صدر كنافة بالجبن، كي تكون السنة بيضاء، مثل الجبن العكّاوي الذي يسيل من تحت الكنافة الشقراء.

روى نسيم أنّ الأولاد فضّلوا الاحتفال بترويقة رأس السنة مع جدّتهم سلمى، فلم يأتوا معه. قال إنّ الوضع يتدهور بسرعة، وإنّه يشعر بأنّ رياح الحرب بدأت تهبّ من جديد. استفاض في شرح الوضع في المناطق المسيحيّة، بعد فشل المجلس النيابي في انتخاب رئيس جديد للجمهوريّة، مع نهاية ولاية أمين الجميّل، وتشكيل الحكومة العسكريّة برئاسة الجنرال ميشال عون.

قال نسيم إنّ الجنرال سوف يعلن حرب التحرير ضدّ الوجود

السوري، وضدّ اتّفاق الطائف الذي رعته السعوديّة وأميركا وسوريّة، لأنّ هذا الاتّفاق انتزع صلاحيّات رئيس الجمهوريّة الماروني، ولا يوجد من يستطيع تغيير المعادلة سوى الجنرال.

تحدّث نسيم عن هذا الجنرال الذي احتلّ موقعًا خاصًّا في السياسة اللبنانيّة، كأنّه وريث بشير، وقال إنّه يتوقّع منه أن يُعيد للمسيحيّين الثقة بأنفسهم.

«حرب عن جديد؟ هيدا جنون» قال كريم، «لا، دخيلك ما بدّي أعلق بلبنان»

طمأن نسيم شقيقه وقال إنّه لا يعتقد أنّ الحرب ستكون جدّيّة، «شويّة مناوشات كالعادة، وبعدين بيرجعوا على طاولة المفاوضات»

غير أنّ الفطور انقطع في منتصفه، عندما جاء ذلك التلفون الغامض، فغادر نسيم مسرعًا تاركًا زوجته مع شقيقه. ومنذ تلك اللحظة تحوّلت أيّام كريم في بيروت إلى دوّامة.

أخبرته هند عن حقيقة موت والده، تاركة في نفسه شعورًا فادحًا بالجريمة. كما أنّ العلاقة بين هند وزوجها توتّرت إلى درجة دفعتها إلى مغادرة منزلها، والإقامة في بيت والدتها سلمى. في مساء اليوم التالي حاول كريم أن يتوسّط لحلّ الخلاف، اتّصل بشقيقه الذي قال له إنّه كان على أيّة حال آتيًا لزيارته، كي يخبره أمرًا بالغ الأهمّيّة. بدل أن يتكلّم كريم عن ضرورة المصالحة بين الزوجين، استمع من شقيقه إلى وقائع الكارثة التي أصابت العائلة. سفينة الشحن القبرصيّة «أكروبوليس» التي كانت تنقل شحنة من النفط لحساب نسيم احترقت في الحوض الخامس من مرفأ بيروت نتيجة إصابتها بقذيفة مدفع من عيار ١٥٥ ميلمترًا، قبل أن تفرغ حمولتها قال نسيم إنّه سوف يجد نفسه مضطرًّا الآن إلى إعادة النظر في حساباته، فلقد ركّب على نفسه ديونًا باهظة ووضع كلّ آماله في هذه الصفقة

التي لعب فيها «سولد» على كلّ ثروته، وهو يجد نفسه الآن مجبرًا على تغيير جميع خططه.

قال إنّه مضطرّ إلى بيع أرض المستشفى، كما طلب من كريم التوقيع على وكالة عامّة، تسمح له ببيع منزل الوالد والصيدليّة وقطعة أرض في برمّانا، كان نصري يأمل أن يبني فيها منزلاً صيفيًّا

قال إنّه حجز له بطاقة العودة إلى فرنسا، لكنّه لم يجد مكانًا قبل صباح الخميس ٥ كانون الثاني، «بتأمّل يكون المطار فاتح، وتكون الطريق آمنة»

قال إنّ هذا لا يعني أنّه تخلّى عن مشروع بناء المستشفى، «بس لازم ننطر حتى تتوضّح الأمور»

وعندما فاتحه كريم بموضوع هند وضرورة أن يتصالح معها، نظر إليه شقيقه بعينين ملتهبتين، أراد أن يقول شيئًا لكنّه بدلاً من ذلك كزّ على أسنانه وسكت.

«ما بيصير هيك يا خيّي، هيدي مرتك وأمّ أولادك»

قال نسيم إنّه لا مشكلة، «رجعت اليوم الصبح على البيت، أنا جبتها وبدال ما تعتذر مني انجبرت إنّي أنا أعتذر، سلمى مسكتها من إيدها وإجت معنا على البيت، أنا بهالكارثة وهي زعلانة لأنّي بلحظة غضب سبّيتها، ولو بتشوفها هلّق كيف قالبة وجهها ومبوّزة»

وقّع كريم على الأوراق، وأخذ بطاقة السفر، وشعر فجأة بأنّ حملاً كبيرًا انزاح عن كتفيه. أحسّ نفسه خفيفًا كما لم يشعر طوال هذه الأشهر الستّة التي قضاها في بيروت. كأنّه نجا من ورطة لم يدرك معناها إلّا في هذه اللحظة. لم يسأل شقيقه عن مصير حصصه في البيت والصيدليّة والأرض، لأنّه فهم أنّ نسيم سوف يستولي عليها، وأنّه لا يستطيع شيئًا حيال ذلك.

غادره شقيقه، وأحسّ أنّ العودة إلى فرنسا هي وسيلته الوحيدة للتهرّب من رضوان. وقرّر أن لا يترك أوراق يحيى في البيت في بيروت، سوف يأخذها معه إلى بلاده الجديدة ويخبّئها ولن يعطيها لأحد.

قرّر أن يزور سلمى مودّعًا، وفكّر في الاتّصال بهند، لكنّه شعر أنّ الكلام معها انتهى، ماذا يقول وما معنى الحكي بعد كلّ ما جرى؟

لم يغادر كريم البيت في ذلك اليوم، فهو لم يعد يملك سوى القليل من الوقت كي يوضّب حقيبته، ثم إنّ رائحة الحرب التي انتشرت في المدينة أجبرته مثلما أجبرت بقيّة الناس على البقاء في منازلهم.

في التاسعة ليلاً سمع كريم قرعًا عنيفًا على باب البيت، فتح متردّدًا ليرى على ضوء الشمعة المتمايل وجه أحمد الدَكيز

«خوّفتني يا زلمة، شو جابك بهالليل»

قال أحمد إنّه يعتذر لأنّه مرّ في هذه الساعة المتأخّرة من المساء من دون أن يتّصل به، قال إنّه جلب له جميع خرائط المستشفى، لأنّه سيغادر في صباح الغد مع زوجته وولديه إلى كندا

«اتّصلوا فينا من السفارة الكنديّة بالشام، رح نمشي بكرا بكّير، ناخد التأشيرة، ومن هونيك منطير على كندا»

قال إن نسيم طلب منه أن يعطي الخرائط للحكيم.

فتح أحمد ملفًّا كان يحمله، وبدأ يشرح لكريم عن الخرائط التي أنجزها «بفتكر رح يكون أفضل مستشفى بالشرق الأوسط من حيث التقطيع الهندسي، الله يوفّقكم، وتخلص هالجولة على خير حتى تبلشوا بالشغل»

«شو خصّني أنا»؟ قال كريم، «لازم تعطيهم لنسيم»

«كيف شو خصّك، ما أنت مدير المستشفى، نسيم ما بيفهم بهالشغلة، الشي الوحيد يلّي بيفهم فيه هو شفط المصاري، والله خيّك شاطر، ما بعرف كيف قدر يعمل كلّ هالمصاري، حتى صار مليونير»

سأل أحمد عن الليلة الطرابلسيّة، فقال كريم إنّها كانت ممتازة، «هيدي أوّل مرّة بشوف فيها قدّيش طرابلس حلوة، بعدين تعلّمت لغة جديدة»

«إن شاء الله صدّقت تخريفات بيّي؟»

«صدّقت وما صدّقت، مش مهمّ، بس في شغلة نسيت إسأله ياها، نسيت إسأله إذا كلمة سينالكول جايي من اللينغوا فرانكا تبع الصليبيّين»

ضحك أحمد وقال إنّ هذا اسم مشروب غازي كان يُصنع في لبنان. اسم المشروب سينالكو وليس سينالكول، وتصنّعه شركة ألمانيّة، وحتى الآن لا تزال الشركة تملك مصنعًا في الحسكة، في منطقة الجزيرة السوريّة»

«ألمانيّة، العمى شو هالعلقة، أنا ما بحبّ يعلق فيّي إسم ألماني»، قال كريم.

«ليش أنت ما بتحبّ الألمان؟»

«وأنت شو دخّلك بسينالكو؟»

«ما أنا سينالكول»، قال كريم. لكنّه عندما رأى التكشيرة التي ارتسمت على وجه أحمد، استدرك قائلاً إنّه يمزح.

غادر أحمد منزل كريم مقتنعًا بنظريّة زوجته بأنّ الحرب جننت اللبنانيّين، وأنّ عليهم أن يغادروا بيروت كي لا يدفع الأولاد ثمن هذه الهستيريا الجماعيّة.

أعاد كريم الخرائط إلى المغلّف الأسمر، ووضعه بعناية في الجارور إلى جانب رسائل هند، أغلق الجارور وأغمض عينيه، في انتظار أن يمرّ الوقت، الذي صار لزجًا وبطيئًا، قبل أن يجد نفسه في الطريق إلى الطائرة التي ستُعيده إلى مونبلييه.

ـ ١٤ ـ

الخميس ٤ كانون الثاني ١٩٩٠، وصل كريم إلى العمر الذي كان يخافه منذ صار يعرف معنى كلمتي الخوف والعمر دخل الرجل في الأربعين، واستيقظ على صوت والده يهمس له بأنّ جسد الإنسان تابوته.

لا يذكر كريم من منامه في ليلته البيروتيّة ما قبل الأخيرة سوى صوت والده الهامس يوشوشه بكلام غامض، كأنّ أصوات المدينة تلاشت وتحوّلت إلى حشرجات غامضة لا تحمل أيّ معنى.

«جسد الإنسان تابوته»، من أين أتى نصري بهذا التشبيه المروّع؟ ولماذا كان ينطلق لسانه أمام ابنيه بالحديث عن بداية النهاية في الأربعين، بينما كان يشبّح في قهوة القزاز في الجمّيزة عن قوّته الجنسيّة أمام زملائه، قائلاً إنّه لا يخاف من العمر؟

«ما بقى من العمر أكتر ما مضى»، يقول نصري وهو يكزّ على أسنانه، التي كان يعتبرها أعجوبته الحقيقيّة. «صار عمري أربعين وما في بتمّي ولا ضرس مسوّس». كان الصيدلي يكرّر أمام مسامع ولديه الصغيرين حكاية المنحدر الذي ينزلق فيه الإنسان حين يصل إلى الأربعين. «فجأة بيصير الوقت يمرّ بسرعة ومنكتشف أنّ يلّي ورانا صار أكتر من يلّي قدّامنا، ومنبلّش نخبّص».

بقي نصري في الأربعين أعوامًا طويلة، رفض أن يغادر هذا العمر، ومع كلّ عام جديد كانت أربعينه تترسّخ. الولدان يكبران وهو مصرّ على أنّه لم يتجاوز الأربعين، فهو يعرف أنّ يومًا إضافيًا واحدًا سوف يعني أنّ الإنسان رضي بالانزلاق إلى الهاوية.

شاب نصري وشابت أربعينه، لكنّه فجأة انحدر إلى الستّين، قفز عشرين عامًا دفعة واحدة، ولم يعرف أحد السبب، وحدها سلمى كانت تعرف لكنّها لم تقل.

«المسكين، بعده شابّ، مات بالستّين»، قالت سلمى.

نظر إليها نسيم مستغربًا، وقال إنّ والده مات في السادسة والسبعين، «منين جبتي حكاية الستّين يا مرت عمّي»، لكنّه انفجر ضاحكًا قبل أن يقول، «هو علّق كلّ حياته على الأربعين، كان يشيب ويختير، ونحن نكبر، بس عمره بقي متل ما هو، بعدين ما عدنا نعرف كيف تطوّرت علاقته بالعمر، زهقنا منه ومن عمره»

«بس لمّا إجا لعندي آخر مرّة، وخبّرني عن عيونه، قال لي إنّه عمره خمسة وستّين»، قالت.

«وصدّقتيه»؟ سألها

«أنا الوحيدة بالعالم يلّي كنت صدّق، بس يا خسارة، وقت كان بحاجة إلي ما صدّقته، هيك الدنيا، فخّ كبير كلّ الناس بتوقع فيه»

كانت الأربعين بعيدة عن إدراك الشقيقين التوأمين، عندما يُقال لهما عن أحدهم إنّه في الأربعين، كانا يريان تابوتًا معلّقًا في الفضاء، وترتسم على عيونهما صورة والدهما بالانحناءة الخفيفة التي تشكّلت قوسًا صغيرًا على ظهره.

في بيروت سوف يكتشف كريم أنّ البعيد اقترب، وبدلاً من أن يحتفل بعيد ميلاده في منزله ومع زوجته وابنتيه، وجد نفسه عالقًا في بيروت، ينتظر

أن تمرّ الساعات الأربع والعشرون من دون مفاجآت، كي يسافر في صباح اليوم التالي إلى مونبلييه عن طريق باريس.

جاءت الأربعون بكلّ بساطة. لم يشعر أنّه دخل في عمر الخوف، وفي المفصل الذي تكون فيه حياته قد ارتسمت، وما عليه سوى أن ينظر إلى الوراء كي يكتشف أنّ الأمام الذي ينتظره صار جزءًا من الوراء الذي مضى، مثلما كان يقول نصري.

قرّر كريم أن لا ينظر إلى الوراء، لأنّه لن يجد سوى الفراغ. مرّت حياته من دون أن يقرّر، ذهب إلى فرنسا منذ عشر سنين بغريزة البقاء، وعندما قرّر أن يقرّر، ووافق على مشروع المستشفى، اكتشف أنّه لم يقرّر شيئًا، لأنّه رمى بنفسه في الوهم.

استيقظ كريم في السادسة صباحًا، نام نومًا قلقًا بسبب أصوات القذائف المتفرّقة. اتّصل به شقيقه في الثامنة كي يطمئنه ويقول إنّ وقف إطلاق النار أُعلن منذ نصف ساعة، وإنّ مطار بيروت لا يزال مفتوحًا، وإنّه لا ضرورة للقلق. اعتذر نسيم عن عدم قدرته على المجيء من أجل وداع شقيقه بشكل لائق، قال إنّه مشغول كثيرًا بسبب كارثة سفينة البنزين التي حلّت به، وإنّه كان يودّ أن يدعوه إلى العشاء، «بس إنت بتعرف، الجوّ متوتّر كتير صحيح أنّ هند رجعت على البيت، بس منها على بعضها، فبفضّل نتلافى العشا»

أخبره كريم أنّ المهندس جاءه ليلاً وترك معه خرائط المستشفى، وقال إنّه سيضعها في الجارور».

«مش مهمّ»، أجاب نسيم.

شرب ركوة قهوة سادة كاملة، سخّن ماء على الغاز لأنّ الكهرباء كانت مقطوعة، تحمّم، حلق ذقنه، تلفن لهند، قال إنّه يعتذر عن كلّ شيء، وقرّر أن يزور سلمى.

لم تعد زيارة سلمى ضروريّة بعدما عادت هند إلى البيت، لكنّه لم يكن يدري ماذا يفعل بنهاره، فخطر له أن يذهب لزيارة سلمى، فكّر أنّ كلّ شيء غلط، وأنّ هذه المرأة تستحقّ على الأقلّ زيارة تعزية، مات نصري أو قُتل ولم يلتفت إليها أحد، كان نسيم وهند مشغولين بلفلفة الحكاية، لذا لم ينتبها إلى الكآبة التي غرقت فيها المرأة البيضاء، وجعلتها تعود إلى لبس كلسات النايلون المتّشحة بالسواد، علامة على حدادها على الرجل الذي أضاع احتمالات الحبّ بسبب حماقاته.

مشى في الشارع المقفر وحيدًا، هكذا وبغمضة عين، فرغت المدينة من الناس، كان يكفي أن يحسّ الناس بارتجاجات الحرب، كي تتحوّل المدينة قفرًا، ويصير الناس القليلو العدد الذين يغامرون بالمشي في الشارع مجرّد أشباح، وتختفي الأصوات.

وصل إلى مدخل المبنى الصغير المؤلّف من طبقتين، الذي يتميّز بشرفته نصف الدائريّة، حيث كان كريم يجلس مع هند ساعات طويلة وهما يتفرّجان على النجوم التي كانت لا تزال تجد لنفسها مكانًا في سماء بيروت.

مشى وهو يرى هند أمامه، يشعر بجسمها الصغير المنمنم وهو يلتصق به، ينحني على عنقها الأسمر الطويل، ويتنفسها مع الهواء.

لا ليس حبًّا، حين يمضي الحبّ فإنّه لا يعود، لكنّه شعور بحنين إلى استنشاق المرأة من عنقها، والتغلغل في ثنايا شعرها الطويل.

لا ليس حبًّا، كريم لم يعد إلى بيروت من أجل هند. هند خلص، حتى الكلام معها صار صعبًا إن لم يكن مستحيلاً، ثم إنّ حكاياته الغراميّة مع غزالة لم تترك أيّ حيّز للماضي. حتى منى، التي قال لها مرّة إنّها شهيّة كالبرتقالة، لم تجد لنفسها مكانًا في قلبه. بلى، يعني، كانت ارتعاشاتها، وارتجاف خدّيها، وآهاتها المكتومة، تغريه بالمزيد، لكنّ خيانات غزالة،

وحكاياتها، أَسَرته، جاعلة منه عشيقًا مخدوعًا كما يليق بجميع العشّاق. هكذا كان نصري يصف العشّاق، وكان على حقّ. ولم يتعلّم كريم أنّ الخدعة تليق بالعشّاق وحدهم، إلّا عندما وصل إلى مشارف الأربعين، وابتلع خدعتين دفعة واحدة.

لم تكن منى تحبّ تشبيهاته، ولا كلامه عن الحبّ، ربّما لأنّها كانت تشعر أنّ ما يقوله كريم لم يكن موجّهًا إليها، بل كان نوعًا من هذيان الحكي، الذي يعبّئ من خلاله فراغات روحه. وعندما شبّهها بالبرتقالة، انفجرت ضاحكة، وقالت إنّها تكره رائحة البرتقال، لأنّها تلتصق على جلد اليد، ولا تغادرها

«أنا ما بحبّ هالرومنطيقيّات، بس تحكي هيك بينتزع مزاجي، أنا بحبّ الحبّ من دون كلام»، قالت.

«يعني إنت بتحبّيني»، قال.

«عم بحكي عن ممارسة الحبّ، بالفرنساوي هيك بيسمّوه، لأنّهم شعب راقي، مش متلكم، بيقولوا هيديك الكلمة يلّي بتخلّي الواحد يقرف»

«بس بالفرنساوي بتقولوا كمان baiser، وهيدي معناتها نياك.

«ستوب»، قالت.

كلّ شيء هنا يقول له ستوب، حتى ذلك اللقاء في طرابلس، الذي أراده مناسبة لتكريم ذكرى صديقه خالد الذي يستحقّ وحده اسم البطل، جاء رضوان كي يدمّره، مستعيدًا مناخات الخوف والتهديد التي دفعت كريم إلى الهرب إلى فرنسا

غدًا سوف يعود إلى فرنسا، لأنّ البقاء هنا صار مستحيلاً، ولأنّ عليه أن يواجه قدره مرّة واحدة على الأقلّ، لا أن يستمرّ في الهرب منه. قدره

أن يعيش غريبًا ويموت غريبًا مشى وهو يرندح البيتين اللذين حفظهما منذ أن تعلّم الحفظ، لأنّ والده كان يردّدهما دائمًا

«مشَيناها خُطّى كُتبتْ علينا

ومَن كُتبتْ عليهِ خُطّى مشَاها

ومَنْ كانتْ منيّتُهُ بأرضٍ

فليس يموتُ في أرضٍ سواها»

وقف تحت الشرفة نصف المستديرة، ونظر إلى المبنى الصغير الأبيض، الذي تقشّر طلاؤه، واجتاحه الخوف حين لفت نظره مشهد أحواض النباتات مرميّة في أرض الشارع. الأواني الفخّاريّة التي كانت سلمى تعتني بها مبقورة، وشتلات الأزهار ممزّقة، انحنى فوق الياسمين والورد الجوري والزنبق والفلّ والغاردينيا، اعتقد للوهلة الأولى أنّ شرفة سلمى أُصيبت بقذيفة طائشة، نظر إلى الأعلى فلم ير أيّ أثر للقصف، لكنّه وجد حافّة الشرفة عارية من النباتات، صعد الدرج مهرولاً، قرع على الباب وهو يلهث، انتظر طويلاً قبل أن تفتح له المرأة التي كانت مغطّاة بعتمة البيت ذي الستائر المغلقة.

«شو قصّة الزرّيعة»؟ سألها

أشارت له بيدها أن يدخل، جلست على طرف الكنباية، جلس في مواجهتها، سألها مرّة جديدة ماذا جرى، لكنّها لم تجب. تركته وحيدًا في الصالون، ثم عادت حاملة ركوة قهوة وفنجانين، شربا القهوة بصمت، وحين تكلّمت بدت وكأنّها فقدت صوتها، كانت كلماتها تخرج مغطّاة بالصمت، صوت خفيض، ووشوشات، وما يشبه الحشرجة.

عتمة ووشوشة، وامرأة جالسة على طرف الكنباية، تشرب قهوتها

قال لها إنّه معها حقّ، فالحرب لن تنتهي، لأنّها في داخلنا.

قالت إنّها تكره الحرب وتكره نفسها، «كلّ شي كان غلط بغلط يا ابني، شو بدّك فينا نحن هون، ارجع عند مرتك وبناتك»

قال لها إنّه تكلّم مع نسيم، وإنّ الأمور عادت إلى مجراها الطبيعي بينه وبين هند، فأجابت أن لا شيء طبيعيًّا، لكن هكذا أفضل

قالت إنّ هند لم تخطئ حين أخبرته لأنّه كان يجب أن يعرف سرّ موت والده، لكنّ نسيم مصاب بلوثة الجنون نفسها التي كان نصري مصابًا بها

«قلت لها هيدا رجّال بينحبّ لأنّه رجّال حقيقي، مش متل الحكيم يلّي موجود ومش موجود، وآدمي ومش آدمي، أوعا يا بنتي تعملي غلطتي، أنا اكتشفت إنّي بحبّ نصري بعد ما مات، أوعا تقتلي نسيم كمان، وبعدين تندمي متل ما أنا هلّق عايشة بالندم»

قالت عن الحكيم، بصوت ملفوف بالقطن، كان على كريم الجالس في مواجهتها أن ينحني قليلاً كي يلتقط معاني الكلمات بأذنيه، لكنّه لم يعلّق على كلامها، قال فقط إنّه يعتقد أن هند بريئة من دم والده، لكنّه ليس متأكّدًا من براءة شقيقه.

«أنتم الاثنين مش أبرياء»، قالت سلمى. فجأة استعادت المرأة صوتها الذي طفا فوق الوشوشة، «أنت وأخوك مجرمين، بس خيّك قلبه طيّب، وبيتصرّف متل ما الرجال بيتصرّفوا، بينما أنت شي بخوّف»

«أنا؟».

«إنت بتعرف، فليش عم تسأل، الحقيقة أنت قتلت بيّك قبل ما يموت بعشر سنين، درت ضهرك ورحت، وتركت بيّك وحده بالحرب»

«بس خيّي كان هون»

«خيّك كان عم بيحارب، وكان جدع، بس أنت شو؟ أنت لا شيء»

«أنا كمان كنت. » توقّف كريم عن إكمال جملته، ما معنى أن يقول لها من هو، ولماذا هرب من لبنان. ربّما كانت هذه المرأة على حقّ. لكن لماذا رمت النباتات عن الشرفة؟

عندما روت عن النباتات، عاد صوتها إلى الانخفاض، لا يدري هل سمعها تقول ما قالته، أم أنّه تخيّل أنّها قالت إنّ نباتاتها كانت مجرّد حياة وهميّة، مثل كلّ شيء هنا، توحي بالحياة ولا حياة، لذا من الأفضل رميها في الشارع، وتركها تتعفن مثلما تعفنت جثث الكثيرين، في هذه المدينة.

خرج من منزلها نادمًا على هذه الزيارة، كان يتوقّع كلّ شيء، لكن لم يخطر في باله أن تنهي سلمى حكاية عودته إلى بيروت بهذا المشهد الحزين، امرأة في الخامسة والستّين، تخرج ليلاً إلى شرفتها وتبدأ في رمي أحواض النباتات في الشارع الأحواض تتساقط مصدرة أصواتًا تشبه انفجار القذائف، لكن لا أحد من الجيران يجرؤ على مدّ رأسه من النافذة كي يستطلع الخبر المدينة التي لبسها الخوف تقوقعت على ذاتها، ودخلت في صَدَفة سُباتها الذي يشبه الموت، وتحوّل كلّ شيء فيها إلى صمت تتخلّله أصوات مبحوحة صارت علامات احتضار لا ينتهي.

كمن ينحدر إلى موته، هكذا بدا كريم شمّاس وهو ينحني كي يلتقط حقيبته من صندوق سيّارة المرسيدس السوداء العموميّة التي أقلّته إلى مطار بيروت، في طريق عودته إلى مونبلييه. كانت الساعة تشير إلى الخامسة والنصف صباحًا، وفجر بيروت يتلوّن بالعتمة والغبار. أمطرت أمس، جاء فصل الشتاء البيروتي محمولاً على صوت الرعد. اختلط الرعد بالقصف المتقطّع الذي كان يتجوّل في المدينة على غير هدًى، ولم يستطع الرجل الذي دخل في الأربعين أن يغفو جلس على الكنباية في الصالون، تثاءب وانتظر الفجر على إيقاع الرعد والمطر

جلس وحيدًا في عتمة روحه، وقرّر أن يُعيد تأليف حكايته. صبّ

كأسًا من الويسكي، ووضع أمامه صحنًا من اللوز المحمّص المملّح، ولفّته العتمة. الكهرباء مقطوعة، وضوء الشمعة يرتجف ويحوّل الأشياء أشباحًا، وكريم يشرب الويسكي من دون ثلج، ويشعر أنّ معدته تحترق.

«كأنّها نهاية العالم»، قال كريم بصوت مرتفع مخاطبًا العتمة.

قالت له غزالة إنّ جدّتها غزالة وصفت لها يوم الحشر، قالت إنّ نهاية العالم لن تتّخذ شكل البراكين والزلازل، بل ستكون هادئة ومليئة بالمرايا

كانت غزالة الجدّة تعيش هاجس علاقتها بالغزالات التي كانتها وستكونها، لكنّ حزنها كان كبيرًا لأنّها لم تستطع أن تتقمّص في حفيدتها الجميلة، التي رأت فيها مرآتها المشتهاة.

عاشت الجدّة في تلك القرية البعيدة على إيقاع معنى الموت، واحتمالات التكرار التي لا نهاية لها قالت إنّها لا تذكر شيئًا من حياتها السابقة، وإنّها لم تنطق لأنّها ماتت ميتة طبيعيّة. «كي تتذكّر الروح على الإنسان أن يموت في شكل عنيف» قالت لغزالة إنّها تتمنى أن تموت قتلاً، الذي يموت هكذا ينطق في طفولته ويروي حياته السابقة، ثم يندمج في الحياة، ويلبس دوره الجديد وتمّحي ذاكرته.

«الإنسان بينسى كلّ الوقت، منشان هيك بيقدر يبدأ من جديد ويصير حدا تاني، بكلّ واحد منّا يا بنتي في حدًا تاني، هيك بيكون الواحد هو ومش هو، يلّي هو بينساه، ويلّي مش هو بيصير هو، بس يا ويلنا من الآخرة، هونيك يا بنتي، هونيك بيكتشف الإنسان حقيقته»

قالت الجدّة إنّ الشيخ راتب روى لها السرّ الذي رواه له جدّه. قالت إنّ الشيخ اختارها، «قال لي إنّه اختارني، وأنا ما فهمت شو قال، حكي نَحَوي، هو هيك، لمّا يحكي عن الدين بيحكي بهيداك اللسان، قال إنّ النَحَوي هو لسان الروح، ولمّا بدنا نحكي عن الروح منحكي باللغة الفصحى، أنا ما بقدر عيد يلّي سمعته متل ما سمعته، بس بقدر قول يا بنتي

إنّه الله ينجينا من هيديك الساعة، لأن كلّ إنسان بيشوف قدّامه كلّ القمصان البشريّة يلّي لبسها، وبيتذكّر كلّ شي، بيصير الواحد عنده ألف ذاكرة وذاكرة، وكلّها موجودة، وكلّها برأس كلّ واحد من الأشخاص يلّي لبستها روحه بالطريق لهاليوم الرهيب، وبيصير الواحد ألف واحد، وما بيعود يعرف هو مين».

قالت الجدّة إنّها منذ أن سمعت الحكاية من الشيخ راتب، صارت تستخفّ بالحياة. «كان قاعد قبالي متل ما أنا هلّق قاعدة قبالك، وفجأة حسّيت أنّه عم يغرق، صار الميّ يطوف حوله وحواليه، قلت له شو باك يا زلمة، قال لي إسّى رح تشوفي بعد أكتر، قلت له إنّه ما بيسواش هيك، إنت عم تعرق بشكل مش طبيعي، قال لي هيدي هي العلامة، لمّا الواحد بيقترب من السرّ بيبلعه السر، وبيدوب فيه، هيدا يلّي كنت ناطره من زمان. وبلّش يا ستّي يذوب مدري كيف، صار كأنّه عم يصغر، وبعدين غمّض عيونه، قرّبت منه، كان أبيض وبارد، والعرق يلّي كان مغطّاه نشّف أو اختفى»

قالت الجدّة إنّها منذ ذلك اليوم وهي ترتجف هلعًا من فكرة القيامة، «التقمّص حقّ يا بنتي، هيك هي الحياة، الإنسان بيخلع قميص حتى يلبس قميص بدالها، الجسد هو قميص، والروح بتنسى، وما بتتذكّر إلّا بهيديك اللحظة، وساعتها بيصير الإنسان كلّ الناس يلّي مرقت روحه من خلالهم، تخيّلي حالك يا بنتي، إنت صغيرة وختيارة، شيخة وفلّاحة، حلوة وبشعة، سمرا وبيضا، مفتّحة وعميا، صحتك منيحة ومريضة، بتمشي ومكرسحة، آدميّة وعاهرة، عاشقة ومعشوقة، مدّللة ويتيمة، حزينة وسعيدة، أمّ وبنتها، تخيّلي حالك بهيديك اللحظة، عم تشوفي حالك وتكتشفي أنّك الكلّ وأنّ الواحد انقسم، وهلّق صار لازم يتّحد من جديد، فجأة بيصير الواحد شايف قدّامه ألف واحد، كلّ واحد منهم هو، وما بيعود يعرف مين هو ووين الحقيقة، لحظتها بتتجلّى الحقيقة الواحدة يلّي لا بتتغيّر ولا بتتبدّل،

وبيكتشف الإنسان أنّ كلّه باطل، هيك بتقوم القيامة، وهيك بتخلص قصّة الإنسان مع قصّته»

قالت إنّ جدّتها كانت تتعرّق وهي تحكي، انهمر العرق من وجهها وعينيها وعنقها ورأسها، صار شعرها الأبيض المعقود كعكة خلف عنقها يقطر ماء، كأنّها تحمّمت بنفسها من دون ماء. قالت إنّها لم تستطع تمييز عرق جدّتها عن دموعها، «قلت لها ما بيسواش هيك يا ستّي، إنت عم تعرقي بشكل مش طبيعي. أنا؟ سألتني، تلمَّست وجهها ويديها وشعرها، وبدأت ترتجف، قالت إنّها الساعة، وقالت إنّها خائفة ولا تريد أن تموت. وبلّشت تدوب مدري كيف، صارت كأنّها عم تصغر، وبعدين غمّضت عيونها، قرّبت منها، كان وجهها أبيض وبارد، والعرق يلّي كان مغطّاها نشّف أو اختفى».

قالت غزالة إنّ جدّتها ماتت بين يديها، وإنّها كلّما تتذكّر موتها ينشف ريقها، وتنتابها الحمّى.

كانا يجلسان عاريين في السرير عندما روت له حكاية جدّتها نظرت إليه بعينين حزينتين وقالت إنّها تشعر أنّها بدأت تتعرّق، وأنّ الماء يغطّيها وأنّها ستموت، فانفجر كريم ضاحكًا، وقال إنّها مثل القردة وما رح يصيرلها شي

«ما كان لازم خبّرك يلّي خبّرتك ياه، بعرف إنّك ما بتآمن بهالإشيا وإنّك رح تضحك عليّي، ما بعرف شو صار لي حتى خبّرك، هيدا سرّ الحياة، خلّيتني إفضح حالي وأسراري، الله يلعني شو حمارة»

لبست ثيابها ومضت، ثم اختفت خلف حكاية عشقها لعذاب، وإلى آخره

في ليلته البيروتيّة الأخيرة، وسط العتمة والخوف، صدّق كريم هذه المرأة نصف الأمّيّة التي كشفت له السرّ

لم ينتظر كريم القيامة كي يلتقي بالقمصان البشريّة التي لبسها، كانت هذه الأشهر التي قضاها في مدينته كافية كي تكشف له سرّ بيروت، حيث المدينة مرايا، وحيث الفرد ليس فردًا، بل مجموعة من الأفراد الذين صنعوا من بؤسهم مرايا لأرواحهم.

إنّه البؤس، قال كريم مخاطبًا العتمة، اكتشف أنّ صوته يتلاشى، كأنّ حنجرته بُحّت من دون صراخ، ورأى حكاياته كلّها مغلّفة بالصمت، واكتشف أنّه لم يكن يتكلّم حين يتكلّم. سمع صوته يسقط في الحشرجة، وأغلق القطن أذنيه، فرأى كيف ذاب الناس في الصمت، وسكت الكون

كلّ حكايته كانت بلا كلام، الكلام عنها لا يدلّ على شيء، فهي مكتوبة بالسكوت. ما سمعه في بيروت وما يسمعه في هذه الليلة الغريبة هو صوت الصمت. للصمت صوت، وقد يكون له دويّ، لكنّه دويّ الهمس، وحشرجة اللغة التي تفتّتت، وصارت أحرفًا جراحها لا تلتئم.

أحسّ أنّ حياته تحوّلت مرآة متشظّية، لفّته أصوات المدينة التي بدت على حافّة السقوط في وادي العتمة. هكذا ارتسمت الكلمات أمامه، رأى المدينة على حافّة الوادي وأحسَّ أنّ كلّ شيء ينزلق إلى الهاوية.

روى نسيم أنّ الباخرة احترقت، وأنّه فقد كلّ ثروته دفعة واحدة، وأنّ مشروع المستشفى انتهى، لأنّه مضطرّ إلى بيعه وإلى بيع البيت كي يسدّد بعض ديونه. لم يكن كريم ينتظر خبر سفينة البنزين كي يعرف أنّ المشروع تهاوى، وأنّ عليه أن يدفن حكايته في هذه المدينة في الصمت.

انحنى كريم شمّاس كي يلتقط حقيبة ثيابه من صندوق سيّارة المرسيدس العموميّة التي أقلّته إلى مطار بيروت، في طريق عودته إلى مونبلييه. فجأة التمعت السماء وبدأ الدويّ. أحنى السائق رأسه كمن يتّقي قذائف مدافع الهاون التي بدأت تتساقط على طريق المطار. استدارت السيّارة فجأة، سمع كريم أزيز الدواليب وشعر بأنّ كلّ شيء يرتجّ. أغمض

عينيه واستعدّ للموت. سمع السائق يصيح إنّه عائد إلى بيروت. فتح عينيه وطلب منه أن يكمل ويوصله إلى المطار. توقّفت السيّارة فجأة، وخرج صوت السائق من بين أزيز العجلات يقول إنّه لا يستطيع، «إذا بتحبّ تكفّي يا أستاذ دبّر سيّارة تانية، أنا عندي أولاد وبدّي إرجع على بيتي»

رأى كريم نفسه كأنّه شخص آخر نزل من السيّارة، انحنى على الصندوق، أخرج حقيبته ومشى وسط شارع عريض مليء بالغبار والبقايا، وفكّر أنّه وصل إلى نهاية العالم.

هكذا انتهت المغامرة البيروتيّة، طنين في الأذنين، وشعور بأنّه يتّكئ على ظلّه. وعندما تراءى له مبنى مطار بيروت، بواجهته المهشّمة، التفت إلى الوراء وبكى.

دخل إلى قاعة الاستقبال في المطار، كانت القاعة باردة وفارغة، شظايا زجاج النوافذ مرميّة على البلاط، كان عليه أن يدوس على الزجاج، كي يمشي في اتّجاه نقطة التسجيل على الطيّارة المغادرة إلى باريس.

سمع صوت الزجاج الذي كان ينطحن تحت حذائه وهو يتقدّم صوب المضيفة التي غطّت رأسها بقبّعة زرقاء، ونظرت إليه بعينين صامتتين ومدهوشتين، وفجأة بدأت قاعات المطار ترتجّ، كان قصف بلا صوت، أو هكذا خُيّل لكريم الذي وجد لنفسه مقعدًا في زاوية بعيدة عن النوافذ الممزّقة، كان القصف كدويّ مبحوح، لا يسمعه أحد. في تلك اللحظة شعر برغبة في أن يكتب رسالة طويلة لشقيقه التوأم، يعتذر له فيها عن كلّ شيء، ويروي فيها حكايتهما من البداية.

وجد في جيبه ورقة كتب على أحد وجهيها أرقام تلفونات رضوان وعبد الملك ورسم عليها تخطيطًا لقلعة صنجيل، لكنّه جعلها مشرفة على وادٍ سحيق، يشبه وديان الجنوب التي تشرف عليها قلعة الشقيف. قلب الورقة على وجهها الفارغ وبدأ يكتب. كتب عدّة أسطر، قرأها مرّات عدّة،

ليكتشف أنّها ليست صالحة كبداية لرسالة تليق بحكايته مع شقيقه.

القصف لا يتوقّف، كانت التماعات القذائف تخترق فضاء المدينة المغطّى بغبار يشبه الضباب، قصف بلا صوت، كأنّه يتغلغل في الحيطان والشبابيك والأجساد. كتب لشقيقه أنّه استمع في المطار إلى نوع جديد من القصف لم يستمع إليه أحد من قبل، وأنّه متعب، ويريد أن ينام.

نظر إلى السطور التي كتبها، فوجد أنّ الكلمات يتراكب بعضها فوق بعض، وأنّ اللغة التي يكتب بها لم تعد صالحة لحمل المعاني. مزّق الرسالة ورمى بها أرضًا فوق نثار الزجاج المطحون، أغمض عينيه، وجلس في عتمة روحه، وقرّر أنّ معانقة العتمة في مدينة تشبه بيروت تقود إلى الموت وفكّر أنّ هذا الموت يصلح نهاية لرواية يكتبها الياس خوري.

إشارة

كُتب قسم من هذه الرواية في بيروت ونيويورك ٢٠٠٨ ـ ٢٠١٠، وأُنجزت في حزيران ٢٠١١ في برلين، حيث قضيت عامًا دراسيًّا ٢٠١٠ ـ ٢٠١١ كزميل زائر في معهد الدراسات المتقدّمة، Wissenschaftkolleg zu Berlin.

للمؤلّف

روايات

عن علاقات الدائرة، ١٩٧٥

الجبل الصغير، ١٩٧٧

أبواب المدينة، ١٩٨١

الوجوه البيضاء، ١٩٨١

المبتدأ والخبر (قصص)، ١٩٨٦

رحلة غاندي الصغير، ١٩٨٩

مملكة الغرباء، ١٩٩٣

مجمع الأسرار، ١٩٩٤

رائحة الصابون، ٢٠٠٠

يالو، ٢٠٠٢

كأنّها نائمة، ٢٠٠٧

باب الشمس، الطبعة الأولى ١٩٩٨

دراسات

تجربة البحث عن أفق، ١٩٧٤

دراسات في نقد الشعر، ١٩٧٩

الذاكرة المفقودة، ١٩٨٢

زمن الاحتلال، ١٩٨٤

كان خلال إقامته الطويلة في فرنسا يحلم بالتفّاح اللبناني، يمزج عطر التفّاح برائحة البنّ، وينتشي بطفولته.

لم يفهم كريم معنى رائحة الطفولة إلاّ في الغُربة. هناك، في المدينة الفرنسيّة البعيدة، شعر كريم بعذاب الرائحة التي اختفت. قال لبرناديت عن رائحة التفّاح والبنّ، لكنّه عجز عن وصفها. كيف نصف الرائحة لمن لم يشمّها أو يتذوّقها؟ اكتشف كريم عجزه عن الكلام لأنّه لا يستطيع أن يترجم ذاكرته، وتوتّر الحنين الذي يفترسه في كلمات، لينتهي بعد ذلك إلى اكتشاف أنّ ممارسة الحبّ ليست إلاّ ترجمة للكلام، وأنّه حين ينتهي الكلام ينتهي الحبّ.

العاشق، كالمترجم، ينتقل من كلام اللسان إلى كلام الجسد، كأنّه يترجم الحكي ويُعيد تأليفه، هذه هي حكايته مع غزالة...

الياس خوري: روائي لبناني، من مواليد بيروت ١٩٤٨، رئيس تحرير مجلّة "الدراسات الفلسطينيّة"، وأستاذ في جامعة نيويورك. تُرجمت رواياته إلى العديد من اللغات.

دار الآداب
هاتف: ٨٦١٦٣٣/ ٠١
٧٩٥١٣٥/ ٠١
ص ب: ٤١٢٣-١١ بيروت

